











الذخائر والعبريات  
مُنْعَمٌ بِتُفَاتٍ جَامِعٍ



# الذخائر والعقريات

## مُبْعَمٌ وَثِقًا فِي جَامِعٍ

فَسَيُؤَيِّدُهُ دَقِّقُهُ أَهْمُهُ نَاقِلٌ وَأُثْرُهُ سَيِّدُ الْوَارِثَةِ  
مَعَ الصَّبْرِ وَالشَّرْحِ وَالْتَقَرُّبِ وَتَحْرِيرِ الْفَنَاءِ وَمَعَانِيهِمْ بِبَيْعِ الْبُيُوتِ

لِجَاهِمْ الْبَلْغَةُ وَالْأَوْبُ  
عَبْدُ الرَّحْمَةِ الْبَرْقُوتِي

١

مكتبة الثقافة الدينية  
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر  
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسلام على عباده الذين اصطفى

«أما بعد، فهذا مُعْجَمٌ ثَقَافِيٌّ جامعٌ لِشَتَّى ألوانِ المعاني التي يَتَدَاوَلُهَا النَّاسُ ويتعاورُونَهَا بينهم، في شتى أغراضهم وَمَنَاحِيهم، وَمُتَنَافِئهم ومحاوراتهم، وسائر أسبابهم؛

ولقد أُلْقِيَ في رُوعِي<sup>(١)</sup> أن أقومَ بوضعِ هذا المُعْجَمِ وتحقيقه، فكانَ بعدَ عونِ اللَّهِ وتَمامِ توفيقه؛

ولقد أُسمِيتُهُ «الذَّخَائِرُ وَالْعَبَقَرِيَّاتُ»

ولهذا المُعْجَمِ وتأليفه قصةٌ: ذلك أنَّ وَزَارَةَ المعارفِ المِصْرِيَّةَ كانت قد أعلنت رَغْبَتَهَا مِنْ سُدِّيَّاتٍ، في أن يَخْتَارَ مَنْ يَرْتَغِبُ<sup>(٢)</sup> مِنَ الأدباءِ، أَيُّمَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الطَّائِفَةِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ الْقُدَّامَى التي وقعَ عَلَيْهَا اخْتِيَارُ الْقَائِمِينَ بِالْأَمْرِ فِي الْوِزَارَةِ، كي يَهْدُبُوهَا وَيَجْلُوْهَا عَلَى التَّلَامِيذِ وَأَشْبَاءِ التَّلَامِيذِ مِنَ النُّشَاءِ

---

(١) ألهمت، والروع: القلب والعقل، ووقع ذلك في روعي: أى في نفسي  
وخلدي وبالي، والمرقوع: الملهم كأن الامر بلقى في روعه

(٢) يرتغب: يرغب

الشادين<sup>(١)</sup> جلوة حسنة تحلّو لي بها في أعينهم ، وتطبي<sup>(٢)</sup> أهواءهم ، ويلتقي بها عنهم ماعسى أن تدبّ به طباعهم ، وتتجاف أذواقهم ؛ وكان من بين هذه التوافيق التي اختارتها الوزارة كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء لأبي القاسم حسين بن محمد المشهور بالراغب الأصبهاني<sup>(٣)</sup> ، ولما كان هذا الكتاب من الكتب القيمة بحق في بابه حبيب إلى بادي الرأي<sup>(٤)</sup> أن أضرب بسهم في هذا العمل

(١) النشأ : تقرأ بفتح الشين جمع ناشئ. تكادم وخدم وتقرأ بسكون الشين مثل صاحب وصاحب ، والشادى : الذى تعلم شيئاً من العلم والأدب ونحوهما ، أى أخذ طرفاً منه (٢) طباء واطباء : استماله ودعاه إليه .

(٣) قال الإمام جلال الدين السيوطى فى بغية الدعاة - وقد سماه المفضل بن محمد - قال : المفضل بن محمد الأصبهاني الراغب صاحب المصنفات ، كان فى أوائل المائة الخامسة ، له مفردات القرآن وأفانين البلاغة والمحاضرات - أقول : ومن مؤلفاته : الذريعة إلى مكارم الشريعة - قال السيوطى : وقفت على الثلاثة ، وكان فى ظنى أن الراغب معتزلى حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشى على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام مانصه : ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تأسيس التقديس فى الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالى قال : وهى فائدة حسنة فإن كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلى ، أقول : وفى كشف الظنون لكاتب جلبي : إن الإمام الغزالى كان يستصحب كتاب الذريعة دائماً ويستحسنه لنفسه . أقول : وفى الحق أن كتاب الذريعة من الكتب القيمة فى معناه ، وكثيراً ما اعتمدت عليه فى هذا المعجم ، ولعل منشأ اتهامه بالاعتزال هو هذا الكتاب - الذريعة - لأن طريقتة فيه موفية على الغاية فى السداد ؛ وأزيد على ذلك : أن الراغب يبدو لى أنه شيعى يشبه ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة وذلك أنه يقرن اسم سيدنا على بن أبى طالب دائماً بقوله : عليه السلام : وهذا وإن لم يك منكراً إلا أنا لم نألفه من غير رجال الشيعة (٤) فعلت كذا بادى الرأي : فيما بدا من رأى وظهر

الضخم، فأعمدَ عمْدَ عينٍ إليه <sup>(١)</sup>، وأحقَّقَ بذلك ما تراءت وزارة المعارف إليه،  
بيدَ أني لما أُنعمتُ النظر في ذلك الكتاب واستقرَّيْتُ رأيي من الخير أن  
يبقى على ما هو عليه، اللهمَّ إلا أن يتداركه أديب ضليع ذراك، بالضبط والشرح  
والتحرير. ممَّا استبدَّ به وطني عليه وتحوَّنه <sup>(٢)</sup>، من التحريف والتصحيف  
والأخطاء التي ألوت بمجاسنه.

ولقد تلاخ لي، بل بدا لي كحاً باصراً <sup>(٣)</sup>: أن الراغب إنما وضع هذه  
المحاضرات للبتين، لا للشادين، لأن مختاراته تكاد تكون خداجاً <sup>(٤)</sup> مُتَضَبَّةً  
مبتورةً كأنها مذكرات، أو رسوم مسائل «أملها الراغب لتكون منبهةً للأديب» <sup>(٥)</sup>  
إذا هو استدكرها ما قد اقتراً <sup>(٦)</sup>، فداعت <sup>(٧)</sup> الأشياء وتجاوبت النظائر، فطاع  
له المراد <sup>(٨)</sup> فاور وحاضر وناقل وثاقف، فبذ الأقران، فاشترأت إليه الأعتاق،  
وثبت به - كما يقال - الخناصر <sup>(٩)</sup>؛ ومن هنا لا يكاد ينتفع بمحاضرات الراغب  
غير أولئك الذين اضطلعوا قبلاً بما فيها كاملاً غير منقوص في مظانها

- 
- (١) إليه : متعلق بأعمد ، أى أقصد إليه متعمداً ، وعمد عين ، قال الزحشرى في  
الاساس : فعلت ذلك عمد عينٍ : إذا فعلته بجذ ويقين قال عمر بن أبى ربيعة .  
ثم صدَّتْ بوجهيها عمْدَ عينٍ زَيْبٌ للقضاء أم الحجاب  
(٢) تحوَّنه وخون منه : تنقصه (٣) لحا باصراً : أمراً واضحاً  
(٤) ناقصاً وهذا من الوصف بالمصدر (٥) منبهة للأديب . تعالى قدره  
(٦) اقتراً : قرأ (٧) داعت وتجاوبت : دعا بعضها بعضاً فاجتمعت :  
وتجاوبت كما تتجاوبت القهارى . . (٨) طاع له المراد : أتاه طائعاً سهلاً  
(٩) يقال : فلان ثنى به الخناصر : يبتدأ به إذا ذكر أشكاله

من القرآن الكريم والحديث الشريف، وسائر كتب الأدب واللغة والتاريخ  
وموسوعات الثقافة العربية في شتى ألوانها.

هذا شيء، وشيء آخر، هو أن أبواب المحاضرات، أو حدوده، لم ترقني،  
أما تلك العناوين الصغيرة التي طواها الراغب تحت كل باب أو كل حد  
فقد راقنتي كل الروق، وإن لم ترق جلال الدين السيوطي<sup>(١)</sup>...

لهذا كُله رَغِبْتُ عن مُعالجة المحاضرات على النحو الذي اقترحته وزارة  
المعارف، وانصرفتُ نفسي عن ذلك إلى وضع مُعْجَم حاشِدٍ حافلٍ مستقل،  
يهجم فيه الطالب على طَلَبَتِهِ، في أي معنى من المعاني «مَوْضُوعَةً» على طَرَفِ  
الثَّمام<sup>(٢)</sup> وحبل الذراع، من غير أن يحتاج في التقدير عنها إلى الإيجاف  
والإيضاع.<sup>(٣)</sup>

على أنني جَعَلْتُ محاضراتِ الراغب مُعَوَّلَى الْأَوَّلَ في هذا المشوار،<sup>(٤)</sup>

(١) اختصر السيوطي محاضرات الراغب وسمى كتابه «مختصر محاضرات الأدباء»،  
واقصر فيه على ذكر الحدود، ويوجد من هذا المختصر نسخة خطية في دار الكتب  
المصرية، وقد توفي السيوطي سنة ٩١١ ولعل عذر السيوطي عن عدوله عن العناوين  
الصغيرة هو أن كتابه مختصر. (٢) الثمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيهه  
بالخوص وربما حشى به وسد به خصائص البيوت، الواحدة ثمامة ويقال: هو لك  
على طرف الثمام وحبل الذراع إذا كان هين المتناول.

(٣) الإيجاف: ضرب من سير الإبل والخيول قال تعالى: فما أوجفتم عليه من خيل  
ولاركاب، أي ما أعلمتم، والإيضاع، الإسراع في السير قال تعالى: ولا تضعوا خللكم  
والمراد: أن الطالب يعثر على طلبته بدون مشقة (٤) المشوار: المسكن تشار فيه  
الدابة أي يحرمها رائضها لتعرف قوتها، وعثر يعثر عثاراً: كبا



الكثير العثار، ومنهلى العذب الذى اليه الايراد ومنه الإصدار، وعمدتى فى  
لَمْ شمل الأشباه والنظائر، وكل ما كان من المعانى قد وشجته القربات والأواصر  
ولقد تخيرت من المحاضرات سويدات القلوب وأنامى العيون<sup>(١)</sup>، وضممت  
إليها أولات الأرحام<sup>(٢)</sup> بما أغفله الراغب وأثبتته الآخرون، مثل ابن  
قتيبة فى عيون الأخبار، وابن عبد ربّه فى العقد الفريد، وأبى هلال  
العسكرى فى ديوان المعانى، والنويرى فى نهاية الأرب، وفلان، وفلان،  
ولم أجتزئ بذلك، بل زدت خيراً ما أترسمه<sup>(٣)</sup> مما قرأت وأدارست طوال  
هذا الدهر، فترى خير مافى الكامل للمبرد، والأمالى لأبى عليّ القالى، وما  
لا يكاد يُحصى من الدواوين والأسفار، وما خلفه لنا الأوائل والأواخر  
من عبقرى الآثار.

«وبعد» فليسمح لى القارئ فى أن أزيده علماً بكنه هذا المعجم وحقيقة  
الطريقة التى اتبعتها، والجهود الجاهدة التى بذلتها، والملاحظات التى يصح  
أن تلاحظ عليه، والنقد الذى رُبما يُوجهُ إليه؛ فإنى بما أعتَمِلُ<sup>(٤)</sup>  
جد بصير...

وأول ذلك وأولاه بالإشادة والتنويه: أنى أوْدَعْتُ هذا المعجم، كما  
أسلفت؛ خيراً مافى محاضرات الأدباء للراغب، حتى ليصح أن يُطلق عليه

(١) أحسن مافيه، وسويدات القلوب: حباتها وفيه النور وإنسان العين: سوادها

(٢) المعانى التى تمت إليها بسبب وأصل، فهى من ذوات قرباها

(٣) قال الزمخشري فى أساس البلاغة: وأنا أترسم من ذلك الأمر شيئاً: أى

أفكره ولا أحققه

(٤) أعتَمِلُ: أعمل

«مختارات المحاضرات» وإن كان في هذا الإطلاق بعض الظلم «للدخائر والعبقريات» لأنها في الواقع مختار المحاضرات وغير المحاضرات ، وإياك والظن أن هذا العمل وحده هينٌ لينٌ ، فقد علمت أن المحاضرات لقد طغى عليها التحريف والتصنيف إلى حد أن كلَّ حرف ، فضلا عن كل كلمة ، من آية كريمة ، أو حديث شريف ، أو بيت من الشعر ، أو كلمة مأثورة ، لا بد أن أحققه بالرجوع إلى مصادره المختلفة حتى يستقيم ويقرَّ به القرار ، وإذ ذاك ألقى عصا التسيار ، إذ تقرَّ عيني كما قرَّ عينا بالإياب المسافر ...

يجيء بعد ذلك أني كلما رأيتُ الراغب يورد في أي باب من الأبواب أثرا من آثارهم ، أكان من المنظوم أم من المنثور ، فزعتُ إلى مَظَانِّهِ ، فأكلت ما لا بد من إكاله ، وزدت ما أستحسن زيادته ، من كل ما قد يعلق بالذاكرة ، أو أتعثَّر عليه في أثناء مطالعاتي ومراجعاتي .

أما أبواب هذا المعجم فقد عدلتُ بها وانحرَفت لا عن أبواب المحاضرات فحسب ، بل عنها وعن سائر ما كان على غرار المحاضرات من سائر الموسوعات ، وأنت إذا تصفَّحت الذخائر والعبقريات بدا لك أني ابتكرتُ طريقة مُشَلًى في تبويبها ، فقد جَهِدْتُ جَهِدِي أن تكون الأبواب متجانسة متجاوبة ، ومن ثمَّ كَسَرْتُ هذا المعجم على كُتُب وطَوَيْتُ الكُتُب على أبواب وأدرجت في كل باب سائر المعاني المتشابهة الأرحام ...

أما عناوين المعاني فقد انتفعت بعناوين الراغب كل الانتفاع ، فخذوت على حذوها بعد شيء من التصرف والتحوير والزيادة في أكثر العناوين <sup>(١)</sup>

(١) يلاحظ الناظر في الجزء الأول من ، الذخائر والعبقريات ، أن خطني

يأتى بعد كل أولئك أنى امتزجت عن الراغب وغير الراغب بعمليْن عظيمين ، فأما أولهما فهو شرح كل ما يحتمل شرحه من العبقریات ، وقد يلاحظ أنى تبسطت في الشرح - في كثير من المواضع - إلى الحد الذى قد يُسكِّره الخاصة ، ولكن يحتمل أن يلاحظ كذلك أنى وضعت هذا المعجم للخاصة وغير الخاصة ، أى لكل قارئ ، على أن هذه الشروح هى الأخرى لَوْن من ألوان الأدب والثقافة ، وقلبا تخلو من الفوائد والعوائد ... وعلى أن هناك من العبقریات - كبعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم والمواعظ ، وبعض الألفاظ المتداولة - ما حرَّفه السواد الأعظم عن مواضعه وجعلوا مغزاه الذى يغزوه قائلوه ، فكان لامندوحة عن تبيان معناه <sup>(١)</sup>؛ وفي هذا علاوة على ذلك امتثال أقول سيدنا رسول الله : يحتمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ... وأما العمل الآخر فهو تصدير كل باب بكلمة أكشف بها المراد بما عقد له هذا الباب ، وذلك كقولنا على البر والتقوى ، وعلى الصبر ، وعلى الشكر ، وهكذا وهكذا ... وهذا عمل له قيمته التى مامنها بد.

وما امتاز به هذا المعجم أنى لم أقتصر على إيراد العبقریات من الأقوال

كانت أن أضع عنوان كل طائفة من المعاني فى أوائل السطور ومضيت على هذه الطريقة إلى قريب من تلك صفحات هذا الجزء ثم استحسن أن أعدل عن هذه الخطة إلى وضع العناوين وسط السطور لتكون أدنى إلى التيسير وأعون للطالب على العثور بضالته من أقرب سبيل وهذه - كما يرى القارئ - من الهنات الهيئات التى تغفروا قد تدوركت فى سائر الكتاب

(١) يلاحظ أن الشرح يرى طورا فى عمود الكتاب وصلبه وطورا فى هامشه

ولإنما عَرَضْتُ فيما عَرَضْتُ لترجمة بعض العبقرين الذين نبغوا في معنى من المعاني، مثل القاضي أحمد بن أبي دواد، تلك الشخصية الضخمة التي خلّدت آثارها في اصطناع المعروف والإحسان إلى الناس، وإن كنت أوجزت القول في ذلك كلّ الإيجاز، وكذلك عَرَضْتُ للتعريف بالشعراء والعلماء والزهاد والحكماء الذين أوردت في هذا المعجم عبقرياتهم، وإن كان ذلك في أجزأ اختصار، وقد يلاحظ أنني أغفلت التعريف بكثير من القائلين، كما أغفلت في بعض المواضع شرح كثير من أقوالهم، وذلك إما لأنني عرفت مامن يجب أن يُعرف وشرحت ما يَجْمُلُ أن يشرح في مواضع أخرى، وإما حَدَّثَ ذلك سَهْواً رَغْلةً، وقد يَحْدُثُ - وذلك في النِّدرة - أن يكون الإغفال - ولا سيما إغفال التعريف بالرجال - لأنني لم أوفق إلى التَّعَرُّفِ عليهم...

هذا وكانت النِّيةُ أن أتوسّع في إيراد عبقریات المعاصرين، ولكنني اقتصدت في ذلك كل الاقتصاد، لأن هذا المعجم من ناحية ليس كتاب مختارات بالمعنى المعروف وإنما هو معجم معانٍ، وإن كنت قد عملت ما وجدت إلى ذلك السبيل على أن يكون كتاب مطالعة بجانب أنه كتاب مراجعة، ومن ناحية خَشِيتُ أن أتهم بما أنا براء منه في الواقع إذا أنا أوردت المختار من عبقریات بعض المعاصرين دون بعض، على أن آثار المعاصرين كثيرةُ التداول بين قُرّاء هذا الجيل، ومن هنا أوردت فيه بعض عبقریات المعاصرين ممن استأثر الله بهم، وأوردت أيضاً ما استحسنت إirاده بما نُقِلَ إلى العربية من اللغات الأجنبية، وبخاصة ما نُشِرَ قديماً في مجلة البيان التي كنت أقوم

بإخراجها من سنة ١٩١١ إلى نهاية سنة ١٩٢١ ميلادية؛ وكذلك وقع اختياري على البارع كل البراعة من الكلمات الطويلة بعض الطول لبعض العبقرين من الغابرين، وإن كان ذلك في النادر الذي لا يؤبه له، لندرته، وإن كنت كذلك حذفت مما اخترت من هذا الضرب كثيراً من الفضول.

أما تسمية هذا المعجم «الذخائر والعبقرات» فلهذه التسمية مغزى أغزوه، أما العبقرات فإنني أريد بها - كما هو واضح - كلماتهم القصيرة الماثورة المتفوقة في معناها، على أني لم آلُ جهداً في تخيير العبقرى في معناه ومبناه معاً؛ وأما الذخائر فإنني لم أقصر في هذا المعجم على اختيار نوابغ الكلم، وإنما قد تلجئُ الحالُ إلى أن أشعشه كما تُشعشع الرياح، بالماء القراح<sup>(١)</sup> فأورد بعض المباحث اللغوية والعلمية، على شريطة أن تكون بجانب مكانتها الرفيعة في بابها جميلة مستطرفة مُحذقة<sup>(٢)</sup> قصيرة مُتجردة من الأذنان والفضول، كبعض كلمات بارعة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تراها مبعثرة ههنا وههنا في كتابه الحيوان، مثل كلامه على الخصاص والخصيان، وكلامه على النعين وأفاعيلها في المعين، وكبعض كلمات كذلك لغيره... وأمثال لهذا كثيرة، على أن كلا الحرفين - الذخائر والعبقرات - مما يصح أن يوضع موضع الآخر، فيطلق على كل ما يؤثر ويُذخر لنفاسه، سواء أكان من الكلمات أم من الموضوعات، فكل عبقرى من القول هو ذخيرة من الذخائر، وكل موضوع قيم هو عبقرى من العبقرات.

(١) شعشع الشراب: مزجه، والماء القراح: الخالص الذي لا يشوبه شيء.

(٢) كلام مُحذَف: من قولهم حذف الصانع الشيء: سواه تسوية حسنة كأنه حذف كل ما يجب حذفه حتى خلا من كل عيب وتهذب.

وهذا المعجم يقع في زهاء عشرة أجزاء ، كل جزء منها يستوعب ما يُرَبَّى على العشرين والثلاثمائة صفحة من هذا القِطْع ، من هذا الورق الذي تَرَى ...

\*\*\*

«وبعد، فإنى على هذا الجَهْدِ الجاهد لأُبْرِئُ هذا الكتاب ، من العاب<sup>(١)</sup>، وهل يصح في الأفهام أن رجلاً يَجُرُّ وراءه نَيْفًا وستين سنةً ، مُوقِرَةً بكلِّ ما يُضْعِفُ الْمُنَّةَ<sup>(٢)</sup> ويوهن القُوى ، وَيُعْصِفُ بِالْحَيَوِيَّةِ عَصْفًا ، لا تتكاثر هفواته وعثراته ، وتتراقر سقطاته وزلاته ، في عمَلٍ مثل هذا يُحاوِلُهُ ، وتألّف تلشعبُ موضوعاته ومسائله ، وإذا كانت الموسوعات التى منها تَخَيَّرْتُ حِسَابًا بهذا المعجم قَدْ أَلِكْتُ ، وإذا كانت عبقرياتهم ههنا نظامًا نهى نثارُ مبددة هنالِكْ ، وإذا كان المؤلفون يستظهرون على إخراج مؤلفاتهم فى العادة بالوراقين<sup>(٣)</sup> والمصححين فلقد قت وحدى بهذا العمل دون الاستعانة بأحد من أولئك... على أن النقصان ، عالق بالإنسان ، كان من كان ، وإنما الكمال ، للهِ الذى لا يموت ذى الجلال ...

اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة ، اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، يا مَنْ لا يَنْفَعُ ذا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ<sup>(٤)</sup> ، يا مَنْ وَعَدْتَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ<sup>(٥)</sup> بِحُسْنِ الْجَزَاءِ وحاش لله أَنْ يُخْلِفَ

(١) العاب : العيب

(٢) المنّة : القوة

(٣) أعنى بالوراقين من يسمون اليوم « السكرتيرين الخصوصيين »

(٤) الجد : الحظ ومعنى لا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ : لا يَنْفَعُ ذا الغنى عندك غناه ، وإنما يَنْفَعُهُ العمل بطاعتك ، ومنك : معناه عندك

(٥) المحسنون : أى الذين يحسنون أعمالهم ويتقونها

الوعد ، سبحانهك تبارك اسمك وتعالى جدك ، أسألك يا مَنْ تُجيبُ دعوةَ  
الداعي إذا دعاك ، أَنْ تَهَبَ هذا الكتاب من توفيقك مايتصل معه برضاك ،  
وَيَعْمُ الانتفاعُ به والإفادةُ منه ما اختلف الملّوان ، وكرّر الجديدان <sup>(١)</sup> ...

عبد الرحمن البرقوقي

ديسمبر سنة ١٩٤١

ذو القعدة سنة ١٣٦٠

(١) الملوان والجديدان : الليل والنهار

### استدراك

نذرت بعض أخطاء مطبعية في المقدمة وها هي ذى :

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٧	ط	وسويدوات القلوب حباتها	وسويداوات القلوب حباتها
١٧	ط	وإنسان العين سوادها	وإنسان العين سوادها وفيه النور
٦	ل	اختصار	قول
٧	ل	ما من	من





## الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا  
التي يحتمل بكل من ينشد السعادة في  
الدارين أن يجهد جهده في التحلي بها  
[ وهذا الكتاب مكسور على خمسة عشر بابا بينها ]  
[ جميعا لخمسة نسب وقرابة ]

## الباب الأول

في البر والتقوى

### البر وألوانه

قال علماؤنا ما خلاصته : إِنَّ أَوَّلَ مَعْنَى الْبِرِّ : السَّعَةُ ، ومنه البرُّ - بفتح الباء - مقابل البحر ، ثم اشتُقَّ منه البرُّ بمعنى التوسع في فعل الخير ، وكُلُّ فِعْلٍ مَرْضِيٍّ ... وهكذا أطاؤه على التوسع في الإحسان إلى الناس ، وهو كِبَابُ الْبِرِّ ؛ وعلى صَلَاةِ الرَّحِمِ ، وهي حُنوانُ الْبِرِّ ؛ وعلى التقوى ، وهي جَمَاعُ الْبِرِّ<sup>(١)</sup> ، قال تعالى : وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ أَيْتِي ، وقال كليلد :

• وَمَا الْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنْ التَّقَى •

وَوَرَدَ الْبِرُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَفِي شِعْرِ الْعَرَبِ مُقَابِلًا لِلْإِنِّمِ - وَالْإِثْمِ : الشَّرُّ وَكُلُّ فِعْلٍ غَيْرِ مَرْضِيٍّ بِمَا يُؤْتَمُّ - قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدْوَانِ . وَاقْتَرَانَهُ بِالتَّقْوَى يُدُلُّ عَلَى أَنَّ الْبِرَّ بِسَبِيلِ مَنْ التَّقْوَى ، وَرُوي أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ ، فَقَالَ : الْبِرُّ مَا سَكَنْتَ إِلَيْهِ نَفْسُكَ وَاطْمَأَنَّ بِه قَلْبُكَ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَتَرَدَّدَ فِي صَدْرِكَ ، وَإِنَّ أَفْئَاكَ النَّاسَ ، أَوْ كَمَا قَالَ . « حَاكَ فِي نَفْسِكَ : أَيْ أَثَرَ فِيهَا وَرَسَخَ وَحَزَّ

(١) ولأن البر يطابق على كل أولئك ، قال الإمام البيضاوي : البر ثلاثة : برٌّ في عبادة الله ، وبرٌّ في مراعاة الأقارب ، وبرٌّ في معاملة الأجانب

وَقَدَحَ ، وقوله : وإن أفناك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً ،  
وقال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَالْإِثْمُ مِنْ شَرِّ مَا يَصَالُ بِهِ وَالسَّيْرُ كَالْغَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرٌ

« ما يصال به : ما يُفتخر به ، وأمرٌ : كثيرٌ مُبارك ، ومن أسماء الله البرّ -  
يفتح الباء - ومعناه الواسع الخير ، وقوله تعالى : لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا  
تَحِبُّونَ ، فعناه : لن تنالوا برَّ الله ، أى لن تنالوا خَيْرِي الدنيا والآخرة حتى  
تنفقوا مما تحبون ، أمّا خير الدنيا فهو ما ييسره الله للعبد من الهدى والنعمة ،  
وأمّا خير الآخرة فهو الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة ، أو تقول : لن تنالوا  
حقيقة البر - أى الخير - حتى تنفقوا مما تحبون ... والابرار : الاخيار ، جمع برّ ،  
وقد قوبلت كلمة الابرار بالفجار فى قوله تعالى : إِنَّ الْآبِرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَلَنْ  
الْفُجَّارَ لَفِي جَهَنَّمَ - والفجار : الذين يبعثون فى الشرور والآثام - وحج  
مَبْرُور : مقبول يجازى بالبر ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وبرّ فى يمينه  
أى صدق ، أى كان خيراً فيه بهذا الصدق .

« وبعد » فكل ما أوردوه من معانى البر فإلى الخير مرّده ...



ولهم فى البرِّ مُطلقاً ، أى الخير غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقریات وذخائر ،  
فمن ذلك قول الحطيئة :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

« جوازيه : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعافية ، أى لا يعدم جزاء عليه ،

قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة  
هذا ، فقل له : فقول طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

سَتُبْدَى لَكَ الْآيَاتُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

فقال : «ن يأتيك بها مِن زَوَدَتِ أَكْثَرُ ، وليس بيت عما قالته الشعراء  
إلا وفيه مطعن ، إلا قولَ الخطيئة هذا . وَيُرَوَّى أَنَّ كَعْبًا الْحِمْيَرِيَّ - المشهور  
بكعب الأحبار - لما سمع هذا البيت قال : والذي نفسى بيده : إنَّ هذا البيتَ  
لمكتوبٌ في التوراة ، ... وقال عبيدُ بنُ الأبرص :  
والخيرُ يَبْقَى وإن طالَ الزمانُ به      والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِن زادٍ  
» يقال : أوعيت الزاد والمتاع : إذا جعلته في الوعاء ،  
وقال أبو العتاهية :

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنَّ التَّقَى      والبرَّ كانا خيرَ ما يُذْخَرُ  
وقَبْلَهُ قال الأخطل - ورواه المبردُ في الكامل للخليل بن أحمد واضح  
علم العروض - :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجدْ      ذُخْرًا يَكُونُ كصالحِ الأعمال  
رَوَى صاحب الأغاني : أن هشامَ بنَ عبدِ الملك لما سمع الأخطل وهو  
يقول هذا البيت قال : هنيأ لك أبا مالك هذا الإسلام ! فقال الأخطل :  
يا أمير المؤمنين ، ما زِلْتُ مُسْبِلًا في ديني ؛ وقَبِلَ هذا البيت في ديوان الأخطل :  
والناسُ همُّهمُ الحِياةُ وما أَرَى      طُولَ الحِياةِ يَزِيدُ غيرَ خَبالٍ  
« الخيال : الفساد ، أو هو لون من الجنون ، ... »

وقال أحمد شوقي في نهج البردة : - وهذه الأبيات يصح أن تذكر في  
باب التقوى وفي باب الدنيا وفي الزهد ، كما يصح أن تذكر في هذا الموضع - :  
يا نَفْسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ بُكْيَةٍ      وإنْ بَدَأَكَ مِنْهَا حُسْنُ مُبْتَمَرٍ  
فُضِّي بَتَقْوَاكِ فَأَمَّا كُلُّما صَحَّكَتْ      كما يُفَضُّ أَذَى الرِّقْشَاءِ بِالزَّيْمِ  
لا تُخْفِي بِجَنَاحِها أَوْ جَنَاحَيْها      الموتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الموتِ بِالْفَتَمِ

صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ رُجْعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمِ  
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرَاتِعٍ وَخَمٍ  
« المبتسم : يريد الابتسام ، أو موضع الابتسام ، وهو الشجر . والرقشاء  
من الحيات : المُنْقَطعة بالسواد والبياض . وأذى الرقشاء : سُيِّمُهَا . والثرم :  
كسر السن من أصلها . والجَنَى : ما يُجْنَى من الشجرة ويقطف من ثمرها ؛  
يقول في هذا البيت : إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء ، وكلاهما ألمٌ  
غير أن أحد الألمان ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتسكِر - وهو جنايتها  
أى آلامها - والآخر - وهو جناها أى لذاتها - يتسرب إليها من أبواب  
غفلتها فيتجمل ويختلج حتى ينال منها ، إذ أن من ورائه السَّمَّ ناعماً ، فثقلها في  
ذلك مثل الموت بالفحم والموت بالزهر ، كلاهما موت ، وإن كان هذا من  
أثر الاختناق بأرج الزهر ، وذاك من دَخَن الفحم . والمرتع : من رقت  
الماشية : أكلت ماشاءت ، والمرتع : مكان الرتوع ، والوخم : الردىء البوىء »  
وقال المعمرى :

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِلْأَجْلِ تَوَابِهَا  
« يقول المعمرى : إِنْ فَعَلَ كُلُّ مَا هُوَ جَمِيلٌ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ مِنْ فَعَلَ  
مَالِيسَ بِجَمِيلٍ ، وَلَوْ لَمْ يَجْنِ الْمَرْءُ مِنْ وَرَاءِ الْجَمِيلِ وَفَعَلَهُ إِلَّا أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ  
وَأَسْمَى وَأَرْفَعُ ؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ الْقَنَاءُ كُلَّهُ ، أَمَّا فَعْلُ الْجَمِيلِ وَنُصَبُ عَيْنِ فَاعِلِهِ  
ذَلِكَ الثَّوَابُ الَّذِي سَيَجَازِي بِهِ ، فَإِنْ هَذَا إِسْفَافٌ بِالْإِنْسَانِيَةِ إِلَى الْحُضِيِّضِ  
الْأَوْهَدِ ، وَيُعَدُّ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَرْفَعُهَا اللَّهُ إِلَى أَسْفَلٍ ، وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ : إِنَّهُ غَيْرُ  
لَاثِقٍ بِالْكَالِ وَالْمَثَلِ الْأَعْلَى ، أَلَيْسَ مَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُمْ إِنَّمَا يَتَاجَرُونَ اللَّهَ الَّذِي  
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، وَالَّذِي هُوَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ ! وَسَتَرَى فِي بَابِ التَّقْوَى

كثيرا من عقرياتهم في هذا المعنى - منى فبل الخير حُبا في الخير، وولوعا بالحق والجمال والمثالية الكامنة فيه.



وبما روى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه: رأيت الجنة والنار فلم أر مثل الخير والشر... قال ابن الأثير في النهاية: أى لم أر مثلهما لا يُمَيَّزُ بينهما فيبالغ في طلب الجنة والهَرَبِ من النار... أقول: ولعل الأظهر أن يكون المعنى: لم أر شيئا يكون وُصْلَةً إلى دخول الجنة ومثل الخير، ولم أر شيئا يكون سبباً في دخول النار ومثل الشر<sup>(١)</sup>.. هذا، وإن أبى المُلْحِدُونَ وأشباه الملحدين إلا أن يؤولوا الجنة بأنها الهناءة وغبطة الروح التي يشعر بها الأخيار البررة. ويرأحون لها في هذه الحياة، والنار بأنها الشقاوة التي يُعانينا الأشرار الفجرة، ويتسعر لها في أحناء ضلوعهم، فهم وما يختارون ويختلّون لهم، إذ أن هذا - أى سعادة الخير في الدنيا وشقاوة الشر فيها - حق وصحيح في ذاته، وإن لم يك مراداً لآنياء الله ورسله بالجنة والنار، حين يريدون الجنة والنار بمعناها المعروفة، على أن الإسلام على ذلك يعتد بالسعادة والشقاوة في الدنيا كما أنه يعتد بهما فيما بعد الموت... وفي الحديث أيضا: خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ... وقال صلوات الله عليه:

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا: صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر، فأشار يده إلى قبة المسجد وقال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار مثلتين في قبة هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر. والجامع الصغير،

خير الناس خیرهم لنفسه « وممنه : إذا جاملَ الناسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كافأوه بمثله » وأما الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتي . . . ومما يُؤثرُ من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شرُّ الناس من خافه الناس اتقاءً شره « ومثل هذا القول تبكيت للشرير ، وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسرٌ دائم » وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخيرَ يديك والشرُّ ليس إليك « يريد : أن الشرَّ لا يُتقرب به إليك ولا يُبتَغى به وجهك ، أو أن الشرَّ لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفي هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساوئها . . . ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فهما تركمونه منهما كفاكموه أهله « يقول رضى الله عنه : إنَّ عنَّ لك باب من أبواب الخير وتركته فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعله الله أهلاً للخير ، وإنَّ عنَّ لك بابٌ من أبواب الشر فتركته فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعلهم الله أهلاً للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فعله غيرك وتحظى بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالذم عاجلاً والعقاب آجلاً وتفعل ما إن تركته كفاك غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذا نـفى بالعاقل أن يُؤثرَ فعلَ الخير وتركَ الشر ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ومن قولهم في أوصاف البررة الأخيار : فُلانٌ نَقِي الساحة من المآثم ، يرى الذمَّة من الجرائم ؛ إذا رَضِيَ لم يقل غير الصدق ، وإذا سَخِطَ لم يتجاوز

جَانِبَ الْحَقِّ ؛ يرجع إلى نفسِ أَمَارَةٍ بِالْخَيْرِ ، بعيدةٍ من الشرِّ ، مدلولَةٌ على سبيلِ البرِّ ... ووصفَ أعرابيٍّ رجلاً بلون من ألوانِ البرِّ وبالأمعية والذكاء والحصافة والآنأة قال : كان - والله - الفهمُ مِنْهُ ذَا أُذُنَيْنِ ، والجوابُ ذَا لِسَانَيْنِ ، لم أرَ أحداً كان أَرْثَقَ لِخَلَلٍ رَأَى مِنْهُ ، ولا أبعدَ مسافةً رَوَيْتَهُ وَمَرَادَ طَرَفٍ ، إنما يَرْمِي بهِمَّتَهُ حيثُ أشارَ إليه الكرمُ ، وما زال - والله - يَتَحَسَّى سُرَارَةَ أَخْلَاقِ الْإِخْوَانِ وَيُسْقِيهِمْ عُذُوبَةَ أَخْلَاقِهِ ... « كان الفهم منه ذَا أُذُنَيْنِ : يريد أنه كان يعي ويتفطن لما يرى ويسمع فطنة أوفت على الغاية ، إذ أنها فطنة مضاعفة ، فكأن له أذنين . أما قوله : والجوابُ ذَا لِسَانَيْنِ : فإنما يريد قوة العارضة واللِّسَنَ ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وجهين وذو لسانين ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصاحه ، والمراد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحصى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مُهْلَةٍ ، وهو هنا مجاز »

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يتلاقى البرُّ في بُرْدِيهِ بألوان شتى مِنَ الْمُثَلِّ الْعُلَمَاءِ وَأَخْلَاقِ السَّادَةِ ، في أسلوبٍ بدیع - وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبةً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه - : كان لي أخٌ في الله ، كان أعظمَ الناسِ في عيني ، وكان رأسَ ما عَظَّمَهُ في عيني صِغَرُ الدُّنْيَا في عَيْنِهِ ، كان خارجاً من سلطانِ بَطْنِهِ ؛ فلا يَتَشَهَّى ما لا يَجِدُ ، ولا يُكْثِرُ إذا وَجَدَ . وكان خارجاً من سلطانِ قَرَجِهِ ؛ فلا يدعو إليه نُؤْتَةٌ ، ولا يَسْتَخِفُّ إليه رأياً ولا بَدَنًا ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة . وكان خارجاً من سلطانِ لِسَانِهِ ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يماري فيما علم . وكان خارجاً من سلطانِ الجَهَالَةِ ؛ فلا يُقَدِّمُ أبداً إلا على ثِقَةٍ بنفسه ، وكان



أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَائِماً ، فَإِذَا قَالَ بَرَّ الْقَائِلِينَ ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعِفاً ، فَإِذَا جَدَّ  
الْجَسَدُ فَهُوَ اللَّيْثُ عَادِيّاً ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ فِي دَعْوَى ، وَلَا يَشَارِكُ فِي مِرَاءٍ ،  
وَلَا يُدْبِلُ بِحُجَّةٍ ، حَتَّى يَرَى قَاضِيَا فَهَمّاً وَشُهُودَا عَدُولاً ، وَكَانَ لَا يَلُومُ  
أَحَدًا فِيمَا يَكُونُ الْعَذْرُ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا عَذْرُهُ ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعَهُ إِلَّا  
عِنْدَ مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ الْبُرَّةَ ، وَلَا يَسْتَسِيرُ صَاحِبًا إِلَّا أَنْ يَرْجُو مِنْهُ النَّصِيحَةَ .  
وَكَانَ لَا يَتَبَرَّمُ وَلَا يَتَسَخَطُ ، وَلَا يَتَشَكَّى وَلَا يَتَشَهَّى ، وَلَا يَنْتَقِمُ مِنَ الْعَدُوِّ  
وَلَا يَغْتَفِلُ عَنِ الْوَلِيِّ ، وَلَا يَخُصُّ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ دُونَ إِخْوَانِهِ ، مِنْ أَهْتِمَامِهِ  
وَحِيلَتِهِ وَقُوَّتِهِ ... فَمَلِكٌ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ إِنْ أَطَقَتْهَا ، وَلَنْ تَطِيقَ ، وَلَكِنْ أَخَذَ  
الْقَائِلُ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْجَمِيعِ ... قَوْلُهُ كَانَ لِي أَخٌ الْحُ : فَلَيْسَ يَعْنِي أَخَا بَعِيْنِهِ وَلَكِنْ  
هَذَا كَلَامٌ خَارِجٌ مَخْرَجُ الْمَثَلِ ، وَعَادَةُ الْعَرَبِ جَارِيَةٌ بِذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ فِي الشَّعْرِ :  
فَقُلْتُ لِصَاحِبِي ، وَيَا صَاحِبِي : وَقَوْلُهُ : فَلَا يَتَشَهَّى مَا لَا يَجِدُ ، فَإِنْ ذَلِكَ  
لِعُمْرِي مِنْ سَقُوطِ الْمَرْوَةِ . قَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ : يَجْتَنِبُوا مَجَالِسَنَا ذَكَرَ  
تَشَهَّى الْأَطْعَمَةِ وَحَدِيثَ السَّكَاحِ ؛ وَمِنْ طُرْفِ الْجَا حِظِّ مَارَوَاهُ عَنْ نَفْسِهِ :  
جَلَسْنَا فِي دَارٍ فَمَلْنَا تَشَهَّى الْأَطْعَمَةِ ، فَقَالَ وَاحِدٌ : أَنَا أَشْتَهِي سِكْبَاجَةً كَثِيرَةً .  
الرَّزْغَرَانُ ، وَقَالَ آخَرُ : وَأَنَا أَشْتَهِي هَرِيْسَةً كَثِيرَةً الدَّارِ صِنْفِي ... وَإِلَى جَانِبِنَا  
امْرَأَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا بُسْتُ الدَّارِ ، فَضَرِبَتْ الْحَائِطَ وَقَالَتْ : أَنَا حَامِلٌ ، فَأَعْطُونِي مِلَّةً .  
هَذِهِ الْغَضَارَةُ - الصَّحْفَةُ - مِنْ طَبِيخِكُمْ ، فَقَالَ مُنَمَّاةُ بْنُ الْأَشْرَسِ : جَارَتُنَا هَذِهِ تَشْمُ  
رَائِحَةَ الْأَمَانِيِّ وَقَوْلُهُ : وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعِفاً : يَرِيدُ : كَلَيْتَ الْجَانِبِ ، وَطَأْ  
الْإِكْنَفَ ، ... وَقَرَعَ رَجُلٌ بَابَ بَعْضِ الْخَيْرِيْنَ مِنَ السَّلَفِ ، فِي لَيْلٍ ، فَقَالَ  
لِجَارِيَتِهِ : أَبْصِرِي مِنَ الْقَارِعِ ، فَأَتَتْ الْبَابَ فَقَالَتْ : مَنْ ذَا ؟ قَالَ أَنَا صَدِيقُ  
مَوْلَاكَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : قَوْلِي لَهُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَصَدِيقٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ :

والله إني لصديق ، قهض الرجل ويده سيف وكيس يسوق جارية ، وفتح الباب وقال : ماشأئك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لا بك ماسأئك ، فإني قد قسمتُ أمرك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدو : فهذا السيف ، أو مشوق : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادك ، مارأيت مثلك ... « أقول : هذه لعمرى هي أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمروءة والوفاء والحزم والظرف ، وكونٌ - وجود - أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحسِّنُ ظننا بالحياة ويجعلها فى أعيننا ، ويجعلها مُحتملة مطابقة ، لا كما نرى اليوم ... » وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يصف رجلاً قليل الخير - أى لا خير فيه - :<sup>(١)</sup>

أَبَى لَكَ فِعْلَ الْخَيْرِ رَأَى مُقْصِرٌ      وَتَفَسَّ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ بَاعَهَا  
إِذَا مَا أَرَادَتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً      عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أَطَاعَهَا

ومن قولهم فى قليل الخير :

هُوَ فِي الْخَيْرِ قُطُوفٌ      وَهُوَ فِي الشَّرِّ وَسَاعٌ

« القُطُوف من الإنسان والحيوان : البطيء المتقارب الخطو ، وَوَسَاع : واسع الخطو سريع السير ، ومن قولهم فى المتسارعين فى الخير والشر . هما كَقَرَسَى رَهان ، وهذا فى الخير ، وأما فى الشر فيقال : هُمَا كِحِمَارَى الْعِبَادَى . والعبادى : رجل من العباد ؛ وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فَأَنِفُوا أَنْ يَتَسَمَّوْا بِالْعَبِيدِ وَقَالُوا : نحن العباد ، وقد نزلوا بالحيرة . ومنهم عَدِي بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادى فيروى أنه قيل له - أى حِمَارِكَ شَرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثم هذا !

(١) كان عبد الرحمن هذا قد سأل محمد بن عمرو عامل سليمان بن عبد الملك حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاها ، فقال أبياتا منها هذان البيتان

وقال الأشعر الرقبان - وهو شاعر جاهلي من بني أسد - يخاطب ابن عمه  
له يسمى رضوان ، يصفه بالشر واللؤم والنذالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا      بِأَنَّكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ مُضِرٌّ  
وَقَدْ عَلِمَ الْمَعَشَرُ الطَّارِقُوكَ      بِأَنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرٌّ  
إِذَا مَا انْتَدَى الْقَوْمُ لَمْ تَأْتِهِمْ      كَأَنَّكَ قَدْ وَلَدْتَكَ الْحُمْرُ  
مَسِيخٌ مَلِيخٌ كَلَامُ الْحَوَارِ      فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرٌّ

وقوله : غَنِيٌّ مُضِرٌّ ، فالمُضِرُّ : الذي له ضَرَّةٌ من المال ، وهي القطعة من  
المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، وانتدى القوم : اجتمعوا  
في ناديتهم ، والمسيخ : الذي لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخَصَّ به بعض اللغويين  
الحوار الذي ينجر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، ونال ابن الأعرابي :  
المليخ من الرجال : الذي لا تشتهي أن تراه عينك فلا تجالس ، ولا نسمع أذنك  
حديثه ، والحوار : ولد الناقة ساعة تَضَعُهُ ... وما يَحْسُنُ إيرادَه في هذا  
الباب لِلْبَسْتِ واشتباهه قول عمر رضى الله عنه - وقد قيل له : فلان لا يعرف  
الشر - فقال : ذاك أوقع له فيه ، إذ أن معناه : أن لا يكون الإنسان مغفلا وإنما  
الواجب انقطة والحذر وسوء الظن بالناس ، لما جُبل عليه سوادهم من الشر  
واللؤم والخداع ، وفي معناه يقول حكيم لابنه : اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ  
وكن من خيارهم على حذر ... وقد كان الفاروق رضى الله عنه لا يَقَعُّعُ  
له بالشَّانِ (١) وكان سيئ الظن بالناس ، يدل على ذلك شدته وصرامته

(١) لا يقعع له بالشَّان : مثل ، أى لا يخدع ولا يبرقع ، وأصله من تحريك الجلد  
اليابس للبعير ليفزع ، ومنه القعقة : التحريك ، والشَّان : جمع شن وهو القرية الخلق  
أو الخلق - البالى - من كل وعاء صنع من جلد .

وحذرُهُ وسياسته الخازمة الرشيدة ... «وبعد» فإنك ترى في باب طبائع الإنسان كثيرا من عقرياتهم في الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر في العالم ، كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عقرياتهم في التقوى وحسن الخلق ...

ومن أَرْوَعَ وأجمع ما قيل في البر على سائر ألوانه قوله جلّ شأنه : ليسَ البرَّ أَنْ تُؤْتُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذُرِّي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمَوْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ...

«نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن أكثر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول الله إلى الكعبة ، وزعم كل من الفريقين أن البر هو التوجه إلى قبلته ، ففند الله سبحانه هذا الزعم وبهرجه وقال : ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر هو أمر القبلة ، ولكن البر الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة إليه هو بر من آمن وقام بهذه الأعمال .... هذا ، وقوله . ليس البر أن تؤلوا ، فالبر بالنصب خبر ليس مقدم ، وأن تؤلوا . قول بمصدر اسم ليس مؤخر ، وقوله : ولكن البر من آمن : إمّا مثل قول الخنساء <sup>(١)</sup> :

(١) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الثريد من سرورات قبائل بني سليم من أهل نجد ، أشعر النساء في عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ هـ وقولها فإنما هي لإقبال وإدبار ، من أبيات تراثها صخرها تقول فيها :

فإنما هي إقبال وإدبار \* أو تقول ؛ ولكن البر : أى ذا البر  
أو تقول ، إنه على حذف مضاف ، أى ير من آمن . وقوله سبحانه : والكتاب ،  
يعنى جنس كتب الله ، أو القرآن . وقوله : على حبه ، أى مع حُب المال  
والشَّحِّ به ، وقَدَّم ذوى القربى لأن الإحسان إليهم أفضل ، كما وَرَدَ في  
الأثر : صَدَقْتُكَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةً وَعَلَى ذِي رَحِمِكَ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ،  
وابن السَّيْلِ : المسافر المنقطع ، وقيل الضيف ؛ لأن السبيل يَرْعَفُ به - أى  
يتقدم به ويبرزه للقيمين كما يَرْعَفُ الأنف بدم الرعاف - وقوله : وفي الرقاب : أى  
وفي مُعَاوَنَةِ الْمَكَاتِبِينَ حَتَّى يَفْكَوْا رِقَابَهُمْ وقيل : في شراء الرقاب وإعتاقها ،  
وقيل : في فك الأسارى . وقوله : والموفون بعهدهم : عَطَفَ عَلَى مَنْ آمَنَ  
وقوله : والصابرين ، فهو منصوب على المدح ، وَلَمْ يُعْطَفْ ، لفضل الصبر على  
سائر الأعمال ، والبأساء ، أى في الأموال كالنقر ، والضراء ، أى في الأنفس  
كالمرض . وحين البأس : أى وقت مجاهدة العدو ... أليست هذه الآية الكريمة  
- كما قال الإمام البيضاوى ، وكما ترى - جامعة للكلمات الإنسانية بأسرها ، دالة  
عليها صريحا أو ضمنا ، فإنها على تشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ،  
وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس . وقد أُشير إلى الأول بقوله : مَنْ آمَنَ

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّ مُطَيِّفٍ بِهِ لَهَا خَنِينَانِ إِعْلَانُ وَإِسْرَارُ  
تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ  
يَوْمًا بِأَوْجَدَ مِنِّي حِينَ فَارَقَنِي صَخْرٌ وَلِدَهْرٍ إِحْلَاءُ وَإِسْرَارُ  
العجول من الإبل : الواله التي فقدت ولدها ، لعجلتها في جيتها وذهابها جزءا  
والبق : جلد ولد الناقة يحشى تبنا ونحوه ويقرب منها فتعطف عليه وتذر ، وقولها : فإنما  
هى إقبال وإدبار : جعلها نفس الإقبال والإدبار مبالغة ، أى أنها تنلهى عن الرعى فتقبل  
وتدبر جزءا :

بالله . إلى : والنبئين ، وإلى الثاني بقوله : وآتى المال ... إلى : والرقاب ، وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة ... إلى آخرها . ولذلك وُصِفَ المستجمع لها بالصدق ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى : اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَنْ عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان .

### برُّ الوالدين وصلةُ الرحم

وعقوباتهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى \*

وإليك شذوفاً من عقوباتهم في لونٍ من ألوان البر لقد نراه بادي الرأى قليل الخطر ، وهو عند الله الحق ، ولدى إلقاء البال إليه ، وإنعام النظر فيه ، عظيم كَلِّ العِظَم ، خطير كل الخطر ، ذلك هو صلة الرحم بعامة ، وبر الوالدين بخاصة ، ولقد قرن الله يرَّ الوالدين بالتوحيد ، وأكثَر في كتابه المُنزَل من الحِصِّ على هذا البر بأسلوب يُخَيِّلُ إلى السامع إليه أن برَّ الوالدين ركن من أركان الدين ، وأساس من أُسُسِ الاخلاق لا يُؤْبَهُ لسائرهما بدونه ، وإنه لكذلك ، وفي الحق إن هذه الإشادة البالغة من الإسلام ببر الوالدين وصلة الرحم كَمَا يُعَدُّ من فضائل هذا الدين الخفيف وخصائصه التي يمتاز بها . فليُلْقِ أبناءُ اليوم بالهم إلى ذلك ، وليجعلوه دائماً نُصَبَ أعينهم ، إن كانوا يريدون الخير لأنفسهم ، وإلا فلا يُبْعِدُ اللهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ... هذا وستسمع بادئ ذي بدء خير

(هـ) البابة عند العرب : الوجه ، والبابات الوجوه وأنشدوا التيم بن مقبل :

بنى عامر ماتامرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجاناً

معناه : تخير هجائى من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب

وهي أنواع خبثه ، وإذا قال الناس : هذا شئ من بابتي ، فمعناه من الوجه الذى أريده ويصلح لى .

ما قالوا في هذا اللون من البر، ثم نعقبه بخير ما قالوا في الآباء والأبناء والآقارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرافة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم في كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحة للقارئ وانتقال ينفى ملل الجِدِّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - وَتَنَجِّزُوا لَهُمْ إِهْوَاهُ الْعِزَّةُ الْمَكْتُومَةُ - سائر الآيات التي يَزَخُرُ بها كتاب الله في باب البرِّ بالوالدين - : وَأَقْضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وبالوالدين إحساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رَبِّ ارحمهما كما ربياني ص - غيراً ، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِهِمَا فِي نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ، وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ... الآيات

«قوله سبحانه : وَأَقْضَى رَبُّكَ : أى أمر امرأ مقطوعا به... وإيَّها لكلمة مُرَوِّعَةٌ تُرْجِعُ النَّفْسَ رَجًّا وتُزَلِّزُ أَرْجَاءَ زَلْزَالًا شَدِيدًا . ولا جَرَمَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ . أما قوله سبحانه : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ : أى قَضَى ربك بأن لا تعبدوا إلا إياه ؛ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإِنْعَام . وقوله : وبالوالدين إحساناً ، أى وَقَضَى بأن تُحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وقوله : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ، فإِذَا : هى إن الشرطية زيدت عليها تأكيداً لها ، فيكأنه قال : إِنْ يَبْلُغَنَّ ، وأحدهما فاعل يَبْلُغَنَّ ، وَأَفٍ : صوت يدل على التضجر ، وعندك : قال الزمخشري : معناه : أن يكبرا ويعجزا ويصيرا كلاً على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما في بيته وكنفه ، وذلك أشق عليه وأشدَّ احتمالاً وصبراً ، وربما تَوَلَّى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة ، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ورأين الجانب

والاحتمال ، حتى لا يقول لهما - إذا أضجره ما يُستَقْدَر منهما أو يستثقل من دُونهما - : أفٍ ، فضلا عما يزيد على أفٍ ... قال : ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شَفَعَ الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدين - في سلك القضاء - الأمر - بهما مدا ، ثم صَيَّقَ الأمر في مراعاتهما حتى لم يُرَخَّص في أدنى كلمة تنفكت من المتضجر ، مع موجبات الضجر ومقتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ... وقوله : ولا تهرهما : أى لا تنهههما عما يتعاطيان بهما لا يعجبك ، وقل لهما قولا كريما : أى جيلا ، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة . وقوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ، قال الإمام الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال : واخفض جناحك للمؤمنين ، فأضافه إلى الذل أو الذل<sup>(١)</sup> كما أضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الدليل أو الذلول ، والثاني : أن تجعل لذلّه أو لذلّه لهما جناحا خفيضا كما جعل لبيد<sup>(٢)</sup> الشاعر المخضرم - للشمال يدًا وللقرّة زماما<sup>(٣)</sup> مُبالغة في التذلل والتواضع لهما ، وقوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لِكِبَرِهِما وافتقارهما إلى مَنْ كان أفقر خاق الله إليهما بالأمس ،

(١) الذل الأول من ذل ذلافه وذليل بمعنى الخضوع ، والذل الثاني بكسر الذال ، وبضمها أيضا - من ذل يذل فهو ذلول بمعنى اللين (٢) في قوله من معلقته :

وَعَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَرَقَةً إِذْ أَصْبَحَتْ يَبِيدُ الشَّامِ زِمَامُهَا  
القرة : البرد يقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهى أبرد الرياح - وبرد قد ملكت الشمال زمامه ، قد كفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى : كم من برد كفت غرب عادته ياطعام الناس .



وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رَضَا اللهُ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسُخْطُهُ فِي سُخْطِهِمَا . وَرَوَى : يَفْعَلُ الْبَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَيَفْعَلُ الْعَاقِ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ : وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ : إِنْ أَبَوَى بِلِغَا مِنَ الْكَبِيرِ أَنْ أَلِيَ مِنْهُمَا مَا وَلِيَا مِنِّي فِي الصَّغَرِ ، فَهَلْ قَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا ؟ قَالَ : لَا ، فَإِنِمَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهُمَا يُحِبَّانِ بَقَاءَكَ ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَرِيدُ مَوْتَهُمَا : وَعَنْ حَدِيثَةٍ : أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمَشْرِكِينَ ، فَقَالَ : دَعْنِي يَلِيهِ غَيْرُكَ . وَسُئِلَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ عَنْ رِ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ لَا تَقُومَ إِلَى خِدْمَتَيْهِمَا عَنْ كَسَلٍ ، وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ . فَقَالَ : أَنْ لَا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِمَا ، وَلَا تَنْظُرَ شِزْرًا إِلَيْهِمَا ، وَلَا يَرِيَا مِنْكَ مُخَالَفَةً فِي ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ ، وَأَنْ تَسْتَرْحِمَ عَلَيْهِمَا مَا عَاشَا ، وَتَدْعُو لَهَا إِذَا مَاتَا ، وَتَقُومَ بِخِدْمَةِ أَوْدَارِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، فَعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ . . . أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ . فَهَذَا تَوْصِيَةٌ بِغَيْرِ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْإِقَارِبِ بَعْدَ التَّوَصِيَةِ بِهِمَا ، يَقُولُ سَبْحَانَهُ : آتَوْهُمْ حَقَّهُمْ ، وَحَقَّهُمْ صَلَّتُهُمْ بِالْمُودَةِ وَالزِّيَارَةِ وَحَسَنِ الْمَعَاشَةِ وَالْمُؤَالَفَةِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمُعَاضَدَةِ إِنْ كَانُوا مَيَاسِيرَ ، وَتَعَهُدُهُمْ بِالْمَالِ إِنْ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْكَسْبِ . « انْظُرِ التَّفْصِيلَاتِ فِي كِتَابِ الْفَقْهِ » وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : إِنْ أُرِيدَ الْغَزْوُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أَحْيِ أَبَوَاكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَنِيَّهِمَا فَجَاهِدْ . وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ ابْنِ رِ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ تَبْدُلَ لَهَا مَا مَلَكَتْ ، وَتَطِيعَهُمَا فِيمَا أَمَرَكَ ، مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً ، وَآيَةُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...

\*\*\*

وَمَا يُؤْثِرُ مِنْ أَخْبَارِ الْبَرَّةِ : مَا يَقُولُ الْمَأْمُونُ بْنُ الرَّشِيدِ : لَمْ أَرَ أَحَدًا أَبْرَّ مِنَ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى - الْبَرْمَكِيِّ - بِأَيِّهِ ، بَلَغَ مِنْ بَرِّهِ بِهِ أَنْ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا بِمَاءٍ مُسَخَّنٍ وَهُمَا فِي السِّجْنِ ، فَتَمَّعَهُمَا السَّجَانُ مِنْ إِدْخَالِ الْخَطْبِ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ، فَقَامَ الْفَضْلُ - حِينَ أَخَذَ يَحْيَى مُضْجَعَهُ - إِلَى قُمْقُمٍ <sup>(١)</sup> كَانَ يُسَخِّنُ فِيهِ الْمَاءَ ، فَلَاهُ ثُمَّ أَدْنَاهُ مِنَ الْمَصْبَاحِ ، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا وَهُوَ فِي يَدِهِ حَتَّى أَصْبَحَ ... وَقِيلَ لَعَلَى بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : إِنَّكَ مِنْ أَبْرَّ النَّاسِ بِأَمِّكَ وَلَسْنَا نَرَاكَ تَأْكُلُ مَعَ أُمِّكَ فِي صَحْفَةٍ ، قَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَسْبِقَهَا يَدِي إِلَى شَيْءٍ سَبَقَتْ عَيْسُهَا إِلَيْهِ فَأَكُونَ قَدْ عَقَّقْتُهَا . وَقِيلَ لِعُمَرَ بْنِ ذَرٍّ <sup>(٢)</sup> - وَقَدْ مَاتَ ابْنُهُ - : كَيْفَ كَانَ بِرُّ آبْنِكَ بِكَ ؟ قَالَ : مَا مَشَيْتُهُ قَطُّ نَهَارًا إِلَّا مَشَى خَلْفِي ، وَلَا لَيْلًا إِلَّا مَشَى أَمَامِي ، وَلَا رَقِيَّةَ سَطَحًا وَأَنَا تَحْتَهُ .

\*\*\*

وَمَا يَرَوَى فِي بَابِ الْعُقُوقِ وَأَحْوَالِ الْعَقَقَةِ : « وَالْعُقُوقُ ضِدُّ الْبِرِّ »

(١) إِنَاءٌ مِنْ نَحَاسٍ يُسَخِّنُ فِيهِ الْمَاءَ (٢) هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ذَرٍّ زَرَّارَةٌ مِنْ مَسْعُودِ الْهَمْدَانِيِّ كَانَ وَاعِظًا بَلِيغًا وَعَابِدًا صَالِحًا وَكَانَ ابْنُهُ - وَاسْمُهُ ذَرٌّ - مَبَارَكًا طَبِيعًا لَهُ . دَخَلَ يَوْمًا عَلَى ابْنِهِ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَقَالَ : يَا بَنِيَّ ، إِنَّهُ مَا عَلَيْنَا مِنْ مَوْتِكَ غَضَاظَةٌ - ذَلَّ وَانْكَسَارَ وَفُتُورٌ - وَلَا بِنَا إِلَى أَحَدٍ سِوَى اللَّهِ حَاجَةٌ . فَلَمَّا مَاتَ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَوَارَاهُ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ ؛ وَقَالَ : يَا ذَرُّ ، قَدْ شَغَلْنَا الْحُزْنَ لَكَ عَنِ الْحُزَنِ عَلَيْكَ ، لَأَنَا لَا نَدْرِي مَا قُلْتَ وَمَا قِيلَ لَكَ . اللَّهُمَّ إِنِّي وَهَبْتُ لَهُ مَا قَصَرَ فِيهِ مِمَّا افْتَرَضْتَ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ ، فَهَبْ لَهُ مَا قَصَرَ فِيهِ مِنْ حَقِّكَ وَاجْعَلْ ثَوَابِي عَلَيْهِ - يَرِيدُ ثَوَابَ صَبْرِهِ - لَهُ ، وَزِدْنِي مِنْ فَضْلِكَ ، إِنِّي إِلَيْكَ مِنَ الرَّاعِبِينَ قَالَ ابْنُ خُلَّكَانَ : وَكَانَ عُمَرُ الْمَذْكُورُ يُعَدُّ مِنَ الْمَرْجُئَةِ ، وَتُوفِيَ سَنَةَ ١٥٥ هـ

وأصله من العَقَّ وهو الشق والقطع ، يقال عَقَّ الولدُ والدَه يُعَقِّه عَقًّا وعقوقا ومَعَقَّةً : إذا شَقَّ عصا طاعته ، وعَقَّ والدَيه : قطعهما ولم يصل رحمهُ منهما وقد يُعَمُّ بلفظ العقوق جميعُ الرِّجَم ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَة ، مثل كَفَرَة « فمن قوَّلم في العقوق : العقوقُ نُكَلُّ من لا يَشْكَلُ .. .. » الشكل الموت والهلاك ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في فقدان الرجل والمرأة ولدَهما ، يعنون أن مَنْ ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه نُكِلَهُ ، وقال بعضهم لابن له عاقٍ : أنت كالإصْبَعِ الزائدة ، إِنْ تُرِكَتْ شانتُ وإن قُطِعتْ آذت ... وقيل لأعرابيٍّ كيفَ ابْنُكَ ؟ - وكان عاقًا - فقال : عَذَابُ رَعِفَ بِهِ الدَّهْرُ ، فَلَيْتَنِي قَدْ أودَعْتُهُ القَبْرَ ، فإنه بَلَاءٌ لا يقاومه الصبر ، وفائدة لا يجب فيها الشكر ، قوله رَعِفَ به الدهر : يريد تقدم به الدهر وعَجِلَ ،

وأورد أبو العباس المبرد في الكامل هذه الأبيات لامرأة يقال لها أمُّ ثواب المزانة ، في ابنها - وكان لها عاقًا - وقد اختارها أبو تمام في حماسه :

رَبَّيْتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَعْظَمُهُ      أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيشِهِ زَعْبًا  
حَتَّى إِذَا آضَ كَالْفُحَالِ شَذَبَهُ      أَبَارُهُ وَتَنَى عَنْ مَشْيِهِ الْكَرْبَا  
أَنْشَأَ يُخَرِّقُ أَنْوَابِي وَيَضْرِبُنِي      أَبْعَدَ سِتِّينَ عِنْدِي يَبْتَغِي الْأَدْبَا  
إِنِّي لَا بُصِيرُ فِي تَرْجِيلِ لِمَتِهِ      وَخَطَّ لِحْيَتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجْبَا  
قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعْنِي      رِفْقًا بِابْنٍ لَنَا فِي أُمْنَا أَرْبَا  
لَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارٍ مُسْعَرَةٍ      مِنْ الْجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبَا

« هذه أبيات من شعر الفطرة ، تصف في دِقَّةِ حالِ الابنِ العاقِ يكون حَصْلُهُ وَهَوَاهُ مع زَوْجِه على أمه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديم بين الكَنَّةِ

وَحَمَاتِهَا<sup>(١)</sup>، وقولها: أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ، وصف للفرخ، ومعناه: أكبر  
أَعْضَائِهِ أُمُّ الطَّعَامِ: أى معدته، وكذلك قولها: ترى فى ريشه زغيا: وصف  
آخر للفرخ، والزَّغْب: أول ما يبدو من ريش الفرخ، تصف ضعف نشأة  
ابنها، وآض: صَارَ، والفُجَّال: فحال النخل، أى الذَّكْرُ منه، وأَبَارُهُ: الذى  
يصاحبه يقال: أَبْرَتِ النخل: إِذَا لَقَّحَتْهُ، وشَدَّ بَه: قطع ماعليه من الكرانيف  
وهى أصول السَّعَف الغلاظ التى إِذَا يَبَسَتْ صارت أمثال الأكتاف،  
ومته: فتن كل شيء مظهر منه، والكرب: ما يبق من أصول السَّعَف فى النخل  
تريد: حتى إِذَا بلغ أشده واستوى طوله، وأنشأ: أصله أنشأ، تريد: أبتدأ  
وأقبل، وقولها: أبعدستين عندى يبتغى الأدبا، تريد: أن ضربه إياها يريد تأديها  
بعد أن بلغت الستين حق منه وعبت، إِذ من العناء رياضة الحرِّم، وقولها:  
إنى لأبصر... البيت، فاللمة: الشعر الذى يلم بالمنسكب، والترحيل: تسريح الشعر  
تصفه بالحسن والجمال، وعرسه: زوجته، وأما... أضافتها إلى نفسها خديعة،  
وأربا: حاجة، تريد: لا يبتغى لك أن تهينها...

وقيل لرجل أبطأ فى التزوج: لمْ أَبْطَأْتُ؟ فقال: أريد أن أسبق أولادى  
فى اليُسْتَم قبل أن يسبقونى فى العقوق...

\*\*\*

وأورد المبرِّد أيضا عن رجل يسمى أبا المَحْش حديثا طريفا قال:  
قال أبو المَحْش: كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فُتَبْرُزُ كَفًّا كأنها  
طَلْمَة، فى ذراعِ كَأَنَّهَا جُمَارَة، فلا تَقْعُ عَيْنُهَا عَلَى أَكْلَةٍ نَفِيسَةٍ إِلَّا خَصَّتْنِي بِهَا

(١) الكنة: امرأة الابن - وامرأة الأخ أيضا - والحماة: أم زوجها: قال الشاعر:  
إن الحماة أولعت بالكِنَّة وأت الكِنَّةُ إلا ضِنَّة

فَزَوَّجْتُهَا .. وصار يجلس معي على المائدة ابن لي ، فُسْبِرُ كَمَا كَانَتْهَا  
كَرْنَاقَةً ، فِي ذِرَاعٍ كَانَتْهَا كَرْبَةً ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَّا  
سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا ... الطَّلْعَةُ فِي كَلَامِ أَبِي الْمَخْشِ هَذَا جَمْعُهَا طَلْعٌ ، وَهُوَ تَوْرُ  
النَّخْلَةِ مَا دَامَ فِي الْكَافُورِ ، وَهُوَ عَاوُهُ الَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ ، وَالْجَمَارَةُ : شِجْمَةُ النَّخْلَةِ  
الَّتِي إِذَا قُطِعَتْ قِمَّةُ رَأْسِهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ سَنَامٍ ، وَالْكَرْنَاقَةُ : طَرْفُ  
الْكَرْبَةِ الْعَرِيضِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالنَّخْلَةِ كَأَنَّهُ كَتِفٌ ، وَقَوْلُهُ : إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي  
فَإِنْ نَافِيَةٌ بِمَعْنَى مَا ،

\*\*\*

وأورد أبو تمام في باب المهجاء من حماسته لأحد الشعراء أبياتاً لها قصةٌ  
فيها اعتبار لمن أراد أن يعتبر من عَقَقَةِ الْإِبْنَاءِ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْقِصَّةُ وَالْآيَاتُ :  
كَانَ فِي زَمَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ رَجُلٌ يُسَمَّى مُنَازِلَ بْنَ فُرْعَانَ ، وَكَانَ  
لِمُنَازِلٍ هَذَا ابْنٌ يُقَالُ لَهُ خَلِيجٌ - وَهُوَ مِنْ رَهْطِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - فَعَقَّى  
خَلِيجَ أَبَاهُ مُنَازِلًا ، فَقَدَّمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَرَبِيٍّ ، وَالْإِيَّامَةُ ، مُسْتَعْدِيًا  
عَلَيْهِ - وَقَالَ :

تَظَلَّنِي حَقِّي خَلِيجٌ وَعَقَّى عَلَى حِينٍ كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي (١)  
لَعَمْرِي لَقَدْ رَئَيْتُهُ فَرِحًا بِهِ فَلَا يَفْرَحُنْ بَعْدِي أَمْرٌ وَبُغْلَامٍ  
وَكَيْفَ أَرْجِي النِّفْعَ مِنْهُ وَأُمُّهُ حَسْرَامِيَّةٌ ؟ مَا غَرَّنِي بِحَرَامٍ (٢)  
وَرَجَّيْتُ مِنْهُ الْخَيْرَ حِينَ اسْتَزَدْتُهُ وَمَا بَعْضُ مَا يَزْدَادُ غَيْرَ غَرَامٍ (٣)

(١) كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي : أَيْ كَانَتْ عِظَامِي كَالْحَنِيِّ ، وَهُوَ جَمْعُ حَنِيةٍ ، وَهِيَ الْقَوْسُ ،  
لِأَنَّهَا حَنِيةٌ ، أَيْ مَعْطُوقَةٌ

(٢) حَرَامِيَّةٌ : نِسْبَةٌ إِلَى حَرَامٍ وَهِيَ قَبِيلَةٌ

(٣) الْغَرَامُ هُنَا : الْعَذَابُ وَالشَّرُّ الدَّائِمُ وَالْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَسْتَطَاعُ أَنْ يَنْفُصِيَ مِنْهُ قَالَ  
تَعَالَى : إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا : أَيْ هَلَكَ دَائِمًا مَلَحَا

فأراد إبراهيم بن عيسى ضربته ، فقال : أصلح الله الأمير ، لا تعجل على أن تعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا منازل ابن فرعان ، الذي عتق أباه ، وفيه يقول أبوه :

جَزَتْ رَحْمُ بَيْنِي وَبَيْنَ مُنَازِلٍ      جَزَاءً كَمَا يَسْتَنْزِلُ الدِّينَ طَالِبُهُ <sup>(١)</sup>  
لَرَّيْتُهِ حَتَّى إِذَا آضَ شَيْظَمًا      يَكَادُ يُسَارِي غَارِبَ الْفَجْلِ غَارِبُهُ <sup>(٢)</sup>  
فَلَمَّا رَأَى أَبْصَرَ الشَّخْصَ أَشْخَصًا      قَرِيبًا وَذَا الشَّخْصَ الْبَعِيدَ أَقَارِبُهُ <sup>(٣)</sup>  
تَعَمَّدَ حَقِّي ظَالِمًا وَلَوْ يَدِي      لَوَى يَدَهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ <sup>(٤)</sup>  
وَكَانَ لَهُ عِنْدِي إِذَا جَاعَ أَوْ بَكَى      مِنَ الزَّادِ أَحَلَّى زَادِنَا وَأَطْيَبُهُ  
وَرَّيْتُهِ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكْتُهُ      أَخَا الْقَوْمِ وَاسْتَفْنَى عَنِ الْمَسْحِ شَارِبُهُ <sup>(٥)</sup>  
وَجَمَعْتُهَا دُهِمَا جِلَادًا كَأَنَّهَا      أَشَاءُ نَحْيِي لَمْ تُقَطَّعْ جَوَانِبُهُ <sup>(٦)</sup>

(١) يدغو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازي هو الله سبحانه يقول : جرى الله منازل على الرحم أي القرابة التي بيني وبينه - فقد قطعها - جزاء يستوفي له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشيطم : الطويل ، ولريته : جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وريته وريته وتربيته وريته تريبيا : بمعنى واحد ، وآض : صار ، وأصل الغارب في الإبل - وهو ما يكون قدامه السنام - : ثم استعير حتى قيل لأعلى كل شيء : غوارب ، يقول : إنه رباه حتى بلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا : حال ، والمعنى : أبصر الشخص مقاربا ، أي أبصره وأما قريب منه - أشخصا ، وأقاربه : أظنه قريبا ، يقول : لما رآني شيخا كبيرا ضعف نظره واختلقت مواقع بصارته حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريبا  
(٤) تعمد حتى : ستره وأخفاه ، وقوله : ولوى يدي : أي قتلها وأزالها عن حالها وهيئتها

(٥) أخا القوم : قال الإمام التبريزي : نصب أخا القوم على الحال من الهاء في تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة في اللفظ لأنه لا يعني قوما بأعيانهم وإنما يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعها : الضمير إلى الخيل وإن لم

فَأَخْرَجَنِي مِنْهَا سَلِيًّا كَأَنِّي حُسَامُ يَمَانٍ فَارَقْتُهُ مَضَارِبُهُ <sup>(١)</sup>  
 أَلَا إِنَّ أَرْضِي شَتَّ كَفًّا أَيْكَ وَأَصْبَحْتُ يَدَاكَ يَدَيَّ لَيْثٌ فَإِنَّكَ ضَارِبُهُ <sup>(٢)</sup>  
 فقال الوالي : يا هذا ، عَقَقْتُ فَعَقَقْتُ ، فَمَا لَكَ مَثَلًا إِلَّا قَوْلُ خَالِدِ  
 لِأَبِي ذُؤَيْبٍ :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا فَأُولُ رَاضِي سِيرَةٍ مَنْ يَسِيرُهَا  
 قال الإمام التبريزي : وذلك أن أبا ذُؤَيْبٍ <sup>(٣)</sup> هذا كان غلاما ، وكان  
 لِرَجُلٍ صَدِيقَةً ، فكان الرجل يبعث أبا ذُؤَيْبٍ إلى صديقته بالرسائل ، فلما  
 ترعرع أبو ذُؤَيْبٍ كَسَرَهَا عَلَى الصَّدِيقِ - يريد أفسدها وأمالها عنه إليه - ،  
 ولما تَرَجَّلَ أبو ذُؤَيْبٍ - يريد صار رجلا - مُنِعَ مِنْهَا وَحُجِبَتْ عَنْهُ  
 وحجب عنها ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ  
 غلام ، فلما ترعرع خالد كَسَرَهَا عَلَى أَبِي ذُؤَيْبٍ ، فقال أبو ذُؤَيْبٍ يعنف  
 المرأة :

تُرِيدِينَ كَيْ تَجْمَعِيَنِي وَخَالِدَا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَرَيْحُكَ فِي غَيْدٍ  
 وجعل يُوْنِبُ خَالِدَا ، فقال خالد :

يَذْكُرُهَا وَهَذَا أَسْلُوبٌ مَعْرُوفٌ لَهُمْ ، وَدَهْمَا : جَمْعُ أَدَمٍ ، وَهَرُ الْأَسْوَدِ ، وَجَلَادَا : صَلَابَا ،  
 وَالْأَشَاءُ بِالْفَتْحِ وَالْمَدِّ : صَغَارُ النَّخْلِ وَقِيلَ النَّخْلُ عَامَةً وَاحِدَتُهُ أَشَاءَةٌ <sup>(١)</sup> السَّيْبُ : الَّذِي سَلَبَ  
 مَالَهُ ، اسْتَعَارَهُ مِنَ الشَّجَرِ يَسْلُبُ وَرَقَهُ رِيْعَرَى مِنْهُ ، وَالْمَضَارِبُ : جَمْعُ مَضْرَبٍ : حَدُّ السَّيْفِ ،  
 يَقُولُ : لَمَّا جَمَعْتُ مِنَ الْخَيْلِ الدِّهْمَ الْجَلَادَ مَا جَمَعْتُ وَأَعَدَدْتُهَا لِي وَلَهُ ، عَدَا عَلَى بَعْدِ  
 أَنْ رِيَّتَهُ وَبَلَغَ مِبلغَ الرِّجَالِ وَجَزَدَنِي مِنَ الْخَيْلِ وَتَرَكَنِي سَلِيًّا ، فَأَشْبَهَ حَالِي حَالَ السَّيْفِ  
 الْيَمَانَ الْقَاطِعَ تَقْلِلَ حُدَّهُ <sup>(٢)</sup> أَرْضِي شَتَّ كَفًّا أَيْكَ : يريد : أبعاد أن كبر أبوك وبلغ  
 مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا وَأَصْبَحْتُ أَنْتَ شَابَا قَوِيًّا ، تَجْتَرِي عَلَيْهِ وَتَهِينُهُ وَتَضْرِبُهُ

<sup>(٣)</sup> أبو ذُؤَيْبٍ هذا هو الشاعر أبو ذُؤَيْبٍ الْهَذَلِيُّ ، وَخَالِدٌ هُوَ ابْنُ أُخْتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ  
 هِيَ امْرَأَةُ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ عَمْرٍو بْنُ عَامِرٍ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ، انْظُرْ أَمْثَالَ  
 الْمِيدَانِي فِي شَرْحِهِ هَذَا الْمَثَلِ ، لَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا ، ،

فلا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا ..... البيت  
ولأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الشاعرِ الجاهلي <sup>(١)</sup> أبياتٌ حسانٌ يشكو فيها هو  
الآخرُ ابنة الذي عَقَّه وأساءَ إليه: وقد اختارها أبو تمام في حماسه قال:  
عَذَّوْنُكَ مَوْلُودًا وَعُكَّةُكَ يَابِغًا تُعَلُّ بِمَا أُذِنِي إِلَيْكَ وَتَنْهَلُ <sup>(٢)</sup>  
إِذَا الْمِلَّةُ نَابَتْكَ بِالشَّكْرِ لَمْ أَبْتَ لَشَكْرِكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَّلُ <sup>(٣)</sup>  
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِقْتُ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمَلُ <sup>(٤)</sup>  
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُ  
جَعَلْتَ جِرَائِي مِنْكَ جَبْهًا وَغُلْظَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضَّلُ <sup>(٥)</sup>

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بني بكر بن هوازن . وكان ممن حزم  
الخرفى الجاهلية ورفض عبادة الأوثان واتمس الدين وطمع في النبوة فلما بعث سيدنا  
رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه  
(٢) وعكك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومتك ، من مان  
أهله يمونها مونا : أنفق عليهم ، وياقما : شابا ، من أيفع الغلام مثل أبقل الموضع فهو  
ياقل وأورق الثبت فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهو قارب : إذا  
قربت إليه من المساء ليلا ، وكلهن نواذر ، وتعل من عله يعله : سقاه ثانية ، وتهل من  
أنهله : سقاه أول سقية ، يريد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى  
(٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إِنْ تَشَكَّى مِنْ أَدَى كُنْتُ طِبَّةً وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الشَّكْوُ بِي فَأَخِي طِبِّي  
وَأَتَمَّلِل : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه . قال اللغويون : إذا نيا بالرجل  
مضجعه من هم أو وصب قيل قد تملل ، وأصله أتملل ، من الملة وهي الرماد الحار يدفن  
فيه الخبز لينضج كأن المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة  
(٤) المطروق من طرقة الهم يطرقه - بالضم - طرقا : أتاه ونزل به ، مجاز من طرق  
القوم : جاءهم ليلا ، وتهمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل - بالضم والكسر -  
هملا وهملانا : سالت وفاضت (٥) جبها مصدر جبها بالمكروه : استقبله به .  
وذلك مجاز من جبها : صك جبته . ويروى : جعلت جرائى غلظة وفضاظة



فَلْيَتَّكَ إِذْ لَمْ تَرَعْ حَقَّ أَبَوَيْ فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ<sup>(١)</sup>  
وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِ الْمَفْنَدِ رَأَيْهُ وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ<sup>(٢)</sup>  
تَرَاهُ مُعِدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ بَرَدٍ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلُ<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

ومن المستطرف من أقوالهم في الأولاد المتخلفين : ما بُرِئَ أَنْ رَجُلًا  
يَعَثَّ أَبْنَاهُ لِيَشْتَرِيَ حَبْلًا ، فَقَالَ لَهُ : أَجْعَلُهُ عَشْرِينَ ذِرَاعًا ، فَقَالَ الْوَلَدُ :  
فِي عَرَضِ كَمْ ؟ قَالَ : فِي عَرَضِ مُصِيبَتِي فِيكَ .. وَكَانَ لِأَبِي الْعَبَّاسِ الْمُبَرَّدِ  
صَاحِبِ الْكَامِلِ ابْنُ مُتَخَلِّفٍ ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا : غَطَّ سَوْءَ تَكِّ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى  
رَأْسِ ابْنِهِ .. وَقِيلَ لَصَبِي : لِمَ لَا تَتَعَلَّمُ الْآدَبَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكْذِبَ  
وَالدِّي ، لِأَنَّهُ قَالَ لِي : إِنَّكَ لَا تَقْلُحُ أَبَدًا ...

\*\*\*

هذا وكما أن لوالدك عليك حقًا كذلك لولدك عليك حق : وما ورد  
في ذلك ما جاء في الحديث : من حَقَّ الْوَلَدُ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ ، وَأَنْ  
يُعِفَّهُ إِذَا بَلَغَ . « أَنْ يَحْسِنَ آدَبَهُ : أَنْ يُعْنِيَ بَرِيَّتَهُ وَتَهْذِيبَهُ وَتَعْلِيمَهُ ،  
وَأَنْ يُعِفَّهُ : أَيْ يَعْمَلَ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَفَاً عَنِ الْحَرَامِ فِي زَوْجِهِ ... » وَقَالَ حَكِيمٌ  
مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ صَغِيرًا ، مُرَّبَّهُ كَبِيرًا ، وَقَالُوا : مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ ، أَرْغَمَ حَاسِدَهُ .  
وَمَنْ آدَبَ الْإِسْلَامَ : إِذَا بَلَغَ أَوْلَادَكُمْ سَبْعَ سِنِينَ فَرُّوهُمْ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ  
وَإِذَا بَلَغُوا عَشْرًا فَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِذَا بَلَغُوا ثَلَاثَةَ عَشْرٍ فَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي  
الْمُضَاجَعِ ؛ وَمِنْ كَلَامِهِمْ : لَا عَيْبَ ابْنِكَ سَبْعًا وَعَلَيْهِ سَبْعًا وَجَالَسَ بِهِ إِخْوَانَكَ .

(١) كما الجار المجاور يفعل : أى كما يراعى الجار حق الجوار من الوفاء به  
(٢) المَفْنَدِ رَأْيُهُ : اسم مفعول من فَنَدَ رَأْيَهُ : خَطَأَهُ (٣) مُعِدًّا : اسم فاعل ،  
أَعَدَّ لِلْأَمْرِ عَدَّتَهُ : هَيَّأَ لَهُ

سبعاً يَتَّبِعِينَ لَكَ أَخْلَافٌ هُوَ بَعْدَكَ أُمُّ خَلْفٌ « الْخَلْفُ - بفتح اللام : الولد الصالح ، والخلف - بسكونها : الطالح ، تقول : أعطاك الله خلفاً مما ذهب لك ولا تقل خلفاً ، وتقول أنت خَلْفٌ سَوْءٌ من أبيك ، هذا هو الأعرف عند أهل اللغة <sup>(١)</sup> ، وقال رجل لأبيه . يا أبت ، إن عَظِيمَ حَقِّكَ عَلَى لَا يُذْهِبُ صَغِيرَ حَقِّي عَلَيْكَ ، وإن الذي تَمُتُّ بِهِ إِلَى أُمِّتٍ بِمِثْلِهِ إِلَيْكَ ، ولستُ أَزْعُمُ أَنَا عَلَى سِوَاهُ ، ولكن لَا يَحِلُّ الاعتداء ...

وقالوا : إِنَّ الْوَلَدَ الْبَارَّ أَبَرُّ مِنَ الْوَالِدِ ، لِأَنَّ بَرَّ الْوَالِدَيْنِ طَبِيعَةٌ ، وَبَرُّ الْوَلَدِ وَاجِبٌ ، وَالْوَاجِبُ أَبَدًا ثَقِيلٌ ، وَلَعَلَّ الْمُتَنَبِّيَ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى إِذَا يَقُولُ :

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَاتِلُ طَعُ أَحْنَى مِنْ وَاصِلِ الْوِلَادِ

\*\*\*

وبما يَسْتَطِرْفُ فِي هَذَا الْبَابِ مَا يَرَوِي مِنْ احْتِجَاجِ بَعْضِ الْعَقَّةِ لِعُقُوبَتِهِمْ : فَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِ الْفَلَّاسِفَةِ : لِمَ تَعُقُ وَالِدَيْكَ ؟ قَالَ : لِأَنَّهُمَا أَخْرَجَانِي إِلَى الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ ... وَضَرَبَ رَجُلٌ أَبَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا عَرَفْتَ حَقَّهُ ؟ قَالَ : لَا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ حَقِّي ، قِيلَ : فَمَا حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ ؟ قَالَ : أَنْ يَتَخَيَّرَ أُمُّهُ ، وَيُحَسِّنَ اسْمَهُ ، وَيُخْتِنَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ عَوْرَتِهِ فَإِذَا هُوَ أَقْلَفٌ - لَمْ يُخْتَنَ - وَقَالَ : أَسْمَى بُرْغُوثَ ... وَلَا أَعْلَمُ حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ اسْتَوْلَدَنِي مِنْ زَنْجِيَّةٍ ... فَقِيلَ لِلْوَالِدِ : احْتَمَلْهُ ، فَإِنَّكَ تَسْتَأْهِلُ ...

(١) قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : خَلْفٌ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ، وَقَالَ لِيَيْد :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ بَجَلْدِ الْأَجْرِبِ

وعبر رجل ابنه بأمه، فقال الابن: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيار فولدتني من حري، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمّة... وقال رجل لابنه: ما أطيب الشكّل يا بني! فقال الابن: اليُسّم أطيب منه يا أبت! وقيل لبعضهم: أيّ ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومربّضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يقدّم...

وأقول: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في المادة قلباً يظفر من حب أبيه بمثل ما يظفر به الصغير، وقد قالوا في ذلك ما بين عن السبب، وهو ما روى أن رجلاً من العرب رأى بنيه يثبون على الخيل وقد تنادوا بالغارة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يقدّر، فقال: من سرّ بنوه ساءت نفسة... وفي ضدّ هذا المعنى يقول أكرم بن صيفي حكيم العرب:

إنّ بنيّ صيفيّ صيفيّون أفلح من كان له ربّيعيون  
يقال أصاف الرجل يُصيف إصافة: إذا لم يؤدّ له حتى يُسنّ ويكبر  
وأولاده صيفيون، والواحد صيفيّ، والربّيعيون: الذين ولدوا في حدائته وأول شبابه، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة تمثّل بهذا البيت لأنّه لم يكن في أبنائه من يُقلّده العهد بعده، ومعنى ذلك عندهم: أن الأولاد الكبار أفضل من الصغار لدى الوالد، ولا سيما إذا كبر... وهذا على نقيض قول القائل: من سرّ بنوه ساءت نفسة، وإن كان لكل وجه هو مولّيا،



وناول عمر بن الخطاب رجلاً شيئاً فقال له: خدّمك بنوك، فقال عمر: بل أغنانا الله عنهم.

وكان يقال : ابْنُكَ رَيْحَانُكَ سَبْعًا ، وخَادِمُكَ سَبْعِمِائَةً عَدُوٌّ أَوْ صَدِيقٌ ...

وفي الأثر : رِيحُ الْوَلَدِ مِنْ رِيحِ الْجَنَّةِ ...

وكان رسول الله يُقْبَلُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو حفيد المصطفى -

يوماً ، فقال الأقرعُ بْنُ حَابِسٍ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوِلَادِ مَا قَبِلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ ،

فقال رسول الله : فما أصنع إن كان الله نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ !

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات الرجل انقطع

عمله ، إلا من ثلاث : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ .

وقالوا : خيرُ ما أُعْطِيَ الرَّجُلُ بَعْدَ الصَّحَةِ وَالْأَمْنِ وَالْعَقْلِ وَلَدٌ مُوَافِقٌ .

من زوجةٍ موافقةٍ \* ومُتَعَةُ الْعَيْشِ بَيْنَ الْإِهْلِ وَالْوَلَدِ \* .

وكانت الْعَرَبُ تُسَمِّي مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ صُنْبُورًا ، وَالصُّنْبُورُ فِي اللَّغَةِ : الْإِبْرُ

لَا عَقِبَ لَهُ وَلَا أُخْ ، فإذا مات انقطع ذِكْرُهُ وَكَانَ كَفَّارُ قُرَيْشٍ يُطْلَقُونَ

على رسول الله : صُنْبُورًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ « شَانِئَكَ :

مبغضك ، وَالْأَبْتَرُ الَّذِي لَا عَقِبَ لَهُ » ...

وقال حكيمٌ فِي مَيِّتٍ : إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَهُوَ حَيٌّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ

فَهُوَ مَيِّتٌ

ومن أمثال العرب : أَبْنُكَ ابْنُ بُوْحِكَ « أَيُّ ابْنٍ نَفْسِكَ لَا مِنْ تَبْنِيَّتِهِ ،

ومثله : وَلَدُكَ مَنْ دَعَى عَقْبِيكَ « يَعْنُونَ : الَّذِي نَفْسُكَ بِهِ فَادَى النَّفْسُ

عَقْبِيكَ ، أَيُّ : ابْنُكَ مِنْ وَلَدِيَّتِهِ لَا مِنْ تَبْنِيَّتِهِ » وَقِيلَ لِلْحَكِيمِ : مَا السَّعَادَةُ ؟ قَالَ :

أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ ابْنٌ وَاحِدٌ ، فَقِيلَ لَهُ : الْوَاحِدُ يُخْشَى عَلَيْهِ الْمَوْتُ ! قَالَ :

لَمْ تَسْأَلُونِي عَنِ الشَّقَاوَةِ ...

وهناك فريق من الناس يذهبون إلى ذمِّ الولد وقلة جدِّواه : وما يروى في هذا الباب أنه قيلَ لبعض الزهاد : هَلَّا تزوجت ؟ فربما يكون لك خَلْفٌ ؟ فقال : كفى بالزهيد فيه قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... وقالوا : قِلَّةُ العيالِ أحدُ اليَسَارِينِ ، وقال المتنبي :

وما الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ يُؤَمَّلَ عنده حياةٌ وأن يُشْتاقَ فيه إلى النِّسْلِ  
هَلِ الْوَلَدُ الْمَحْبُوبُ إِلَّا تَعَلَّةٌ

وهلْ خُلُوَّةُ الْحَسَنَاءِ إِلَّا أَذَى الْبَغْلِ (١)

وقد ذُفِتْ خُلُوَاءُ الْبَنِينَ عَلَى الصَّبَا فَلَا تَحْسَبْنِي قُلْتُ مَا قُلْتُ عَنْ جَهْلٍ  
وقال الكعري - وهو إمام الساجطين ، « أو المتشائمين كما يقولون اليوم » - :

أَرَى وَلَدَ الْفَقِي عَيْبًا عَلَيْهِ لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أَضْحَى عَقِيمًا  
فَإِنَّمَا أَنْ يَرِيَّهُ عَدُوًّا وَإِنَّمَا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمًا  
وَإِنَّمَا أَنْ يُصَادِفَهُ حِمَامٌ فَيَبْقَى حُزْنُهُ أَبَدًا مُقِيمًا  
وَبُشِّرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بَابْنٍ فَقَالَ : لَامْرَجًا بَيْنَ إِنْ كُنْتُ غَنِيًّا أَذْهَلَنِي ،  
وَأِنْ كُنْتُ فَقِيرًا أَتَعْنِي ، لَا أَرْضَى كَدِّي لَهُ كَدًّا ، وَلَا سَعْيِي لَهُ فِي الْحَيَاةِ  
سَعْيًا ، أَهْتَمُّ بِفَقْرِهِ بَعْدَ وَفَاتِي ، حِينَ لَا يَنَالُنِي بِهِ سُرُورٌ ، وَلَا يُهِمُّهُ لِي حُزْنٌ ،  
وَأَتَحَرَّ الْحَسَنُ يَوْمًا - أَى ذَهَبَ إِلَى الصَّحْرَاءِ - فَرَأَى صَيَّادًا فَقَالَ : مَا أَكْثَرُ

(١) تعلَّة : يقال : فلان يعمل نفسه بتعللة : أى لها بما به كما يعمل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن . يقول : إن السرور بالولد المحبوب لا يدوم وإنما هو تعليل إلى وقت ، ثم قال : وخلوتك بامرأتك أذى لك في الحقيقة لأنها تجلب لك ولدًا تغتم من أجله وتتأذى بتربيته وربما كانت العاقبة إلى الشلل

ما يَقَعُ في شبكتِكَ؟ قال: كلُّ طيرٍ زَاقٍ «أى بَزُقُ أفراخه أى يُطعمها بفيه»، فقال الحسن: هلك المُعِيلون «أى الذين لهم عيال كثير»، وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم لأحد ابْنَيْ يَدْتِهِ: إِنَّكُمْ لَتُجَبِّنُونَ وَإِنَّكُمْ لَتُبْخَلُونَ وَإِنَّكُمْ لَكَيْنُ رِيحَانِ اللَّهِ، وفي الحديث أيضا: الولدُ جَبْنَةٌ جَهْلَةٌ مَبْخَلَةٌ.. «يقول عليه السلام: إِنَّ الْوَلَدَ يَحْمِلُ أَبَاهُ عَلَى الْجُبْنِ، فلا يُجَاهِدُ ولا يَشْجَعُ، لِأَنَّهُ يُحِبُّ الْبَقَاءَ لِأَجْلِهِ، وعلى الجَهْلِ، بِمُلَاعَبَتِهِ إِيَّاهُ وَنُزُولِهِ إِلَى مُسْتَوَاهُ، وتركه العقلَ ومُقْتَضَاهُ، أو باشتغاله به عن طلب العلم، وعلى البُخْلِ، لِأَنَّهُ يُبْقِي عَلَى الْمَالِ لِأَجْلِهِ وَيَبْخَلُ بِهِ وَيَشْجَعُ»..



ومن أحسن ما قيل في الإشفاق على الأولاد: قول حِطَّانَ بْنِ الْمُعَلَّى - وهو شاعر إسلامي، وأبياته هذه في الحاسة -:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ      مِنْ شَاخٍ عَالٍ إِلَى خَفِضٍ  
وَعَالَنِي الدَّهْرُ بِوَفْرِ الْغِنَى      فَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِي  
أَبْكَانِي الدَّهْرُ رِيًّا رُبَّمَا      أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرْضِي  
لَوْلَا بُلَيَّاتُ كَرْغَبِ الْقَطَا      رُدِدَنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ  
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ      فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ  
وَأَمَّا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا      أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ  
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ      لَأَمْتَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمِضِ  
«أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ: أَنْزَلَهُ مِنَ الْعِزَّةِ إِلَى الذَّلَّةِ بِحُكْمٍ فِيهِ بِمَا شَاءَ، وَمِنْ شَاخٍ: مِنْ جَبَلٍ شَاهِقٍ طَوِيلٍ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَى خَفِضٍ: إِلَى مَطْمَئِنٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ. وَعَالَنِي الدَّهْرُ: أَخَذَهُ غِيلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرُ، وَبِوَفْرِ

الغنى : يريد : فى كثرة ماله ، وقوله : فليس لى مال سوى عرضى يريد : لم يبق له الدهر شيئاً إلا أتى عليه سوى عرضه فلم يلتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن يُلتقص ويُتَلَبَّ ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فمعناه أمره التى يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بدم ، فيجوز أن تكون أموراً يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيهم وقول الشاعر :

• وأدركُ ميسورَ الغنى ومعى عرضى •      أى أفتالى الجميلة

وقوله : بما يرضى : أى أضحكنى أحياناً بما يرضينى . وقوله : كزغب القطا : واحدتها زغباء والذكر أزغب والمصدر الزغب ، وهو أول ما يبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعر الصبي ، وقوله : رُدْدُنْ من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفرانخ وانضمام بعضهن إلى بعض أول نشأتهم ، يصف بناته بأنهن ضعاف لا يستطعن القيام بشؤونهن . ومضطرب : أى اضطراب ، أى تحرك . وأكبادنا : تبثيل لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم الغين : النوم

\*\*\*

ويقول إسحاق بن خلف<sup>(١)</sup> - من شعراء الدولة العباسية - فى بنت أخت له

(١) ترجم له صاحب الإغانى وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

أَلْقَى بِجَانِبِ خَضْرَه      أَمْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمَتَّاحِ  
وَكَأَنَّهَا ذَرٌّ الْهَبَا      عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ =

تسمى أديمة كان حديبا عليها كلفا بها ، رهي من أبيات الحماسة :  
 لولا أديمة لم أجزع من العدم ولم أفايس الدجى في حنيس الظلم  
 وزادنى رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يحفوها ذور الرحم  
 أحاذر الفقر يوما أن يُسلم بها فيهلك الستر عن لحم على وضم  
 تهوى حياتي وأهوى موتها شققا

والتموت أكرم نزال على الحرم

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ  
 وكنت أبقى عليها من أذى الكلم

«العدم: الفقر، وقوله: فيهلك الستر، فالهتك: جذبك الستر تقطعه من موضعه  
 أو تشق منه جزءا فيبدو ماوراءه، وإسناده إلى الفقر مجاز، وقوله عن لحم  
 على وضم، فالوضم: ما وضع عليه اللحم من خشب ونحوه، وكانت العرب في  
 باديتها إذا نُحر بعير للحي يقتسمونه، تطلع شجرا وتضع عليه اللحم مُقطعا  
 يأخذ منه كل شريك قسمة ولم يعرض له أحد، وكانت تضرب المثل في

== وهو الذى يقول فى مدح العريية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تُكسِرُهُ إذا لم يَلْحَن  
 قال المبرد: وأحسبه أخذ قوله: والمرء تكسره إذا لم يلحن من حديث حدثنا  
 به عن الأصمعي قال: كان يقال: ثلاثة يحكم لهم بالنبل لا يدرى من هم: رجل رأته  
 راكبا في شارة حسنة، أو سمعته يعرب، أو شممت منه طيبا. وثلاثة يحكم عليهم  
 بالاستصغار حتى يدرى من هم: رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل، أو سمعته في  
 مصرعربي يتكلم بالفارسية - أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات - ورجل  
 رأته على ظهر طريق ينازع في القدر .. ما أطيب هذا الكلام وأسماء وأليفه  
 بأخلاق السادة ..



ضعف النساء وقلة امتناعهن على طلائهن إلا أن يذادعنهن، بذلك اللحم مادام مع الرضيم  
وقوله : شققا ، أى خيفة ، وقد شفق يشفق - بالفتح - وأشفق عليه يشفق :  
خاف ، وقوله : والموت أكرم تزال على الحرّم ؛ فالحرّم ، جمع حرمة ، وهى  
عيال الرجل ونساؤه ، يريد : أن الموت أكرم ضيف ينزل عليهن ، وفى هذا  
المعنى قولهم .. دفن البنات ، من المسكرات ، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى  
فى باب النساء ، وقوله : وكنت أبقي عليهما : من أبقيت عليه : إذا أرعيت عليه  
ورحمته « ... وقال عمران بن حطان - وقد كان رأس القعد من الصفرية  
« طائفة من الخوارج ، وكان خطيبهم وشاعرهم ، وهو من التابعين - :

لقد زاد الحياة إلى حُبّا بناتٍ أنهن من الضعاف  
مخافة أن يرين البؤس بعدى وأن يشربن رنقا بعد صاف  
وأن يعرين إن كسى الجوارى فتلبوا العين عن كرم عجاف  
ولولا ذاك قد سومت مهرى وفى الرحمن للضعفاء كاف  
أبانا من لنا إن غبت عنا وصار الحى بعدك فى اختلاف

« الرنى : الماء البكر ، وكرم : قال ابن سيده وغيره : رجل كرم :  
أى كريم ، وكذلك الائتان والجمع والمؤنث تقول : امرأة كرم ونسوة كرم  
لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عجفاء على غير قياس ، والضعف : الهزال  
وسومت مهرى : فالخيل المسومة : المرسلة وعليها ركبائها ، وفى التنزيل العزيز :  
والخيل المسومة ، من قولك سومت فلانا إذا خلّيته وسومة ، أى : وماريد ، وقيل  
الخيل المسومة : هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمتدح ابنه إبره به ، وهى من أبيات الحماسة :

رأيت رباطا حين تم شباؤه وولى شبابى ليس فى بره عتب  
إذا كان أولاد الرجال حرازة فانت الحلال الحلو والبارد القذب

لنا جانب منه دميثٌ وجانبٌ إذا رآتهُ الأعداءُ مُمتنعٌ صعبٌ  
وتأخذهُ عند المكارمِ هزةٌ كما اهتزت تحت البارحِ الغصنُ الرطبُ  
«قوله ليس في برِّه عتبٌ: يريد ليس في بره لومٌ ولا سخطٌ، وقوله :  
إذا كان أولاد الرجال حرازةً، فالحرازة: وجع في القلب من غيظٍ ونحوه  
والجمع حرازات، وتروى: إذا كان أولاد الرجال مرارةً، وهي الأنسبُ  
بقوله فانت الحلال الحلو، يكنى به عن الرجل الذي لا رية فيه، على المثل بالحلو  
الحلال مما يُذاق، يصف طيب أخلاقه، وقوله: دميث: أى سهل لين،  
والبارح: الريح تهب من الشمال في الصيف خاصة،

وقال عمرو بن شأس - وهو شاعر فارس شهد مع سيدنا رسول الله الحديبية  
وكانت امرأته تُؤذى ابنه عراراً - وكان من أمة سوداء - تُعيرُهُ بالسواد  
وتشتُمُهُ، فلما أعتيتُ أباه عمراً أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتاً اختار منها  
أبو تمام هذه الأبيات :

أرادت عراراً بالهوانِ وإن يرد	عراراً لعمري بالهوانِ فقد ظلم
فإن كنتِ منى أو تريدنِ صحبتي	فكوني له كالسمنِ ربَّ له الأدم
وإن كنتِ تهوينِ الفراقَ ظيعتي	فكوني له كالذئبِ ضاعت له الغنم
ولأفيري مثلَ ماسارٍ راكِب	تجشمَ خيلاً ليس في سيره يتم
وإن عراراً إن يكن ذا شكيمة	تفاسيتها منه فما أملكُ الشيم
وإن عراراً إن يكن غيرَ واضح	فإن أحبَّ الجوزَ ذا المنكبِ العقم

«قوله: فإن كنت منى: نقل الكلام من الإخبار إلى الخطاب. ومعنى فإن كنت منى: وإن  
كنت توافيني، من قولهم فلان منياً. أى: يوافقنا. وقال الموصلي: معناه: فإن كنت  
مثل نفسي سيدة، وقوله: أو تريدنِ صحبتي: أى أو تكونين مثل غيرك في المعيشة لا حظ

لها في السيادة ، وقوله : فكوني له كالسمن : أى كوني له كالسمن الذى لا يتغير ،  
والرب : خلاصة التمر بعد طبخه وعصره ، والأدم : اسم جمع للأديم وهو الجلد  
المدبوغ ، يريد الأسقية التى يجعل فيها الرب . وكانت العرب تدهن وعاء السمن  
بالرب لتمنع فساده ويزيد في طيب ريحه ، فقوله : رُبَّ له الأدم : أى جعل فيه  
الرب لئلا يفسد ، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول : وإن كنت تؤثرين  
مفارقى مصمة على ذلك فكوني له ذئبا أهملت له الغنم يعيث فيها ، ويقال لزوج  
الرجل : ظعينة ، وهى مقيمة ، والأصل في الظعينة المرأة فى هودجها وهى سائرة ،  
وقوله : وإلا فسيرى الخ ، فالخمس : فلاة بعد ماؤها حتى إر الإبل لتترده فى اليوم  
الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه وصدرت ، واليتم : الفتور والتقصير  
والإبطاء ، يقول : وإلا فارقنى وسيرى سير راكب تكلف ورود الماء  
للخمس ، وقوله : وإن عرارا... البيت ، فالشكيمة : شدة النفس وإباؤها ، والشيمة :  
الخلقة ، وكان عرار هذا حديد القلب ذرب اللسان ، يقول : لا أقدر على  
تغيير خلقه ، وإما أن تلاميذه على ما تقاسينته من حدته ، وإما أن تفارقين فإنه أحب  
إلى منك ، وقوله غير واضح : أى غير أبيض : مستعار من وضح الصبح  
وهو يياضه ، والجون هنا : الأسود المشرب حمرة ، والمنسكب : مجتمع عظم  
العضد والكتف ، يصفه بالقوة والشدة ، والعم : التام ، قالوا : كان عرار  
هذا أحد فصحاء العقلاء ، توجه عن المهلب بن أبى صفرة إلى الحجاج رسولا  
في بعض فتوحه ، فلما مثل بين يدي الحجاج لم يرفه ، وازدراه ، فلما استنطقه  
أبان وأعرب ماشاء وبلغ الغاية والمراد في كل ما سأل ، فأنشد الحجاج  
متمثلا :

أرادت عرارا بالهوان ومن يُريد عرارا لعمري بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا - أيد الله الأمير - عرار ، فَأُعْجِبْ بِهِ وبذلك الاتفاق .

\*\*\*

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ماقلوا في صلة الرحم ، والرحم في الأصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحماً ، فالرحم : خلاف الأجنبي ، وقال ابن الأثير : ذُو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب - قرابة - ويطلق في الفرائض - علم المواريث - على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِمَ ورَحِمَ ورَحِمَ ، وهى مؤنثة ، قال زهير بن أبي سُلي :

خُذُوا حَظَّكُمْ يَا آلَ عِكرِمَ واذكروا

أواصِرنا والرَّحِمُ بِالْغَيْبِ مُنْذَرٌ<sup>(١)</sup>

ومما ورد في صلة الرحم : قوله جل شأنه : واتقوا الله الذى تَسَاءَلُونَ به والأرحامَ . أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وفي قراءة : والأرحام بالخفض ، وإذن يكون المعنى : تساءلون به وبالأرحام ، وهو قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . . . ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرحم شُجْنَةٌ من الله - وفي رواية : من الرحمن - معلقةً بالعرش تقول اللهم صلْ مَنْ وَصَّأْنِي واقطعْ مَنْ قَطَعَنِي ... وقال الجوهري : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بينى وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجون : أى ذو مُسَعَبٍ وامتساك بعضه ببعض ، وعبارة أبى عبيدة في تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبه بذلك مجازاً واتساعاً ، وأصل الشجنة . شعبة من غصن

(١) من أبيات جميلة تراها في خزانة البغدادى ج ٢ ص ٢٨٧ « طبعة السلفية »

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعاً في الرحم المشتبكة ، وقال عبد الله بن أبي أوفى : كُنّا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا يجالسنا قاطعُ رحمٍ ، فقام شاب ، فأثني خالته له ، - وكان بينه وبينها شيء - فأخبرها بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه فأخبره ، فقال النبي : إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم . وفي الحديث : من أحبَّ أن يُبَسَّطَ له في رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ له في أَجَلِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ، يُنْسَأُ : يُؤَخَّرُ ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَأةٌ في المال مَثْأَةٌ في الأثر . مَثْأَةٌ : مَفْعَلَةٌ مِنَ اللَّسِّ أَي مَظَنَّةٌ لَهُ وَمَوْضِعٌ ، وَالْأَثَرُ : الْأَجَلُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : لَا تَسْتَنْسُوا الشَّيْطَانَ أَي إِذَا أَرَدْتُمْ عَمَلًا صَالِحًا فَلَا تُؤَخِّرُوهُ إِلَى غَدٍ وَلَا تَسْتَمْهِلُوا الشَّيْطَانَ ، يُرِيدُ : أَنَّ ذَلِكَ مُهْلَةٌ مُسَوَّلَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر : البركة والخير والسعادة ورفاعة العيش ، وللعلماء في ذلك كلام كثير راجعه في المطولات ...



وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم : مَنْ كَانَ مِنْهُمْ يُؤَثِّرُ أَقْرَبَاءَهُ بِالْوَلَايَاتِ وَالْعِمَالَاتِ وَإِسْنَادِ أُمُورِ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ - بِعَدِّ كِفَايَةِ الْأَقْرَبَاءِ وَاسْتِحْقَاقِهِمْ - لِلْبَرِّ صِرْفًا ، أَي امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ فِي وَجُوبِ صِلَةِ الرَّحِمِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يُؤَثِّرُ الْأَجَانِبَ وَيُقْصِي الْأَقَارِبَ وَيَحْرِمُهُمْ أَعْمَالَ الدَّوْلَةِ . فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْبَرِّ أَيْضًا ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ إِمْعَانًا فِي التَّوَرُّعِ وَالتَّائِمِ وَرَكَّامًا يَرِيبُ إِلَى مَا لَا يَرِيبُ ... وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْخَلِيفَةُ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَانَ عَمْرُؤُا يَمْنَعُ أَقْرَبَاءَهُ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ ، وَأَنَا أُعْطِي قَرَابَاتِي لَوَجْهِ اللَّهِ ، وَلَنْ يُرَى مِثْلُ عُمَرَ ... فَنَأْمَلُ قَوْلَهُ : وَلَنْ يُرَى مِثْلُ عُمَرَ ... أَي لَنْ يَبْلُغَ إِنْسَانٌ مَبْلَغَهُ فِي

الحزم والسياسة الرشيدة وَصَبِطُ النفس أَنْ تَسْتَرْسل مع ما يُشبه الهوى ...  
يعنى أَنَّ عُمَرَ أَفْضَلُ مِنِّي ، رَضِيَ اللهُ عَنْ الْجَمِيعِ ..

\*\*\*

ومما يروى فى معنى حث الأقارب على التعاون : أَنَّ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ  
حَكِيمَ الْعَرَبِ دَعَا أَوْلَادَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ ، فَاسْتَدْعَى بِضَامَةً مِنَ السَّهَامِ « أَى حُزْمَةٍ  
مِنهَا ، لَفَةٍ فِي الْإِضْمَامَةِ » وَتَقَدَّمَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَكْسِرَهَا ، فَلَمْ يَقْدِرْ وَاحِدٌ  
عَلَى كَسْرِهَا ، ثُمَّ بَدَّدَهَا وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَكْسِرُوهَا ، فَاسْتَسْلَمُوا كَسْرَهَا ، فَقَالَ :  
كُونُوا بِجَمْعَةٍ ، لِيَعْمَرَ مِنْ نَارِكُمْ « أَى عَادَاكُمْ ، عَنْ كَسْرِكُمْ ، لَعَجُزَكُمْ ...  
وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

إِنَّ الْقِدَاحَ إِذَا اجْتَمَعْنَ قَرَأَتْهَا بِالْكَسْرِ ذُو حَرْدٍ وَبَطْشٍ أَيْدٍ (١)  
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ ، وَإِنْ هِيَ بُدِّتْ فَالْوَهْشُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ  
وَقَالَ آخَرُ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ ذُلَّ قَبِيلَةٍ رَمَاهَا بِتَشَاتِيهِ الْهَوَى وَالتَّخَاذُلِ  
« وَهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي الْأَقَارِبِ يُقَالُ فِي كُلِّ جَمَاعَةٍ بَيْنَهُمْ حُلْمَةٌ تَجْمَعُهُمْ ، مِنْ  
وَطْنٍ وَغَيْرِ وَطْنٍ ، وَمَا يَرُوى : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ قَتَلَ ابْنَ أَخِيهِ ، فَدَفَعَ  
إِلَى أَخِيهِ لِيَقْتَادَ مِنْهُ فَلَمَّا أَهْوَى بِالسَّيْفِ أُرْعِدَتْ يَدَاهُ ، فَأَلْقَى السَّيْفَ مِنْ  
مِنْ يَدِهِ وَعَقَّا عَنْهُ ، وَقَالَ : - وَالْبَيْتَانِ فِي الْحَمَاسَةِ - :

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان : الغضب والغبط ، قال الأشهب  
ابن رُمَيْلَةَ :

أَسْوَدُ شَرِّى لَأَقْتَ أَسْوَدَ خَفِيَّةٍ تَسَاوَوْا عَلَى حَرْدٍ دِمَاءِ الْأَسَاوِدِ  
وَالْأَيْدِ : الْقَوَى

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعَزِيَةً . إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْهُ وَلَمْ تُرِدْ<sup>(١)</sup>  
يَكْلَاهُمَا خَلْفَ مَنْ فَقَدِ صَاحِبَهُ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي<sup>(٢)</sup>  
وفي مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وَعْلة الذُهلي - وهي من  
أبيات الحماسة - :

قَوِي هُمْ قَتَلُوا، أَمْسِمَ، أَخِي      فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي  
فَلَيْنَ عَنَوْتُ لَا عَفْوَنَ جَلَلًا      وَلَيْنَ سَطَوْتُ لَا رَهْنَنَ عَظْمِي  
لَا تَأْتِنَنَ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ      وَبَدَأْتَهُمُ بِاللَّشْمِ وَالرَّغْمِ  
أَنْ يَأْبُرُوا نَحْلًا لِغَيْرِهِمْ      وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْبَغِي  
وَرَعْمُهُمْ أَنْ لَا حُلُومَ لَنَا      إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لَدَى الْحِلْمِ  
وَوِطِئْتَنَا وَطَأً عَلَى حَتَقِي      وَطَأَ الْمُقَيَّدُ نَابِتَ الْهَرَمِ  
وَرَكَّتْنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمٍ      لَوْ كُنْتَ تَسْتَبْقِي مِنَ اللَّحْمِ

• يقول في البيت الأول : قَوِي - يا أَمِيمة - هم الذين قَتَعُونِي بِأَخِي  
وَوَرَّعُونِي فِيهِ ، فَإِذَا حَاولتِ الانتصارَ مِنْهُم عادَ ذلكَ بِالنكَايةِ فِي نَفْسِي ،  
لأنَّ عِزَّ الرَّجُلِ بَعشِيرَتُهُ . وَهَذَا الْكَلَامُ تَحْزُنٌ وَتَفْجُوعٌ وَلَيْسَ بِأَخْبَارٍ . وَقَوْلُهُ :  
فَلَيْنَ عَفَوْتُ ... الْبَيْتِ . يَقُولُ : إِنْ تَرَكْتُ طَلِبَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ صَفَحْتُ  
عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ . وَإِنْ انْتَقَمْتُ مِنْهُمْ أَوْهَنْتُ عَظْمِي : أَيْ أَضَعَفْتُهُ ، وَيُقَالُ :

- (١) تَأْسَاءُ : تَفْعَالٌ مِنَ الْإِسَاءَةِ ، يَقُولُ : أَعَزَى النَّفْسَ عَنْهُ مَتَأْسِيًا بِغَيْرِي مِمَّنْ  
قَتَلَ وَلَدَهُ ، وَقَوْلُهُ إِحْدَى يَدَيَّ : مُبْتَدَأٌ ، وَأَصَابَتْهُ خَبَرٌ ، وَلَمْ تُرِدْ : فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ، وَالْجُمْلَةُ  
فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لِقَوْلِهِ أَقُولُ  
(٢) يَقُولُ : كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَبْنَاءِ الْمَفْقُودِ يَصَاحُ لِأَنَّهُ يَرْضَى بِهِ عَرْضًا  
مِنْ فَقْدَانِ الْآخَرِ

عقوت من الذنب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجلال : من الأضداد : يكون الصغير ويكون العظيم ، وهو المراد ههنا . وقوله : لا تأمننّ قوما ... البيتين ، حوّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّداً ، والرغم : مصدر رغمت فلانا : إذا فعلت به ما يُرغمُ أنفه ويُذله ، وقوله : أن يأبروا : في موضع نصب على البدل من قوما في البيت الذي قبله ، كأنه قال : لا تأمننّ أبرّ قوم ظلمتهم نخلا لغيرهم ، يقال : أبرّت النخل وأبرّته : إذا لَقَحْتَه . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن ينتقموا منك فنشتفي أعداؤك منك ، فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إن ظلمتونا تحوّلنا عنكم ، فلا يكون لكم بعدنا مُقَامٌ - إقامة - فتحولون أو يملككم العدو ، فيكون ما أبرّنا نحن وأنتم ، لهم دوتنا ودونكم ، وقال أبو العلاء المدي : قد اختلف في معنى هذا البيت ، فقيل : أراد أنه يُفَارِقُهُمْ وَيَهْبِطُ هو وقومه أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيدفونهم عنه ويأبرونه ، كأنه يتهدّدهم بترّخله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذلّ ، واستدلوا على هذا الوجه بقوله في القصيدة :

قَوْضِ خِيَامَكَ وَالتَّمِيسِ بِلَدًا يَنْأَى عَنِ الْغَاشِيكِ بِالظُّلَمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التي قد أبرت ، إذ كان عدوهم ينال غرضه منهم إذا أعانته عليهم ، وقيل : بل عني أنه يسبي نساءهم فتوطأ فيكون ذلك كالإبار الذي هو تلقيح النخل . قال التبريزي : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب مما تقدم ، لأنهم يكنون عن النخلة بالمرأة . وقوله : ورعتم أن لاحلوم لنا : فأكثر ما يستعمل الزعم فيما كان باطلا أو فيه آرتياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كتابة عن التنبية ،



واختلف في أول من قرعت له العصا ، ف قيل عمرو بن الظرب العدواني وقيل عمرو بن جُحمة الدوسي ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حَكَمًا للرب يتحاكون إليه في كل مُعْضَلَة ، قالوا : إن العرب أتوا عمرو بن حُجمة يتحاكون إليه ، فغَلِطَ في حكومته - وكان قد أَسَنَ - فقالت له ابنته : إنك قد صِرْتَ تَهْمُ في حكومتك - أي تغلط - فقال : إذا رأيت ذلك مني فأقرعي العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فِظَن . يقول : زعمتم أنه لا عقول لنا وأنا سفهاء ، فإن كان الأمر على ما زعمتم فنبهونا أنتم ، وهذا تهكم من الشاعر بهم ، وقوله : وَوَطِئْتَنَّا ... ألبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهزم : شجر ، أو البَقْلَة الحماة - هي التي تُسَمَّى الرَّجْلَة - ، أو ضَرْبٌ من الحِمَض فيه مُلوْحَةٌ وهو أذله وأشدّه انبساطا على الأرض واستبطاحا ... وفي المثل : أذل من الهرمة ، يقول : وأثرتُ فينا تأثير الحنق الغضبان كما يؤثر البعير المُقَيَّد إذا وَطِئَ هذا النبات الضعيف ، وَخَصَّ المقيد لأن وطأته أثقل ، لأنه لا يتمكن من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقائه أقل . ومن قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الدليل ، أي من أن يطأني ، لأن وطأته أشد لسوء ملكته ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفْخَرْ عليك كفاخيرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبْكَ مثلُ مُغَلَّبٍ  
وخص النبات وأراد : الحديث النبات ، وهو أغصن له وأرق ، ويروى :  
يأيس الهرم ، وقوله وتركنا لما على وضم : فالوضم : الخشبة التي يَصْعُ  
الجزار اللحم عليها يُوقى بها اللحم من الأرض ، أو تقول : خوان الجزار ، وقد تقدم  
يقول . تركنا لدفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لو كنت  
تسبقني من اللحم ، أي لو كنت تترك بقية ، قال النربزي : جعل ذلك مثلا

لاستفساده لهم وسماحته بهم ،

\*\*\*

والعرب تقول في العطف على القريب والحمية له وإن لم يكن وادًا :  
« أَفْنَكْ مِنْكَ وَإِنْ ذَنْ <sup>(١)</sup> » وَعِصْكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشِبَا <sup>(٢)</sup> وقال  
قائلهم - وهو حريث بن جابر - :

إذا ظَلِمَ المولى فَزَعْتُ لِظَلَمِهِ خَرَّكَ أَحْشَائِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا <sup>(٣)</sup>  
وقيل لأعرابي : ماتقول في ابن العم ؟ فقال عَدُوُّكَ وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ ، . ولما  
مات عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ بكى عليه أخوه أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ ، فقيل له : أتبكي  
عليه وقد كان يريد قَتْلَكَ ؟ فقال : حركني للبكاء عليه ارتكاضنا في بطن ،  
وَارْتِضَاعُنَا مِنْ ثَدْيٍ . . . ودخل رجل من أشرف العرب على بعض الملوك ،  
فسأله عن أخيه . فأوقع به يَعيْبُهُ وَيَشْتُمُهُ ، وفي المجلس رجلٌ يَشْتُوهُ -  
يُبْغِضُهُ - فشرع معه في القول ، فقال له : مَهْلًا ! إِنِّي لَا أَكُلُ لَحْمِي وَلَا أَدْعُهُ  
لَأَكُلَ . . . وقال الشاعر - قيل هو زرارَةُ بْنُ سُبَيْعٍ ، وقيل فضلة بن خالد ، وقيل  
دودان بن سعد ، وكلهم من بني أسد ، شعراء جاهليون ، والآيات من الحماسة :

لَعَمْرِي لَرَهْطُ المَرءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ عَلَيْهِ وَإِنْ عَالُوا بِهِ كُلُّ مَرَكَبٍ  
مِنَ الْجَانِبِ الْأَقْصَى وَإِنْ كَانَ ذَاغِيٌّ جَزِيلٌ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرَّبٍ

(١) ذَنْ أَنْفُهُ يَذَنْ : إذا سال ، والذنان والذنين : الخياط الرقيق الذي يسيل من  
الأنف (٢) العيص : منبت الشجر ، والأشب : الملتف ، ومعنى المثل : أصلك منك  
وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل : أى أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف  
ماتريد ، فاصبر عليهم فإنه لا بد منهم . .

(٣) هز الكلب يهر هريراً : إذا نبج وكشر عن أنيابه ، ومن طبع الكلب أن  
يهز دون أهله ويذب عنهم

إذا كنت في قوم عدى لست منهم فكل ما علفت من خبيث وطيب  
« عالوا به يريد : علّوا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن  
حمله مالا يستطيع ، ومن الجانب الآخر ، يريد : من الحى الأبعد ، وقوله :  
ولم تك منهم ، يروى : \* إذا كنت في قوم عدى لست منهم \*  
وعدى بالكسر : غرباء ، فأما قوم عدى فقد ورد فيها الضم والكسر  
وقوله : فكل ما علفت : فهذا مثل ، يريد به : المسألة والمداورة ، ويروى للشاعر  
بعد هذا البيت :

فإن حدثتك النفس أنك قادرٌ على ما حوث أيدي الرجال فكذب  
\* \* \*

وقد يما أكثروا من شكوى الأقارب : من جهة أنهم يحكم تجاورهم  
وقرباتهم أدنى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأنسهم بك  
رحما أشدهم بك لدغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يُستصاح فسادهم  
بشيء من الحيل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة في  
الملوك ... ولذلك شكوا من أن عداوة الأقارب أشد على النفس من عداوة  
الاباعد فقالوا : - والفائل طرفة بن العبد - :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند  
وقال الشريف الرضى :

وللذل بين الأقربين مضاضة والذل ما بين الأباعد أرواح  
وإذا أتتك من الرجال قوارص فسيهاؤ ذى القربى القربة أجرح<sup>(١)</sup>  
فمنهم من يحلم ويبقى على مقتضيات القرابة ، ويتجافى عن ذنوب

(١) القوارص : جمع قارصة وهي الكلمة المؤذية قال الفرزدق :

قوارص تأتي وتحترونها وقد يملأ القطر الإناء فيقع

أقربائه على الرغم من عدائهم ، فيقولون - والقائل محمد بن عبد الله الأزدي -  
صحابي جليل - وهذه الأبيات في الحماسة - :

لَا أُدْفَعُ ابْنَ الصَّمِّ يَمْشِي عَلَى شَفَا      وَإِنْ بَلَغْتَنِي مِنْ أَذَاهُ الْجَنَادُ  
وَلَكِنْ أُوَاسِيهِ وَأُنْسَى ذُنُوبَهُ      لَسْتُ رَجَعُهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ  
وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ وَسُوءِ صَنِيعَةٍ      مَنَاوَاةُ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ

«الشفاء» : حرف الشيء وحده ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف .  
والجنادع في الأصل - كما قال أبو حنيفة الدينوري - : الجنادب الصغيرة ، وجنادب .  
الضب : دواب أصغر من القردان تكون عند جحره فإذا بدت هي  
عُلم أن الضب خارج فيقال حيثئذ : بدت جنادعه ، ثم قيل لأوائل الشر :  
بدت جنادعه ، يقول الشاعر : لا أدفعه يمشي على حدّ الهلاك وإن بالغ في  
الإساءة ، والمناوأة : المداواة ، وأصله الهمز يقال : ناواه مُناوأة : أى عاده ،  
وقوله : وإن قيل قاطع : يريد : وإن قيل في ذى القربى إنه قاطع لرحمه فلا  
يحملك ذلك على مناواته ، وقال الفضل بن العباس بن عُتْبَةَ بن أبي لُحَب :  
مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا      لَا تَنْبِشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا  
لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا وَتُسْكِرَ مَكْمُ      وَأَنْ تَكُفَّ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتُوْذُونَا  
مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مِنْ نَحْتِ أَثْلَتْنَا      سِيرُوا رُويْدًا كَمَا كُنْتُمْ تَسِيرُونَا  
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُحِبُّكُمْ      وَلَا تَلُومُكُمْ إِنْ لَمْ تَحْبُونَا  
كُلُّهُ رِيْسَةٌ فِي بُغْضِ صَاحِبِهِ      بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

«مهلا» : يريد : رفقوا وسكونا لاتعجلوا ، ويريد بنى عمه : بنى أمية ، وقد  
كان في صدورهم أحقاد ، وقوله لاتنبشوا : يريد لاتستخرجوا ما كان بيننا

من المداوة مدفونا في الصدور، وقوله : من نحت أثنتنا ، فالأثلة : واحد الأثل وهو من العَضاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقذاح والجفان ونحتها : قشرها أو نشرها ، يريد : هلا بني عمنا في إظهار المثالب والمعايب التي تلصقونها بنا ، وقوله : كل له نية الخ يريد : إنا وإياكم لعلى طرفى نقيض نحن نبغضكم لاغتصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قربائنا من النبي صلوات الله عليه ، وقلاه يقلبه قلى : أبغضه ، وقد حذف نون الرفع من تقولنا ضرورة »

وقال ذو الأصبع العدواني :<sup>(١)</sup>

لولا أواصر قرىي لست تحفظها ورهبة الله في مؤلى يعاديني  
إذن برئيتك برياً لا انجبار له إني رأيتك لا تنفك تبريني

\*\*\*

ومنها من اضطر إلى الانتقام من أقاربه : أو من تربطه بهم آصرة مائمه  
تأسف ، فقال قيس بن زهير في ذلك :

شفت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شقاني  
قتلت ياخوتي سادات قومي وقد كانوا لنا حلى الزمان  
فإن أك قد بردت بهم غليلى فلم أقطع بهم إلا بناني  
وقال النمرى :

فإنك حين تبلغهم أذاه وإن ظلموا لمحترق الضمير

(١) واسمه حُرثان بن الحارث بن محرز ، شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية ، وبيتاه هذان من قصيدة له في ابن عم له اسمه عمرو وهى قصيدة بارعة جدا أولها :

يامن لقلب شديد الهم محزون أمسى تذكّر ليلي أم هارون  
وقد ترجم له صاحب الأغاني ، انظر الجزء الثالث طبعة دار الكتب ،

وقال المتنبي في ذلك :

وكيف يَتَمُّ بأُسْكٍ في أناسٍ تُصِيبُهُمْ فَيُؤْلِمُكَ المَصَابُ  
وقال البحترى من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العباسى ويذكر  
صلح بني تغلب :-

وفِسانٍ هَيَجَاءِ تَجِيئُشُ صَدُورُهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيقَ دُرُوعُهَا  
تُقَتِّلُ مَنْ وَتَرٍ أَعَزَّ نَفُوسِهَا عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَاتَكَادُ تُطِيعُهَا  
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتْ القُرْبَى فَفَاضَتْ دَمُوعُهَا  
وقال سيدنا على كرم الله وجهه - حين تصفح القتلى يوم الجبل : شَفَيْتُ  
نَفْسِي ، وَجَدَعْتُ أَنْفِي - وسيمر بك هذا الكلام بتمامه في موضع آخر من هذا  
الكتاب ... ومنهم من يركب رأسه وَيُخِيبُ في عِدَاءِ أَقَارِبِهِ خَبًا وَلَا يَبَالِي -  
وقد قال قائلهم - أوس بن حَبْنَاءِ التَّمِيمِي :-

إِذَا المَرْءُ أَوَّلَاكِ المِهْوَانَ فَأَوَّلُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَاصِرُهُ

\*\*\*

ويبلغ الحق بهذا الصنف من الناس أن يظاهر الأجنبي على القريب  
وقد شبه العرب هذا الصنف بذئب السوء قال الفرزدق :-  
وَكُنْتُ كَذَيْبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَيْ دَمًا بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدِّمِّ  
« وهو معلوم أن الذئب إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله ، وإنه  
لبديهي أن هذا التماؤ للآجنبي على القريب لا يُشعر إلا بالضرر الموبق ، وقد  
قال قائلهم في ذلك - وهو أبو يعقوب الخَرَيْمِيُّ :-

كَانُوا بَنِي آمٍ فَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ عَدَمُ العُقُولِ وَخِفَةُ الأَحْلَامِ

\*\*\*

وقد ورد في علاج العداء الذى يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكَّن ... ولكنه لا علاج غيره - قولُ أَكْمَ بنِ صَيْفِي حَكِيم العرب : تَبَاعَدُوا فِي الدِّيارِ تَقَارَبُوا فِي المَوَدَّةِ ... وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : مُرْ ذَوَى القَرَابَاتِ أَنْ يَتَزَاوَرُوا وَلَا يَتَجَاوَرُوا ... وقال في هذا المعنى وزاد شاعر جاهلى من بنى أسد - وكان له ابن عم يترصد له موافع السوء :-

دَاوِ ابْنَ عَمِّ السُّوءِ بِالنَّأْيِ وَالْغِنَى      كَفَى بِالْغِنَى وَالنَّأْيِ عَنْهُ مُدَاوِيَا  
يُسَلُّ الْغِنَى وَالنَّأْيُ أَدْوَاءَ صَدْرِهِ      وَيُسَيِّدُ التَّدَانِي غِلْظَةً وَتَقَالِيَا  
أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ      كَفَى الدَّهْرُ لَوْ كَلَنَهُ بَنَى كَافِيَا  
« النَّأْيُ : البعد ، والغنى : مصدر غَنِيَ عن الشيء يَغْنَى : استغنى عنه  
وَاطْرَحَهُ فلم يلتفت إليه ، وَيُسَلُّ : ينتزع برفق ، وَأَدْوَاءُ صدره : أضغاثه  
وَأَحْقَادُهُ ، وَالتَّدَانِي : يريد إظهار التقارب منه ، وَتَقَالِيَا : تباعضا ، وَحَكَ  
بَرَكُهُ : فالحك : إمرار جرم على جرم ، والبرك في الأصل : كل كل البعير ،  
وهو صدره الذى يدك به ماتحته ، استعاره لادهر ، وتوله . كفى الدهر الخ : يريد :  
كفى حدان الدهر وَحْدَهُ في الاساءة فلا تكون إغاثته وحادث الدهر ماعليه »

\*\*\*

ومن كلامهم في الإخوة : ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
حَقُّ كَبِيرِ الإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ حَقُّ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ... وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَةَ  
حَضَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَكَلَّمَ أَصْغَرُهُمْ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :  
أَلَكَبَرُ السَّكْبَرُ ... « الكبر : جمع الأَكْبَر ، كَأَخْرَجَ وَحُرَّ : أى ليبدأ الأَكْبَرُ  
بالكلام ، أَرَقَدُوا الأَكْبَر ، إرشادا إلى الأدب في تقديم الأَسْنِ » وقيل  
لحَكِيم معه أخ أكبر منه : أهذا أخوك ؟ فقال بل أنا أخوه ...  
وكان بين الحسن والحسين رضى الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : ادْخُلْ

على أخيك فهو أكبر منك ، فقال : إني سميتُ جدِّي صلى الله عليه وسلم  
يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقه  
إلى الجنة ، وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر ، فبلغ قوله أخاه ، فأتاه  
عاجلا وأرضاه ...

\*\*\*

ومما يتصل بالإخوة وينشعب به القول في هذا الباب : ما روى في الأخوين  
يختلفان في النجابة والتخلف والحسن والدمامة ، فهذا كئيس ربيع ، وهذا أحق  
وضيح ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعي : لم يقل أحد في تفضيل أخ على  
أخ وهما لأب وأم مثل قول ابن المعتز لأخيه صخر :

أبوك أبي وأنت أخى ولكن تقاضلت المناكب والرؤس  
وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته وكلُّ يهتدي به إلى المعجد والد  
وتختلف الأئمار في شجراتها إذا شيرقت بالماء والماء واحد

وقال رجل لأخيه : لأفجوتك ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لايك  
وأملك ؟ فقال :

غلام أماه اللؤم من شطر نفسه ولم يأت به من شطر أم ولا أب  
وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخ صبيح ، ما أملك  
إلا شجرة البلوط ، تحمل سنة بلوطاً وسنة عفصاً<sup>(١)</sup> وفي هذا المعنى  
يقول آخر :

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : تترى يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه



أَمَّا رَأَيْتَ بَنِي بَدْرٍ وَقَدْ خُلِقُوا كَأَنَّهُمْ خُبْزٌ بَقَالٍ وَكِتَابٌ (١)

### قطيعة الإخوة

ومما جاء في قطيعة الإخوة وتبريرها — والقطيعة الهجران ، ضد الصلة — : ما روى أنه قيل لأعرابي : لِمَ تَقْطَعُ أَخَاكَ شَقِيْقَكَ ؟ فقال : أَنَا أَقْطَعُ الْفَاسِدَ مِنْ جَسَدِي الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْهُ ، فَكَيْفَ لَا أَقْطَعُهُ إِذَا فَسَدَ ! وكتب الفضل بن سهل الوزير إلى المأمون — الخليفة العباسي — : أما بعد ، فإن المخلوع — يريد الأمين أخا المأمون — وإن كان قسيمَ أمير المؤمنين في النَّسَبِ وَاللَّحْمَةِ ، فَقَدْ قَرَّقَ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَهُمَا فِيمَا اقْتَضَى عَلَيْنَا مِنْ تَبَا نُوْحٍ ، فَقَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا صَلَوةَ لِأَخِي فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا قَطِيْعَةَ مَا كَانَتِ الْقَطِيْعَةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَالسَّلَامُ . . . وَقِيلَ لِبُزْرِجَهْرٍ : أَخُوكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ صَدِيقُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَحَبُّ أَخِي إِذَا كَانَ صَدِيقًا . وَيَقَالُ : الْقَرَابَةُ مَحْتَاجَةٌ إِلَى الْمَوَدَّةِ ، وَالْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ ، وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ فَاطِمًا وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ

### الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائل يُجَاهِ البنات — وكذلك الناس إلى يومنا هذا — فريقين — : فَأَمَّا فَرِيقٌ فَقَدْ كَانُوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونَ عَلَيْهِنَّ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ مَا يُرْوَى أَنَّ مَعْنَ بْنَ أُوَيْسَ الْمُزَنِّيَّ — شَاعِرَ إِسْلَامِيٍّ مِنَ الْفُحُولِ —

(١) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما إليه

كان مِثْنَانًا - وكان له ثمان بنات ، وكان يُحْسِنُ حُبَّتَهُنَّ وَتَرَبَّيَتْهُنَّ ، فَوَلِدَ لِبَعْضِ عَشِيرَتِهِ بِنْتًا ، فَكَرِهَهَا وَأَظْهَرَ جِزْعًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَعْنُ :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَكْرَهُونَ بَنَاتِهِمْ

وَفِيهِنَّ - لَا تُكْذِبُ - نِسَاءُ صَوَالِحٍ  
وَفِيهِنَّ - وَالْأَيَّامُ يَعْتَرْنَ بِالْفَتَى - عَوَائِدُ لَا يَمْلِكُنَّهُ وَتَوَائِحُ  
وَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْمَاصِ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ ، فَقَالَ : مَنْ  
هَذِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ تَفَاحَةُ الْقَلْبِ ؛ فَقَالَ : انْزِدْهَا عَنكَ ، قُلْ :  
وَلَمْ ؟ قَالَ : لَا تَهْنِ يَلِدَنَ الْأَعْدَاءُ ، وَيُقَرِّبُنَ الْبُعْدَاءَ ، وَيُؤَرِّثُنَ الضَّغَائِنَ <sup>(١)</sup> .  
فَقَالَ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمْرُو ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا مَرَضَ الْمَرْضَى وَلَا نَدَبَ الْمَوْتَى وَلَا  
أَعَانَ عَلَى الْإِحْزَانِ وَمِثْلُهُنَّ ، وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ خَالًا قَدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ؛ فَقَالَ  
لَهُ عَمْرُو : مَا أَعْلَمُكَ إِلَّا حُبَّتَهُنَّ إِلَى ..

وقال بعضهم : البناتُ حسناتٌ . والبنونَ نعمٌ ، والحسناتُ مُثَابٌ عَلَيْهَا ،  
وَالنَّعَمُ مُسْتُولٌ عَنْهَا ...

\*\*\*

وأما الفريق الآخرُ فيكره البنات : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ  
وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ - كما قال سبحانه وتعالى - وَتَدِيمًا قَالُوا : نَعَمْ  
الْحَتَنُ الْقَبْرِ <sup>(٢)</sup> ... وَدَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ ...

\* وَمَا تَحَتَّنُ فِينَا أَعْفُ مِنَ الْقَبْرِ \*

ونظر أميرانيُّ إلى بنت تُدْفِنُ ، فَقَالَ : نَعَمْ الصَّهْرُ صَاهِرُكُمْ ... وَقَالَ

(١) يُوْرَثُ : من أُوْرَث النار : أوقدها (٢) الحتن : زوج البنت

الحسين بن علي رضي الله عنه : والد الميت مُتَمَبِّ ، والدُ يَتَمَتِّنِ مُثَقَّلُ ،  
 ووالد ثلاث فعلى الناس أن يُعِينُوهُ ... وقال الزهري : كانوا لا يَرَوْنَ علي  
 صاحب ثلاثِ بَنَاتٍ صَدَقَةً ولا جِهَادًا ... وكانت العربُ لا تأكل طعامَ  
 صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إذا ما المرءُ شَبَّ له بَنَاتٌ عَصَبِنَ برأسه عَتْنَا وَعَارَا

وأد البنات : وناهيك في هذا الباب سُتْعَةٌ وَسُوءٌ صَلِيعَةٌ بما كان العربُ يفعلون  
 في الجاهلية من وأد البنات <sup>(١)</sup> ... وما فِتُّوا إلى أن أُرْسِلَ سَيِّدُ البشر صلوات الله  
 عليه ، فَتَهَى عن ذلك ، وأزل الله عز وتقدس : وإذا المَوْوَدَةُ سُلِّتْ بِأَيِّ  
 ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ وكثيرا من الآيات في هذا المعنى المُفْطِيع ... ودخل قيس بن  
 عاصم المِنْقَرِيُّ - وهو سيّد أهل الوبر - على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :  
 إني وأدتُ آتَلَقَى عَشْرَةَ بَنَاتٍ ، فما أَصْنَعُ ؟ فقال رسول الله : أَعْتِقْ عَنْ  
 كُلِّ نَوْرَةٍ نَسَمَةً ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : فما الذي حَمَلَكَ على ذلك  
 وأنت أكثرُ العرب مالا ؟ فقال : خِزْفَةٌ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ مِثْلُكَ <sup>(٢)</sup> ، فتبسم رسول  
 الله وقال : هذا سيد أهل الوبر ... قال قيس : ما وَلِدْتُ لِي ابْنَةً إِلَّا وَأَدْتُهَا  
 سوى بُلْبَةٍ وَلَدْتُهَا أُمُّهَا وأنا في سفرٍ ، فلما عُدْتُ ذَكَرْتُ أنها وَلَدَتْ ابْنَةً  
 مَيْتَةً ... فَأَوْدَعْتُهَا أَخَوَالَهَا حَتَّى كَبُرَتْ ، فَأَدْخَلْتُهَا مَنْزِلِي مُتَوَرِّئَةً ،

(١) وأد بنته يتدها وأدا : دفنها في القبر وهي حية

(٢) هذه عَجْرَقَةٌ وعَنْجَبِيَّةٌ من هذا الاعرابي الجلف في حق الصديق رضي الله عنه  
 وإن كان قيس بن عاصم سيّد أهل الوبر ، وما أحلم سيدنا رسول الله الذي أرسل  
 ليتم مكارم الاخلاق ، والذي أُمِرَ بأن يدعو الناس الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة  
 الحسنة .

فاستَحَسَّتْهَا ، فقلتُ : مَنْ هذه ؟ فقالت : هذه ابنتُكَ ، وهى التى أَخْبَرْتُكَ  
أَنى ولدَتْهَا مَيَّةً ، فَأَخَذْتُهَا وَدَفَنْتُهَا حَيَّةً وهى تَصِيحُ وتقول : اتَّزُكْنِ  
هكذا ؟ فلم أُعَرِّجْ عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يَرْحَمَ لا يَرْحَمُ ...

### الخال والخولة

بقى بعد ذلك أن نورد شيئا مما قالوا فى الخولة والخال : والقول فى ذلك  
ينشعب أيضا ، فقد قالوا فى مَدْحِ الخال وَدَمِّهِ ، وقالوا فى معنى زِنَاحِ  
الولد إلى خاله <sup>(١)</sup> ، فَلَمَّنتَقِي شيئا مما قلوا فى هذه المعانى ، فأما قولهم فى  
اعتبار الخولة وكونها كالأبوة ، فن ذلك ما يروى أن الأسود بن وهب  
خال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له  
رِدَاءً ، فقال الأسود : حَسْبِي أَنْ أَجْلِسَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ ، فقال صلى الله عليه  
وسلم : أَجْلِسْ فَإِنَّ الْخَالَ وَالِدٌ ... وَمِنْ طَرِيفِ هَذَا الْبَابِ مَا يَرُوى أَنَّ الْحِجَاجَ  
قال لابنِ مِعْمَرٍ : إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ابْنَا رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه  
وسلم ؟ قال : نعم ، قال : وَاللَّهِ لَا قُتْلَنَكَ ، فقال ابنِ معمر : أليس الله يقول :  
وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَارِدَ وَسُلَيْمَانَ ، إِلَى قَوْلِهِ : وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِسْمَاعِيلَ  
ابْنُ مَرْيَمَ : ابْنِ بَنَتٍ ، فقال نَجَّوَتْ ... وَأما من عَدَّ الخولة ليست من النِّسْبِ  
والقَرابة ، فن قولهم فى ذلك - والقائل ضَمْرَةُ بن ضَمْرَةَ بنِ جَابِرِ بنِ قَطَنَ  
- شاعر جاهلى - وقيل غيره - :

إِذَا كُنْتَ فى سَعْدٍ وَأَمْلِكَ مِنْهُمْ غَرِيباً فَلَا يَغُرُّكَ خَالُكَ مِنْ سَعْدٍ

(١) نزع فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعا ونزاعا : ذهب إليه وأشباهه ، ومثله نزع  
الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه نزوعا ونزوعا : حن واشتاق

فإنَّ ابنَ أُخْتِ القومِ، مَصْنَعِي إناؤُهُ إِذا لم يُزَاحِمْ خالَهُ بِأَبِ جَلَدٍ<sup>(١)</sup>  
وتقدم شابُّ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال : إِنَّ جَدِّي أَوْصَى  
بُثْلِكَ ماله لوليدٍ وَلَدِهِ ، وأنا من ولدِ بَنْتِهِ ، والوصى ليس يُعْطِينِي منه ، فقال :  
لاحقَّ لك فيه ، أما سمعت قول الشاعر :

بُنُونًا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا    بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرَّجَالِ الْإِبَاعِدِ  
« يقول : إن بنى أبنائنا مثل بنينا ، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء  
الاجانب ، فبنونا خبر مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر ، وهذا البيت لا يعرف  
قائله على شهرته . قال الإمام العيني : هذا البيت استشهد به النحاة على جَوَازِ  
تقديم الخبر ، والقرضيون - علماء الموارد - على دخول أبناء الأبناء  
في الميراث وأن الانتساب إلى الآباء ، والفقهاء كذلك في الوصية ،  
وأهل المعاني والبيان في التشبيه ، ولم أر أحدا منهم عزاه إلى قائله »  
وقالوا في نزاع الولد إلى خاله :

عليك الخالَ إِنَّ الخالَ يَسْرِي    إلى ابنِ الأختِ بالشَّبهِ المِيزِ  
وقالوا :

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ يَقَرُّ بِعَيْنِهِ  
وَقُرَّةُ عَيْنِ الْقَسْلِ أَنْ يَصْحَبَ الْقَسْلَا  
وَتَعْرِفُ فِي تَجْدِ امْرِئٍ تَجْدَ خَالِهِ  
وَيَسْئَلُ أَنْ تَلْقَى أُمًّا أُمَّهُ تَذَلَّا

(١) مَصْنَعِي إناؤُهُ : نقص حظه ، يقال أصغى فلان إناء فلان : إذا أماله ونقصه  
من حظه يقول هذا الشاعر : لا تغتر بخولتك فإنك منقوص الحظ ما لم تزاحم أحوالك  
بآباء شراف وأعمام أعزة .

« الفسل : النذل الذى لامرؤة له ولا جلد » وقال رافع بن هریم :-

شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ، يخاطب بنى أخوته :-

قَهْلًا عَيْرَ عَمَّكُمْ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مُتَظَلِّلِينَ  
عَفَارِيَّتًا عَلَى وَأَكْلٍ مَالِي وَجُبْنَا عَنْ رَجَالِ آخِرِنَا  
وَلَوْ كُنْتُمْ لِمُسْكِيْسَةٍ أَكَاَسَتْ وَكَيْسُ الْأُمِّ كَيْسُ لَبْنِينَا  
وَلَكِنْ أُمُّكُمْ حَقَّتْ حَقَّتُمْ غِنَاثًا مَا نَرَى فِيكُمْ سَمِينَا

وموضع هذه الآيات باب إنجاب الآلهات فى كتاب النساء وترى نظائرله هناك  
« قوله متظللينا ، تقول : تظلمنى مالى : أى ظلمنى مالى ، و « ما » فى : إذا ما كنتم :  
زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت  
ولدا كياسا ، والكيس : خلاف الحق ، ورجل كيس : أريب ظريف ، وقوله :  
ولكن أمكم حققت : أى صارت حمقاء ، والغثاث : جمع غثيث بمعنى مهزول ،

### مدعو القرابة البعيدة

وبما يستطرف من محاسنهم فى مدعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر :  
لست ترعى حقى وبيننا قرابة ا فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطب  
أمى ، فلو تم الأمر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رجم ماسة ...  
وتعرض رجل لهشام بن عبد الملك وادعى أنه أخوه ، فسأله : من أين ذلك ؟  
قال : من آدم ا فأمر بأن يُعطى درهما ، فقال : لا يُعطى مثلك درهما ،  
فقال هشام : لو قسمت ما فى بيت المسال على القرابة التى ادعيتها لم ينالك  
إلا دون ذلك ... وفى هذا المعنى - معنى ' ادعاء القرابة وانتفائها -  
يقول حسان بن ثابت :

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النِّعَامِ<sup>(١)</sup>

محاسنهم في الآباء والأبناء والآقارب من بابات شتى

ولنعطف على سائر محاسنهم في الآباء والأبناء والقربات من بابات شتى :  
تقن ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المَحْتَد ، قال عدى بن أرطاة لإياس : دُلَّنِي  
على قوم من القراء أوليهم ، فقال : القراء ضربان : ضربٌ يعملون لادنيا ،  
غما ظنك بهم : وضربٌ يعملون للآخرة فلا يعملون لك ، ولكن عليك  
بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم ... وقال زهير بن أبي سلمى :

وما يكُ من خير أتوه وإنما توارثه آباء آبائهم قبلُ

وقال :

وهل يُنْبِتُ الحَطَى إِلَّا وَشِيجُهُ وَتُغْرُسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النُّخْلُ

« الحَطَى : الرمح ، قال أبو حنيفة الدينوري العالم النباتي الأشهر : الحَطَى :  
الرمح ، وهو نسبة قد جَرَى مجرى الاسم العلم ونسبته إلى الحَط ، خط البحرين ،  
وإليها ترفأ النسفن إذا جاءت من أرض الهند ، وليس الحَطَى - الذي هو الرمح -  
من نبات أرض العرب . وزاد الجوهرى : وإنما نسبت إلى الحَط لأنها تحمل  
من بلاد الهند فتقوم به . ووشيجه : فالوشيج شجر الرماح ، ... »

ودخل بعض أولاد عبد الله بن الزبير على سليمان بن محمد ، فجنس على مُمرقة

(١) الإل : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، يهبو حسان  
أبا سفيان الحارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبة بن  
أبي معيط ، وذكروا أنه كان لونية ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضرب  
عنقه ، فقال : أأقتل من بين قريش صبوا ، فقال عمر : « حَنِّ قَدَحَ لَيْسَ مِنْهَا »

« الوسادة يتكأ عليها ، فاغناظ من ذلك وقال : مَنْ أجالسك ههنا ؟ قال : صَفِيَّةٌ  
بنت عبد المطلب : فسكن غضبه . وقال أبو تمام :  
تَسَبَّ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودًا

\*\*\*

وقالوا فيمن يشبه أباه في علاء ابتناه : شَنِشَنَةُ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ <sup>(١)</sup> و :  
وإن امرأتا في الفضل أشبه جدّه ووالدّه الأذنى لغير ظلوم  
وقال أبو تمام فيمن مكارمُهُ تدلُّ على كرم أسلافه :

فُروُجٌ لَا تَرِفُ عَلَيْكَ إِلَّا شَهِدَتْ بِهَا عَلَى طِيبِ الْأُرُومِ <sup>(٢)</sup>  
وَفِي الشَّرَفِ الْحَدِيثُ دَلِيلُ صَدَقٍ لِمُخْتَبِرٍ عَلَى الشَّرَفِ الْقَدِيمِ  
وقال عامر بن الطفيل <sup>(٣)</sup> في المستغنى بنفسه عن حسبه :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنُ فَارِسٍ عَامِرٍ وَفِي السَّرِّ مِنْهَا وَالصِّمِّ الْمَهْدَبِ <sup>(٤)</sup>  
فَمَا سَوَّدَتْني عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةِ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَشْمُو بَأْتُمْ وَلَا أَبِ  
وَلَكِنِّي أَنَحِي حِمَاها وَأَتَقِي أَذَاها وَأُرِي مَنْ رَمَاهَا بِمَقْتَبِ <sup>(٥)</sup>

(١) الشنشة : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لابي أخزم الطائي وهو جد  
جدهم مرتين - حاتم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم كان عاقاً ثمات وترك بنين فوئبوا يوماً  
على جدهم أبي أخزم فأدّموه فقال :

إِنْ بَنَى ضَرْجُونِي بِالْأُحْمِ شَنِشَنَةُ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ  
يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهي الأصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت في العرب

(٤) وفي السر منها : من سر الوادي ، وهو أكرم موضع فيه يريد أنه في  
كرم موضع من نسبها (٥) مقنب كنب : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانب  
ويروى : من رماها بمنكب ، والمنكب في الأصل : يجتمع عظم العنق والكتف ، ضربه  
مثلاً للشدة والقوة



وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :  
لَسْنَا وَإِنْ كُرِمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَسِيبُ  
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلْ مِثْلَ مَا فَعَلُوا  
وقال المتنبي :

خُذْ مَاتَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ  
وقال :

لَا يَقْوَى شَرَفْتُ بِلِ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي  
وَمَا فَضَّلَ الْوَلَدُ عَلَى الْوَالِدِ بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ الْمَتَلَبِي :  
وَأِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْغَلْبَاءُ عُنُصْرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَمْرِ مَعْنَى لَيْسَ بِالْعِنَبِ  
وقوله أيضا :

وقال ابن الرومي فيمن ازداد شرف آبائه به :  
وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ دُرًّا شَرِيفٍ كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ  
يَسْمُو الرِّجَالُ بِآبَاءٍ وَآوَنَةً تَسْمُو الرِّجَالُ بِأَبْنَاءٍ وَتَزْدَانُ

☆☆☆

وقالوا في أنه لا اعتداد بمن شرف أصله إذا لم يشرف بنفسه :  
- والقائل المعلم الأول أرسطوطاليس - : إذا كان الإنسان خسيس الأبوين  
شريف النفس ، كانت خسته أبويه زائدة في شرفه ، وإذا كان شريف الأبوين  
خسيس النفس ، كان شرف أبويه زائدا في خسته . وقال ابن الرومي :  
وَمَا الْحَسَبُ الْمُرُوثُ لَا دَرَّ دَرُّهُ ، حَتَّسَبٍ إِلَّا بِآخَرٍ مُكْتَسَبٍ  
إِذَا الْعُودُ لَمْ يُثْمَرْ وَإِنْ كَانَ سُجْبَةً  
من المُمِيراتِ اعتدّه الناس في الخطب

« لا ذرّ درّه : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لا يجعله الله نافعا ،

وقال سقراط - في الاعتذار عن شرفت نفسه ولم يشرف أصله - وقد  
غيره رجل بحسبه - : حَسْبِي مِنِّي ابتداء ، وَحَسْبُكَ إِلَيْكَ انتهى ... وقال قائل  
في هذا المعنى : لأن يكون الرجل شريف النفس ذئب الأصل ، أفضل من  
أن يكون ذئب النفس شريف الأصل ، ألا ترى أن رأس الكلب خير من  
ذئب الأسد !

\*\*\*

ومما يستظرف من اعتذار المتخلفين الأندال ، عن تخلفهم عن آبائهم الأشراف  
ماروى : أنه قيل لأعرابي : ما أشبهت أباك ! فقال : لو أشبه كل رجل أباه  
كنّا كآدم ... وخطب رجل قصّر عن أبيه إلى رجل رفيع القدر ، ابتته ، فقال  
له العظيم : لو كنت مثل أبيك ! فقال : لو كنت مثل أبي لم أخطبك إليك ...

\*\*\*

ومن محاسنهم في ذم من قصر عن آبائه : قول بعضهم :  
لَمِنْ فَخَرَتْ بِآبَاءٍ لَهُمْ شَرَفٌ لَقَدْ صَدَقَتْ وَلَكِنْ يَنْسَأُ وَلَدُوا  
وقول أبي تمام :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءَ وَفُتَخَرَّا وَالْأَمَّ النَّاسِ مَبْلُؤًا وَتُخْتَبَرَا  
ونظر رجل إلى ابن نذل من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل :  
يُخْرِجُ الْحَبِثَ مِنَ الطَّيِّبِ . وقال شاعر في لثيم النفس كريم الآبوين :  
فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا فَمَا حَبِثُ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيبِ  
« الحبث من الحديد والفضة ونحوهما : مانقاه الكبير ولا خير فيه ،

\*\*\*

وقالوا فيمن يخزى من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلا سُئِلَ عن نسبه ،  
فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابي : الناس ينتسبون طولا وأنت  
تنتسب عرضاً

\*\*\*

ومن محاسنهم فيمن لا يعتدّ بأبيه : قول الأخطل :  
وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ  
« شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه » ويقال : شال أبوك في الميزان ، وهو  
مثل في المفاخرة يقال : فأخزته فشال ميزانه : أى فَخَزَتْهُ بِآبَائِهِ وَغَلَبَتْهُ ، وقال  
بعض شعراء أصفهان :

تَبَجَّحَ بِالْكِتَابَةِ كُلُّ وَغْدٍ      فُتِّجَا لِلْكِتَابَةِ وَالْعِمَاةِ  
أَرَى الْآبَاءَ نَسَبَتُهُمْ جَمِيعًا      إِلَى الْآبَاءِ مِنْ فِرْطِ النَّدَالَةِ

\*\*\*

وقالوا في الابن يجارى أباه : العصا من العَصِيَّةِ و : هل تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا حَيَّةً  
وقال شاعر :

وإنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ لَا تَلُومَهُ      عَلَى الشَّرِّ مَنْ لَمْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ وَالِدُهُ  
إِذَا الْمَرْءُ أَلْفَى وَالِدَيْهِ كِلَيْهِمَا      عَلَى اللَّؤْمِ فَأَعِذْرُهُ إِذَا خَابَ رَأْدُهُ<sup>(١)</sup>  
وقالت الخنساء - وقيل لها : مَا مَدَحْتَ أَخَاكَ حَتَّى هَجَوْتَ أَبَاكَ فَقَالَتْ :  
جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا      يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةً الْحَضِرِ  
حَتَّى إِذَا نَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ      لَزَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ  
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ أَثِيمَا      قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرِ

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم السكلا ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صَحِيفَةُ وَجْهِ وَالِدِهِ وَهَضَى عَلَى غُلَوَائِهِ يَجْرَى  
أُولَى فَأُولَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا تَجَلُّلُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ  
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّأَا إِلَى وَكْرٍ

«قوله: مُلَاءَةُ الْحَضَرِ: فالْحَضَرُ: العَدُوُّ وَالْجَرِيُّ، وَإِنَّمَا تَرِيدُ بِمُلَاءَةِ الْحَضَرِ: الْغُبَارَ  
وَكَانَ عَدِيَّ بْنِ الرَّقَاعِ يُنْظَرُ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ يَصِفُ حِمَارًا وَأَنَامًا:

يَتَعَاوَرَانِ فِي الْغُبَارِ مُلَاءَةً بِيضَاءَ مُحَدَّثَةٍ هُمَا تَسْجَاهَا

وَنَزَتْ الْقُلُوبُ: يَرِيدُ طَمَحَتْ وَاشْرَأَتْ لَتَعْرِفَ مِنَ السَّابِقِ، وَلُزَّتْ: قَرَنْتِ.  
وَالْعَذَرُ: جَمْعُ عَذَارٍ وَهُوَ مَا سَالَ مِنَ اللَّجَامِ عَلَى خَدِّ الْفَرَسِ، وَيُرْوَى الْقَدَرُ  
بِالْقَدْرِ، وَالْقَدَرُ: الْمَنْزِلَةُ، وَالْكِبَرُ: أَظْهَرُهَا بَضْمُ الْكَافِ بِمَعْنَى الْكِبَرِ أَيْ وَلَوْلَا  
جَلَالُ الْكِبَرِ، وَلَكَ أَنْ تَقْرَأَهَا الْكِبَرُ بِكَسْرِ الْكَافِ أَيْ الْكِبَرِ وَلَكِنَّهُ  
أَسْكَنَ الْبَاءَ ضَرْوَرَةً،

أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ عَدَّ الشَّرْفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقَى فَقَالَ سُبْحَانَهُ: إِنْ  
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا بَقِيَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِأَحَدٍ شَرَفٌ  
أَبْوَةٌ... وَرَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَجُلًا يَقُولُ أَنَا ابْنُ بَطْحَاءٍ مَكِّي، فَوَقَفَ  
عَلَيْهِ وَقَالَ: إِنْ كَانَ لَكَ دِينٌ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِنْ كَانَ لَكَ عَقْلٌ فَلَكَ مُرُوءَةٌ.  
وَإِنْ كَانَ لَكَ عِلْمٌ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِلَّا فَأَنْتَ وَالْحِمَارُ سَوَاءٌ، وَقَالُوا: كَانَ  
الشَّرْفُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْيَأْنِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّمَاخَةِ، وَفِي الْإِسْلَامِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقَى...

\*\*\*

وَقَالُوا فِي الدَّعْوَةِ: أَيْ آدَاءُ الْوَلَدِ الدَّعِيَّ غَيْرَ أَبِيهِ، أَيْ اتِّسَابُهُ إِلَى  
غَيْرِ أَبِيهِ، وَقَدْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَنَهَى الْإِسْلَامُ عَنْهُ، وَكَانَ سَيِّدُنَا  
رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ عَتِيقَ الرَّسُولِ، فَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: ابْنُ

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آبائهم وأن لا ينسبوا إلى من تبناهم فقال : وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم « أى لا حقيقة لله في الواقع ، والله يقول الحق » أى ماله حقيقة عينية « وهو يهدى السبيل ، أدعواهم لا آبائهم هو أقسط عند الله » هو : أى دعوتهم لا آبائهم ، وأقسط : أعدل ، ومعناه البالغ في الصدق ، فإن لم تعدوا آبائهم فإخوانكم في الدين . ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما ...

والأحاديث في ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الولد للفراس وللعاهر الحجر ... « يعنى أن الولد لصاحب الفراش ، من السيد أو الزوج ، وللزاني الخيبة والحرمان ، وهذا كما تقول : مالك عندي شئ غير التراب ، وما بيدك غير الحجر ، رذهب قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن الأثير : وليس كذلك لأنه ليس كل زانٍ يُرجم .. وقالوا في التعريض بالنسب - والقائل أبو نواس :

إذا ذكرت عدياً في بني مُعَلٍ      فقدم الدال قبل العين في النسب  
ودخل ابن مُكْرَم على أبي العيناء - صاحب النوادر والمجون وكان ضرباً -  
ليُهَنِّيَهُ بآبن وُلْدِله ، فوضع عنده حجراً ، فلما خرج أخبر أبو العيناء ،  
فقال : لعن الله هذا ، أما تعلمون ماذا عني ؟ إنما أراد قول رسول الله :  
الولد للفراس وللعاهر الحجر ...

ولقي رجل رجلاً فقال له : ممن أنت ؟ قال : قُرشي والحمد لله ، فقال :  
لحمد لله في هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه - وهو ابن أبي سفيان لربيبة -  
لرجل : يا دعي ، فقال : الدَّعوة قد تشرف بها المدعي على ، فكيف عير بها !

وفي قولهم فيمن لا يشبه والدیه وذویه خَلَقَةً :  
 أَلَوَانُهُمْ إِلَيْكَ عَنْ أَنْسَائِهِمْ مُعْتَذِرَةً  
 وكان بأَصْبَهَانَ رجل مجنون يعرف بابن المستهام ، فقبل لأحمد بن  
 عبد العزيز : إنه مليح ذو نوار ، فاستحضره ، فلما تأمله قال - أي  
 المجنون - :

في اختلاف الوجوه من آلِ عَجَلٍ لَدَلِيلٌ على فسادِ النساءِ  
 فأراد أحمد أن يبيّش به ، ثم كفّ عنه مخافة أن يتحدث الناس بذلك ...  
 ومن طريف ما قالوا أيضا في التعريض بالرجل أن ابنه من زِنْيَةٍ ، ما يروى  
 أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان ولدت بعد الزَّفافِ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ فقال : إنه  
 بَنَى جَدَّارَهُ على أَسٍّ غَيْرِهِ ...  
 وخاصم ذو الرمة رجلا من ولَدِ زياد بن أبيه فقال له الزيادي : يادعي  
 فأشمد ذو الرمة :

بَيْتِنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلَ أَرَبْتَنَا فَقُلْتَ كَلَانَا يَا بَيْتُنَ مَرِيْبٌ (١)

\*\*\*

ومما يصح أن يذكر في هذا الباب : كما يصح أن يذكر في كتاب النساء  
 قولهم في أن الولد الذي يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاوياً ضعيفاً ، فمن ذلك  
 قوله صلوات الله عليه : «اغْتَرِبُوا لَا تُضْرُوا» أي تزوجوا الغرائب دون  
 القرائب فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القرية ، وقد أضوت المرأة  
 إذا ولدت ولداً ضعيفاً ، فمعنى لاتضروا : لاتأتوا بأولاد ضاوين ، أي ضعفاء  
 نحفاء ، الواحد : ضاير ، وكذلك قال صلوات الله عليه : لَا تَنْسِكُوا الْقَرَابَةَ الْقَرِيبَةَ

(١) أَرَبْتَنَا : رأينا منك ما يربينا ونكرهه منك

فإن الولد يُخلق ضاوباً ... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قریش صغار الأجسام فقال : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قُربُ أمّهاتنا من آبائنا ، قال : صدقتم ، اغتربوا لاتضُّوا ... وقال العتبى : زوّج أهل بيت ، بعضهم فى بعض ، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يحبُّون حبواً لا يستطيعون القيام ضعفاً ...

### الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم فى الرضاعة : قال رسول الله : يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب «انظر كتب الفقه» ونهى رسول الله عن رضاع الحُمَّاء وقال : لا ترضعوا الحُمَّاء فإن الولد ينزع إلى اللبن ... وقال رجل فى وصف آخر نسبه إلى الرعونة : كيف لا يكون أرعن وقد أرضعته ثلاثة ! والله إنها كانت تزُق الفرخ - أى بغيرها - فأرى الرعونة فى طيرانه .. ورَوَوْا أن الحسن البصرى رحمة الله عليه كانت أمه تغشى أم سَلَمَةَ زوج سيدنا رسول الله ، فدرت عليه من لبنها ، فورث منه علمه وفصاحته وورعه :

\*\*\*

### الإحسان

وعبقرياتهم فى الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

وهذا لَوْنُ ثانٍ من ألوان البرِّ هو فى الواقع ينظم لَوْنَيْنِ ، فأما أولهما فهو هذا الذى نحن بصددِهِ الآن ، وهو الجود واصطناع المعروف ، وسائر ما يمتُّ إلى ذلك بسببٍ واصل من قرى الأضياف وذم البخل ، وأما الآخر فهو حُسن الخلق ، وسنفرد له وصلاً تراه عقيب هذا .

تحقني الإسلام بالإحسان: وكما أنَّ صَلَةَ الرَّحْمِ بِعَامَّةٍ، وَبِرِّ الوالدين بِخَاصَّةٍ،  
 بما تَحَقَّنِي بِهِ الإسلامُ كُلَّ التَّحَقُّنِ، حَتَّى قَرَنَهُ بالتَّوْحِيدِ وبالتَّوْحِيدِ، تَرى هَذَا الدِّينَ  
 الْخَنِيفَ، لَقَدْ تَحَقَّنِي كَذَلِكَ كُلَّ التَّحَقُّنِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى مُسْتَحَقِّهِ، وَذَمَّ الشُّحَّ وَنَعَا  
 عَلَى أَهْلِيهِ، وَامْتَدَحَ الْجُودَ وَأَوَّهَ بِهِ كُلَّ التَّنَوُّبِ، حَتَّى قَرَنَ ذِكْرَهُ بِالْإِيمَانِ،  
 وَوَصَفَ أَهْلَهُ بِالْفَلَاحِ، وَالْفَلَاحُ اسْمٌ جَامِعٌ لِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ  
 وَتَقَدَّسَ: أَلَمْ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُمْنُونَ بِالْغَيْبِ  
 وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُمْنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ  
 مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ..  
 وَقَالَ فِي وَصْفِ الْأَنْصَارِ: وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ،  
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ... «الخصاصة: الفقر، ويوقى:  
 يَصَانُ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ  
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ  
 وَاسِعٌ عَلِيمٌ، إِلَى أَنْ قَالَ سُبْحَانَهُ: وَمَثَلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ  
 اللَّهِ وَتَثْبِيئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ بَرَبَوَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلهَا ضَعْفَيْنِ...  
 الْآيَاتِ... «قوله سُبْحَانَهُ: كَمَثَلِ حَبَّةٍ... الْآيَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ تَمْثِيلٌ لَا يَقْتَضِي  
 وَقْعَهُ، وَالْجَنَّةُ: الْبِسْتَانُ، وَالرَّبْوَةُ: الْمَوْضِعُ الْمَرْتَفِعُ، وَشَجَرُهُ فِي الْعَادَةِ يَكُونُ  
 أَحْسَنَ مَنَظَرًا وَأَزْكى ثَمَرًا، وَالْوَابِلُ: الْمَطَرُ الْعَظِيمُ، وَقَالَ: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى  
 تَنْفِقُوا بِمَا تُحِبُّونَ، وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.  
 «وَالْبِرُّ هُنَا: فَهُوَ بِرُّ اللَّهِ، أَيْ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَيْ السَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ  
 وَالْفَوْزُ، أَوْ تَقُولُ: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ: أَيْ لَنْ تَنَالُوا حَقِيقَةَ الْبِرِّ حَتَّى تُنْفِقُوا  
 بِمَا تُحِبُّونَ»



قال الراغب في الذريعة : وَحَقَّ لِلْجُودِ أَنْ يُقَرَّنَ بِالْإِيمَانِ ، فَلَا شَيْءَ أَخْصَّ بِهِ ، وَأَشَدُّ بُحَانَةً ، مِنْهُ ، إِذْ مِنْ صِفَةِ الْمُؤْمَنِ انْشِرَاحُ الصَّدْرِ : فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُشْرِحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ يُضَيِّقْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ . . . وهذا من صفات الجوادِ والبخیل ، لأن الجوادَ يوصفُ بِسَعَةِ الصَّدْرِ لِلْإِنْفَاقِ ، والبخیلُ يوصفُ بِضَيِّقِ الصَّدْرِ لِلْإِمْسَاكِ . . .

### الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فإن أكثرَ هذا الناسَ لقد جُبلوا على البُخْلِ ، فالْبُخْلُ هو الأصل ، ولانتماء الجود في سائر أحواله ، تكلف وتعمُّل وتَحَلُّلٌ لِلنَفْسِ عَلَى مَكْرُوهِهَا وعلى غير ما جُبلت عليه ، وقد قيل لحاتم الطائي الذي يضربُ به المثلُ في الجود : كيف تجدُ الجودَ في قلبك ؟ فقال : إني لأجدُه كما يجدُه الناسُ ، ولكنني أنجلُ نفسي على حُطْطِ الكرام <sup>(١)</sup> ، وقال بعض الأجواد : إِنَّا لَنَجِدُ كما يجدُ البخلاءُ ولكننا نصبرُ ولا نصبرُونَ . . . وفي هذا المعنى يقول البحتري :  
وَأَشَقُّ الْأَفْعَالِ أَنْ تَهَبَ الْأَنْفُسُ مَا أُغْنَيْتَ عَلَيْهِ إِلَّا كُفَّ  
وبقول أبو يعقوب الحرَّيمِيُّ :

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَلِيَّةٌ      بِهَا مَصْعَدُ حَزْنٍ وَمُنْحَدُ سَهْلٍ <sup>(٢)</sup>  
ويقول أبو العتاهية :

إِطْرَحْ بِطَرَفِكَ حَيْثُ شِئْتَ      فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَخِيلًا  
ويقول ابن بُنَابَةَ السَّعْدِيُّ :

(١) الحُطْطُ: جمع الخططة ، وهي الحال والامر والخطب

(٢) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطلع ، أى أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغنى والبخلُ في الناسِ فظننه  
وأكثرُ من يتسخى ويجودُ فاتمأ بجودُ رَغْباً أو رَهْباً - رغبا في عاجل  
الجزاء \* كملقى الحبِّ للطَّيرِ ليصيدَ به لا لينفقه \*  
ومن يظنُّ نثرَ الحبِّ جوداً وينصبُ تحتَ مائتِ الشباكا<sup>(١)</sup>  
ورَهْباً من عابٍ يلتصق به أو مكروهٍ يُصيبه :  
مثلُ الحِمَارِ الموقَّعِ الظهر لا يُعطيك شيئاً إلا إذا رَهَباً<sup>(٢)</sup>  
وهناك صنفٌ من الناسِ يُعطى ويمنع لا بُحْلاً ولا كرمًا ، وإنما يكونُ  
ذلك تهوراً واندفاعاً منه مع نزوةٍ من نزوات النفوس ، كما قال الأديب  
أبو بكر الخوارزمي في الوزير صاحبِ بن عباد :

لا تحمدنَّ ابنَ عبادٍ وإن هَظَلتْ يداهُ بالجودِ حتى أخجلَ الديما  
فإنها خَطراتٌ من وساوسِهِ يُعطى ويمنع لا بُحْلاً ولا كرمًا  
وقلَّ من الناسِ من يجودُ استجابةً لفطرته ، ولداعى الضمير ، كما يقولون :  
فليأخذ هذا ، وليأخذ كذلك أن البُخلَ رذيلةٌ تستتبعُ رذائل ، وناهيك  
بالجبن رذيلة ، هي ألزَمُ الرذائلِ للبخل : كما أن الجودَ فضيلةٌ تستتبعُ فضائل ،  
وحسبك بالشجاعة فضيلة هي أخصُّ الفضائلِ بالجود :

(١) للبنّي ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس في البيت قبله وهو :

وآمنًا فدائك كل نفس وإن كانت لمملكة ملاكا

يقول : الملوك يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد جبا تحت الشبكة ، ولا يعتد  
ذلك جوداً لأنه إنما نثر لآخذ الصيد الذي هو خير من الحب  
(٢) للحكم بن عبد الله الأسدي ، والموقع الظهر : الذي يظهره آثار الدبر لكثرة ما حمل  
عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِينِي فَإِنَّ الشُّحَّ يَا أُمَّ هَيْتَمَ - إِصْلَحْ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ سَرُوقُ<sup>(١)</sup>

\*\*\*

وإذا اختبرت علمت غير مُدَا فِعْ أَنْ السَّامِحَ سَجِيَّةُ الْإِبْطَالِ  
وقال أبو تمام في ذلك - من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني :  
وإذا رأيت أبا يزيد في نَدَى وَوَعَى وَمُبْدَى غَارَةٍ وَمُعِيدَا  
يَقْرِى مُرَجِّيه مُشَاشَةً مَالِهِ وَشَبَا الْأَسِنَّةِ نُغْرَةً وَوَرِيدَا  
أَيَقْنَتَ أَنْ مِنَ السَّامِحِ شَجَاعَةٌ تَدْنِي وَأَنْ مِنَ الشَّجَاعَةِ جُودَا<sup>(٢)</sup>  
وقال المتنبي :

هو الشجاع يَعُدُّ الْبُخْلَ مِنْ جُبْنٍ وَهُوَ الْجَوَادُ يَعُدُّ الْجُبْنَ مِنْ بُخْلٍ  
وقد عدوا الشجاعة لونا من الجود فقال مسلم بن الوليد :  
يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْبَخِيلُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمر بن الازهر ، وبعد البيت :

ذَرِينِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي عَلَى الْحَسْبِ الْعَالِي الرِّفِيعِ شَفِيقُ  
وَمُسْتَمْنَحٍ بَعْدَ الْهَدُوءِ دَعْوَتِهِ وَقَدْ كَانَ مِنْ سَارِي الشَّتَاءِ طُرُوقُ  
فَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتُ صَالِحٍ وَصَدِيقُ  
أَضْفْتُ فَلَمْ أَفْحَشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقُلْ لِأَحْرِمَتِهِ إِنَّ الْفِنَاءَ مَضِيقُ  
لَعْمَرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادُ بَاهِلَهَا وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ أَضِيقُ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقر به قرى : أضافه وأحسن اليه ، والمشاشة  
واحدة المشاس وهو رأس العظم الذي يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى  
انه ليتش العظم وهذه مبالغة في أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة  
كل شيء : حذته ، والثغرة : ثغرة النحر

ولأجل هذين الملاحظين ، تظاهرت الآيات والاحاديثُ وما أثر عن  
الأوائل من العلماء والحكماء والشعراء والربّانيين ، على ذمّ البخل وامتداح الجود  
والإحسان ، وأكثروا وافتنوا وأبدعوا ، الأمر الذي يدلُّ على أنهم قدروا  
أثر الجود والبخل في الخلق حقَّ قدره ، وأنهم لذلك شنّوا هذه الغارة الشّعواء  
على الإنسان الأنانيّ الكزّ الشحيح الكاين في نفس كلّ إنسان ...

### عقرياتهم في مدح الجود وذم البخل

ولناخذ الآن في عقرياتهم في ذم البخل ومدح الجود والإحسان واصطناع  
المعروف ، والكلام في هذه المعاني يدخلُ بعضه في بعض ... كتب رجلٌ من البُخلاء  
إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُه الفقرَ ، فأجابه : الشيطانُ يَعِدُكمُ الفقرَ ويأمرُكم  
بالفحشاء واللهُ يَعِدُكمُ مَغْفِرَةً منه وفضلاً ... وإنّي أكرهُ أن أتركُ أمراً قد  
وقع لِأمرٍ لَعَلَّهُ لَا يَقَعُ . ويقول سبحانه : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ النَّاسَ الْفَقْرَ  
فِي الْإِنْفَاقِ ، أَيْ يَقُولُ لَهُمْ : إِن عَاقِبَةُ إِنْفَاقِكُمْ أَنْ تَفْتَقِرُوا - والوعدُ كما  
يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ يَسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ - ويأمرُكم بالفحشاء ، أَيْ يَغْرِيكُمْ بِالْبُخْلِ  
وَمَنْعِ الصَّدَقَاتِ إِغْرَاءَ الْأَمْرِ لِلْأُمُورِ ، فَالْفَحْشَاءُ هُنَا : الْبُخْلُ ، وَالْفَاحِشُ  
عِنْدَ الْعَرَبِ : الْبَخِيلُ ، قَالَ طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ فِي مُعَلَّقَتِهِ :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكَرَامَ وَيَصْطَفِي

عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ <sup>(١)</sup>

ثم قال سبحانه : والله يعلمكم في الإنفاق مغفرةً لذنوبكم وكفارةً لها ، وأن

(١) يعتام : يختار ، والعقائل : كرائم الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش  
البخيل ، يقول طرفه : إن المرات لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطفي الكرام وكرائم  
أموال البخلاء فلا يجدى البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمد .

يُخْلِفَ عَلَيْكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ» وَقِيلَ لِإِبْلِيسَ : مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟  
فَقَالَ : عَابِدُ الْبُخِيلِ ... قِيلَ : فَمَنْ أَبْغَضُ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : فَاسِقُ السَّخِيِّ ،  
فَإِنْ سَخَاةً يُنْجِيهِ ... أَفْرَأَيْتَ ! أَلَيْسَ هَذَا الْكَلَامُ تَمْثِيلًا جَمِيلًا لِحَالِ الْبُخِيلِ  
وَالْجَوَادِ ! حَتَّى إِنَّهُمْ فَضَّلُوا الْفَاسِقَ السَّخِيَّ عَلَى الْعَابِدِ الْبُخِيلِ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُمَا  
جَمِيعًا لِعَمْرِى : الْعَابِدُ الْكَرِيمُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْعَابِدُ الْبُخِيلُ مَفْضُولًا ، لِأَنَّ  
الْعِبَادَةَ الْحَقَّ لَا تَجْتَمِعُ وَالْبُخْلَ ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِآخَرٍ : إِنَّكَ مِتْلَافٌ ، فَقَالَ :  
مَنْعُ الْجُودِ سُوءٌ ظَنٌّ بِالْمَعْبُودِ ، قَالَ تَعَالَى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ  
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . وَمِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : عَلَيْكُمْ بِأَهْلِ السَّخَاةِ وَالشَّجَاعَةِ  
فَإِنَّهُمْ أَهْلُ حُسْنِ ظَنٍّ بِاللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُخْلِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَرٍّ  
مُبْغِلِهِمْ ، وَمَذْمَةُ النَّاسِ لَهُمْ ، وَإِطْبَاقُ الْقُلُوبِ عَلَى بُغْضِهِمْ ، إِلَّا سُوءُ ظَنِّهِمْ  
بِرَبِّهِمْ فِي الْخُلْفِ - أَيْ الْعَوْضِ - لَكَانَ عَظِيمًا ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ مُحَمَّدُ  
الْوَرَّاقُ :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مُبْتَدِنًا وَالْبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ  
وَوُرِدَ فِي الْحَدِيثِ : خَصَلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْبُخْلُ وَالْكِبَرُ  
وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

أُنَاسٌ تَاهُونَ لَهُمْ رُؤَاؤُهُ تَغِيْمُ سَمَاوُهُمْ مِنْ غَيْرِ وَبَلٍ (١)  
وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ فِي ذَلِكَ : رَبُّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ... « الرَّاعِدَةُ : السَّحَابَةُ  
ذَاتُ الرِّعْدِ ، وَالصَّلَفُ قَلَّةُ الْخَيْرِ ، وَهَذَا الْمَثَلُ يَضْرِبُ لِلْبُخْلِ مَعَ الْوُجْدِ  
وَالسَّغَةِ ، وَلِأَنَّهُمُ الْلُغَةُ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي هَذَا الْمَثَلِ رَاجِعُهُ فِي مَادَّةِ « صَلَفٍ » بِإِسَانٍ

(١) تَاهُونَ : مَنْ اتَّيَهُ وَهُوَ الزُّهْوُ وَالْكِبَرُ ، وَالرُّؤَا : حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، وَالْوَبَلُ :  
الْمَطَرُ الْعَظِيمُ

العرب « ... ومن قولهم في البَحِيل لا يُرَجَى خَيْرُهُ ولا يَبِضُّ حَجَرُهُ :  
يُعالج نفساً بينَ جَنَيْنِهِ كَرْزَةً إذا هَمَّ بالمعروفِ قالتْ له مُهَلَّا  
ومن المستطرف من كُنَايَاتِهِمْ في هَذَا المعنى ما روى : أن امرأة قالت  
لزوجها : والله ما يُقيم الفأرُ في دَارِكَ إِلَّا لِحُبِّ الوطن ... وقال رجل : إني  
أقصد فلاناً راجياً نَدَاهُ ، فقال له صاحبه :

وَتَرَجُّو النَّدَى من إِنْاءٍ قَلْبًا ارْتَشَحَا  
كَالْمُسْتَذِيبِ لِشَحْمِ الْكَلْبِ مِنْ ذَنْبِهِ  
وقال ابن الرومي - وهو من مُقَدِّعَاتِهِ الْمُضْحِكَةِ - :

يُقَسِّرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وليس بِيَاقٍ ولا خَالِدٍ  
ولو يَسْتَطِيعُ لِنَقْتِيرِهِ تَنْفَسُ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ  
« الْمَنْخَرُ : ثقب الأنف ، وقال آخر :

يُحِبُّ المَدِيحَ أَبُو خَالِدٍ وَيَفْزَعُ مِنْ صَلَةِ المَادِحِ  
كَبِكْرٍ تَوَدُّ لَذِيذَ النِّكَاحِ وَتَهْلَعُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ  
وقال البُخْتَرِيُّ - وهو معنى بَدِيع - :

جِدَّةٌ يَذُودُ البُخْلُ عَنْ أَطْرَافِهَا كَالْبَحْرِ يَذْفَعُ بِمَاحِهِ عَنْ مَائِهِ (١)  
وقال بشار :

إذا جِشَّتْهُ في حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينُ  
إذا سَلَّمَ المِسْكِينُ طَارَ فُؤَادُهُ مَخَافَةَ سُؤْلِ وَاعْتِرَافِهِ جُنُونُ

(١) الجدة : الغنى ، و يذود : يدافع

وقال ابن الرومي . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تَجَنَّبُ سُلَيْمَانَ قُفْلَ الدَّيِّ فَقَدْ يَدُسُّ النَّاسُ مِنْ فَتْحِهِ  
ولو كان يملكُ أَمْرَ اسْتِهِ لَمَا طَمِعَ الْحُشُّ فِي سَلِيحِهِ

« الحُشُّ : المستراح - موضع قضاء الحاجة - والسلاح : النجر - الغائط - »  
وقال ابن الرومي أيضا - وهو معنى بديع - وإن كان من بابة غير هذه البابة :

وَإِذَا أَمْرُؤُومَدَحَ امْرَأَةً لِنَوَالِهِ وَأُطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ  
لَوْ لَمْ يُتَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوَرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

« الرشاء : جبل الدلو » وقالوا : من لم يأت الخير صغيرا لم يأت كبيراً ، وفي ذلك يقول المَعْلُوطُ السَّعْدِيُّ - وهو شاعر إسلامي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَتْهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئًا فَطَلَبُهَا كَهَلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ<sup>(١)</sup>

. وقالوا في البخيل كلما ازداد ثراء ازداد بخلاً وكزازة ، والقائل ابن الرومي -

والبيتان من أوابده وتوليداته البديعة :

إِذَا غَمَرَ الْمَالُ الْبَخِيلَ وَجَدَتْهُ يَزِيدُ بِهِ يُبْسًا وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ  
وَلَيْسَ عَجِيئًا ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا غَمَرَ الْمَاءُ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ

وقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يُهْلِكُ أَهْلَهُ إِذَا جَمَّ آتِيهِ وَسَدَّ طَرِيقَهُ

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

مَتَى مَا يَرَى النَّاسُ الْغَنَى وَجَارُهُ فَفِيرٌ يَقُولُوا عَاجِزٌ وَجَلِيدُ  
وَلَيْسَ الْغَنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى وَلَكِنْ أَحَاطَ قَسَمَتْ وَجُدُودُ  
فَكَمْ قَدَرْنَا إِنَّا مِنْ غَنَى مُدَمِّمٍ وَصُغْلُوكِ قَوْمَ مَاتَ وَهُوَ حَمِيدُ  
إِذَا الْمَرْءُ ..... البيت

وَمَنْ جَاوَرَ الْمَاءَ الْغَزِيرَ جَمَّهُ      وَسُدَّ سَبِيلُ الْمَاءِ فَهُوَ غَرِيقُهُ

وقال :

الْمَالُ يُكْسِبُ رَبَّهُ - مَالٌ يَفِضُ      فِي الرَّاعِبِينَ إِلَيْهِ - سُوءُ ثَنَاءٍ

كَلِمَاءُ تَأْسُنُ بَثْرُهُ إِلَّا إِذَا      خَبِطَ السُّقَاةُ جِجَامَهُ بَدَلَاءِ

« تأسن : تنغير ، وخبطه : ضربه ، والجمام : بثنايث الجيم : معظم الشيء »

### عقرياتهم في الجود واصطناع المعروف

ولندع البُخلَ والبخلَاءَ لحظةً وننتقل إلى عقرياتهم في الجود والإحسان واصطناع المعروف : جاء في كيلة ودمنة : إن أحسنَ الناسَ عَيْشاً من حَسَنَ عَيْشِ الناسِ في عَيْشِهِ ، وإن من أَلَذِّ اللَّذَّةِ الْإِفْضَالَ عَلَى الْإِخْوَانِ ، وفي الحديث : ليس لك من مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْفَيْتَ ، أَوْ لَبِئْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ أُعْطِيتَ فَأَمْضَيْتَ ، وما سوى ذلك فهو مِلْكُ الْوَارِثِ وقال شاعرهم :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ      فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

وقال سعيد بن العاص من خطبة له : مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً فَلْيُنْفِقْ مِنْهُ سِرّاً وَجَهراً حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُسْتَرَكُ لِأَحَدٍ رَجُلَيْنِ : إِمَّا مُصْلِحٍ ، فَلَا يَقِلُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِمَّا مُفْسِدٍ فَلَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ ... فقال معاوية : جَمَعَ أَبُو عَثْمَانَ طَرَفَيْ الْكَلَامِ ...

وقال الأحنف بن قيس : مَا شَأْنُكُمْ رَجُلًا مُذْ كُنْتُ رَجُلًا ، وَلَا زَحْمَتُ رُكْبَتَيْ رُكْبَتَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ أَصِلْ بُجْتَدِي حَتَّى يَنْتَحِجَ جَبِينُهُ عَرَفَا كَمَا يَنْتَحِجُ الْحِمِيْتُ ، فَوَاللَّهِ مَا وَصَلْتُهُ ... « قوله : مجتدى : يريد . الذي يأتيه يطلب ماله يقال : اجتداه مجتديه واعتفاه يعتفيه واعتراه يعتريه واعتره يعتريه وعراه



يَعْرُوهُ ، : إِذَا قَصَدَهُ يَتَعَرَّضُ لِنَائِلِهِ . وَيَنْتَحِجُ كَيْضَرِبُ : يَرْتَشِعُ ، وَالْحَمِيَتْ :  
وعاء السمن . يقول الأحنف : إِنَّهُ لَا يُخَوِّجُ سَائِلَهُ إِلَى أَنْ يَتَرَشَّحَ جَبِينَهُ .  
عرقا ، لمبادرته بإعطائه » وقال معاوية بْنُ أَبِي سَفْيَانَ لَوَرْدَانَ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ  
العاص : مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا تَلَذُّهُ ؟ قَالَ : الْعَرِيضُ الطَّوِيلُ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ :  
أَنْ أَتَى أَحَدًا قَدْ نَكَبَتْهُ الدَّهْرُ فَأَجْبُرَهُ ، قَالَ : نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْكَ . . . قَالَ :  
إِنَّ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْكَ مَنْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ . . . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ثَلَاثَةٌ لَا أَكْفَاهُمْ :  
رَجُلٌ بَدَأَنِي بِالسَّلَامِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ لِي فِي الْمَجْلِسِ ، وَرَجُلٌ أَغْبَرَتْ قَدَمَاهُ  
فِي الْمَشْيِ إِلَى إِيرَادَةِ النَّسْلِيمِ عَلَيَّ ؟ فَأَمَّا الرَّابِعُ فَلَا يَكْفِيهِ عَنِّي إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ،  
قِيلَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : رَجُلٌ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ فَبَاتَ لَيْلَتَهُ يَفْسُكُرُ بِمَنْ يُنْزِلُهُ ، ثُمَّ  
رَأَى أَهْلًا لِحَاجَتِهِ فَأَنْزَلَهَا بِي . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا : لَا يُزْهَدَنَّكَ فِي  
الْمَعْرُوفِ كَفْرٌ مِنْ كَفَرِهِ ، فَإِنَّهُ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ : « كَفَرُ  
مَنْ كَفَرَهُ : يَرِيدُ : كَفَرُ النِّعْمَةِ ، أَيْ عَدَمُ شُكْرِهَا ، وَقَوْلُهُ : مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ  
يَرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ »

وَأُنْشِدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَحَدُ الْأَجْوَادِ فِي الْإِسْلَامِ  
قَوْلَ الشَّاعِرِ :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمُصْنَعِ<sup>(١)</sup>  
فَقَالَ : هَذَا رَجُلٌ يَرِيدُ أَنْ يُبْخَلَ النَّاسُ ، أَمْطَرَ الْمَعْرُوفَ مَطَرًا فَإِنْ  
صَادَفَ مُوَضِعًا فَهُوَ الَّذِي قَصَدَتْ لَهُ ، وَإِلَّا كُنْتَ أَحَقَّ بِهِ  
« وَبَعْدَ » فَهَنَّاكَ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَمَا تَرَى مَذْهَبَانِ ، فَذَهَبَ يَرَى إِعْطَاءَ

(١) الصَّنِيعَةُ : مَا أُسْدِيَتْ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَبَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ :

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَأَعْمِدْ بِهَا إِلَهًا أَوْ لَدَوِي الْقَرَارِبَ أَوْ دَعِ

المستحق وغير المستحق ، الكريم والثلثم ، الشاكر ، والكافر : وبقول هذا المذهب - والقائل الشاعر محمود الوراق :

فأما كريمٌ صُنْتُ بالجودِ عِرْضُهُ وإما لثيمٌ صُنْتُ عن لؤمِهِ عِرْضِي  
وقال بعضهم : لأنْ أخطئَ باذلاً ، أَحَبُّ إلَيَّ من أنْ أُصِيبَ مانعاً باذلاً  
ومانعاً : حالان من فاعل أخطئ وأُصِيب «

ومذهب آخر يرى حرمان اللثام ومن يُسْتَضَرُّ بإعطائه ، قال قائلهم :  
اتَّقُوا صَوْلَةَ الكريم إذا جاع والثلثم إذا شبع . وقالوا : اللثيم يُزْدَادُ بالعُرْفِ  
خَبَالاً ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالا ، « خبالاً : فساداً ،  
وقال شاعر :

\* ليس في منعٍ غيرِ ذى الحقِّ بُخْلُ \*

وقال الآخر :

ومنْ يَصْنَعِ المعروفَ مع غيرِ أهْلِهِ

يُلاقى كما لاقى مُجِيرُ أم عامر<sup>(١)</sup>

(١) أم عامر : الضبع ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد في يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهى الضبع ، فطردوها - أى حاولوا صيدها - فأتعبتهم حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فاقتمحته ، فخرج إليهم الأعرابي فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذي نفسى بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيني بيدي . فرجعوا وتركوه . فقام إلى لفحة - د اللفحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، خلها وقرب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حشوته - أمعاه - وتركته فجاء ابن عم له فوجده على تلك الصورة فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها فقال : صاحبتى والله ، وأخذ سيفه في كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيراً قالوا - والقائل أبو العتاهية :-

إذا المال لم يُوجِبْ عليك عطاءه صديعة تقوى أو خليلٌ تخالقه  
منعتَ وبعض المنع حزمٌ وقوةٌ ولم يبتذلِكَ المالُ إلا حقائقه<sup>(١)</sup>  
وقال الحسنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر: إنك قد  
أسرَفتَ في بذلِ المالِ ! قال: بأبي أتما، إن الله عودتي أن يُفَضِّلَ عليَّ ،  
وعودته أن أُفَضِّلَ على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقطع عني ...  
ومرَّ يزيدُ بنُ المهَلَّبِ بأعراوية ، في خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز<sup>(٢)</sup> ،  
يريد البصرة ، فقرأته عَنَزاً فقبلها ، وقال لابنه معاوية : مامعك من النفقة ؟  
فقال : ثمانمائة دينار ، قال : فادفعها إليها ، فقال له ابنه : إنك تريد الرجال ،  
ولا يكون الرجال إلا بالمال ، وهذه يُرضيها اليسير ، وهي بعد لا تعرفُك ،  
فقال له : إن كانت تَرْضَى باليسير فأنا لا أَرْضى إلا بالكثير ، وإن كانت  
لا تعرفُني ، فأنا أعرفُ نفسي ، أدفعها إليها ...  
وأورد المبردُ في الكامل ما يأتي : وأشرف عمر بن هُبيرة الفَزَارِيُّ - والى  
العراقين يزيد بن عبد الملك - من قصره بالكوفة يوماً ، فإذا هو بأعرابيٌّ

(١) حقائقه : جمع حقيقة : ما يحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة ، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدها  
سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن يزيد كان عاملاً على حراسان ، فافتح جرجان  
وطبرستان ، ثم بشره بفتحهما في كتاب أرسله إليه يقول فيه : وقد صار عندي من  
خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذي حق حقه في النية والغنيمة ستة  
آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ... ثم مات سليمان  
وولى الخلافة عمر ، فسأل يزيد ، فتلکأ فأمر بسجنه ، ثم هرب لما بلغه شدة مرض  
عمر الذي مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرَقِّصُ جَمَلَهُ الْآلُ<sup>(١)</sup> فقال : لحاجبه : إن أرادني هذا فأوصله إلى ، فلما دنا الأعرابي سألته ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال له عمر : ما خطبك ؟ فقال الأعرابي :

أَصْلَحَكَ اللَّهُ قُلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أُطِيقُ الْغِيَالَ إِذْ كَثُرُوا  
أَلَحَّ دَهْرٌ أَنْحَى بِكُلِّكَ<sup>(٢)</sup> فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا  
رَجُوكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ غَيْثٌ سَحَابٍ إِنْ خَانَهُمْ مَطَرٌ  
فَأَخَذْتُ عَمَرَ الْأَرْبَحِيَّةَ ، فجعل يَهْتَرُ في مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إلى  
وانتظروا الإذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانما . وأمر له بألف دينار ،  
ورده على بعيره ... قال المبرد : وحُدِّثُ أن الخبر لمعن بن زائدة . أقول :  
وقد أورده ابن خلكان منسوبا لمعن .



وهذا معن بن زائدة هو الآخر له في المكارم غُرَرٌ وأوضاح ، وهو أشهر  
في باب الأربحية والجود والإقدام والحلم من أن يُنَوَّه به ، وهو معن بن  
زائدة الشيباني ، كان في أيام بني أمية مُتَنَقِّلاً في الولايات ، ومنقطعا إلى يزيد  
ابن عمر بن هبيرة وإلى العراقيين ، فلما أدال من بني أمية بنو العباس ،  
وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور ما جرى ، أبلى  
يومئذ معن مع يزيد بلاء حسنا ، فلما قُتِلَ يزيد خاف معن من أبي جعفر  
المنصور ، فاستتر عنه مدة وجرى له مُدَّةٌ استتارِهِ غرائب ، وهنا يحدثنا  
شاعره الفحل مروان بن حَفْصَةَ بحديث طريف من هذه الغرائب . قال :

(١) الْآل : ما تراه في الضحى كالماء بين السماء والأرض ، ويرقصه : يحمله على  
الرقص ، وهو نوع من السير كالخباب

(٢) أَنْحَى : اعتمد ومال ، والكلكل : الصدر ، استعاره لوطاة الدهر وثقله

أخبرني معنٌ وهو يومئذ مُتَوَلَّى بلادَ اليمَنِ : أَنَّ المنصورَ جدَّ في طلبِي ، وجعل  
لنَّ يَحْمِلُنِي إِلَيْهِ مَالًا ، قَالَ معنُ : فَاضْطَرَرْتُ لِإِلْحَاحِهِ فِي الطَّلَبِ إِلَى أَنْ  
تَعَرَّضْتُ لِلشَّمْسِ حَتَّى لَوَّحَتْ وَجْهِي ، وَلَبِسْتُ جُبَّةً صُوفٍ ، وَرَكِبْتُ جَمَلًا  
وَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَادِيَةِ لِأَقِيمَ بِهَا ، فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ بَابِ حَرْبٍ -  
أَحَدِ أَبْوَابِ بَغْدَادٍ - تَبَعَنِي أَسْوَدُ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا حَتَّى إِذَا غَبَتِ عَنِ الْحَرَسِ ،  
قَبِضَ عَلَى خِطَامِ الْجَمَلِ ، فَأَنَاحَهُ ، وَقَبِضَ عَلَى يَدِي ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا بَكَ ؟ قَالَ :  
أَنْتِ طَلِيبَةٌ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قُلْتُ : وَمَنْ أَنَا حَتَّى أَطْلُبَ ؟ قَالَ : أَنْتِ مَعْنُ بْنُ  
زَائِدَةَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ، اتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَيْنَ أَنَا مِنْ مَعْنٍ ؟ فَقَالَ :  
دَعْ هَذَا ، فَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَعْرِفُ بِكَ مِنْكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ مِنْهُ الْجِدَّةَ قُلْتُ لَهُ : هَذَا  
عَقْدُ جَوْهَرٍ قَدْ حَمَلْتُهُ مَعِيَ بِأَضْعَافِ مَا جَمَلَهُ الْمَنْصُورُ لِمَنْ يَحِبُّهُ بَنِي ، فَخُذْهُ  
وَلَا تَكُنْ سَبِيحًا لِسُفْكِ دَمِي ، قَالَ : هَاتِهِ ، فَأَخْرَجْتُهُ إِلَيْهِ ، فَظَنَرُ فِيهِ سَاعَةً ،  
وَقَالَ صَدَقْتَ فِي قِيمَتِهِ ، وَلَسْتُ قَابِلَةً حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنْ صَدَّقْتَنِي  
أَطْلَقْتُكَ ، قُلْتُ : قُلْ ، قَالَ : إِنْ النَّاسُ قَدْ وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي :  
هَلْ وَهَبْتَ مَالَكَ كُلَّهُ قُطْ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ فَنِصْفَهُ ، قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَنُكْلَهُ  
قُلْتُ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتُ وَقُلْتُ : أَظُنُّ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ  
هَذَا ، قَالَ : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ، أَنَا وَاللَّهُ رَاجِلٌ - يَرِيدُ مِنَ الْمَشَاءَةِ - وَرِزْقِي مِنْ  
أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ كُلِّ شَهْرٍ عَشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ قِيمَتُهُ أَلُوفُ  
دِينَائِرٍ ، وَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ وَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَلِجُودِكَ الْمَأْثُورِ بَيْنَ النَّاسِ  
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجْوَدُ مِنْكَ ، فَلَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ، وَلِتَحْتَقِرَ  
بَعْدَ هَذَا كُلِّ جَوْدٍ فَعَلَّتُهُ وَلَا تَتَوَقَّفَ عَنْ مَكْرُمَةٍ ، ثُمَّ رَمَى الْعَقْدَ فِي حِجْرِي ،  
وَتَرَكَ خِطَامَ الْجَمَلِ ، وَوَلَّى مُنْصَرَفًا ، فَقُلْتُ : يَا هَذَا ، وَاللَّهُ لَقَدْ فَضَحْتَنِي ،

وَأَسْفَكَ دُمِي عَلَى أَهْوَنُ مَا فَعَلْتُ ، نَحْنُ مَا دَفَعْتُهُ لَكَ نَائِي غَنَى عَنْهُ ، فَضَحَكَ .  
 وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تُكَذِّبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا ! وَاللَّهِ لَا أَخَذْتُهُ وَلَا أَخَذَ لِمَعْرُوفٍ .  
 ثَمَّنَا أَبَدًا ، وَدَضَى لِسَانَهُ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَوَسْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَجِيءُ  
 بِهِ مَا شَاءَ فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ ... أَلَا تَرَى مَعِيَ أَنَّ  
 مَا فَعَلَهُ هَذَا الْجَنْدِيُّ الْفَقِيرُ إِنْ لَمْ يَفْقُ بِهِ مَعْنَى بَنٍ زَائِدَةٍ وَأَشْبَاهَ مَعْنَى بَنٍ  
 زَائِدَةٍ ، فِي بَابِ الْمُرُوءَةِ وَالْفَتَاوَةِ وَالنَّجْدَةِ وَالْكَرَمِ وَعِبَقَرِيَةِ الرُّوحِ فَإِنَّهُ لَا يَقِلُّ  
 عَنْهُمْ !

جُهِدُ الْمَلِّ إِذَا أَطَاكَ نَائِلُهُ      وَمُكْرَرٌ مِنْ غَنَى سَيَّانٍ فِي الْجُودِ  
 فَهُوَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَلَمْ يَكُ أَكْثَرُ الْفَتَيَانِ مَالًا      وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا



وَمَنْ هُنَا حَثُّوا عَلَى الْجُودِ وَالْمُرُوءَةِ وَالتَّسَخُّي حَتَّى فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالضَّقِيقِ  
 فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَرَأْنَاهُ مَلْسُوبًا لِرُبُزْرِجَهَرٍ أَوْ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ أَوْ لَامْرَأَةٍ  
 مِنَ الْعَرَبِ تَوْصِي بِهِ ابْنَهَا ، وَهُوَ : إِذَا أَقْبَلَتْ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَأَنْفِقْ ، فَإِنَّهَا لَا تَقْفَى ،  
 وَإِذَا أَذْبَرَتْ عَنْكَ فَأَنْفِقْ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى . أَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ :

وَأَنْفِقْ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا

وَأَنْفِقْ عَلَى مَا خَلَّتْ حِينَ تُعْسِرُ

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ

وَلَا الْبَخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُذْبِرٌ

وَقَالَ الْآخَرُ فِي مَعْنَاهُ :

لَا تَبْخُلَنَّ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ      فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّجْدِيرُ وَالسَّرْفُ

فَإِنْ تَوَلَّاتْ فَأُخْرِى أَنْ نَجُودُ بِهَا      وَالشُّكْرُ مِنْهَا إِذَا مَا أَذْبَرْتَ خَلْفُ



ولا تنسَ أن مرادهم بالإنفاق والجود هنا: الإنفاقُ في سبيل الله والبرِّ  
لا في سبيل الشيطان والإثم، والجودُ على ذوى الحقوق ومن هم في حاجة إليك  
حتى مع إدبار الدنيا عنك، وبالحرى مرادهم بالسرف: السرفُ في الشرف، وما  
يُكسب المرءَ مَحْمِدةً ومِقةً<sup>(١)</sup>. ويؤثر عن معاوية أو المأمون - وقد قيل  
لأحدهما: لاخير في السرف - فقال: لا سرف في الشرف ...

وقال سلم بن قتيبة: أحدكم يحقر الشيء فيأتى ما هو شر منه «يعنى المنع،  
يريد الحث» على إعطاء القليل إن لم يستطع إعطاء الكثير، وقال حماد عجرد  
في ذلك من أبيات:

بُتَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ      فَكُلْ مَا سَدَّ فَقْرًا أَهْوَى مَحْمُودُ

يقول فيها:

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِيَ عَنْكَ عُسْرَتَهُ      حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهَرَجَ مَجْهُودُ  
إِذَا تَكْرَمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَلِيلَ وَلَمْ      تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ  
وَالْبَخِيلُ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ      زُرُقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودُ  
أُورِقُ بِخَيْرٍ تُرْجَى لِلنَّوَالِ فَمَا      تُرْجَى الشُّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

والعرب تقول: من حقرَ حَرَمَ ... «حقر الشيء: عدّه حقيراً، أى  
من حقر يسيراً يقدرُ عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق» وفي  
الحديث: لا ترذوا السائلَ ولو بظلفٍ مُحَرَّقٍ «الظلف من كل ما يجسَّرُ من

(١) مِقة: حبة

الحيرانات كالبقرة والطّي بمنزلة الحافر من الفرس، ويقال : أحرق الشيء بالنار وحرّقه شدّد لكثرة ، وقال المعري :

إذا طرقَ المسكينُ بابَكَ فَأَجِبْهُ قَلِيلًا وَلَوْ مِقْدَارَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ  
وَلَا تَحْتَقِرْ شَيْئًا تُسَاعِفُهُ بِهِ فَكَمْ مِنْ حَصَاةٍ أَيْدَتْ ظَهَرَ مَجْدَلٍ  
المجدل : النضر المشرف ، وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لا يفتح ، فإن وقع وجد مُتَسَكِّمًا . وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعروف يَبْقَى مَصَارِعُ السُّوءِ ... وكان ابنُ عَبَّاسٍ يقول أيضا : مارأيت رجلا أوليته معروفًا إلا أضاع ما بيني وبينه ، ولا رأيت رجلا أوليته سوءًا إلا أظلم ما بيني وبينه ، وما يروى في هذا المعنى أن رجلا كان في مجلس خالد بن عبد الله القسريّ ، فقام من المجلس ، فقال خالد : إني لأُبْغِضُ هذا الرجلَ وماله إلى ذنْبٍ ، فقال رجل من القوم : أوله أيها الأميرُ معروفًا ففعل ، فما ليث أن تخفّ على قلبه وصار أحدَ جلسائه . وفي هذا المعنى يقول سيّد مُوسِيَقِيّ الإسلام أبو إسحاق الموصلي :

أرى الناسَ تُخْلَنَ أَلْجَوَادٍ وَلَا أَرَى بِخَيْلٍ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ خَلِيلُ  
وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَتَى لَوْ عَلِمَتْهُ إِذَا نَالَ شَيْئًا أَنْ يَكُونَ يُبِيلُ  
فإني رأيت البخل يُزْرَى بأهله فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بِخِيلُ

وبقول المتنبي :

وَأَحْسَنُ وَجْهِ فِي الْوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ وَأَيَّمَنُ كَيْفَ فِي الْوَرَى كَيْفَ مُنْعِمٍ  
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ اتَّصَلَتْ نِعْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فمن لم يحتمل تلك المئون عُرِضَ لزوال تلك النعم ، وقال خالد بن عبد الله القسريّ أيضا : حوائج الناس إليكم نعمٌ من الله عليكم ،



فَلَا تَمْلُوا النَّعْمَ فَتُنَحْوِلَ زَيْعًا، قَالَ الشَّاعِرُ :

بَدَا - حِينَ أَثَرَى - بِإِخْوَانِهِ فَقَتَلَ عَنْهُمْ شَبَابَةَ الْعَدَمِ (١)  
وَذَكَرَهُ الْحَزْمُ غَبَّ الْأُمُورِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعْمِ  
وعن سيدنا رسول الله : تَنْزِيلُ الْمَعُونَةِ عَلَى قَدْرِ الْمُسْتُرْتَةِ « ومعناه : أنه كلما  
تكاثر على المرء من يحق عليه أن يعولهم ويقوم بمؤونتهم ، ففعل ، أو كلما أنفق  
المرء في سبيل البر ، أعطاه الله بمقدار ذلك ، وجاء في الحديث المرفوع :  
مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَكَلِمَا كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ ...

وقالوا في معنى النجدة وإقالة العثرات وواجبات ذوى الجاه :  
بِذَلِّ الْجَاهِ زَكَاةُ الشَّرَفِ . وفي الحديث : إِنْ اللَّهُ يَسْأَلُ الْعَبْدَ عَنْ جَاهِهِ كَمَا  
يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ وَعُثْرِهِ ، فيقول : جعلتُ لك جَاهًا فَهَلْ تَصْرَتْ بِهِ مَظْلُومًا  
أَوْ قَوَّمتَ بِهِ ظَالِمًا أَوْ أَغْنَتْ بِهِ مَكْرُوبًا ! وفي الحديث أيضا : أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ  
تُعِينَ مَنْ لَاجِأَ لَهُ ... وقال أبو تمام :

وَإِذَا أَمْرُؤُ اسْتَدَى إِلَى صُلَيْعَةٍ مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّمَا مِنْ مَالِهِ  
وكان زياد بن أبيه يقول لأصحابه : آشَفُوعُوا لِمَنْ وَرَاءَكُمْ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ  
أَرَادَ السُّلْطَانُ - يَرِيدُ : كُلُّ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ - وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَصَلَ  
اسْتَطَاعَ أَنْ يُسَكِّمَهُ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ : مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً  
يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا . « قال المفسرون : الشفاعةُ الحسنةُ : هِيَ الْقِيَامَةُ بِهَا  
حَقُّ مُسْلِمٍ وَدَفْعُهَا عَنْهُ شَرٌّ أَوْ جُلْبُ إِلَى خَيْرٍ وَابْتِغْيُ وَجْهَ اللَّهِ وَلَمْ

(١) بدا ، هـى : بدأ ، بالهمز ، فسهل للشعر ، والشبابة : طرف السيف وحدث كل شيء .  
وقال : كسر

تَوَخَّذْ عَلَيْهَا رِشْوَةً ، وَالسَّيِّئَةُ مَا كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ . وَقوله سبحانه : يَكُنْ لَهُ  
نَصِيبٌ مِنْهَا : فذلك النصيب : هو ثَوَابُ الشَّفَاعَةِ وَجَزَاؤُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَقوله  
يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا : أى نصيب مِنْ وَزْرِهَا مُسَاوٍ لَهَا فِي الْقَدْرِ ، وَقوله عز وجل :  
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيَّتًا ، فالحقيقت : الْمَقْتَسِدِرُ مِنْ أَقَاتِ عَلَى الشَّيْءِ :  
إِذَا قَدَّرَ ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَقِيلَ لِأَبِي قَيْسٍ بْنُ رِفَاعَةَ :  
وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ

وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيَّتًا <sup>(١)</sup>

وَفَسَّرَ الْحَقِيقُ بِالْحَافِظِ وَاشْتِقَاقَهُ مِنَ الْقُوَّةِ ، فَإِنَّهُ يَقْوَى الْبَسْدَنُ  
وَيَحْفَظُهُ .

وَمِنْ أَجْلِ مَا قِيلَ فِي الْجُودِ قَوْلُ حَاتِمِ طَيْي :

أَمَاوِيٌّ مَا يُغْنِي السُّرَّاءُ عَنِ الْفَتَى

إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

(١) رَوَى الصَّاعِقَانِي هَذَا الْبَيْتَ مَعَ آيَاتٍ أُخْرَى هَكَذَا :

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ أُقِيَّتُ .

يَبِيتُ اللَّيْلَ مُرْتَفِقًا ثَقِيلًا عَلَى فَرْشِ الْفَتَاةِ وَمَا أُبَيْتُ

تَعَبٌ إِلَى مِنْهُ تُؤْذِيَاتُ كَمَا تُؤْذِي الْجَذَائِرَ الْبُرُوتُ

وَالْمُرْتَفِقُ : الْمُتَكَيِّفُ عَلَى مَرَقِيهِ ، وَتَعَبٌ : تَسْرِعُ وَتُظْهِرُ ، وَالْجَذَامَرُ : مَا بَقِيَ مِنْ أَصْلِ

السَّفْعَةِ ، وَالْبُرُوتُ : الْفَأْسُ ، لُغَةً يَمَانِيَةً يَنْطَقُونَهَا الْبَرْتُ وَالْبَرْتُ ، وَالْبُرُوتُ فَاعِلٌ

تُؤْذِي ،

(٢) مَامُوِيٌّ : مُنَادَى مَرَحِمِ مَامُوِيَّةٍ وَهِيَ زَوْجَةُ حَاتِمِ ، وَحَشَرَجَتْ : أَيِ النَّفْسِ وَإِنْ

لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ ، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ

أماوِيَّ إِن يُصْبِحَ صَدَائِي بِقَفْرَةٍ  
 مِنْ الْأَرْضِ لَأَمَّا لَدَيَّ وَلَا تَحْمُرُ<sup>(١)</sup>  
 تَرَى أَنَّ مَا أَبْقَيْتُ لَمْ أَكُ رَبَّهُ  
 وَأَبْ يَدِي مَّا بَخِلْتُ بِهِ صَفْرُ<sup>(٢)</sup>  
 أماوِيَّ إِنَّ الْمَالَ غَايِدٌ وَرَائِحٌ  
 وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ  
 غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّلِ وَالْغِنَى  
 وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ<sup>(٣)</sup>  
 فَمَا زَادَنَا بَأْوًا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ  
 غِنَانًا وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ<sup>(٤)</sup>

ألست معي في أن على هذه الآيات مَسْحَةٌ مِنَ الْجَمَالِ وَأَثَرًا بَيْنَنَا مِنَ الصَّدَقِ  
 وَأَنَّ لَهَا لَوَاطَةً مِنْ نَمٍّ بِالْقَلْبِ أليس حاتمٌ يقول : الحقُّ أَتَوَلَّى : إنه لا يلبيغي  
 لك ياماوية أن تلويني على إنفاق مالي في سبيل البرِّ والإلطاف ، والتَّخَرُّقِ في  
 النوال وقرى الأضياف ، أما تعلمين أن مال المرء لا يُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا إِذَا  
 مَا لَوَتْ رَمَاهُ بِسَهَامِهِ وَغَادَرَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ ، أما تعلمين أن المرء متى نُيِّدَ جَسَدُهُ  
 بِالْعَرَاءِ وَأُودِعَ حُفْرَةً مُوَحَّشَةً مُقْفَرَةً لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يَحْتَاذُهُ فِي هَذِهِ  
 الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ ، بَدَأَ لَكَ أَنَّ الْمَالَ الَّذِي تَرَكْتُهُ وَبَخِلْتُ بِهِ عَلَى مُسْتَحِقِّهِ أَصْبَحَ

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، وصفر : خلو (٣) غنينا : عشنا ، غنى : كفرح : عاش ، وغنى  
 بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعُّل الفقر ، وبكأسيهما : يعني الفقر والغنى  
 (٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

ملكاً لغيري وأصبحت أنا خالي الوفاض<sup>(١)</sup> بادي الإنفاض<sup>(٢)</sup> لا أملك من هذا المال شروى نقير<sup>(٣)</sup> ! أليس الأخلق بي لذلك أن أنفقهُ وأنسخي به على أهليه ، فأنفَع بعد موتي - إذا أنا فعلتُ - بالذكر في الناس والحديث الحسن ! وأية قيمة للمال يا ماوية ، ذلك الذي يجيء ويذهب ، ويغدو ويروح ! ليس الأخلق بالعاقل الثاقب النظر أن يُفقد منه ما هو أبقى على الزمن الباقي من الزمن - أن يفقد منه الذكر من طريق إنفاقه ، والجود به في وجوه استحقاقه ! لقد عشنا يازوجتي حيناً من الدهر أغنياء كما عشنا حيناً فقراء ، وكلاً سقناه الدهر بكأسيهما ، فما أزرى الدهر بأحسابنا ، ولا أضغى إناءة أعراضنا ، ولا أسف بأخلاقنا ، كما هو شأنه مع ضمفاء النفوس ، وكذلك إذ كنّا أغنياء ، ما أبطرنّا الغنى ، وما أطفانّا ، على ذوى قربانا ، لانا فلم علما ليس بالظن أن المال عرض زائل ، أما الجوهر ، أما الذكر ، أما الشرف ، أما الخلق ، فكل أولئك هو الذي عليه المعول ، وإنه لخيرة لاتنفد ، وهي حسبُ العاقل الذي راض نفسه على السكون إلى الحقائق ، ولم يُخلد إلى أم دفر<sup>(٤)</sup> باطل الأباطيل ...

\*\*\*

«أما بعد» فلقد أذكرتنا هذه العقريات الكريمة من القول، عبقرية رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ في الإحسان واصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنه لحق علينا أن نعرض شيئاً لهذه العبقرية من القَعال<sup>(٥)</sup>، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصود على العبقرى من القول وإنما نعرض كذلك للعبقرى من الأناسى<sup>(٦)</sup> فى أى معنى من المعانى<sup>(٧)</sup> على شريطة أن يكون ذلك لِمَما ، فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) التقير : نكتة فى النواة يكون منها منبت النخلة وشروى نقير : مثل هذه النكتة (٤) أم دفر: الدنيا وأصل الدفر : التثنية (٥) القَعال بفتح القاء : الفعل الحسن (٦) فى أى معنى : متعلق بالعبقرى

نَعْمَلُ الْإِغْفَالَ كُلَّهُ مَا يَعْنِينَا مِنْ سِيرِ الْعَبْقَرِيِّينَ ، وَبِمَتْ مُنْهَا بِسَبَبٍ وَاصِلٌ إِلَى أَيْ  
بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَا تَتَبَسَّطُ التَّبَسُّطُ الَّذِي يُلَحِّقُنَا بِأَصْحَابِ السَّيْرِ  
وَالْمُسْتَرْجَعِينَ ؛ وَشَخْصِيَّتُنَا الَّتِي حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا أَنْ نُسَلِّمَ بَعْبَقَرِيَّتَهَا فِي بَابِ الْبِرِّ  
وَالْإِحْسَانِ هُوَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ أَسْلَافِنَا كَمَا قُلْنَا - هُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ أَحْمَدُ بْنُ  
أَبِي دُوَادٍ ....

### أحمد بن أبي دواد \*

كَانَ هَذَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ شَخْصِيَّةً ضَخْمَةً ذَاتَ أَثَرٍ فَعَالٍ خَالِدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ،  
إِذْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْيَاعِ الْمُعْتَرِلَةِ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ،  
الْعَامِلِينَ عَلَى تَرْوِيجِ هَذِهِ الْبِدْعَةِ ، مُسْتَظْهِراً عَلَى ذَلِكَ بِجَاهِهِ وَنُفُوذِهِ لَدَى  
الْمَأْمُونِ وَالْمُعْتَصِمِ وَالْوَائِقِ . وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَغَمٍّ - فِي نَظَرِ رِجَالِ الْحَدِيثِ  
وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - إِلَّا هَذِهِ ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الصُّوْلِيُّ : لَوْلَا  
مَا وَضَعَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ تَحَبُّةٍ الْمِحْنَةِ - مِحْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَحَمَلِ  
النَّاسِ عَلَيْهِ - لَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُضَفَّ إِلَى كَرَمِهِ كَرَمُ أَحَدٍ ...  
وَمَنْ أَحَبَّ الْوُقُوفَ عَلَى مَوْقِفِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَلْيَرْجِعْ  
إِلَى مَقَاتِلِهَا ... وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي مَكَاتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَمَنْزِلَتِهِ  
مِنَ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَرَسُوخِ قَدَمِهِ فِي الْفَضْلِ وَالتَّجَلُّلِ وَمَكَارِمِ

(هـ) قَالَ ابْنُ خُلِكَانَ - بَعْدَ أَنْ سَرَدَ نَسَبَهُ وَنَمَاهُ إِلَى إِيَادِ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعْدَنَ بْنِ عَدْنَانَ  
أَيْ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ إِيَادِي - إِنَّ أَصْلَهُ مِنْ قَرْيَةٍ بِقَنْسَرِينَ ، وَاتَّجَرَ أَبُوهُ إِلَى الشَّامِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ  
وَهُوَ حَدَثٌ ، فَنَشَأَ أَحْمَدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَخَاصَّةِ الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ حَتَّى بَلَغَ مَا يَبْلُغُ ، وَصَحِبَ  
هِيَاجَ بَنِي عِلَاءِ السُّلَى - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ وَاصِلِ بْنِ عِطَاءٍ - فَصَارَ إِلَى الْإِعْزَالِ ، وَكَانَتْ  
وِلَادَتُهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ بِالْبَصْرَةِ وَتُوفِيَ سَنَةَ ٢٤٠ هـ بَعْدَ أَنْ أَصِيبَ بِالْفَالِجِ فِي زَمَنِ الْمُتَوَكِّلِ

الآخلاق ، وأفاعيله المخلّدة في هذه المعاني - والكلام بدخل بعضه في بعض - : قال أبو العيناء <sup>(١)</sup> مارأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دؤاد ، وقال : كان ابن أبي دؤاد شاعراً مجيداً ، فصيحاً بليغاً : وقد ذكره دُعيل بن علي الخزاعي - الشاعر العبقرى - في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتا حسنا : وقال أبو بكر الجرجاني : سمعت أبا العيناء الضرب يقول : مارأيت في الدنيا أقوم على أدب من ابن أبي دؤاد - يريد أبو العيناء بالأدب هنا : أدب النفس - ماخرجت من عنده يوما قط فقال : يا غلام خذ بيده ، بل قال : يا غلام أخرج معه ، فكنت أنتقد هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسمعها من غيره ... قالوا : وهو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الانصار ليلة العقبة ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابن أبي دؤاد ، فمدّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكذاهم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلا فيمثل أحد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالم خليفة فيمثل أمير المؤمنين ، الذي يفهم عنه ، ويكون أعلم بما يقوله منه . وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي : ابن أبي دؤاد رُوح كل من قرينه إلى قدميه . وقال لازون بن اسماعيل : مارأيت أحدا قط أطوع لأحد ، من المعتصم لابن أبي دؤاد ، كان - المعتصم - يُسئل الشيء اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله

(١) أبو العيناء هو أبو عبدالله محمد بن القاسم الضرب ، ولد سنة ١٩١ وتوفي سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب ما لم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نوادره مبعثرة في هذا الكتاب

وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يربد ، ولقد كلفه يوما في مقدار ألف ألف درهم ليخفر بها نهرا في أقاصي خراسان ، فقال له : وما على من هذا النهر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعييتك ، كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفق به حتى أطلقها . قالوا : وكان ابتداء اتصال ابن أبي دؤاد بالمأمون ما حدث به ابن أبي دؤاد نفسه ، قال : كنت أحضر مجلس القاضي يحيى بن أكثم ، مع الفقهاء ، فإني عنده يوما إذ جاء رسول المأمون ، فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : انتقل إلينا أنت وجميع من معك من أصحابك ، فلم يحبب أن أحضر معه ، ولم يستطع أن يؤخرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظر إلي إذا شرعت في الكلام ، ويتفهم ما أقول ، ويستحسنه ، ثم قال لي : من تكون ؟ فانتبته له ، فقال : ما أحرك عنا ؟ فكبرهت أن أجبل على يحيى ، فقلت : حُبسة القدر ، وبلوغ الكتاب أجله ، فقال : لا أعلم ما كان لنا من مجلس إلا حضرته ، فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قدم يحيى بن أكثم قاضيا على البصرة من خراسان ، من قبل المأمون ، في آخر سنة ٢٠٢ وهو حَدَثٌ ، سنه ثيف وعشرون سنة . فاستصحب جماعة من أهل العلم والمروآت ، منهم ابن أبي دؤاد ، فلما قدم المأمون بغداد في سنة ٢٠٤ قال ليحيى : اختر لي من أصحابك جماعة يجالسونني ويكثرون الدخول إلي . فاختار منهم عشرين ، فيهم ابن أبي دؤاد ، فكثروا على المأمون ، فقال : اختر منهم ، فاختار عشرة فيهم ابن أبي دؤاد ، ثم قال : اختر منهم ، فاختار خمسة ، فيهم ابن أبي دؤاد ، واتصل أمره . . . . . وكان من وصية المأمون إلى أخيه المعتصم عند الموت :

وأبو عبد الله أحمد بن أبي دواد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمر، فإنه مريض ذلك، ولا تتخذن وزيراً، فلما ولي المعتصم، جعل ابن أبي دواد قاضياً القضاة مكان يحيى بن أكرم، وكان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه... ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد، وما زال إلى أن ولي أخوه المتوكل، فأصيب ابن أبي دواد بالفالج فكانت مدة عظمة ابن أبي دواد ونفوذه وجاؤه نحواً من ثمان وعشرين سنة... قال ابن خلكان - الذي نعتمد عليه في هذا الباب - : وكان ابن أبي دواد كثيراً ما يُنشد - ولم يذكر أنهما له أو لغيره - :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما تُنجح الأمور بقوة الأسباب

فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

ومن كلامه : ثلاثة ينبغي أن يُجَلَّوا وتُعرف أقدارهم : العلماء، وولاة العدل، والإخوان، فمن استخف بالعلماء أهلك دينه، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته، ومن كلامه أيضاً : ليس بكامل من لم يحمل رأيه على منبر ولو أنه حارس، وعدوه على جذع ولو أنه وزير<sup>(١)</sup>

(١) هذا على حد قول عبد الله بن معاوية :

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يُرجى الفتى كيما يضر وينفعاً

وقول الآخر :

ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى لضر عدو أو لنفع صديق

وقول المتنبي :

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محبوب أو إساءة مجرم

وقول ابن الرومي :



وكان بين ابن أبي دواد وبين الوزير الجبار محمد بن عبد الملك الزيات ، الذي -  
تؤثر عنه هذه الكلمة : الرحمة خور في الطبيعة - منافسات وشحناء ، حتى إن  
شخصاً كان يصحب ابن أبي دواد ويختص بقضاء حوائجه ، منعه الوزير المذكور  
من التردد إليه ، فبلغ ذلك ابن أبي دواد ، فجاء إلى الوزير وقال : والله ،  
ما أجيئك متكثراً بك من قلة ، ولا متعزّزاً بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين  
رتبك مرتبة أوجبّت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك ... ثم  
نهض من عنده ... قال ابن خلكان : وكان فيه - في ابن أبي دواد - من  
المكارم والمحامد ما يستغرق الوصف ... وكان يقال : أكرم من كان في دولة  
بني العباس البراءة ثم ابن أبي دواد ... حدث الجاحظ قال : غضب المعتصم على  
رجل من أهل الجزيرة الفراتية ، وأحضر السيف والنّطع <sup>(١)</sup> فقال له المعتصم :  
قتلت وصنعت ، وأمر بضرب عنقه ، فقال له ابن أبي دواد : يا أمير المؤمنين ،  
سبق السيف العذل <sup>(٢)</sup> ، فنان في أمره فإنه مظلوم ، قال : فسكن المعتصم

== وليس يصالح لاستصلاح تملكه غير أرى نافع بالحق ضرار  
وولي : يريد صديقه وكل من يمت إليه بسبب واصل ، ويريد بحمله على المنبر  
نصرته والارتفاع به ، ويريد بحمل عدوه على جذع : صلبه والقضاء عليه ، وقوله : ولو  
أنه حارس ، أي خفير ، يريد ولو أنه حقير ، ولعله قال هذه الكلمة وهو يعرض بابن  
الزيات الوزير .

(١) النّطع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس وفيه لغات :  
نطع ونطع ونطع ونطع والجمع نطوع وأنطاع  
(٢) هذا مثل ، والعذل : اللوم وأصله أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله فأخبر  
بعذره فقال : سبق السيف العذل ، يضرب لما قد فات

قليلا ، قال ابن أبي دؤاد : وَغَمَرَنِي الْبَوْلُ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى حَبْسِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنِّي  
إِنْ كُنْتُ يُقْتَلُ الرَّجُلُ ، لَجُمِعَتْ ثِيَابِي تَحْتِي وَبُلْتُ فِيهَا ، حَتَّى خَلَصْتُ الرَّجُلَ  
قَالَ : فَلَمَّا قُتِلَ نَظَرَ الْمُعْتَصِمُ إِلَى ثِيَابِي رَطْبَةً فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، أَكُنْ تَحْتِكَ  
مَاءٌ ؟ فَقُلْتُ : لَا ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ! فَضَحِكَ  
الْمُعْتَصِمُ ، وَدَعَايَ وَقَالَ ، أَحْسَنْتَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ لَهُ  
بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ... وَقَالَ أَبُو الْعِينَاءِ : كَانَ الْأَفْشِينُ - الْتُرْكِيُّ وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ  
قَوَادِ الْمُعْتَصِمِ ، وَأَبْلَى فِي أَمْرِ بَابِكِ الْخُرَيْمِيِّ بِلَاةٍ حَمْدَهُ لَهُ - يَحْسُدُ أَبَا دُلْفٍ  
الْقَاسِمَ بْنَ عَيْسَى الْعِجْلِيَّ <sup>(١)</sup> - وَهُوَ كَذَلِكَ أَحَدُ قَوَادِ الْمَأْمُونِ ثُمَّ الْمُعْتَصِمِ  
مِنْ بَعْدِهِ . وَكَانَ تَحْتَ امْرَأَةِ الْأَفْشِينِ فِي حَرْبِ بَابِكِ - لِلْعَرَبِيَّةِ وَالشَّجَاعَةِ

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سوريا جوادا بمدحا شجاعا مقدما فاضلا ،  
مدحه أبو تمام وعلي بن جبلة المعروف بالعكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العكوك  
قصيدته التي يقول فيها :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ      بَيْنَ مَغْرَاهُ وَمَحْضَرِهِ  
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ      وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ  
كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ      بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ  
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةٌ      يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مَفْتَحِهِ

ويقول بكر بن النطاح :

يَا طَالِبَا الْكِيمِيَاءِ وَعَلَيْهِ      مَدْحُ ابْنِ عَيْسَى الْكِيمِيَاءِ الْأَعْظَمِ  
لَوْلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا دِرْهَمٌ      وَمَدَحَتَهُ لِأَنَّا ذَاكَ الدِّرْهَمِ  
وَقَدْ أَعْطَاهُ أَبُو دُلْفٍ عَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ... هَذَا وَدُلْفُ اسْمُ  
عِلْمٍ مَنُوعٍ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلِيَّةِ وَالْعَدْلِ لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ دَالْفٍ ، قَالَ ابْنُ بَرِي

فاحتال عليه حتى شهد عليه بجنایة قتل ، فأخذه يعض أسنانه ، فجلس له وأحضره ، وأحضر السيف ليقتله ، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر ، فركب من وقته مع من حضر من عدو له ، فدخل على الأفشين ، وقد جرى بأبي دؤاد ليقتل ، فوقف ، ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرت أن لا تحدث في القاسم بن عيسى حديثاً حتى تسلمه إلى ، ثم انفتحت إلى العدو وقال : أشهدوا أنني أدت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حتى معافى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدر الأفشين عليه ، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أدت عنك رسالة لم تقلها ، ما أعتد بعمل خير خيراً منها ، وإني لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فغضب رأيه ، ووجه من أحضر القاسم ، فأطلقه وذهب له : وعنف الأفشين فيما عزم عليه ... ومن مرواته : أن المعتصم كان قد اشتد غيظه على محمد بن الجهم البرمكي ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى ابن أبي دؤاد ذلك وأن لا حيلة له فيه وقد شد برأسه وأقيم في النطح وهز السيف قال ابن أبي دؤاد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتله ؟ قال المعتصم : ومن يحول بيني وبينه ؟ قال : يا بني الله تعالى ذلك ، وبأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتله حتى تُقيم البيعة على ما فعله ، وأمره باستخراج ما اختاره أقرب عليك وهو حتى ، فقال : أحبسوه حتى يناظر ، فتأخر أمره على مال حمله « أي كفسله ، وخلص محمد ... » وقال أبو العيناء : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، وأشخصه من ولايته ، لتعجز لحقه في مال طلب منه ، وأسباب غير ذلك : فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرح نفسه على ابن أبي دؤاد ، فنكلم فيه فلم يُجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبي دواد، فجلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك! فقال له: ما ينبغي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا... فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فلا يشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّع<sup>(١)</sup>؟ فقال: بل دشَفَّعاً، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس لا يعلمون رضا أمير المؤمنين عنه إن لم يخْلَع عليه<sup>(٢)</sup> - فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحقَّ هذا وأصحابه رِزْقَ ستة أشهر لا بد أن يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصَّلَاة، قال: قد أمرتُ لهم بها، فخرج خالد وعليه الخلع، والمال بين يديه، وإن الناس ينتظرون في الطرق الإيقاع به، وصاح رجلٌ: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب، فقال خالد: أسكت، سيّد العرب والله أحمد بن أبي دواد... وقال الواثق يوماً لابن أبي دواد - تَضَجُّراً بكثرة حوائجه: قد اختلَّت بيوت المال بطلباتك - للأنذين بك والمتوسلين إليك! فقال: يا أمير المؤمنين، هي نتائجُ شُكْرُها مُتَّصِلُ بك، وذخائرُ أجرها مكتوب لك. ومالي من ذلك إلا أن أخلِّد المدح فيك، فقال: أحسنت.

«وبعد، فلننتجراً بهذا المقدار من مساعي ابن أبي دواد سيد العرب وعقريتها في النجدة والمروءة والكرم والأريحية والشجاعة الأدبية

(١) يقال: شفع له وتشفع له إلى الملك مثلاً، فشفعه فيه تشفيماً، فالطالب شفيع وشافع، والمشفَّع: الذي تقبل شفاعته، أما المشفَّع فهو الذي يقبل الشفاعة  
(٢) قال في أساس البلاغة: خلع عليه: إذا نزع ثوبه وطرحه عليه، وكساه الخالعة والخلع

بوما ألف لف هذه المعاني السكرية مما انبعثت له قرائح خول شعراء الإسلام، أمثال  
أبي تمام، وأنطقهم بالمدائح من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم،  
فقال أبو تمام :

لقد أنست مساوى كل دهر محاسن أحمد بن أبي دؤاد  
وما سافرت في الآفاق إلا ومن جد والكراحلى وزادى

قال على الرازى: رأيت أبا تمام عند ابن أبي دؤاد ومعه رجل يُنشدُ عنه  
قصيدة منها هذان البيتان ، فلما أنشدتهما قال ابن أبي دؤاد لأبي تمام :  
هذا المعنى تفرّدت به أم أخذته ؟ فقال : هولى ، وقد ألّمتُ فيه بقول  
أبي نواس :

وإن جرت الالفاظ منّا بمدح غيرك إنساناً فأنت الذى نعتى  
ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدة التى أولها :

أرأيت أى سوائف وخدود عنت لنا بين اللوى وزرود

وفى الآيات الثلاثة البديعة فى الحسد :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عرف العود

لولا التخوف للعوافى لم تزل للحاسد التعمى على المحسود

ودخل أبو تمام عليه يوما ، وقد طال أيامه فى الوقوف ببابه ولا يصل  
إليه ، ولما وصل قال له ابن أبي دؤاد : أحسبك عابيا يا أبا تمام ، فقال  
أبو تمام : إنما يُنتَب على واحد وأنت الناس جميعا ، فكيف يُنتَب عليه !  
فقال له : من أين لك هذا يا أبا تمام ؟ فقال من قول الحاذق - يعنى  
أبا نواس - فى الفضل بن الربيع :

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>  
ولما وَلَّى ابْنُ أَبِي دَوَادٍ الْمَظَالِمَ قَالَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَةً يَتَظَلَّمُ إِلَيْهِ، مِنْ جَمَلَتِهَا  
قَوْلُهُ :

إِذَا أَنْتَ ضَيَّعْتَ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ      فَلَا عَجَبٌ إِنْ ضَيَّعْتَهُ الْأَعَاجِمُ  
فَقَدْ هَزَّ عِظْفِيهِ الْقَرِيضُ تَوَقُّعًا      لِعَدْلِكَ مُذْ صَارَتْ إِلَيْكَ الْمَظَالِمُ  
وَلَوْلَا خِلَالُ سَنِّهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى      بُغَاةَ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تَوَتَّى الْمَسْكَارِمُ

وَمَدَاحُ أَبِي تَمَامٍ وَغَيْرِ أَبِي تَمَامٍ فِيهِ كَثِيرَةٌ مُتَوَافِرَةٌ ... وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ  
دَرِيدٍ : كَانَ ابْنُ دَوَادٍ مُؤَالِفًا لِأَهْلِ الْأَدَبِ مِنْ أَيْ بَلَدٍ كَانُوا ، وَكَانَ  
قَدْ ضَمَّ مِنْهُمْ جَمَاعَةً يَعُولُهُمْ وَيَمُونُهُمْ ، فَلَمَّا مَاتَ حَضَرَ بِيَابِهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ  
وَقَالُوا يُذَنُّ مِنْ كَانَ سَاعَةَ الْكَرَمِ<sup>(٢)</sup> وَتَارِيخَ الْأَدَبِ وَلَا نَسْكَامُ فِيهِ إِنْ  
هَذَا وَهْنٌ<sup>(٣)</sup> وَتَقْصِيرٌ ، فَلَمَّا طَلَعَ سَرِيرُهُ قَامَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ :  
الْيَوْمَ مَاتَ رِظَامُ الْمَلِكِ وَاللَّسَنِ وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُسْتَعْدَى عَلَى الزَّمَنِ<sup>(٤)</sup>

(١) وَأَخَذَهُ أَبُو نَوَاسٍ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ      حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

(٢) السَّاقَةُ : جَمْعُ سَائِقٍ وَهُمْ الَّذِينَ يَسُوقُونَ جَيْشَ الْغَزَاةِ وَيَكُونُونَ مِنْ وَرَائِهِ  
يَحْفَظُونَهُ ، فَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْأَدَبَاءُ يَرِيدُونَ يَقُولُهُمْ مَنْ كَانَ سَاعَةَ الْكَرَمِ : أَنَّهُ كَانَ يَحُوطُ  
الْكَرَمَ وَيَحْفَظُهُ فَكَأَنَّهُ الْجَيْشَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ جِيُوشَ الْكَرَمِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ أَمِيرُ الْكَرَمِ  
لَمَّا أَنَّهُ يَحُوطُهُ وَيَحْفَظُهُ

(٣) وَهْنٌ : ضَعْفٌ

(٤) يُقَالُ : اسْتَعْدَيْتُ الْإِمِيرَ عَلَى فُلَانٍ فَأَعْدَانِي : أَيِ اسْتَعْنَيْتُ بِهِ عَلَيْهِ فَأَعَانَنِي  
وَالْأَسْمُ مِنْهُ الْعُدُوٌّ وَهِيَ الْمَعُونَةُ

وَأَظْلَمْتُ سُبُلَ الْآدَابِ إِذْ حُجِّبَتْ شَمْسُ الْمَكَارِمِ فِي غَيْمٍ مِنَ الْكَفَنِ

وتقدم الثاني فقال :

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضَعَا وَلَهُ مَنَابِرُ لَوْ يَشَاءُ وَسَّرِيرٌ  
وَلغيره يُجَبِّي الخُرَاجَ وَإِنَّمَا تُجَبِّي إِلَيْهِ حَمَامِدُ وَأُجُورُ<sup>(١)</sup>

وتقدم الثالث فقال :

وَلَيْسَ قَتِيقُ الْمَسْكِ رِيحٌ خُبُوطُهُ وَلَسَكُنَّةُ ذَاكَ الشَّاءِ الْمُخَلَّفُ<sup>(٢)</sup>  
وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصَفُ<sup>(٣)</sup>

### رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود

«وبعد» فلنتطّف على كلامهم في الجودِ وذمّ البخل : أورد الجاحظ في كتابه «البخلاء» رسالة جميلة جداً نسبها إلى أبي العاصي بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفي - أرسلها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يجلس إلى قوم من البخلاء، أمثال سهل بن هارون والأصمعي، وقد تأثر بمذهبهم في البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة يتنعى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخل ويتنوّه بالجود - ونحن فإننا نقطف من هذه الرسالة تُتفّاً وترك سايرها لمن يحب أن يراجعها في كتاب البخلاء - قال :

(١) أجور : جمع أجر وهو الثواب

(٢) قَتِيقُ الْمَسْكِ : استخراج رائحته بشيء تخلطه به، ومسك فتق : مستخرج الرائحة بجملة في غيره - كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الاصلاب : جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العجب، وتقصف : يحذف إحدى التامين أى تتمقصف والتقصف : التكسر

وهل تزيدُ حالُ مَنْ أنفقَ جميعَ مالِهِ ، ورأى المسكروَةَ في عيَالِهِ ، وظَهَرَ  
فقرُهُ ، وشِمَتَ بهِ عدُوهُ ، على أكثرَ مِن انصرافِ المؤمنين عنه ، وعلى بُغضِ  
عيَالِهِ <sup>(١)</sup> ، وعلى خُشونَةِ الملبسِ ، وجُشوبَةِ المسأَكِلِ <sup>(٢)</sup> ؟ وهذا كُلُّهُ ، يُجْتَمِعُ  
في مَسَكٍ <sup>(٣)</sup> البَخِيلِ ، ومَصْبوبٍ على هَامَةٍ <sup>(٤)</sup> الشَّحِيحِ ، ومُعْجَلٍ للثِّيمِ <sup>(٥)</sup> ومُلازِمٍ  
للسُّوْعِ ؛ أَلَا إِنَّ الْمُنفَقَ قد رَجَعَ المَحْمَدَةَ ، وتمتَّعَ بالنِّعْمَةِ ، ولم يُعْطَلِ  
المَقْدَرَةُ <sup>(٦)</sup> ووَقَّى كُلَّ خُصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ حَقَّهَا ، ووفَّرَ عَلَيْهَا نَصِيحَهَا ، والمُؤَسَّكُ  
مَعْدَبٌ ، يَحْضِرُ نَفْسَهُ ، وبالكَدِّ لِغَيْرِهِ ؛ مع لزومِ الحِجَّةِ <sup>(٧)</sup> ، وسَقُوطِ  
الهِمَّةِ <sup>(٨)</sup> والتَّعَرُّضِ لِلذَّمِّ والإِهَانَةِ ، ومع تحكيمِ العِمْرَةِ السُّوداءِ في نَفْسِهِ <sup>(٩)</sup>  
وتسليطِهَا على عِرْضِهِ ، وتمكينِهَا مِنْ عَيْشِهِ ، وسرورِ قَلْبِهِ <sup>(١٠)</sup>

إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ لَا يَبْخُلُ ، وَصَدُوقٌ لَا يَكْذِبُ ، وَوَقِيُّ لَا يَغْدِرُ ، وَحَكِيمٌ  
لَا يَعْجَلُ ، وَعَدْلٌ لَا يَظْلِمُ . وقد أَمَرْنَا بِالْجُودِ ، ونَهَانَا عَنِ الْبَخْلِ ؛ وَأَمَرْنَا  
بِالصَّدَقِ ، ونَهَانَا عَنِ الْكُذْبِ ؛ وَأَمَرْنَا بِالْحِلْمِ ، ونَهَانَا عَنِ الْعَجَلَةِ ؛ وَأَمَرْنَا  
بِالْعَدْلِ ، ونَهَانَا عَنِ الظُّلْمِ ؛ وَأَمَرْنَا بِالْوَفَاءِ ، ونَهَانَا عَنِ الْغَدْرِ .

- 
- (١) أى بغضهم له (٢) جشوبة المسأكل : غلظه وخشونته أو قلة إدامه  
(٣) المسك : الجلد والمراد : النفس والشخص (٤) الهامة : الرأس  
والجمع : هام (٥) اللثيم : الشحيح النفس (٦) أى لم يعطل المقدرة على فعل  
الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجة : أى مع قيام الحجة عليه في بخله وعجزه  
عن الزيادة عن نفسه (٨) سقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال  
(٩) المرة : خلط من أخلاط البدن ، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب  
الكثير المخاوف والوساوس  
(١٠) وتسليطها : يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم ، وتمكن هذه المرة  
من نفسه فتغص عليه عيشه وتعصف بسروره



فَلَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَزُجِّرْنَا إِلَّا عَمَّا لَمْ يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ : وَقَدْ  
قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : إِنَّ اللَّهَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ ، وَأَجْدُ الْأَجْدِينَ ؛ كَمَا قَالُوا : أَرْحَمُ  
الرَّاحِمِينَ ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَقَالُوا فِي التَّأْدِيبِ لِسَائِلِهِمْ ، وَالتَّعْلِيمِ لِأَجْوَادِهِمْ :  
لَا تَجَاوِدُوا اللَّهَ <sup>(١)</sup> فَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - أَجْوَدُ وَأَجْدُ . وَذَكَرَ نَفْسَهُ جَلَّ  
جَلَالُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - فَقَالَ : « ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » ، « ذُو الطُّولِ » <sup>(٢)</sup> .  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَقَالَ : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .



وَذَكَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : لَمْ يَضَعْ دِرْهَمًا عَلَى دِرْهَمٍ ،  
وَلَا لَيْتَةً عَلَى لَيْتَةٍ . وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَقَبَضَ الصَّدَقَاتِ ، وَجُبِيَتْ لَهُ  
الْأَمْوَالُ ، مَا بَيْنَ عُذْرَانَ الْعِرَاقِ إِلَى شَحْرِ عُثْمَانَ <sup>(٣)</sup> إِلَى أَقْصَى تَخْلِيفِ <sup>(٤)</sup> الْبَيْنِ  
ثُمَّ تَوَقَّى وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، وَدِرْعُهُ مَرْهُوْتَةٌ . وَلَمْ يُسَأَلْ حَاجَةً قَطُّ فَقَالَ : لَا .  
وَكَانَ إِذَا سُئِلَ أَعْطَى ، وَإِذَا وَعَدَ أَرَأَطَمَعَ ، كَانَ وَعْدُهُ كَالْعِيَانِ <sup>(٥)</sup> ، وَإِطَاعُهُ  
كَالْإِنْجَازِ . وَمَدَحَتْهُ الشُّعْرَاءُ بِالْجُودِ . وَذَكَرَتْهُ الْخُطَبَاءُ بِالسَّهَابِ . وَلَقَدْ كَانَ  
يَهْبُ لِلرَّجُلِ الْوَاحِدِ الضَّاحِجَةُ مِنَ الشَّاءِ <sup>(٦)</sup> وَالْعَرَجُ مِنَ الْإِبِلِ <sup>(٧)</sup> - وَكَانَ  
أَكْثَرُ مَا يَهْبُ الْمَلِكُ مِنَ الْعَرَبِ مِائَةً بَعِيرٍ ، فَيَقَالُ : وَهَبْ هُنَيْدَةً <sup>(٨)</sup> . وَإِنَّمَا

(١) أى لا تحاولوا أن تصلوا في الجود إلى مثل جود الله (٢) الطول :  
الإفضال والإنعام (٣) ساحل البحرين عمان وعدن (٤) الخلف : الكورة  
ودو عند أهل اليمن واحد الخليف وهي كورهما أى المدن والاصطاع  
(٥) العيان : مصدر عاين الشيء : أبصره والمعنى : أن وعده في الوثوق بتحقيقه  
كالشيء المشاهد (٦) الضاحجة : الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل : ما بين  
السبعين إلى الثمانين وقيل : ما بين الثمانين إلى التسعين ، وقيل : مائة وخمسون وفوق  
ذلك ، وقيل : من خمسمائة إلى الألف (٨) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غاية المدح ، ولقد وهبَ لرجل ألف بعير .  
فلما رآها تزدهم في الهوادي <sup>(١)</sup> قال : أشهد أنك نبي . وما هذا مما تجودُ  
به الأنفس .

وأجمعتِ الأممُ كلها بخيلها وسخيها ومزوجها ، <sup>(٢)</sup> على ذم البخل ، وحمد  
الجود ، كما أجمعوا على ذم الكذب وحمد الصدق .

فمن أراد أن يخالف ما وصف الله - جل ذكره - به نفسه ، وما منح من  
ذلك نبيه ( صلى الله عليه وسلم ) ، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة ،  
والأمم كافة : لم يكن عندنا فيه إلا إكفارُهُ واستسقاطه <sup>(٣)</sup>

ولم نزالمة أبغضت جواداً قط ولا حقّرتُهُ ، بل أحبّته وأعظمتُهُ ، بل  
أحبّت عِقبهُ وأعظمت من أجله رهطهُ . ولا وجدناهم أبغضوا جواداً ،  
لمجاوزته حمة الجود إلى السرف ، ولا حقّرتُهُ ، بل وجدناهم يتعلمون  
مناقبهُ ، ويتدارسون محاسنهُ ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجليل <sup>(٤)</sup> ما لم يفعلهُ  
وتحلّوه <sup>(٥)</sup> من غرائب الكرم ما لم يكن ليلقهُ ، ولذلك زعموا أن الشاء في الدنيا  
يُضاعف <sup>(٦)</sup> كما تُضاعف الحسنات في الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

(١) الهادية والهادى : العنق والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه فيكون  
معنى تزدهم في الهوادي : تزدهم بأعناقها وهذا ما يشاهد في الإبل . أو يكون المعنى :  
تزدهم في أوائلها وهذا ما شاهد أيضاً في كل قطع  
(٢) مزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطاً بين الكريم والبخليل .  
(٣) في اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافراً ، واستسقاطه : إسقاطه من  
بين العقلاء

(٤) الفعل الجليل (٥) نحلوه : نسبوا إليه (٦) يضاعفه الناس أضعافاً  
كثيرة بما يضيفون إليه ويزيدون عليه

كلّ مدح شارد<sup>(١)</sup>، وكلّ معروف مجهولٍ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخل على ضدّ هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب : وجدناهم يُغضونه مرّة ، ويُحقّرونه مرّة ، ويُغضون بفضل بغضه ولّده ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رَهْطه ، ويُضيفون إليه من نوادر اللّوم ما لم يبلّغه ، ومن غرائب البخل ما لم يفعله ، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ماضعفوا للجواد من حُسن الثناء .

وعلى أنّنا لانجد الجوائح<sup>(٢)</sup> إلى أمّال الأسخياء ، أسرع منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عدد من افتقر من البخلاء أقلّ .

والبخل عند الناس ليس هو الذي يبخل على نفسه فقط ؛ فقد يستحقّ عندهم اسم البخل ويستوجب الذم ، من لا يدع لنفسه هوى إلا ركيه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركها ، وبلغ فيها غايته . وإنما يقع عليه اسم البخل ، إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر ، ونوّه بالذكر ، وأدّخر الأجر .

وقد يُعاقَّب البخل<sup>(٣)</sup> على نفسه من المؤن ، ويُلزّمها من الكُلف ، ويتخذ من الجوارى والخدم ، ومن الدوابّ والحشَم<sup>(٤)</sup> ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البيزة الفاخرة<sup>(٥)</sup> . والشارّة الحسنة<sup>(٦)</sup> ، ما بُرّي على نفقة السيخي المثرى<sup>(٧)</sup> ويضعف على جُود الجواد الكريم<sup>(٨)</sup> فيذهب ماله وهو مذموم ، ويتغيّر

(١) شارد : نافر ، يريد المدح الغريب الذي لا يخطر عادة بالبال

(٢) الجوائح : جمع جائحة وهي الآفة .

(٣) يعلق : يوجب ويمكف (٤) الحشم : الخدم وهي كلمة في معنى الجمع ولا

واجد لها من لفظها (٥) البيزة : الهبة : يقال : هو حسن البيزة

(٦) الشارّة هنا : الزينة واللباس

(٧) يربي : يقال : أربي الشيء على كذا : زاد عليه

(٨) ضعف يضعف د من باب كرم ، زاد

حاله وهو ملوم . وربما غلب عليه حب القيان <sup>(١)</sup> واستهتر بالخصيان <sup>(٢)</sup> .  
وربما أفرط في حب الصيد ، واستولى عليه حب المراكب <sup>(٣)</sup> ، وربما كان  
إتلافة في العرس والخرس <sup>(٤)</sup> والوليمة ، وإسرافه في الإعذار <sup>(٥)</sup> وفي العقيقة <sup>(٦)</sup>  
والوكيرة <sup>(٧)</sup> ، وربما ذهبت أهواله في الوضائع <sup>(٨)</sup> والودائع . وربما كان  
شديد البخل ، شديد الحب للذكر <sup>(٩)</sup> ويكون بخله أرسج <sup>(١٠)</sup> ولؤمه أفسج ،  
فينفق أهواله وي تلف خزائنه ، ولم يخرج كفافا <sup>(١١)</sup> ولم ينج سليما  
كأنك لم تر بخيلا مخدوعا <sup>(١٢)</sup> ، وبخيلا مضعوبا ، وبخيلا مضياعا ، وبخيلا

- (١) القيان : جمع قينة ، بفتح فسكون ، الامة البيضاء مغنية أو غير مغنية
- (٢) استهتر بالشئ : بالبناء للجھول : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف والترف كان شائعا في أيامهم
- (٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها
- (٤) الخرس بالضم والخراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة
- (٥) الإعذار : وليمة الحتان وطعام البناء ، الدخلة ،
- (٦) العقيقة : الشاة تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود
- (٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان بينه
- (٨) الوضائع : جمع وضيفة وهي ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين
- (٩) شديد الحب لأن يذكر بما ينفعه من مال في هذه السبل
- (١٠) أى أعلق بنفسه
- (١١) الأصل فى معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويفنى ، ومعنى لم يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو فى معنى : ولم ينج سليما
- (١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه إليه قائلا : كأنك الخ ، والمضعوف : ضعيف الرأى

نَفَاجًا <sup>(١)</sup> وبخيلًا ذهب ماله في البناء، وبخيلًا ذهب ماله في الكيمياء <sup>(٢)</sup> ،  
وبخيلًا أنفق ماله في طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفي طلب الولايات ،  
والدخول في القَبَالَات <sup>(٣)</sup> ، وكانت فتنته بما يؤمل من الإمرة <sup>(٤)</sup> ، فوق  
فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة ، وقد رأيناه <sup>(٥)</sup> يُنفِق على مائدته وفاكهته  
ألفَ درهم في كل يوم ، وعنده في كل يوم عُرْش <sup>(٦)</sup> ، ولأنَّ يَطْعَنَ طاعِنٌ  
في الإسلام ، أهونُ عليه من أن يطعن طاعن في الرغيف الثاني ، وأشقُّ  
عصا الدين ، أهونُ عليه من شَقِّ رَغِيف ، لا يَعدُّ الثُلَمَةَ في عِرْضه ثلثة ،  
ويُعدها في ثريدته من أعظم الثَّلَم <sup>(٧)</sup>

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرعَ والجوائحُ عليهم أكلَب <sup>(٨)</sup> ؛

(١) النَفَاج : المدعى المتباهى بما ليس له

(٢) الكيمياء في زعمهم : تحويل المعادن الخسيسة - بالصناعة - إلى معادن نفيسة ،  
أقول : وقد رأيت بعيني رأسي رجلاً ثرياً من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل في البخل  
ولكنه في أواخر أيامه أضاع ثروته التي كانت تبلغ ثلثائة فدان من أجود أطيان  
مديرية الغربية في سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربي قد اشتهر بهذه  
الصناعة التي كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القَبَالَة - بالفتح - الكفالة ، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ،

والقبيل : الكفيل والضامن

(٤) الإمرة : اسم مصدر ، من أمر علينا : إذا ولى

(٥) يريد بخيلًا من البخلاء

(٦) العرس من معانيه : الوليمة

(٧) الثلثة : الفرجة في الشيء المهْدوم أو المكسور

(٨) أكلب : أضرى وأولع وأشد

لأنهم أقلُّ توكلًا ، وأسوأ بالله ظنًا . والجوادُ إما أن يكون متوكلا ، وإما أن يكون أحسن بالله ظنًا ، وهو على كل حال بالمتوكل أشبه ، وإلى ما أشبهه أنزع<sup>(١)</sup> ، وكيف أدار أمره ، فليس ممن يتَّكل على خزّنه ، ويلجأ إلى كيّسه<sup>(٢)</sup> ويرجع إلى جودّة احتياطة وشدة احتراسه

واعتلالُ البخيل بالحدّثان ، وسوء الظن بتقلُّب الزمان ، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدّثان<sup>(٣)</sup> ، وبالذي يُحدِّث الأزمان وأهل الزمان . ولا تجري الأحداث إلا على تقدير المحدث لها ؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصريف من دبرها ؟ أولسنا وإن جهلنا أسبابها فقد أيقنّا بأنها تجري إلى غاياتها ؟<sup>(٤)</sup> والدليل على أنه ليس بهم خوف الفقر ، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادةً منهم ، أو طبيعةً فيهم ، أنك قد تجد الملك بخيلا ، ومملكته أوسع ، وخُرجه أدر ، وعدوه أسكن<sup>(٥)</sup> وقد علمنا أن الزمّيج أقصرُّ الناسِ مرّةً<sup>(٦)</sup> ورويةً وأذلهم عن معرفة العاقبة<sup>(٧)</sup> : نلو كان سخاؤهم إنما هو لِكلالِ حدّهم<sup>(٨)</sup> ،

(١) الضمير في أشبه يعود إلى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كيّسه : عقله وفطنته

(٣) حدّثان الدهر : نوابه . واعتلالُ البخيل بالحدّثان : أي تلبسه العلل والاعذار بالخوف من نواب الدهر الخ

(٤) القاء من فقد : زائدة ، لأن جملة فقد أيقنّا : خبر ليس

(٥) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الأرض ، وأدر : أكثر ، وعدوه أسكن : أي غير متحفز لقتاله وإذن فالسالم موفور لديه

(٦) المرّة : العقل والإحكام

(٧) أي وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحد : أصله في السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا الغباء وقلة

النكاح والفطنة

وَتَقْصِرْ عَمَلَهُمْ ، وَقَلَّةَ مَعْرِفَتِهِمْ ، لَكَانَ يَنْبَغِي لِفَارَسٍ أَنْ تَكُونَ أَبْخَلَّ  
مِنَ الرُّومِ وَتَكُونَ الرُّومُ أَبْخَلَّ مِنَ الصَّقَالِبَةِ <sup>(١)</sup> ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي فِي الرِّجَالِ ، فِي  
الْجَمْلَةِ ، أَنْ يَكُونُوا أَبْخَلَّ مِنَ النِّسَاءِ ، فِي الْجَمْلَةِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي لِلصِّيَّانِ أَنْ يَكُونُوا  
أَسْخَى مِنَ النِّسَاءِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَقْلُ الْبُخْلَاءِ عَقْلًا ، أَعْقَلُ مِنْ أَشَدِّ  
الْأَجْوَادِ عَقْلًا ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي لِلْكَلبِ - وَهُوَ الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي اللَّوْمِ - أَنْ  
يَكُونَ أَعْرَفَ بِالْأُمُورِ مِنَ الدِّيكِ ، الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ <sup>(٢)</sup>

وَنَحْنُ لَا نَجِدُ الْجَوَادَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ السَّرَفِ إِلَى الْجُودِ ، كَمَا نَجِدُ الْبُخِيلَ  
يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْبُخْلِ إِلَى الْاِقْتِصَادِ <sup>(٣)</sup> . وَنَجِدُ الشَّجَاعَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْمُنْهَزَمِ ،  
وَالْمُسْتَحْيَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْخِجَلِ . وَلَوْ قِيلَ لَخَطِيبُ ثَابِتِ الْجَنَانِ : وَقَاحٌ <sup>(٤)</sup> لَجُرِعَ  
- فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضِيلَةِ الْجُودِ إِلَّا أَنْ جَمِيعَ الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِ أَصْنَافِ  
الْخَيْرِ يَكْرَهُونَ اسْمَ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ <sup>(٥)</sup> - إِلَّا الْجَوَادُ <sup>(٦)</sup> ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ  
قُدْرَتَهُ ، وَيُظْهِرُ فَضْلَهُ .

وَلَوْ كَانُوا لِأَوْلَادِهِمْ يَجْمَعُونَ ، وَلَهُمْ يَكْثُرُونَ ، وَمَنْ أَجْلِهِمْ يَحْرِصُونَ ،  
لَجَعَلُوا لَهُمْ كَثِيرًا عَمَّا يَطْلُبُونَ ، وَلَسَرَكُوا مُحَاسِبَتَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَشْتَهَوْنَ .

(١) الصَّقَالِبَةُ : جَبِلٌ تَنَاحَمَ بِلَادَهُمْ بِلَادُ الْخَزَرِ - فِي الرُّوسِيَا - وَبَحْرُ الْخَزَرِ هُوَ  
بَحْرُ قَزْوِينَ

(٢) وَصَفَ الدِّيكُ بِالْجُودِ لِأَنَّهُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَدْعُو الدَّجَاجَ وَيُثِيرُ لَهَا الْحَبَّ  
(٣) وَنَحْنُ الْخُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجَوَادَ لَا يَخَافُ مِنْ اسْمِ السَّرَفِ خَوْفَ الْبُخِيلِ مِنْ  
اسْمِ الْبُخْلِ لِأَنَّ السَّرَفَ فِي رَأْيِ الْجَوَادِ يَكَادُ يَلْحَقُ بِالْجُودِ  
(٤) الْوَقَاحُ : الْقَلِيلُ الْحَيَاةِ  
(٥) الْفَضْلَةُ هُنَا : تَجَاوُزُ الْحَدَّ فِي الْفَضِيلَةِ  
(٦) إِلَّا الْجَوَادُ ، أَيْ فَإِنَّهُ لَا يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَبَ بِالسَّرَفِ

وهذا بعض ما بقى بعض المورثين إلى الوارثين ، وزهد الاخلاف<sup>(١)</sup> في طول عُمر الأسلاف ...

ولو كانوا لأولادهم يُمهدون ، ولهم يجمعون ، لما جمع الخُصيانُ الأوال ، ولما كثر الرُهبانُ الكَنوز ، ولما استراح العاقر من ذل الرغبة<sup>(٢)</sup> وكسليم العقيم من كد الحرص . وكيف ؟ ونحن نجلده بعد أن يموت ابنه الذى كان يعتل به<sup>(٣)</sup> ، والذى من أجله كان يجمع ، على حاله<sup>(٤)</sup> في الطلب والحرص ، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع

والعامة لم تُقصر في الطلب والحسرة<sup>(٥)</sup> ، والبخل لم يتجد واشية من جهدهم<sup>(٦)</sup> ولا أعفوا بعد قدرتهم<sup>(٧)</sup> ، ولا قصرُوا في شيء من الحرص والحصص<sup>(٨)</sup> ، لأنهم في دار قلعة ، بعرض نُقْلة<sup>(٩)</sup> . حتى لو كانوا بالخلود موقنين ، لأغفلوا تلك الفضول<sup>(١٠)</sup>

- (١) الاخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته  
(٢) ذل الطمع والحرص (٣) يعتل به : يتخذ علة وسببا للجمع والمنع  
(٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد (٥) والعامة الخ كأنه الحق العامة بالبخل ، لصفات البخل فيهم ، والحسرة هنا : الجمع والإسكاف  
(٦) أى لم يجسروا جهودهم في سبيل جمع الأموال (٧) اعنى : أنفق العفو من ماله وهو ما يفضل عن النفقة وبعد قدرتهم : أى بعد اقتدارهم وإيسارهم  
(٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أى اتقلاص وارتحال ، وقوله : وبعرض نُقْلة : أى أن الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لو كانوا الخ هذا من الترقى في الدليل يقول : لو كتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب ما يزيد على عيشهم وحالتهم ولجادوا به لو حصل في أيديهم ولكنهم لا يعقلون بسبب ماركب فيهم من الحرص والجشع



فالبخيلُ مجتهدٌ ، والعاميُّ غيرُ مقصِّرٍ .<sup>(١)</sup> فمن لم يستعِنْ على ما وصفنا بطبيعة قوية ، وبشهوةٍ شديدة ، وبنظرٍ شافٍ ، كان إما عامياً ، وإما بخيلاً شقيماً<sup>(٢)</sup> - ففيمَ اعتلاهم بأولادهم ، واحتجاجهم بخوف التلُّونِ من أزمتهُم<sup>(٣)</sup> ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إِوَافِدِ كَذَبَ عِنْدَهُ كَذْبَةً ، وكان جواداً : لولا خَصْلَةٌ وَمِقْلَكُ اللَّهِ عليها ، لَشَرَدْتُ بِكَ مِنْ وَافِدِ قَوْمٍ<sup>(٤)</sup> ... وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في بيض النساءِ وأديم الإبل<sup>(٥)</sup> ؟ قال : وَمَنْ هُمْ ؟ قال : بَنُو مُدْجٍ<sup>(٦)</sup> . قال : يَمْنَعُنِي مِنْ ذَاكَ قَرَاهِمُ الضَّيْفِ ، وَصِلَتُهُمُ الرَّحِمُ . وقال لهم أيضاً : إِذَا نَحَرُوا نَجَّوْا<sup>(٧)</sup> ، وَإِذَا لَبَّوْا عَجَّوْا<sup>(٨)</sup> . وقال الأنصار : مَنْ سَيِّدُكُمْ ؟ قالوا : الْحُرُّ بْنُ قَيْسٍ ، عَلَى أَنَّهُ يُزَنُّ<sup>(٩)</sup> . فإنا ببخل ، فقال : رَأَيْ دَاءَ أَدْرَأَ مِنَ الْبَخْلِ ؟ جعله من أدول الداء .

(١) معنى اجتهد البخل هنا أنه يفعل ما يفعل عن احتجاج واقتناع بصواب ما يفعل . أما العامي فليس له من العقل ما به يقيم الحجة على حكرته وإنما هو مسوق إلى ذلك بطبيعته فهو ملحق بالبخل .

(٢) فمن لم يستعِ الخ ، على ما وصفنا : على ماينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السائمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شافٍ : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لا السفسطة

(٣) تلون الأزمنة : تقلبها وتنكرها (٤) ومقه يمقه ، كوثق يثق : أحبه . وشردت بك : أبعدتك وطردتك ، وقوله من وافد قوم : هو بيان للكاف في د بك ، (٥) الادم : جمع آدم وأدماء ، والادمة في الإبل : لون مشرب سواداً أو يابضاً أو هو اليابض الواضح والتقدير : هل لك في قوم الخ أي هل لك في غزو قوم الخ كما يفهم من المقام (٦) بنو مدج قبيلة من كنانة (٧) وقال لهم : أي قال في حقهم ، ونجوا : أسالوا دماء الذبائح في الحج (٨) التلية في الحج قول : ليك اللهم ليك الخ وعج يعج د بالكسر والفتح ، صاح ورفع صوته (٩) يزَنُّ : يتم

وقال الأنصار : أنا والله ، ما علمتكم إلا لتكثروا عند الفزع وتقولون عند الطمع <sup>(١)</sup> ، وقال : كفى بالمرء حرصا رُكوبه البحر <sup>(٢)</sup> . - وقال : لو أن لابن آدم واديين من مال لا يتغى ثلثا ، ولا يشبع ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب <sup>(٣)</sup> . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان وقال : إن الله جواد يحب الجود . وقال : أنفق يابلال ، ولا تحش من ذى العرش إقلالا <sup>(٤)</sup> .

هذا ما رأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة . ونعود إلى سائر عبقرياتهم في الجود والإحسان

### كلمة علوية لسيدنا رسول الله

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : إني أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ... قال : فقال رجل : أو يأتي الخير بالشر يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأينا أنه ينزل عليه <sup>(٥)</sup> ، فأفاق يمسح عنه الرخصة <sup>(٦)</sup> وقال : أين هذا السائل - وكأنه حمده - فقال : إنه لا يأتي

- (١) لتكثرون الخ : أى لتجتمعون بجموعكم للنجدة والذود ، وقتلهم عند الطمع : لسباحتهم وكرمهم وقلة حرصهم ، والمراد : الطمع في مغم حرب أو نحوه
- (٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر فى تلك الأيام وليس المراد ذم السعى على الرزق الحلال من أى وجه كان ، كاهو ظاهر
- (٣) واديين : نهرين (٤) أنفق الخ ، بلال : هو بلال بن حمزة الحبشى مؤذن سيدنا رسول الله

(٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرخصة : العرق الكثير وكثيرا ما يستعمل

الخير بالبشر، وإنَّ ما يُنبتُ الربيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطاً أو يُيْلِمُ<sup>(١)</sup>، إلا آكلةَ  
الخَضِرِ<sup>(٢)</sup>، فإنها أَكَلَتْ حتى إذا امتلأت خَاصَرَتَها استقبلت عينَ الشمسِ  
فثَلَطَتْ<sup>(٣)</sup> وبالتَّ ثم رعت. وإن هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلوةٌ، ونعمَ صاحبُ  
المسلم هو، إن أعطى المسكينَ واليتيمَ وابنَ السَّيْلِ. أو كما قال رسولُ الله صلى  
الله عليه وسلم.



وقال الإمام اللغوي أبو منصور الأزهري<sup>(٤)</sup>: في هذا الحديث تبيان، ضرب  
أحدهما للمفرط في جمع الدنيا مع مَنع ما جمع من حقه، والآخر ضربه للمقتصد  
في جمع المال وبذله في حقه، فأما قوله صلى الله عليه وسلم: وإنَّ ما يُنبتُ  
الربيع ما يَقْتُلُ حَبَطاً، فهو مَثَلُ الحريص المفرط في الجمع والمَنع، وذلك أن الربيع  
يُنبت أحرار العشب<sup>(٥)</sup> التي تَحْلُو لها الماشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها  
وتَهْلِك، كذلك الذي يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا  
الحق حقه منها، يهلك في الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب - أقول: ويهلك في الدنيا كذلك، وهل لا يعد هلاكاً لمن هذه حاله ما يلاقيه من إضرار  
الناس به وازورارهم عنه وانطوائهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف  
الأذى وعسدهم إياه خنزيراً من خنازير البشر أو مجنوناً من صرعى الآفة  
والإنانية وحب الذات، وبالْحَرِيِّ لا خير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

في عرق الحمى والمرض (١) الحبط - كما سيمر بك - أن تأكل الماشية فتكثر حتى  
تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتهلك، ويلى: يقرب ويدنو من الهلاك  
(٢) الخضر بفتح فسكون جمع خضرة: ضرب من الجنية أى عروق العشب الغامضة  
في الأرض كما سيأتي (٣) ثلطت: تغوطت وأكثر ما يقال للإبل والبقرة والفيلة  
(٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهري، الإمام المشهور في اللغة، صاحب التهذيب  
ولد سنة ٢٨٢ وتوفي سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان، فالأزهري نسبة  
جده أزهري (٥) أحرار العشب: الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفا أو حارس مال ليس غير :

يَجْنِي الْغَنَى لِلثَّامِ لَوْ عَقَلُوا      مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعَدَمُ  
هُمْ لَا مَوَالِيَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ      وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرْحُ يَلْتَسِمُ

\*\*\*

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ      فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

هذا إذا أضاف الشَّحَّ على نفسه إلى الشَّحِّ على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتفجع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من  
الأسقام والأوجاع وسائر أضرار الترف والسرف واجتواء المحرومين إياه  
وحنقهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الفوائى الاجتماعية التى نرى  
أفاعيلها اليوم - قال الأزهري : وأما مثل المقتصد المحمود فقولته صلى الله  
عليه وسلم : إِنْ آكَلَتِ الْخَضِرُ فَإِنَّهَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصَرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ  
عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ ، وذلك أَنَّ الْخَضِرَ لَيْسَ مِنْ أَحْرَارِ  
الْبَقُولِ اتى تستكثر منها الماشية فهلكها أكلا ولكنه من الجنة (١) التى  
ترعاها بعد هيج العشب ويُبْسِه ، والماشية ترتع منها شيئا شيئا ولا تستكثر  
منها فلا تحبط بطونها عنه . فضرِبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم آكَلَةَ  
الْخَضِرِ مثلاً لمن يقتصد فى أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف فى الحرص عليها  
وأنه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، ألا تراه قال : فإنها إذا أصابت  
من الخضر استقبلت عين الشمس فتلطت وبالت ، وإذا تلطت فقد ذهب

(١) أسلفنا أن الجنة هى الكلا الذى له عروق فى الأرض ، قال أبو حنيفة الدينورى :  
الجنة ما كان فى نبتة بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الحائط  
مما يبقى أصله فى الشتاء ويبيد فرعه ، وسى جنة لأنها كما قال الأزهري صغرت عن  
الشجر الكبار وارتفعت عن التى لا أرومة لها فى الأرض

حبطها، وإنما تحبب الماشية إذا لم تشلظ ولم تبل ، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال ، مع حلاوته ورغبة الناس فيه ، ليقبّه الله تبارك وتعالى وبال نعمتها في دنياه وآخرته .

\*\*\*

### هيات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا على رضى الله عنه في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة : ولو شئت لأهتديت الطريق إلى مصقى هذا العسل ، ولباب هذا القمع ، ونسأج هذا القر ، ولكن هيات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة ، ولعل بالحجاز وباليمامة من لا طمع له فى القرص ، ولا عهد له بالشبع ! أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى ،<sup>(١)</sup> وأكبأد حرى ، أو أكون كما قال القائل :

وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبَيْتُ بِيْطَنَةً وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحِنْ إِلَى الْقَدِّ<sup>(٢)</sup>  
أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بَأَنْ يَقَالَ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا إِشَارَكُهُمْ فِي مَكَارِهِ  
الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونَ أَسْوَدَ لَهْمٍ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ<sup>(٣)</sup> ! فَاخْلَقْتَ لِشَغْلَى أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ ،  
كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ قِمِّهَا عُلْفُهَا ، أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ  
أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ...

- (١) المبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل ، وغرثى : جائعة  
(٢) البطنة : الكلمة ، وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديدا ، والقَد :  
سيور قد - تقطع - من جلد غير مدبوغ . وهذا البيت من أبيات لحاتم الطائى  
المشهور بالجود (٣) جشوبة العيش : خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم - وكان من قبلهم مؤدبهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - يرون - ونعماً رأوا - أن السياسة الرشيدة ، وأن الطريق إلى الإحسان - ولا طريق غيرها - إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا ، وتنكّب السرف والترف ، وكانوا يريدون تعاملهم على هذه السياسة التي لاسياسة غيرها .

### كان الخلفاء الراشدون مثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله ، وأن يستخلفوا جميعاً . قال : فلما قدمنا أتيت يرفاً « مولى عمر » فقلت : يا يرفاً مُسْتَرْشِدُ وابن سبيل ... أي الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله ، فأومأ إلى بالحشونة . فاتخذت حُفَيْنِ مُطَارِقَيْنِ <sup>(١)</sup> وابستُ جُبَةً صوف ولثتُ عمامتي على رأسي <sup>(٢)</sup> . فدخلنا على عمر ، فصصقنا بين يديه ، فصعد فينا وصوب <sup>(٣)</sup> فلم تأخذ عينه أحداً غيري ، فدعاني فقل : من أنت ؟ قلت : الربيع ابن زياد الحارثي ، قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : كم ترتق ؟ <sup>(٤)</sup> قلت : ألفاً ، قال : كثيرٌ ... فما تصنع به ؟ قلت : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي ، فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعي من الصف ، فصعد فينا وصوب فلم تقع

- (١) طراق النعل : ما أطبقت عليه نقرت به ، فمعنى مطارقين : خصفت إحداها فوق الأخرى (٢) أي أدبرت بعضها على بعض على غير استواء  
(٣) صعد فينا : رفع رأسه فنظر الأعلى ، وصوب : خفض رأسه فنظر الأسفل  
(٤) أي كم مرتبك

عينه إلا على فدعاني فقال : كم سنك ؟ قلت : خمس وأربعون سنة ، قال :  
الآن حين استحكمت .<sup>(١)</sup> ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث عهدهم بالدين العيش ،  
وقد تجوعت له ، فأني بجز وأكسار بعير<sup>(٢)</sup> فجعل أصحابي يصفون ذلك  
وجعلت أكل فأجيد ، فجعلت أنظر إليه يا حظي من بينهم ، ثم سبقت في كلمة  
تمنيت أني سبحت في الأرض<sup>(٣)</sup> فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون  
إلى صلاحك ، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا ! فزجرني ، ثم قال :  
كيف قلت ! فقلت : أقول - يا أمير المؤمنين - : أن تنظر إلى قوتك من  
الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه يوم ويطبخ لك اللحم كذلك ، فتؤتي  
بالخبز ليأنا واللحم غريضا<sup>(٤)</sup> ... فسكن من غريبه<sup>(٥)</sup> وقال : أههنا غرت ؟<sup>(٦)</sup>  
قلت : نعم ، فقال : ياربيع ، إننا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلاحك  
وسبائك وصناب<sup>(٧)</sup> ، ولكني رأيت الله عز وجل نعى على قومه شهوراتهم

(١) استحكمت : تناهيت عما يضرك في دينك ودنياك

(٢) أكسار : جمع كسر ، والكسر : عظم ليس عليه كثير اللحم

(٣) ساخ في الأرض : غاص فيها ودخل

(٤) غريضا : طريا (٥) يريد حديثه (٦) غرت : أي ذهبت يقال : غار

الرجل : إذا أتى الغور وناحيته مما انخفض من الأرض ، وأنجد : إذا أتى نجد أو ناحيته

عما ارتفع من الأرض (٧) صلاحك جمع صليقة وهي القطعة المشوية من اللحم

والسبائك : ما يسبك أي ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو ما يسمى الحواري أي

ما يتقى من لباب البر . والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب

(٨) نعى على قوم شهوراتهم : عابها ووبخهم عليها . أما الآية التي ذكرها الفاروق

بعد فهي : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْمَسْتُمْ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

الدنيا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون

فقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ... ثم أمر أبا موسى بإقرارى وأن يُسْتَبَدَّلَ بِأَصْحَابِي ... وهذا من الفاروق هو - فضلا عن أنه الأليق بكل من وُلِّيَ أمر الناس - غاية في السداد والسياسة لرشيده الحازمة كما قلنا

### عظيمة الفاروق

في زهده وتقواه

هذا والله المُلْكُ الهنيء

وعما يصح لإمراده هنا ما يأتي : لما أتى بالهَرْمُزَان صاحبِ تُسْتَرٍ، إلى عمر ابن الخطاب - وكان هذا الهَرْمُزَان من أعظم آواد الفُرس ، وكان على مِئْتَةِ جيش رُسُومَ وزير ملك فارس يَزْدَجَرْدَ بن شهریار بن ابريز في حرب القادسية سنة ١٤ من الهجرة ، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون فر الهَرْمُزَان بمن بقي من جُنْدِهِ ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الغارة حتى لجأ إلى مدينة تُسْتَر<sup>(١)</sup> ، وتحصَّن بها ، فحاصروه أشدَّ حِصار ، ثم أنزلوه على حُكْم الفاروق ، فأسلبه قائد جيش المسلمين أبو سَبْرَةَ بن أبي رُفْهم إلى وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ، فأتوا به إلى الفاروق - وكان الفاروق يلتف في كِسائه وينام في ناحية المسجد ، فجعلوا يسألون عنه فيقال : مَرَّ هُنَا آنفا ! يَتَصَغَّرُ في قلب الهَرْمُزَان ، إذ رآه كَبْعِضِ الشُّوقِ<sup>(٢)</sup> ... حتى انتهوا به إلى عمر وهو نائم في ناحية المسجد ... فقال الهَرْمُزَان : هذا والله المُلْكُ الهنيء ...<sup>(٣)</sup> فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلْجِ<sup>(٤)</sup> منه هيبه ، لما رأى عنده

(١) تُسْتَر : مدينة عظيمة جعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقرى بها منها

(٢) السوق : جمع سوقة كغرفة وغرف ، وهم الرعية (٣) إذ لا يحتاج إلى أحراس

ولا عدد (٤) العِلْج في الأصل : الحمار الوحشى : وقد أطلقه المسلمون على الرجل

من كفار العجم ومن يشبه العجم



من الجِدِّ والاجتهاد، وألَيْسَ من هَيْبَةِ التقوى ... ثم نظر عمر إليه وقال :  
أَلْهَرُمُزَانُ ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه ،  
وأمر بنزع ما عليه من الديباج المذهب ، والتاج المكلل بالياقوت ، وأمر له  
يثوب صفيق<sup>(١)</sup> ، وهَمَّ بقتله ، فطلب الهَرُمُزَانُ ماءً ، وقال : أخاف أن أُقتلَ  
وأنا أشرب ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشرب ، فأراقه ، فقال عمر :  
والله لا أنخدعُ حَتَّى تُسَلِمَ ، فأسلمَ ، وفَرَضَ له فى العطاء ألفين ، وأقام  
بالمدينة .



تعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى ... ولقد أسلفنا أن الاوائل  
لم يَسْتَرْكُوا مَعْنَى إِلَّا طَرَقُوهُ : \* وهل غادرَ الشعراءُ من مُتَرَدِّمٍ \*<sup>(٢)</sup>  
وهو معلوم أن الخمر تُحْدِثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطرباً وأريحيةً  
وقدْ تُحْمِلُ البَخِيلَ كَرِماً ، فإذا قالوا فى ذلك ؟ قالوا : - والقائلُ البُحْثُرِيُّ - :  
تَسَكَّرْتُ مِنْ قَبْلِ الكُؤُسِ عليهم - فما أَتَطَنَّ أَنْ يُحْدِثَنَّ فَيْكَ تَسَكُّرَ مَا  
وقال أبو نُوَاس :  
قَتَى لَا تُنْدِيبُ الْخمرُ شَحْمَةَ مَالِهِ وَلَكِنْ أَيَادٍ عَوْدَ وَبَوَادَى<sup>(٣)</sup>  
وقال المتنبي :

(١) صفيق : جيد النسج (٢) صدر بيت لعنترة وتماه :

\* أم هل عَرَفْتَ الدار بعد توهم \*

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول عنتره : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا  
جبالاً لقتال ، والمتردم فى الأصل : الموضع الذى يرقع ويستصلح  
(٣) شحمة ماله : أطيه ، وقوله : ولكن أياد عود وبوادي ، يقول : ولكنه يعطى  
عطاياه قبل الخمر وبعد الخمر ودائماً ، فعطاياه تبتدأ وتعاد

لا تَجِدُ الخمرَ في مَكَارِمِهِ إِذَا انتَشَى - تَحَلَّةٌ تَلَا فَاها <sup>(١)</sup>

والأصل في هذا قول عنبرة في معلقته :

وَإِذَا صَحَّوتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَا عَمِلْتُ شِمَائِلِي وَتَكَرَّمِي  
وَقَالَ ذُهَيْر :

أخو رِقَّة لَا تُهْلِكُ الخمرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالُ نَائِلُهُ  
وقد غَضُوا من قول عمرو بن كلثوم :

✽ إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا <sup>(٢)</sup> ✽

ومعنى ذلك كله أنهم لا يَعُدُّونَ جُودَ السَّكْرَانِ جُوداً ، وإنما الجُودُ  
عندهم ما كان من كَرَمٍ يُطْرَى لَا تَبْتُهُ خمرٌ وما يُشَبِّه الخمرَ ، وإذا هم وَصَفُوا  
الخمرَ بأنها تُورِثُ شاربها شيئاً يُشَبِّه الكرمَ ، فذاك من بابِ استِقْصائِهِم  
لمعان الخمرِ وما تحدِّثه في شاربها ، كما قد سيمر بك في بابه ...  
ولقد سَمَّتْ مَكَارِمُ الأخلاقِ بكثيرٍ مِنْ ذَوِي الأَرَبِيَّةِ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْطَعُونَ  
نَوَالِهِمْ عَنْ تَغَضُّبُونَ عَلَيْهِمْ وَيَنْبِسُ السَّخَرَى بَيْنَهُمْ ، وقد رُوِيَ في ذلك أَنَّ

(١) الخلة : الخصلة والثلة ، وتلافاها - بحذف إحدى التاءين : تلافاهما ، أى

تتداركها

(٢) عجز : بيت من معلقته وصدره :

✽ مُشْعَشَعَةٌ كَأَنَّ الحُصَّ فِيهَا ✽

يصف الخمر يقول : اسقى الخمر مشعشعة ، أى بمزوجة بالماء ، فإنها من شدة حررتها  
كأنما أُلْقِيَ فِيهَا الحَصَّ وهو الورس - نبات أحمر يشبه الزعفران - وإذا شربناها وسكرنا  
جدنا بعقائل أموالنا وسمننا بذخائر أعلاقنا ، فسرخينا : فعل من سَخَى يسخى سخاء -  
وهذه لغة - ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة ، وثالثة وهى سخو يسخو - ويجوز أن تكون  
سخينا صفة ومعناها الحار فيكون المعنى : كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حاراً  
تور هذا التبت ، وإذن فلا مطعن عليه

بعض النبلاء كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، وحدث أن كتب  
أبنته إطلاقاتٍ ، ورُفعت إليه الإطلاقاتُ ، وترك اسمَ المغضوبِ عليه ، فقال له  
أبوه : فأين ذِكرُ رِزقِ فلانٍ ؟ فقال : إنَّكَ قد كنتَ غَضِبتَ عليه ، فقال :  
يا بُنَيَّ ، غَضِبي لا يُسْقِطُ هِيبَتِي ... إنَّ أباك لا يَغْضَبُ في النِّوال ...  
وحَتَّى المحتاجينَ المغضوبِ عليهم كانت أنفُسُهم كريمةً أَيْبَةً ، فقد رُوِيَ  
أنَّ بعضهم كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، فغَضِبَ عليه ، فقطَّعه ، ثم رَضِيَ عنه  
فردَّه ، فأبى الرجل أن يَقْبَلَهُ وقال : إني كنتُ أَظُنُّ أن عطاءه مكرُمةٌ ، فأما  
وقد صار غَضْبُهُ يقطُّعه ، فلا حاجة لي فيه ... وكذلك بَأَغَتْ بهم مكارمُ  
الأخلاق أن يُعطوا المُعْتَفِينَ ، أكانوا فقراء أم أغنياء ، فلا يَحْضُون ،  
وقد رُوِيَ في الخبر : أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، وروى أيضاً :  
كلُّ معروفٍ صدقة ، لغنيٍّ أو فقيرٍ ؛ ويُشبهون من هذا حاله بالغنيث ، قال  
ابن المعتز :

وَيُصِيبُ بِالْجُودِ الْفَقِيرَ وَذَا الْغَنَى كَالْغَيْثِ يَسْقِي مُجْدِباً وَمَرِيحاً  
وقال المتنبي :

وَيَدُّهَا كَرُمُ الْغَمَامِ لِأَنَّهُ يَسْقِي الْعِمَارَةَ وَالْمَكَانَ الْبَلْقَا  
وكذلك تساموا وبلغوا من عبقرية الروح أن صاروا يُعدُّون الانخداع  
عن المال والتَّبَالُهُ في ابتذاله كرمًا ، وقالوا : إِنَّ السَّكْرِيمَ إِذَا مَا خَادَعَتْهُ  
انخدَعَا ... وفي ذلك يقول البحتري :

وَإِذَا خَادَعَتْهُ عَنْ مَالِهِ عَرَفَ الْمَسْلَكَ فِيهِ فَانْخَدَعْ  
ويقول :

وقد يتغابى المرء عن عظم ماله ومن تحت رُذِيَةِ الْمُغْيِرَةِ أَوْ عَمَرُو  
 « المغيرة : هو المغيرة بن شعبة ، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من  
 الدهاة ، ... وقيل لبعضهم : ما الشرف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد  
 أحداً يتغافل عن ماله إلا وجدت له في قلبه فضيلة لا تقدر على دفعها ،  
 وقد أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله سهل البيع سهل الشراء ،  
 وهذا خلاف قول الناس : المَغْبُون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى  
 الله عليه وسلم : أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ قالوا : بلى يا رسول  
 الله ، قال : التَّغَابُنُ لِلضَّعِيفِ ... ومما يُروى في هذا الباب ما أورده ابن  
 خلكان في ترجمة الوزير الخطير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله  
 ابن المعتض بالله العباسي - وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ - وهو : أن رجلا اتصلت  
 عُظْلَتُهُ ، وانقطعت مَادَّتُهُ ، فزور كتابا من أبي الحسن بن الفرات إلى أبي  
 زُبَور المارِ داني عامل مصر ، يتضمن الوصاة به والتأكيد في الإقبال عليه  
 والإحسان إليه ، وخرج إلى مصر ، فلقِيَه به ، فارتاب أبو زُبَور في أمره  
 لتغير الخطاب على ماجرت به العادة ، وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله  
 فراعاه مُراعاةً قريبةً وَصَلَهُ بِصَلَةٍ قَلِيلَةٍ ، واحتبسَه عنده على وَعْدٍ وَعَدَهُ به  
 وكتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه  
 إليه ، واستشَبَّته فيه ، فوقف ابنُ الفرات على الكتاب المزور ، فوجد فيه  
 ذكر الرجل وأنه من ذوى الحُرُمات والحقوق الواجبة عليه ، وعرضه على  
 كتابه وعرفهم الصورة فيه وعجِبَ إليهم منها ومما أ قدم عليه الرجل ، وقال  
 لهم : ما الرأي في أمر هذا الرجل عنكم ؟ فقال بعضهم : تأديبه أو حبسه ،  
 وقال آخر : قطع إبهامه لئلا يُعاوِدَ مثل هذا ، ولئلا يفتدى به غيره فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجمعهم محضراً : يُكشَف لأبي زُبَور قصته ، ويُرسَم له طَرْدُه وحِرمَانُه ، فقال ابن الفرات : ما أبعَدَكم من الحرية والخيرية : وأنقرَ طباعكم عنها ! رجل تَوَسَّل بنا وتحَمَّل المشقة إلى مصر في تأميل الصلاح بجاهنا ، واستمداد صنْع الله عز وجل بالانقسام إلينا ، ويكون أحسن أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيب ظَنِّه وتخيب سَعْيِه ! والله لا كان هذا أبداً ، ثم إنه أخذ القلم من دواتِه ووقع على الكتاب المزور : هذا كتابي ، ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتكَ شبهة فيه ! وليس كلُّ من خَدَمنا وأوجب حقاً علينا تعْرِفه ! وهذا رجل خَدَمني في أيام نَكَبَتِي ، وما أعتقده في قضاء حقه أكثر مما كَفَّفْتُكَ في أمرِه من القيام به ، فأحسن تفقُّده ووفَّر رِفْدَه وصَرَفَه فيما يعود عليه نفْعُه ... وَرَدَّه إلى أبي زُبَور من يومه ؛ فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبي الحسن بن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة ويزة جميلة ، وأقبل يدعو له ويثني عليه ويكي ويُقَبِّل الأرض ، فقال له ابن الفرات : من أنت بارك الله فيك ! - وكانت هذه كلمته - فقال : صاحب الكتاب المزور إلى أبي زُبَور ، الذي صحَّحه كرمُ الوزير وتفَضُّله ، فعل الله به وصنع ، فضحك ابن الفرات ، وقال : كم وصل إليك منه ؟ قال : وصل إلى من ماله ومما قسَّطَه على عَمَّالِه وعَمِلِ صرْفَتِي فيه ، عشرون ألف دينار ، فقال ابن الفرات : الحمد لله ، الزَّمنُ ، فإنَّا نعرُضُك لما يزدادُ به صلاحُ حالكِ ، ثم اختبره فوجده كاتباً مُميناً ، فاستخدمه وأكسبه مالا جزيلاً ...

## قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتنوا، وأطالوا في التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوان الكرم والتجدة والمروءة ووضعوا له آداباً وديساتير. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فينا نختار ذرواً من عقرياتهم في هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه ويذشعب منه والله المستعان ...

معنى قِرَى الضيف: قال علماء اللغة: يقال: قِرَى الضيف قِرَى وقراء: أضافه وأحسن إليه، واستقراني واقتراني وأقراني: طلب مني القِرَى، وإنه لقِرَى للضيف، والاثني قرية، وكذلك: إنه لِمَقِرَى للضيف ومِقراء، والاثني مِقراءة ومِقراء ...

«وأما بعد، فقد قلنا في البخل إنه جِسْلَةٌ وإنه الأصل وإن الناس لقد خُلِقُوا بخلاء، إلى آخر ما قلنا صدر هذا الباب، وهذا الذي قلنا يقال في قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخل بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا في البخل بالقِرَى ثم نردفه بالقول على الجود بالقِرَى وحثهم عليه، والكلام يدخل بعضه في بعض .

طَرَفٌ من مَلَحِهِمْ في ذلك: قال بعض البخلاء لغلامه: هاتِ الطعام، وأغلقِ الباب، فقال الغلام: يا مولاي، ليس هذا بحزم! وإنما أغلِقُ الباب، وأقدمُ الطعام، فقال له: أنت حُرٌّ لوجه الله ... وطبخ بعض البخلاء قِدْرًا، وجلس يأكل مع زوجته فقال: ما أطيبَ هذا الطعام لولا كثرة الزحام! فقالت: وأي زحام وما ثمَّ إلا أنا وأنت! قال: أحِبَّ أن

أكون أنا والقدر ... وعزم بعض إخوان أشعب عليه لياكل عنده ، فقال :  
 اتى أخاف من ثقيل يا كل معنا فينقص لذتنا ، فقال : ليس عندي إلا ما يحب ،  
 فضى معه ، فبينما هما يأكلان ، إذا بالباب قد طرق ، فقال أشعب : ما أرانا إلا  
 قد صرنا لما نكره ، فقال صاحب المنزل : إنه صديق لى : وفيه عشر خصال  
 إن كرهت منها واحدة لم آذن له ، قال أشعب : هات ، قال : أولها أنه  
 لا يأكل ولا يشرب ، فقال : التسع لك ودعه يدخل ، فقد أمنا منه ما يخافه ...  
 وأكل رجل مع بعض البخلاء ، وكان على مائدته أرغفة هنا وهناك ، فلما  
 فرغ من رغيفه قال : يا غلام ، قيسى ، فقال الداعى البخيل : وما تصنع به ؟  
 قال : أركبه إلى ذلك الرغيف ... وحدث أبو نواس قال : قلت لرجل من  
 أهل خراسان : لم تأكل وحدك ؟ قال : ليس على فى هذا الموضع سؤال ،  
 إنما السؤال على من أكل مع الجماعة ، لأن ذاك تكلف ، وأكل وحدى هو  
 الأكل الأصلى ... وأضاف رجل أعراييا ، فلم يأت به بشيء يأكله حتى غشى  
 عليه من الجوع ، فأخذ يقرأ عليه القرآن ، فقال :

لَحْزَبُ يَا أَخِي عَلَيْهِ لَحْمٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَسَنِ الْقُرْآنِ

تَظَلُّ تُذْهِدُهُ الْقُرْآنَ حَوْلِي كَأَنِّي مِنْ عَفَارِيَتِ الزَّمَانِ

وقيل للجماز : من يحضر مائدة فلان ؟ فقال : أكرم تخلق الله : الكرام  
 الكاتبون ... واصطاحب رجلان فقال أحدهما للآخر : تعال حتى نأكل  
 معاً ، فقال : معى خبز ومعل خبز ، فلو لا أنك تريد الشر لا كنت وحدك ...  
 وقيل لآخر : ألا تأكل معنا ؟ فقال : الجماعة بجماعة ... ودخل على  
 ابن لرجل من الاشراف داخل وبين يديه فراريج ، فغطى الطبق بمنديل  
 وأدخل رأسه فى جيبه وقال للداخل عليه : كن فى الحجرة الأخرى حتى

أَفْرَغَ مِنْ بَحْثُورِي ... وَدَخَلَ رُجُلٌ عَلَى رَجُلٍ يَوْمًا وَالْمَائِدَةُ مَوْضُوعَةٌ  
وَالْقَوْمُ يَأْكُلُونَ وَقَدْ رَفَعَ بَعْضُهُمْ يَدَهُ ، فَسَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ ، فَقَالَ : أَجْهَزْ عَلَى  
الْجَرِّحِي ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِلْأَصْحَاءِ ... « يَرِيدُ : كُلُّ مَا كُسِرَ وَنِيلَ مِنْهُ وَلَا  
تَعْرِضْ إِلَى الصَّحِيحِ ، وَرَأَى رُجُلٌ الْخَطِيئَةَ - الشَّاعِرُ الْمُخَضَّرَمُ الْعَبْقَرِيُّ اللَّثِيمُ -  
وَبِيْدَهُ عَصَا فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَ : عَجْرَاءٌ مِنْ سَلَمٍ <sup>(١)</sup> ، قَالَ : إِنِّي ضَيْفٌ ، قَالَ :  
لِلضَّيْفَانِ أَعْدَدْتُهَا ... وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أَلْغَوْا مِنَ الصَّلَاةِ الْأَذَانَ ،  
خَافَهُ أَنْ تَسْمَعَهُ الْأَذَانَ ، فَيَهْلَ عَلَيْهِ الضَّيْفَانِ ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ شَاعِرٌ :  
تَرَاهُمْ خَشْيَةَ الْأَضْيَافِ خُرْسًا      يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِلَا أَذَانٍ

\*\*\*

وَكَانُوا يَعُدُّونَ أَنَّ بَيْتَ الرَّجُلِ شَبْعَانٌ وَجَارُهُ جَوْعَانٌ ، عَارًا وَشَتَارًا  
وَلَوْ مَا وَنَذَالَةً ، وَيَتَهَاجُونَ بِذَلِكَ ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا قَوْلُ الْأَعْشَى -  
مَيْمُونُ بْنُ قَيْسٍ - فِي عِلْقَمَةَ بْنِ عُلَاةٍ :  
تَيْتُونُ فِي الْمَشَى مِلَاءً بُطُونُكُمْ      وَجَارَانُكُمْ غَرْتُيَ يَبِينُنَ خَمَائِصًا <sup>(٢)</sup>  
وَقَوْلُ بَشَارِ بْنِ بُرْدٍ :  
وَضَيْفٌ غَمِرُوا وَغَمِرُوا يَسْهَرَانِ مَعًا      غَمِرُوا لِبَطْنَتِهِ وَالضَّيْفُ لِلْجُوعِ  
وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَجِيرَةٌ لَا تَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ      إِذَا يَكُونُ لَهُمْ عِيدٌ وَإِفْطَارُ  
إِنْ يُوقِدُوا يُوسِعُونَ مِنْ دُخَانِهِمْ      وَلَيْسَ يَبْلُغُنَا مَا تُنْضِجُ النَّارُ

\*\*\*

وَمِنْ مُلَحِّهِمْ فِيمَنْ لَا يُظْفَرُ بِحُبِّهِ . قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

(١) الْعَجْرَاءُ : الْعَصَا الَّتِي فِيهَا أَبْنٌ - عَقْدٌ - ، وَالسَّلَمُ : شَجَرٌ

(٢) رَوَوْا أَنَّ عِلْقَمَةَ لَمَّا سَمِعَتْ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : فَضَحَنِي وَآلَهُ ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ إِنْ لَمْ  
يَكُنْ صَادِقًا ، وَغَرْتُيَ : جَانِعَاتُ ، وَمِثْلُهُ خَمَائِصُ



وما خُيِّبْهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرَبٍ <sup>(١)</sup> بُصَّورُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ  
وقال الآخر :

قَدْ فَرَّ مِنْ مَنَزِلِهِ فَأَرُهُ وَعَاذَ بِالْجِيرَانِ مَرْتَقَا  
وهذا من قول امرأة لزوجها : والله ما يقيم القَار في دارك إلا لحب  
الوطن ، وقد تقدم آنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُكْرِم خبزك وتُهِنُ  
لإكرامه نفسك ! فقال : كيف لا أفعل ذلك والخبز هو الذي أخرج آدمَ  
وحواءَ وإبليسَ والطاؤُسَ من الجنة ... وتغذى الجواز عند هاشميٍّ ، فرمى الغلام  
بصحفة فقطر منها قطرة على ثوب الجواز ، فقال الهاشمي : آتته بطست يغسلها ،  
فقال الجواز : دعه ، فرقتكم لا تُغَيِّر الثياب ... يريد : لادسمَ فيها ،

\*\*\*

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدُّون شِيعَ المرءِ  
وجارَه جائع ، عارا - كما تقدم - تراهم يتفاخرون بإكرام الضيف والجار ،  
ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن الورد :  
وإني امرؤٌ عافٍ لِنَائِي شِرْكَةً وَأَنْتَ امْرُؤٌ عافٍ لِنَائِكَ وَاحِدٌ

(١) عنقاء مغربٍ وعنقاء مغربٌ . وعنقاء مغربة : طائر معروف الاسم مجهول  
الجسم ، قال ابن الكلبي : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان  
بأرضهم جبل يقال له دحج مصعده في السماء ميل ، فكان ينتابه طائفة كأعظم ما يكون  
لها عنق طويل ، من أحسن الطير ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت  
تنقض على الطير فتأكلها فجاءت وانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا  
لأنها تغرب - تبعد - بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرت وضمتها إلى  
جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ،  
فدعا عليها فسلط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلا في أشعارها ويقال :  
ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جَسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ  
« العاني : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شرار  
الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمله ضرر نفسه  
وعبارة بعض الشراح : يقول عروة : إن قُوَّتَهُ الذي هو قِوَامَ رَمَقِهِ وَمُقِيمِ  
جِسْمِهِ ، يطعمه ويؤثر به على نفسه ، وأنه عند الجهد وشدة الزمان يحسُّو  
الماء ويسقي اللبن ، فإنما رَغْبَةُ الجِوَادِ فِي الْمَالِ لِيَهَبَهُ ، وَطَلْبُهُ لَهُ لِيُنْهَبَهُ . »  
وفي هذا المعنى يقول مسكين الدارمي - وهو شاعر شجاع من أهل العراق  
كان في زمن معاوية بن أبي سفيان - :

إِنْ أَدَعِ مَسْكِينًا فَمَا قَصَرْتُ قَدْرِي بِيُوتِ الْحَيِّ وَالْجُدُرِ (١)  
مَا مَسَّ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ وَلَا جَدْيَاتُهُ مِنْ وَضْعِهِ غَيْرُ (٢)  
لَا أَخَذُ الصَّيَّانَ أَلْتَمُهُمُ وَالْأَمْرُ قَدْ يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ (٣)  
وَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ تَرَكْتُ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ سِتْرُ  
لَا يَزْهَبُ الْجِيرَانُ غَدَرْتَنَا حَتَّى يُوَارِيَ ذِكْرُنَا الْقَبْرِ

(١) قوله : فما قصرت قدرى الخ : فبيوت فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة  
لا تحجبها السواتر والحيطان ، يصف نفسه بأنه مضياف جواد محسن إلى جيرانه  
(٢) قوله : ما مس رجلي العنكبوت الخ : كناية مليحة عن مواصلته السير لأن  
العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدي ولا يكثر استعماله ، والجديات جمع جدية  
يسكون الدال وهي باطن دقة الرجل ، يقول : إن جديات رحله ليست غبراء  
لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لأقبل الصبي وأنا أريد التعرض لأمه ، وما أحلى قوله : والامر قد  
يغزى به الأمر . ويغزى : يقصد ، ومثل هذا قول عقيل بن علفة :

وَلَا أَلْقَى لِذِي الْوَدَعَاتِ سَوَاطِي الْأَعْبُهِ وَزَلَّتْهُ أُرِيدُ  
وزلته يروى وقرته ويروى وريبته ، والأعبه يروى لالهيه . وللشعراف في هذا المعنى  
كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية في الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لا يخدعونهم

لَسْنَا كَأَفْوَامٍ إِذَا كَلَّمَتْهُ إِحْدَى السَّنِينَ جَارُهُمْ تَمَرٌ<sup>(١)</sup>  
 مَوْلَاهُمْ تَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ<sup>(٢)</sup> تَلْتَابُهُ الْعِقَابُ وَاللَّسَرُ  
 نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تُنْزَلُ الْقِدْرُ<sup>(٣)</sup>  
 مَا ضَرَّ جَارِي إِذْ أُجَاوِرُهُ أَنْ لَا يَكُونُ لَبِيَّتِهِ سِتْرُ  
 أَعْشَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْخِذْرُ<sup>(٤)</sup>  
 وَيَصْمُ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقَرُّ<sup>(٥)</sup>

ظواهر الأمور عما تخفى وراءها . وغرابة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالاً مكشوفاً بهم الله .

(١) جَارُهُمْ تَمَرٌ : أى يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر  
 (٢) الوضْمُ : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم ، وتركهم للحما على وضْمٍ : أى أذلهم  
 (٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه - تلاحيه وتنازعه - فلما قال : ناري ونار الجار واحدة قالت له : أجل ، إنما ناره ونارك واحدة لأنه أوقد ولم توقد ، والقدر تنزل إليه قبلك ، لأنه طبخ ولم تطبخ وأنت تستطعمه ، ولما قال أن لا يكون لبيته ستر قالت له : أجل ، إن كان له ستر هتكته  
 (٤) من دقائق هذه اللغة ما قاله صاحب الكشف فى تفسير قوله تعالى : ومن يعش عن ذكر الرحمن ، قال : بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة فى بصره قيل عَشَى - أى والمضارع يعشى ، وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا - والمضارع يعشو - ونظيره عرج لمن به آفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج قال الخطيبه :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ  
 أى تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصره من عظم الوقود واتساع الضوء ، فمعنى الفتح : ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن ، وأما القراءة بالضم فعناها ومن يتعم عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابي . (٥) الوقر : الثقل فى الأذن

## وصية بخيل لابنه

وهاك وصية بخيل لابنه أراد بها أن ينصح ابنه بالتقليل من الطعام ،  
شحاً وكزاةً ، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائح قيمة يحتمل أن تتخذ  
دستوراً في الطعام لمن أراد أن يصح ويُعافى ، فهي حق أريد بها باطل ، ومن  
ثم اخترناها ، وهي وصية جاحظية أوردها الجاحظ في كتابه البخلاء ونسبها  
إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثوري كان يحب الرأس - رأس الضأن وغير  
الضأن - قال الثوري لابنه - :

إياك ونهم الصبيان <sup>(١)</sup> ، وشرة الزراع <sup>(٢)</sup> ، وأخلاق النوائح <sup>(٣)</sup> ودخ  
عك خبط الملاحين <sup>(٤)</sup> والفعلة <sup>(٥)</sup> ونمش الأعراب والمهنة <sup>(٥)</sup> . وكل ما بين  
يديك ؛ فإنما هو حَقُّك الذي وقَّع لك ، وصار أقرب إليك ؛ وأعلم أنه إذا كان  
في الطعام شيءٌ طريفٌ ، ولقمةٌ كريمةٌ ، وضغَّةٌ شهيةٌ ، فإنما ذلك للشيخ  
المعظم ، والصبي المدلل . ولست واحداً منهما . فأنت قد نأى الدعواتِ

(١) النهم : إفراط الشهوة في الطعام (٢) الشرة : غلبة الحرص على الطعام .  
وإنما خص شره الزراع لأنهم أهل كد ونصب وحركة فيشربون إلى الطعام لفرط  
ما يذلون من قوام البدنية (٣) النوائح جمع نائحة : اسم يقع على النساء يجتمعن  
في مناحة ، ولعله يريد أن النوائح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات  
ونسين ما كن فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح : نوتي السفينة ، والخبط : السير  
على غير هدى ، والفعلة : عملة الطين ونحوه . يقول : لا تذهب في الطعام على غير هدى .  
كالملاحين ، ولا تكن عنيفاً في أكلك كما تفعل الفعلة  
(٥) يقول : لا تنمش اللحم كما ينمسه الأعراب الجفاة وكما ينمش المهنة : جمع ماهن ،  
وهو العبد الخادم

والولائم، وتَدْخُلُ منازلَ الإخوانِ، وعهدُك باللحم قريب. وإخوانُك أشدَّ قَرَمًا إليه منك، وإنما هو رأس واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصِيبَ بعضاً. وأنا - بعدُ - أكره لك الموالاةَ بين اللحم، فإن الله يُبْغِضُ أَهْلَ البيتِ اللَّحْمِيِّينَ<sup>(١)</sup> وكان يقول: إياكم وهذه المجازيرَ فإن لها ضراوةَ كضراوةِ الخمر<sup>(٢)</sup> وكان يقول: مُدْمِنُ اللحمِ كمدْمِنِ الخمر. وقال الشيخ - ورأى رجلاً يأكلُ اللحمَ، فقال: لحمٌ يأكلُ لحمًا... أفٍ لهذا عملاً!

وقال الأول: أَهْلَكَ الرَّجَالُ الْأَخْمَرَانِ: اللحمُ والخمرُ، وأهلك النساءُ الْأَحْمَرَانِ: الذهبُ والزعفران<sup>(٣)</sup>... أى بُنَى، عَوْدَ نَفْسِكَ الْآثَرَةَ<sup>(٤)</sup>، ومجاهدةَ الهوى والشهوة<sup>(٥)</sup>. ولا تَنْهَشْ نَفْسَ الْإِفَاعِي، ولا تُخَضِّمَ خَضِّمَ الْبِرَازِينَ<sup>(٦)</sup>، ولا تُدِيمَ الْأَكْلَ إِدَامَةَ النَّعَاجِ، ولا تَلْقُمَ لَقْمَ الْجِيَالِ، إِنَّ

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير في النهاية هكذا: إن الله ليُبْغِضُ أَهْلَ البيتِ اللَّحْمِيِّينَ، قيل هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة: وقيل: هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه، وهو أشبه...

(٢) في اللسان: وفي حديث عمر: اتقوا هذه المجازير فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، أراد مواضع الجزارين التي تنجر فيها الإبل وتذبح البقر والشاة ويبيع لحانها. وإنما نهام عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر، أى عادة كعادتها، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف في النفقة فجعل العادة في أكل اللحوم كالعادة في شرب الخمر، لما في الدوام عليها من السرف في النفقة والفساد.

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطيب.

(٤) الآثرة: اسم مصدر من أثر يؤثر إثارةً، أى عَوْدَ نَفْسِكَ أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ: إما أنه يريد المعنى العام وإما يريد: لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه وتهواه من ألوان الطعام (٦) الخضم: الأكل بجميع القم والبرازين: جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخلقة الجاقها الغليظ الأعضاء.

اللَّهُ قَدْ فَضَّلَكَ ، لِحُجْلِكَ إِنْسَانًا ؛ فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ بِهَيْمَةً وَلَا سَبْعًا ، وَاحْذَرْ  
سُرْعَةَ الْكِظَّةِ <sup>(١)</sup> ، وَسَرَفَ الْبِطْنَةِ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحِكَمَاءِ : إِذَا كُنْتَ يَظِينًا  
فَعُدَّ نَفْسَكَ فِي الزَّمَنِ <sup>(٢)</sup> . وَقَالَ الْأَعَشَى :

• وَالْبِطْنَةُ مِمَّا تُسْفَهُ الْأَحْلَامَا <sup>(٣)</sup> •

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْخَ دَاعِيَةَ الْبِشْمِ <sup>(٤)</sup> ، وَأَنَّ الْبِشْمَ دَاعِيَةُ السَّقَمِ ، وَأَنَّ السَّقَمَ  
دَاعِيَةُ الْمَوْتِ . وَمَنْ مَاتَ هَذِهِ الْمَيِّتَةَ فَقَدْ مَاتَ مَيِّتَةً لَيْثَةً . وَهُوَ قَاتِلُ نَفْسِهِ ،  
وَقَاتِلُ نَفْسِهِ أَلْوَمٌ مِنْ قَاتِلِ غَيْرِهِ <sup>(٥)</sup> أَيْ بُئَى ، إِنَّ الْقَاتِلَ وَالْمَقْتُولَ فِي النَّارِ <sup>(٦)</sup>  
وَلَوْ سَأَلْتَ حُذَّاقَ الْأَطْبَاءِ لِأَخْبَرُوكَ أَنَّ عَامَّةَ أَهْلِ الْقُبُورِ إِنَّمَا مَاتُوا بِالتَّخَمِ  
وَأَعْرِفْ خَطَأً مَنْ قَالَ : أَكَلْتُ وَمَوْتُهُ أُخَذَ بِقَوْلٍ مِنْ قَالَ : رَبُّ أَكَلَةٍ تَمْنَعُ  
أَكَلَاتٍ <sup>(٧)</sup> . وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ - الْبَصْرِيُّ - : يَا ابْنَ آدَمَ كُلْ فِي ثَلَاثِ بَطْنِكَ ، وَاشْرَبْ فِي  
ثَلَاثِ بَطْنِكَ ، وَدَعْ الثُّلُثَ لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّنَفُّسِ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيُّ <sup>(٨)</sup> :  
مَا وَجَدْتُ طَعْمَ الْعَيْشِ حَتَّى اسْتَبَدَلْتُ الْخُمَصَ بِالْكِظَّةِ <sup>(٩)</sup> ، وَحَتَّى لَمْ أَلْبَسْ مِنْ

(١) الكظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال  
يتناول الطعام فيتنافق عليه الأمر

(٢) البطين : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمنى : ذؤوب المعاهات الذين يدوم  
مرضهم زمناً طويلاً (٣) الأحلام : العقول وتسفه الأحلام : تطيشها والبيت :

يَا بَنِي الْمُنْذَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَالْبِطْنَةُ مِمَّا تُسْفَهُ الْأَحْلَامَا

(٤) البشم : التخممة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه  
بأن يلام (٦) بقول : إن من مات بالتخممة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في  
وقت معاً فهو في النار على رأيه

(٧) أى لما ينشأ عنها من الأمراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحاً  
تقياً قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخنا الحسن وقتاها بكر...

مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أى حتى اتخذت الجوع بدل الكظة

ثيابي ما يستخدمني<sup>(١)</sup>، وحتى لم أكل إلا ما لا أغسل يدي منه يا بُنَيَّ، والله ما أدي حقَّ الرُّكوع، ولا وظيفة السجود، ذرِ كَفَّةً، ولا خَشَعَ لَهِ ذُو بَطْنَةٍ<sup>(٢)</sup>، والصوم مَصَحَّةٌ<sup>(٣)</sup>، والوَجَبَاتُ عِيشُ الصالحين<sup>(٤)</sup>، ثم قال: لا مَرِيءَ مَا<sup>(٥)</sup> طالت أعمارُ الهند<sup>(٦)</sup>، وَنَحَّتْ أَبْدَانُ الْأَعْرَابِ. لَهِ دَرُّ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ<sup>(٧)</sup>، حين زعم أن الدواء هو الْأَزْمُ<sup>(٨)</sup>، وأن الداء هو إدخال الطعام في أثر الطعام! أي بُنَيَّ لِمَ صَفَّتْ أذْهَانُ الْعَرَبِ؟ ولم صدقت أحساسُ الأعْرَابِ<sup>(٩)</sup>. ولم صَحَّتْ أَبْدَانُ الرُّهْبَانِ، مع طول الإقامة في الصوامع؟ وحتى لم تَعْرِفَ النَّقْرَسَ، ولا وَجَعَ المفاصل، ولا الْأَوْرَامَ؛ إِلَّا لِقَلَّةِ الرِّزْقِ<sup>(١٠)</sup> من الطعام، وَخِيفَةِ الرَّادِ، والتبُّلُغُ باليسير<sup>(١١)</sup>

أي بُنَيَّ، إن نسيم الدنيا وروح الحياة<sup>(١٢)</sup> أفضل من أن تبيتَ كظيظا،

- 
- (١) يستخدمني: أي يجعاني خادما له أي بالمحافظة عليه، لانه ثمين  
 (٢) يقول: إن الممتلي طعاما لا يمكن أن يركع في الصلاة تمام الركوع ولا أن يسجد تمام السجود، والخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لا يكون مع التخمّة والعناء منها  
 (٣) مصحّة: يصح عليه (٤) الوجبات جمع وجبة وهي الأكلة الواحدة في اليوم واليلة  
 (٥) لا مَرِيءَ: أي لا مَرَّ عظيم (٦) أي أعمار أهاها (٧) طيب العرب سافر إلى فارس وتعلم هناك الطب واشتهر فيه ونال به مالا وأدرك الإسلام  
 (٨) أزم، من باب ضرب: أمسك عن الطعام والمنشرب روى أن عمر بن الخطاب سأل الجرث بن كلدّة عن الطب، فقال: هو الْأَزْمُ، يعني: الحمية  
 (٩) الاحساس جمع حس وهو الشعور بالشيء (١٠) الرزء هنا: ما يصيبه الإنسان من طعام (١١) التبُّلُغُ باليسير: الاكتفاء به (١٢) روح الحياة: راحتها وما يستروح إليه

وَأَنْ تَكُونَ لِقِصْرِ الْعُمَرِ حَالِفاً . وَكَيْفَ لَا تَرْغَبُ فِي تَدْبِيرٍ يَجْمَعُ لَكَ صِحَّةَ  
الْبَدَنِ ، وَذِكَاةَ الذَّهْنِ ، وَصَلَاحَ الْمَعْيِ ، وَكُرَّةَ الْمَالِ ، وَالْقُرْبَ مِنْ عِيشِ  
الْمَلَائِكَةِ <sup>(١)</sup> ؟ أَيْ بَنِي ، لَمْ صَارَ الضُّبُّ أَطْوَلَ شَيْءٍ عُمرًا ؛ إِلَّا لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَعِيشُ  
بِالنَّسِيمِ <sup>(٢)</sup> ؟ وَلَمْ قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الصُّومَ وَجَاءُ <sup>(٣)</sup> ، إِلَّا لِیَجْعَلَ  
الْجُوعَ حِجَازًا دُونَ الشَّهَوَاتِ . أَيْ بَنِي . قَدْ بَلَغْتَ تَسْعِينَ عَامًا مَا نَغَضَ لِي <sup>(٤)</sup>  
سِنَّةً ، وَلَا تَحْرَكَ لِي عَظْمٌ <sup>(٥)</sup> ، وَلَا ائْتَشَرَ بِي عَصَبٌ <sup>(٦)</sup> ، وَلَا عَرَفْتُ ذَنِينَ  
أَنْفٍ <sup>(٧)</sup> ، وَلَا سَيْلَانَ عَيْنٍ <sup>(٨)</sup> ، وَلَا سَلَسَ بَوْلٍ <sup>(٩)</sup> ، مَالِ ذَلِكَ عِلَّةٌ إِلَّا التَّخْفِيفُ  
مِنَ الزَّادِ . فَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ الْحَيَاةَ فَهَذِهِ سَبِيلُ الْحَيَاةِ ، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ  
الْمَوْتَ ، فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ .



### بخیل بیع القرى

وَنَزَلَ تَجْرِیرُهُ - الشَّاعِرُ الْإِسْلَامِيُّ الْأَشْهَرُ - بِقَوْمٍ مِنْ بَنِي الْعَنْبَرِ بْنِ عَمْرِو  
ابْنِ تَمِيمٍ فَلَمْ يَقْرُوهُ ، حَتَّى اشْتَرَى مِنْهُمْ الْقَرَى ، فَانصَرَفَ وَهُوَ يَقُولُ :

(١) إِذْهَمَ : لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ (٢) كَوْنُ الضُّبِّ لَا يَعِيشُ إِلَّا بِالنَّسِيمِ وَلَا  
يَأْكُلُ أَلْبَنَةً غَيْرَ صَحِيحٍ وَلَكِنْ الثَّوْرِي تَقْلُ خِرَافَةً قَدِيمَةً (٣) وَجَاءَ : مَانِعٌ  
مِنَ الشَّهَوَاتِ

(٤) نَغَضَ : اضْطَرَبَ وَتَحَرَّكَ وَيُرْوَى نَقَضَ (٥) لَعَلَّهُ يَرِيدُ بِالتَّحَرُّكِ  
الْإِلْتَوَاءَ كَاحْدِيدَابِ الظَّهْرِ (٦) الْإِنتِشَارُ : الْإِنْتِفَاحُ فِي الْعَصَبِ لِلْإِتْعَابِ  
(٧) الذَّنِينَ : الْخَطَاطِ الرَّقِيقِ الَّذِي يَسِيلُ مِنَ الْأَنْفِ وَيُرْوَى ذَنِينَ أُذُنٍ وَالذَّنِينَ صَوْتِ  
الذَّبَابِ وَنَحْوَهُ مِنْ هَيْئَةِ الْكَلَامِ الَّذِي لَا يَفْهَمُ وَالْمُرَادُ مَا يَشْبَهُ هَذَا الصَّوْتِ فِي الْأُذُنِ  
مِنَ الْكَبْرِ (٨) هُوَ مَا يَحْدُثُ فِي الْكَبْرِ مِنْ ضَعْفِ الْعَيْنَيْنِ فَتَسِيلُ مِنْهَا دُمُوعٌ وَسَوَائِلُ  
أُخْرَى (٩) سَلَسَ الْبَوْلُ : اسْتَرْسَالُهُ وَعَدَمُ اسْتِمْسَاكِهِ لِحُدُوثِ مَرَضٍ بِصَاحِبِهِ



يَا مَالِكُ ابْنَ طَرِيفٍ إِنَّ بَيْعَكُمْ رِفْدَ الْقَرَى مُفْسِدٌ لِلدِّينِ وَالْحَسْبِ  
 قَالُوا نَبِيعُكُمْ بَيْعًا فَقُلْتُ لَهُمْ بَيْعُوا الْمَوَالِي وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ  
 لَوْلَا كِرَامُ طَرِيفٍ مَا غَفَرْتُ لَكُمْ بَيْعِي قَرَائِي وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي  
 هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ رِيَشُ الذَّنَابِي وَلَيْسَ الرَّأْسُ كَالذَّنَبِ  
 «قوله : بيعوا الموالى واستحيوا من العرب ، قال المبرد : تزعم الرواة : أن  
 جِلَّةَ الْمَوَالِي - عِظَمَاءَهُمْ - أَيْقَنُوا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ ، لِأَنَّهُ حَطَّ لَهُمْ وَوَضَعَهُمْ وَرَأَى  
 أَنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ غَيْرُ مُحْسُوبَةٍ عَيْنًا ... وقوله : وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي ، يَقُولُ :  
 لَمْ أُؤَخِّرْهُ عَنْكُمْ ، وَقَوْلُهُ : هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ ، فَالْأَوْشَابُ الْجَمَاعَةُ تَدْخُلُ  
 فِي قَوْمٍ وَلَيْسَتْ مِنْهُمْ وَقَدْ تَطْلُقُ الْأَوْشَابُ عَلَى أَخْلَاطِ الْإِنْسَانِ تَجْتَمِعُ مِنْ كُلِّ  
 أَوْبٍ ، مَا خُوِذَ مِنْ أَشْبِ الشَّيْءِ كَضَرْبٍ . خَلَطَهُ ، وَأَمَّا الزَّعَانِفُ فَأَصْلُهَا  
 أَجْنَحَةُ السَّمَكِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ الْأَدْعِيَاءُ لِأَنَّهُمْ انْصَقُوا بِالصَّمِيمِ كَمَا انْصَقَتْ تِلْكَ  
 الْأَجْنَحَةُ بِعِظَامِ السَّمَكِ ،

### عبقرياتهم في قرى الأضياف

قال الله جلَّ شأنه في مدح قوم : وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا  
 وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ... وقال سيدنا رسول الله : أَيُّمَا رَجُلٍ ضَافٍ قَوْمًا فَأَصْبَحَ  
 الضَّيْفُ مُحَرُّومًا ، فَإِنَّ نَصْرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِقَرَى لَيْلَتِهِ مِنْ  
 زَرْعِهِ وَمَالِهِ <sup>(١)</sup> ...

(١) قال الإمام العلقمي : قال شيخنا : هذا الحديث وما هو بسبيل منه كان في أول  
 الأمر حين كانت الضيافة واجبة ، وقد نسخ وجوبها . أقول : وعلى أنه نسخ وجوبها  
 فلا تزال معدودة في باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والدالة على  
 النجيزة البازة الكريمة

وفي الحديث أيضا : الخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ مِنَ الشَّفْعَةِ فِي سَنَامِ  
الْبَعِيرِ « الشَّفْعَةُ : السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه : ليس  
منا من بات شعبانَ وَضَيْفُهُ بَطْنُهُ طَاوٍ . وقال تعالى في مدح القائم بخدمة  
ضيفه : هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ قيل وصفهم بذلك لأنه  
قام بخدمتهم بنفسه ... ونزل ضيف على جعفر بن أبي طالب ، فتخفف هو  
وغلاناه عند نزوله وعاونوه في حلوله ، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعْنِ  
غلمانُه ، فشكاهم فقال : إن غلماننا لا يعينون على الارتحال ... وقالوا : أمدح  
بيت قاله العرب قول حسان بن ثابت :

يُغْتَشُونَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

« يقول : قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تنبئهم ، وهم من شجاعتهم  
لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقلّة اكترائهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم  
وشدتهم على أعدائهم ، ومثل هذا قول أبي تمام :

إِذَا اسْتَنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مِنْ دُعَاهُمْ لِأَيَّةِ حَرْبٍ أَوْ لِأَيِّ مَكَانٍ  
أَوْ تَقُولُ : لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ ، أَى أَنَّهُمْ فِي سَعَةِ لَيَاوِهِمْ الْجَمْعُ  
الكثير ، لِسَعَتِهِمْ وَشَجَاعَتِهِمْ »

وقال إبراهيم بن هرمة من أبيات في ابتهاج الكلب بالضيف :

يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا بُكْلَمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَجْمٌ

وقال حاتم الطائي وهو سيد الأجواد بالطعام :

أُضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدٌ  
وَمَا الْخِصْبُ إِلَّا ضَيَافٌ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى

ولكنما وَجَّهَ الكَرِيمُ خِصْبِي

ومن قولهم في الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر : سُئِلَ أَقْرَى  
أهل اليمامة للضيف : كيف ضَبَطَتم الْقَرَى ؟ قال : بأن لا تَتَكَلَّفَ ما ليس  
عندنا ... وقال بعضهم : الضيفُ إلى القليل العاجل أحوجُّ منه إلى الكثير  
الآجل ، أما سمعت قول الله تعالى : فَا كَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ <sup>(١)</sup> وقال  
تعالى : إلى طعامٍ غيرِ ناظرينِ إِنْهَاءُهُ ... « أى غير منتظرين نُضِيجَهُ وإدراكه  
وبلوغه ، يقال : أنى يَأْنى : إذا نُضِجَ ،

ومن قولهم فيمن آثر على نفسه : قولُ صوفيٍّ لآخر : كيف يعمل  
فَقَرَاؤُكُمْ ؟ قال : إذا وجدوا أكلوا ، وإذا عَدِمُوا صَبَرُوا ، فقال : هذا فِعْلُ  
الكلاب ، إن الفقير منا إذا عَدِمَ صَبَرَ ، وإذا وَجَدَ طعاماً آثر به غيره ...  
وقالوا فى وصف الرجل الكريم يُسَوِّءُ خلقه مع أهله خوف التقصير :  
والقائل زنبب بنت الطَّيْرِية ترى أخاها يزيد :

إذا نَزَلَ الْأَضْيَافُ كَانَ عَدَوًّا عَلَى الْأَهْلِ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ  
يُعِينُكَ مَظْلُومًا وَيُنْجِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حُمِّلَتْهُ فَهُوَ حَامِلُهُ  
« الْعَدَوُّ : السَّيِّئُ الْخَلْقُ الْقَلِيلُ الصَّبْرِ فِيمَا يَرِيدُهُ وَيَهْمُ بِهِ ، وَإِنَّمَا جَعَلْتَهُ  
عَدَوًّا لَشِدَّةِ تَهْمِهِ بِأَمْرِ الْأَضْيَافِ وَحِرْصِهِ عَلَى تَعَجِيلِ قِرَاهِمِ حَتَّى تَسْتَقِلَّ  
الْمَرَاجِلُ عَلَى الْإِثْنَانِ <sup>(٢)</sup> ، وَالْمَرَاجِلُ : الْقُدُورُ وَاحِدُهَا مِرْجُلٌ . وَقَوْلُهُ :  
وَيُنْجِيكَ ظَالِمًا ، أَيْ إِنْ ظَلَمْتَ فَطُولْتُ بِظُلْمِكَ حَمَاكَ وَمَنْعَ مِنْكَ ،

(١) حَذَّ الشاة : شَوَاهَا وَجَمَلَ فَوْقَهَا حِجَارَةً مَحْمَاةً لَتَضْجِعَهَا فَهِيَ حَنِيدٌ .

(٢) الْإِثْنَانِ : جَمْعُ أَثْنَيْيَةٍ : وَهِيَ الْحَجَرُ تَوْضَعُ عَلَيْهِ الْقَدَرُ وَثَلَاثَةُ الْإِثْنَانِ : الْقِطْعَةُ  
مِنْ الْجَبَلِ يَجْعَلُ الْقَدَرُ عَلَيْهَا وَعَلَى حَجَرَيْنِ أَمَامِهَا وَيُقَالُ : رَمَاهُ بِثَلَاثَةِ الْإِثْنَانِ : أَيْ  
بِالشَّرَكَةِ

هذا؛ ومن السنة - كما ورد في الحديث - أن يُمَشِّي الرجل مع ضيفه إلى باب الدار.

وقد كان الأضياف يُعطون النُّدْلَ وَيَرْضَخُونَ لهم بالمسال<sup>(١)</sup> فقد رَوَى بعضهم قال: رأيت ابن عباس في وليمة فأكل وألقى للخباز درهما.

### محادثة الضيف

وكانوا يُجَاهِ محادثة الضيف على الطعام فربقين، ففريق يَسْتَحِجُّه ويستحسنه، ومن صاحب الدعوة أَحْسَنُ، وقالوا في ذلك: محادثة الإخوان - تزيد في لذة الطعام. وقال شاعرهم:

وأكثر ما أَلَذُّ به وألْهُو محادثة الضيف على الطعام

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا في ذلك: مَنْ أَكْثَرَ الكلام على طعامه غَشَّ بطنه وَثَقُلَ على إخوانه. وقال الجاحظ في كتابه «التاج»: وَلِشَيْءٍ مَا كَانَتْ ملوك آلِ ساسانَ - إِذَا قُدِّمَتْ مَوَائِدُهُمْ - زَمْرٌ، وأُعلِيها<sup>(٢)</sup>، فلم يَنْطِقْ ناطِقٌ بِحَرْفٍ حَتَّى تُرْفَعَ، فإن اضطُروا إلى كلام، كان مكانه إشارةً أو إيماءً يَدُلُّ على الغرض الذي أرادوا والمعنى الذي قصدوا... وكانوا يقولون إِنَّ هذه الأَطعمة بها حياة هذا العالم، فينبغي للإنسان أَنْ يَجْعَلَ ذَهْنَهُ في مَطْعَمِهِ وَيَشْغَلَ رُوحَهُ بِجَوَارِحِهِ فِيهِ، حَتَّى تَأْخُذَ كُلُّ جَارِحَةٍ بِقِسْطِهَا مِنَ الطعام، فيَغْتَنِي بها البدنُ وَالرُّوحُ الحيوانية التي في القلب والطبيعة التي في الكبد، اغْتِنَاءً تَامًا، وتَقْبَلُ له الطبيعة قبولًا جامعًا. قال الجاحظ: وفي تركِ الكلام على الطعام فضائل كثيرة هي في آيئهم<sup>(٣)</sup>...

(١) النُّدْل: خدم الضيافة: ويقال: رَضَخَ له من ماله رَضْخَةً: أعطاه قليلًا من كثير

(٢) الزمزمة: تراطن الملوغ على أكلهم وهم صموت (٣) آيئهم: قانونهم ودستورهم

وقال المسعودى فى مروج الذهب : ذكروا أن كيرمرث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها ، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيراً يؤدى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام ، فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها ، وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب ، انصرف قسطن من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية ، وإذا كان ذلك دائماً أدى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميّزة الفكرية لهذا الجسد الممرى ، وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب ... أقول : وقد أبدت التجارب الحديثة هذا المذهب ، إذ تحققت أن الكلام على الطعام مدرجة لسوء الهضم ... وإني بحمد الله أعلمى هذا المذهب منذ نشأتى ، أى أنى بفطرتى لا أتحدث على الطعام ، حتى عدت ذلك أهلى ومن يخالطونى معمرًا فى يشف عما وراءه ، مما يشبه النهم وليس به يعلم الله وإنما هى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، ومن خلقت أنى أعد الكلام على الطعام ضرباً من التكلف الذى لا أستسيغه ... على أن الأكل مهمة حيوانية سخيصة يحمل أن لا يحتفل بها هذا الاحتفال الكسروى الذى نراه هذه الأيام ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول : وددت لو أنى خلقت مضمّتاً<sup>(١)</sup> وقبله قال الخليل بن أحمد : أثقل ساعاتى الساعة التى آكل فيها ، أو كما قال :

أما محادثة الأضياف على غير الطعام : فمن المجمع على استحسانه ، وفى

(١) المصنّت : الذى لاجوف له

ذلك يقول مسكين الدارمي أو عتبة بن بجير :

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتِ بُيْتُهُ      وَلَمْ يُلْهِني عَنْهُ الْغَزَالُ الْمُقَنَّعُ  
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى      وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ  
« الغزال المقنع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحدثه ويُقْرِيه بهذا  
الحديث حتى ينام »

وكانوا لكرمهم يُفضلون الاجتماع على الأكل ويستقبحون التفرد :  
شكرا رجل إلى سيدنا رسول الله قلة البركة في طعامهم ، فقال : لعلمكم تتفرون  
على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا عليه واذكروا اسم الله لديه ...  
وفي الحديث أيضا : أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ : من أكل وحده ، وضرب  
عَبْدَهُ ، ومنع رِفْدَهُ « الرغد : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنَقَرِيُّ:  
إِذَا مَا ضَنَعَتِ الزَّادُ فَاتَمَيَّسِي لَهُ      أَكِيَلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكَلُهُ وَتُحْدِي<sup>(١)</sup>

(١) بعده :

قَصِيًّا كَرِيْمًا أَوْ قَرِيْبًا فَإِنِّي      أَخَافُ ، ذَمَاتِ الْإِحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي  
وَكَيْفَ يُسْبِغُ الْمَرْءُ زَادًا وَجَارُهُ      خَفِيفُ الْمَعْنَى بِإِدْيِ الْخِصَاصَةِ وَالْجَهْدِ  
وَاللَّعْوَتْ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ      يُبْلِغُظُ أَطْرَافَ الْإِكِيلِ عَلَى تَعْمِدِ  
وَإِنِّي لَتَعْبُدُ الضَّيْفَ مَا دَامَ نَازِلًا      وَمَا فِي إِلا تِلْكَ مِنْ شِيمَةِ الْعَبْدِ  
وقوله قصيا كريما أو قريبا فإنني : هذا من طريف المعاني وذلك أنه لم يحتج  
إلى أن يشترط في نسبته الكرم لأنه ضمن ذلك واشترط في القصي أن يكون كريما  
لأنه كره أن يكون مؤاكلة غير كريم . ورواية الأغانى :

✽ أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارِ بَيْتِ فَإِنِّي ✽

وروا أن قيسا لما قال فاتمسي له أكىلا : أرسلت زوجته جارية فأتته بأكيل وقالت :  
أبي المرء قيس أن يذوق طعامه      بغير أكىل إنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز في اجتماع الأيدي على الطعام:  
 كَانَ أَكْمَ الْقَوْمِ فِي جَمْعَانِهِ قَطًا لَمْ يُتَفَرَّغْ مِنَ الْمَاءِ عَصَارُخُ<sup>(١)</sup>  
 وكانت العرب تعد التفرد بالأكل احتقَابَ وَزِيرٍ<sup>(٢)</sup> حتى أنزل الله عز  
 و تقدس: ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً<sup>(٣)</sup>...

## السؤال

وعبقر ياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذَمَّ السُّؤال : لما احتضر قيس ابن عاصم المنقري<sup>(٤)</sup> سيد أدل البرّ، قال

(١) الجفئات : جمع جفنة : القصعة الكبيرة

(٢) يقال : احتقَب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتقبه من خلفه .  
 أي جعله في حتمية ، والحقية الوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم  
 على الراحلة (٣) قال البيضاوي : نزلت هذه الآية في بني ليث بن عمرو من كنانة ،  
 كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف  
 لا يأكلون إلا معه ؛ أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في  
 القذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذي يقول فيه عبدة بن الطبيب يرثيه  
 - وعبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين  
 حاربوا معه الفرس بالمدائن - :

وما كانَ قَيْسٌ هُلْسَكُهُ هُلْكَاً واحِداً وَلَكِنَّهُ بُنْيَانٌ قوم تَهْدِئاً  
 وعبدة هذا هو صاحب الأبيات التي روى أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أي  
 المناديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقى البيض ، وقال آخرون  
 مناديل اليمن ، كأنها تور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بني تميم : عبدة بن  
 الطبيب حيث يقول :

لبنيه : يابني ، احفظوا عني ثلاثا ، فلا أحد أنصح لكم مني ، إذا أنا ميت  
فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم ، فيحقّر الناس كباركم وتهوّنوا  
عليهم ، وعليكم بحفظ المال ، فإنه منبّهة للكريم ويستغنى به عن اللّثيم ،  
وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل ... تسودوا كباركم : فالسيد هنا  
الرئيس أي أسندوا رياستكم إلى كباركم ، ومنبّهة للكريم : أي مشعّر بقدره  
ومعلّ له ، وقوله : فإنها آخر كسب الرجل فأحرّ بقصر المعزة : أي أذنى  
وأرذل ، وإذا مدّ فمعناه : أن السؤال آخر ما يكتسب به المرء عند العجز عن  
الكسب ، وقد جاء في الحديث إياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل ،  
فلعل قيسا أخذها من سيدنا رسول الله ، لأن قيسا من أسلم ونزل البصرة  
وفي الحديث أيضا : من سأل وهو غني جاءت مسأله يوم القيامة خدوشا  
أو خموشا أو كدوحا في وجهه الكدوج : الخدوش ، وكل أثر من خدش  
أو غرض فهو كدح ، وقال صلوات الله عليه : إن أحدكم يخرج بمسأله من  
عندي متأبطا ، وما هي إلا النار ، فقال عمر رضي الله عنه : ولم تعطيه  
وهي نار ؟ فقال : يأتون إلا أن يسألوا ويأبى الله لي البخل ... وقالوا :  
إياك وطلب ما في أيدي الناس فإنه فقر حاضر ، وقال ابن المقفع : السخاء  
سخاءان : سخاؤك بما في يدك ، وسخاؤك بما في أيدي الناس ، وهو أمحض في

لَمَّا نَزَلْنَا ضَرَبْنَا ظِلَّ أُخْيَةِ      وَفَارَ الْقَوْمُ بِاللَّحْمِ الْمَرَاغِيلُ  
وَرَدَّ وَأَشَقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابِحُهُ      مَاغِيرَ الْغَلِي مِنْهُ فَهُوَ مَا كَوَّلُ  
نُمْتٌ قُنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوِّمَةٍ      أَعْرَافُهُنَّ لَا يَدِينَا مَنَادِيلُ

« يعني بالمراجيل : المراحل فزاد فيها الياء ضرورة ، وما يؤنيه : ما ينضجه ، والجرد

المسومة : الخيل



الكرم، وأبعدُ من الدُّنس، ومن جمَّعهما فقد استكمل الفضل ... وقال شاعرٌ :  
 لَا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَلَىٰ وَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُؤَالُ الرَّجَالِ  
 كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ  
 وقد كانوا يتحملون المكارة تفادياً من السؤال : روى الأصمعي قال : مررت  
 بكَنَّاسٍ بالبصرة يَكْنُسُ كَنِيفًا وَيُغَنِّي :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ قَبِيٍّ أَضَاعُوا لِيَوْمٍ كَرِيمَةٍ وَسِدَادٍ نَغِيرٍ <sup>(١)</sup>  
 فقلت له : أَمَا سِدَادُ الْكَنِيفِ فَأَنْتَ مَلِيٌّ بِهِ <sup>(٢)</sup> ، فَلَا عِلْمَ لِي بِكَ كَيْفَ  
 أَنْتَ فِيهِ ، وَكُنْتُ حَدِيثَ السَّنِّ فَأَرَدْتُ الْعَبَثَ بِهِ - فَأَعْرَضَ عَنِّي مَلِيًّا ثُمَّ أَقْبَلَ  
 عَلَيَّ وَأَنْشَدَ مُتَمَثِّلًا :

وَأَكْرِمُ نَفْسِي إِنِّي إِنْ أَهَنْتُهَا وَحَقَّقَكَ لَمْ تَكْرُمَ عَلَيَّ أَخَذَ بَعْدِي  
 قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : فَنَلْتُ لَهُ : وَاللَّهِ ، مَا يَكُونُ مِنَ الْهَوَانِ شَيْءٌ أَكْثَرُ مَا يَذَلُّهُ ،  
 فَبَأَى شَيْءٌ أَكْرَمَتَهَا ؟ فَقَالَ : بَلَى ، وَاللَّهِ ، إِنْ مِنَ الْهَوَانِ لَشَرٌّ أَمَا أَنَا فِيهِ ، فَنَلْتُ : وَمَا هُوَ ؟  
 فَقَالَ : الْحَاجَةُ إِلَيْكَ وَإِلَى أَمْثَالِكَ مِنَ النَّاسِ ، فَانصرفتُ عَنْهُ أَخْزَى النَّاسِ ... وَمِثْلُهُ  
 مَا رَوَى أَنَّ أَبَا عَمْرٍو بْنَ الْعَلَاءِ قَالَ : اجْتَزَتْ بِكََنَّاسٍ يُنْشِدُ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ قَدْرَهَا هَوَانًا لَهَا كَانَتْ عَلَى النَّاسِ أَهْوَانًا  
 فَنَلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، أَتُنْشِدُ مِثْلَ هَذَا وَتَتَعَاطَى مِثْلَ هَذَا الْفِعْلِ ؟ فَقَالَ ::  
 إِنْ إِنْشَادِي لِمِثْلِهِ أَصَارَنِي إِلَى هَذَا ، فَرَارًا مِنْ ذَلِكَ السُّؤَالِ ...

\*\*\*

(١) سيمر بك حديث طريف عن هذا البيت في موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) ملى به : مضطلع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال في الطلب :

في الحديث : إن الله يُبْخِضُ من عباده السائل المُلْحِفَ ، وقال حكيم :  
لَا يُكْثِرُنَ الرَّجُلُ عَلَى أَخِيهِ الْمَسْأَلَةَ ، فَإِنَّ الْعَجَلَ إِذَا أَفْرَطَ فِي مَصِّ أُمِّهِ  
قَطَّحَتْهُ وَنَحَّتْهُ ، وقال بشار بن برد : \* وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ \*  
ووقع بعض الكبار في قصة مُلِحٍّ مُكْثِرٍ للسؤال : دَخَ هَذَا الضَّرْعُ  
يَدِرُّ لَعْنِيكَ كَمَا دَرَكَ ، وقالوا : اطلبوا الحاجات بعِزَّةِ النفس فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ  
قَضَاءُهَا ... وقال ابن الرومي في الإحسان يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِهِوَان :

إِذَا أَنَا نَالْتَنِي فَوَاضِلُ مُفْضِلٍ فَأَهْلًا بِهَا مَا م تَكُنْ بِهِوَانِ  
فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْهَوَانُ قَرِينَهَا فُبُعْدًا لَهَا مَا يَنْقُضِي لِأَوَانِ  
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَلْتَذُّ شَهْدًا بِعَلَقَمِ أَبَتْ لَهَوَانِي ذَاكَ وَالشَّفْتَانِ  
يَدُ مَكَانًا مِنْ كَرِيمٍ يَصُونُنِي وَإِلَّا فِلِي رَزَقَ بِكُلِّ مَكَانِ

\*\*\*

دقة موقف السائل : ومن عبقرياتهم في صعوبة موقف من يسأل لنفسه  
شيئا ولا سيما إذا كان ممن يُكْرَمُونَ أَنْفُسَهُمْ :

قال سعيد بن العاص : موطنان لا أَعْتَدِرُ مِنَ الْغِيِّ فِيهِمَا : إِذَا سَأَلْتُ  
حَاجَةً لِنَفْسِي ، وَإِذَا كَلَّمْتُ جَاهِلًا ... وسار الفضل بن الربيع - الوزير كان - إلى  
أبي عباد في نكبيته يسأله حاجة ، فَأَرْتَجَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبَّاد : بِهَذَا  
الْأَسَانِ خَدَمْتَ خَلِيفَتَيْنِ ! فَقَالَ الْفَضْلُ : إِنَّا تَعَوَّدْنَا أَنْ نُسْأَلَ لَا أَنْ  
نُسْأَلَ ... وَكَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَتَلَجَّلَجَ فِي كَلَامِهِ ، فَقَالَ :  
لَا تَلْهِنِي عَلَى الْاِخْتِلَاطِ ، فَإِنَّ مَعِيَ ذُلَّ الْحَاجَةِ وَمَعَكَ عِزُّ الْاِسْتِعْنَاءِ ...

\*\*\*

## عقبرياتهم في آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم في السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره، تحاسنُ رأينا أن نُزِيلَ بها، إتماماً لهذا الباب، فَرِنَ ذلك حَثُّهم على سُؤال الشبان دُون الشيوخ، والصباح دُون القَباح، والكريم الفقير دُون الغني الثمير. وهذا كَعَمْرِي من حَذَقِ الأوائل وتَفَطَّنهم إلى طبائع النفوس...

قال حكيم: طَلَبُ الحوائج عند الثُّبَّانِ أَسْهَلُ منها عند الشيوخ، ألا ترى أن يعقوبَ عليه السلام لما سَأَلَهُ بنوه أن يستغفروا لهم قال: سوف أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربي، وقال يوسف عليه السلام: لا تُرِيبَ عَلَيَّكَ اليوم... وفي الأثر: اطْلُبُوا الحوائج إلى حَسَّانِ الوجوه<sup>(١)</sup>... وَسُئِلَ ابنُ عائشة عن هذا الحديث فقال: معناه: اطلبوها من الوجوه التي يَحْسُنُ بِالمرءِ أن يَطْلُبَهَا مِنْهَا... وقال البهترى:

مَنْ حَسَّنَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَسَجَا بِنَاهُ وَأَعْطَاهُ كُلَّ الكُلْفَا

وقال السري الرفاء:

صَرَفْتُ عَنِ الكَثِيرِ الْوَفْرَ طَرَفِي وَهَا أَنَا لِلْقَلِيلِ الْوَفْرَ رَاجِرٌ<sup>(٢)</sup>

وَكَمْ مِنْ نُظْفَةٍ عَذُوبَةٍ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ بَحْرِ أَجَاجٍ<sup>(٣)</sup>

وقالت امرأة من ولد حسان بن ثابت:

(١) في الجامع الصغير: اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفرة: المال الكثير (٣) النظفة: الماء القليل الصافي يبقى في الدلو

أو القربة ونحوهما، وأجاج: ملح مُر

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدَمًا وَلَا تَسَلْ

فَسَيَّ ذَاقَ طَعْمَ الْعَيْشِ مُنْذُ قَرِيبٍ

وقال مسلم بن قتيبة : لا تَطْلُبَنَّ حاجتك إلى كذاب ، فإنه يُقَرِّبُهَا وهي بعيدٌ ، وَيُبْعِدُهَا وهي قريبٌ <sup>(١)</sup> ، ولا إلى أحقِّ فإنه يُريد أن يَنْفَعَكَ فيَضُرُّكَ ولا إلى رجلٍ له عِنْدَ مَنْ تَسْأَلُهُ الْحَاجَّةُ حَاجَةٌ ، فإنه لا يُؤَثِّرُكَ على نَفْسِهِ . وقال شاعر :

لَا تَطْلُبَنَّ إِلَى لَيْثِمٍ حَاجَةً وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ قَانِمًا كَالْقَاعِدِ

يَاخَادِعَ الْبُخْلَاءِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ

وقال بعض الأدباء : عليك بذى الحَصْرِ الْبَكِي <sup>(٢)</sup> ، وبذى الخِيَمِ الرِّضَى <sup>(٣)</sup>

فإن مثقالا من شدة الحياء والعِي ، أَنْفَعُ في الْحَاجَةِ مِنْ قَنْطَارٍ مِنْ لِسَانِ سَلِيلٍ وَعَقْلٍ ذَكِيٍّ ، وعليك بالشَّهْمِ النَّدْبِ <sup>(٤)</sup> الذي إن عجز أيا سلك ، وإن لم يَأْطَمَعَكَ ... وقال الفاروق رضى الله عنه : لا تَسْتَعِنْ على حاجتك إِلَّا : ... يُحِبُّ نَجَاحَهَا لك ... وقال ابن عباس : لا تَسْأَلَنَّ حَاجَةً بِاللَّيْلِ ، ولا تَسْأَلَنَّ أَعْمَى ، فإن الحياء في العينين .

ومن آداب السؤال عندهم أن لا يُتَجَاوَزَ الْحَدُّ فِيهِ : قالوا : من سَأَلَ

(١) بعيد وقريب : يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين»

(٢) الحصر : ضرب من العِي ، والبكى : القليل الكلام

(٣) الخيم : الخلق والطبيعة والسجية والاصل ، قال :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمُهَا  
(٤) الشَّهْم : الذكي الفؤاد ، المتوقد النجد النافذ في الأمور ، والنذب : الخفيف في الحاجة

حقوق قدره ، فقد استوجب الردّ ، ومن لم يرج إلا ما هو مستحق له ، فإلى الردّ ... وقال الشاعر :

إِنَّكَ إِنْ كَلَفْتَنِي مَالِمَ أُطِيقَ سَاعَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ خُلُقٍ  
وكانوا لا يرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة  
الرجل السلطان ، ومسألة الابن أباه ، لا تنقصه ولا تشينه :

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلا فابذله للمتكرّم المفضل  
وقال أبو جعفر المنصور لرجل أحمد منه أمرا : سل حاجتك فقال :  
يُبيّئك الله يا أمير المؤمنين ، قال : سل ، فليس يمكنك ذلك في كل وقت ؛  
فقال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ، لا أستصر عمرَكَ ولا أرهبُ بخلك  
ولا أغتَم مالك ، وإن سؤالك لَزَيْن وإن عطاءك لَشَرَفٌ ، وما على أحد  
بذَل وجهه إليك نقص ولا شين ، فأمر حتى ملئ فوه دُرّا ... وقال العتّابي :  
إن طلبت حاجة إلى ذى سلطان ، فأجمل في الطلب إليه ، وإياك والإلحاح  
عليه ، فإن إلحاحك يسكلم عِرْضك ، ويريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه  
عِوضا لما يأخذ منك ، ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق ماء الوجه وحرمان  
النجاح فإنه ربما ملّ المطلوب إليه حتى يستخفّ الطالب .

ومن قولهم في الحث على الحذق واللاطافة في المسألة : قال رجل لآخر :  
لو أنانيت ما كنت تفعل ؟ قال : كنت أكفّنك وأدفنك ، قال : فاكسني  
الساعة بما تكفّنني به ، وإذا ميت فاذقني عُريانا ... وقال شاعر :

احْبُبْ كَبُونَكَ إِنْسَاسًا وَتَمْرِيةً لَا يَقْطَعُ الدَّرُّ إِلَّا عُغْفُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ

• اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإبساس : أن يسمح بضرع الناقة  
يسكنها لتدرّ ، ومثله التمرية ، والدر : اللبن ، ... وسأل أعرابي عبداً للملك بن مروان -

وكان بخيلاً وكانوا يطلقون عليه : رَشَحَ الحجر - فقال له : سل الله ، فقال :  
سألتُه فأحالني عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعضَ الولاة ، وكان  
صديقَه ، فتشاعل عنه ، فترأى له يوماً ، فقال : اُعْذِرْنِي فَإِنِّي مشغول ، فقال لولا  
الشُّغْلُ مَا أَتَيْتُكَ ، لا بلَغَنِي اللهُ يومَ فراغِكَ . وفي هذا المعنى يقول أبو علي البصير :

لَا تُصَيِّرْ شُغْلَكَ الْيَوْمَ مَاعِزًا لِمَطَالِكَ

إِنَّمَا يُحَمَّدُ أَنْ تَقْرُخَ فِي وَقْتِ اشْتِغَالِكَ

لَوْ تَقَرَّرْتَ مِنَ الشُّغْلِ آتَوْنَا فِي الْمَسَالِكِ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عباد : إن جرذاً ن داري <sup>(١)</sup> يمشين بالعصا  
هَذَا ، فقال : بَشْرُهُنَّ بِمَجِيءِ الحِنْطَةِ ... وقسمَ بعضهم مالاً بين بنيه فقال له  
عبد صغير : فَأَعْطِنِي أَوَّلًا ، فقال له : وَلِمَ ؟ قال : لَأَنَّ الله تعالى يقول : المسال  
والبنون زينة الحياة الدنيا ، فبدأ بالمال ، وأنا ما لك ، فأعطاه وقدمه ... ودخل  
محمد بن واسع على قتيبة بن مُسلم ، فقال له : إني أتيتك في حاجة ، فإن شئت  
قضيتها وكنا جميعاً كريمين ، وإن شئت منعتها وكنا جميعاً لثيمين . قال ابن  
عبد ربه صاحب العقد : أراد : إن قضيتها كنت أنت كريماً بقضائها ، وكنت  
أنا كريماً بسؤالك إياها لأنني وضعتُ طَلْبَتِي في موضعها ، فإن لم تقضها  
كنت أنت لثيماً بمنعك ، وكنت أنا لثيماً بسوء اختياري لك ، وسرق حبيب  
- أبو تمام - هذا المعنى فقال :

عِيشُ إِنْكَ لَلثَمِّ وَإِنِّي مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لَلثَمِّ

ومن مُلَحِّ المَكْدِينِ ووصاياهم : قيل لرجل مُكْدٍ : متى تعلت الكُدِيَّةَ  
والسُّوَال ؟ قال : يَوْمَ وَلَدْتُ ، مُنِعْتُ الثَّدْيَ فِصْحَت ، وبكيت فأعطيت

(١) الجرذان جمع جرذ : الفأر

الشدى، فسكت... وقال رجل لآخر: قد وَّضَع مِنْكَ سؤَالُكَ؟ فقال: لقد سأل موسى والخضر عليهما السلام أهل قرية، فأَبَوْا أن يُضيفوهما، فوالله ما وُضِعَ هذا من نبي الله وعالمه، فكيف يضع مني! وقال بمض المسكين: مكتوبٌ على باب الجنة: مَنْ صَبَرَ عَبْرَ... وقال آخر: كَلَبَ طَائِفٌ، خَيْرٌ مِنْ أَسَدٍ رَابِضٍ، وقالوا: الهيمة خيبة، وقال سَلَمُ الخاسر: من رَاقِبَ النَّاسَ ماتَ غَمًّا وفازَ بِاللَّذَّةِ الجَسُورُ وقال أَشْجَعُ السُّلَى:

ليس للحاجات إلا مَنْ لَهُ وَجْهٌ وَقَاحٌ

وقال أبو تمام:

وُخِذْهُمْ بِالرُّقَى إِنَّ الْمَهَارَى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الْخَدَاءِ

وقال ابن الرومي:

وإِنَّ الْأُمَّ لَمْ تُرْضَعْ صَبِيئًا مَعَ الْإِشْفَاقِ لَوْ سَكَتَ الْغَلَامُ

ومن قولهم في الحث على معاودة السؤال: قولُ عمر رضى الله عنه: إذا سألتمونا حاجةً فعاودونا فيها، فإنما سميت القلوب قلوباً لتقلبها... وقال عبد الملك بن مروان في خطبة له: لا يَمْنَعُنْ رَجُلًا سألَ اليوم شيئاً فَمَنَعْتُهُ، أن يسأل غداً؛ فإن الأمور بيد الله لا يدي. وقال شاعر:

لَا يُؤَيِّسُكَ مِنْ كَرِيمِ نَبْوَةٍ يَلْبُو الْفَتَى وَهُوَ الْجَوَادُ الْخَضِرُ<sup>(١)</sup>  
فَإِذَا نَبَا فَأَسْتَبْقِهِ وَتَأَنَّهُ حَتَّى يَجِيَّ بَهَا الطَّبَاعُ الْاَكْرَمُ<sup>(٢)</sup>

(١) النبوة: الجنة والتباعد ويقال: نباعته بصره ينبو: تجافى ولم ينظر إليه كأنه حقره. والخضرم بالكسر: الجواد الكثير العطاء أو السيد الجود

(٢) يقال: تأينتك حتى لأناة بي، أى تنظرتك حتى لا انتظار بي، والطباع كالغرار واحد طباع الإنسان أى الخليفة والسجية التى طبع عليها قال الزجاجى الطباع واحد

وقالوا : إذا سألتَ كرهما حاجة فدعه وسؤمَ نفسه <sup>(١)</sup> فإنه لا يفكر  
إلا في خير ، وإذا سألتَ لثيما حاجة فعاقره <sup>(٢)</sup> ولا تدعه يتفكر  
فيتغير ، وقال بعضهم في ضد ذلك : إذا سألتَ لثيما حاجة فأجله حتى يروض  
نفسه ... « أى يعالج نفسه الكزة اللثيمة »

ولهم في الاعتذار عن سؤال اللثيم وأخذهم منه : قال أبو تمام :

حُذِّ ما أتاك من اللثا م إذا نأى أهلُ الكرمِ

فلا تُسَدِّ تَفَتِّرُسُ السِّلا بَ إذا تَعَذَّرَتِ الغنمُ

وقال المتنبي :

غَيْرَ اخْتِيارٍ قَبِلْتُ بَرَكَ بى والجوعُ يُرِضِى الأُسودَ بالجيفِ

وقال المهلبى الوزير :

ما كنتَ إلا كَلْهمِ مَيِّتٍ دعا إلى أَكْلِهِ اضْطِرارُ

ولأبى على البصير :

لَعَمْرُ أَيْكَ ما نُسِبَ المَعْلَى إلى كَرَمٍ وفى الدنيا كَرِيمُ

ولكنَّ البلادَ إذا اقشَعَرَّتْ وصَوَّحَ نَبْها رُعَى المَشِمْ

« اقشعرت : قال الأزهري : يقال : اقشعرت الأرض من المَحَل - الجذب -

وفى الحديث : إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدت واقشعرت : أى

تقبضت وتجمعت ، وصَوَّحَ نَبْها : يبس »

ومن قولهم فى التعريض بالسؤال : قال أمية بن أبى الصلت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إن شيمتك الحياء

مذكر كالنجار - الأصل - (١) أى وما يريد ويتجه إليه

(٢) فعاقره : فاسلك معه مسلكا ملتويا بعزّة



إذا أثنى عليك المرء يوماً كَفَاهُ مِنْ تَعْرِضِهِ الثَّنَاءُ  
وقال ابن الرومي :

يَا مَنْ إِذَا التَّعْرِيزُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَغْنَى الْعُقَاةَ بِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ  
وقال المتنبي :

أَقْلَ سَلَامِي جُبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ وَأَسْكُتُ كَيْمَا لَا يَكُونَ جَوَابُ  
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتُ وَفِيكَ قَطَانَةٌ  
وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ  
فَإِذَا رَأَى مُسْلِمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلَتْهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُومُ

### المسئولُ نُجَاهَ السَّائِلِ

قالُ شُريحٌ<sup>(١)</sup> : مَنْ سَأَلَ حَاجَةً فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِّ ، فَإِنْ قَضَاهَا

(١) هو القاضي شريح بن الحارث ، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسناً وكان مزاحاً ، دخل عليه عدى بن أرطاة فقال له : أين أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : إني رجل من الشام ، قال : من مكان صحيح ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرفاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فمكت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أملك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه دخل مع خصم له ذى إلى القاضي شريح هذا فقام له ، فقال علي : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره إلى الجدار وقال : أما لو أن خصمى كان مسلماً لجلست بجانبه ... وتزوج شريح امرأة من بني تميم تسمى زنبب فهنقم عليها شيئاً فضر بها ثم ندم وقال :

المسؤول استعبده بها ، وإن رَدَّه ، رجع حُرًّا ، وهما ذليلان ، هذا بِذِلِّ الاَومِ  
وهذا بِذِلِّ السَّوَالِ . وقال أبو تمام :

ماماءُ كَمَّكَ - إن جادَتْ وإن بَحِلَّتْ      من ماءٍ وَجْهِي إذا أَفْنَيْتَهُ - عَوْضُ

وقالوا : العَجَبُ لمن يشتري العبيدَ بالآموال ولا يشتري الأحرارَ بالنوال ...  
وسئل خالدُ بن يزيدَ : ما الجود ؟ قال : أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ، فقال ابنه :  
يَا أَبَتِ ، هذا هو السُّكْدُ ، إنما الجودُ أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ومن لم يَسْأَلْكَ ...  
وقالوا : أهدأُ المعروفُ أعَجَلُهُ . وقال بعضُ الناس : إذا أوليتني نعمةً فَعَجَّلْهَا ،  
فإن النفسَ مولى لَعَنَةُ حُبِّ العاجِلِ ، وإن الله تعالى قد أخبر عما في نفوسنا فقال :  
كَلَّا ، بل تُحِبُّونَ العاجِلَةَ ... ولزِمَ بعضُ الحكماءَ بابَ بعضِ ملوكِ العجمِ دَهْرًا  
فلم يَصِلْ إليه ، فتَنَاطَفَ للحاجِبِ في إيصالِ رُقْعَةٍ ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسطر  
السطر الأول : « الأمل والضرورة أنذمانى عليك »  
والسطر الثاني : « والعُدْمُ لا يكون معه صَبْرٌ على المطالبة »  
والسطر الثالث : « الانصرافُ بلا فائدة شمانية للأعداء »  
والسطر الرابع : « فإما نَعَمْ مُشْمِرَةٌ ، وإما لا مُرِيحَةٌ ،

فلما قرأها وَقَعَ في كل سطرٍ زِهَةٌ ؛ فَأُعْطِيَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ مِثْقَالٍ فِضَّةٍ -  
« زِهَةٌ في لغة الفرس معناها : أحسنت » ... ووقفتُ عجوزٌ على قيس بن سعد فقالت :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ      فَسَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرِبُ زَيْنَبَا  
أَضْرِبُهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَعْبُ بِهِ      فَمَا الْعَدْلُ مِنِّي ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ مُنْذِرَبَا  
فَزَيْنَبُ شَمْسٌ وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبٌ      إِذَا طَلَعَتْ لَمْ تُبْقِ مِنْهُنَّ كَوَاكِبَا  
توفى شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكو إليك رُفلة الجِرْذَانِ ؛ قال : ما أحسنَ هذه الكناية ؟ املئوا بيتهما خبزاً ولحماً  
وسَمْنًا وتمرًا . وقد تقدم مثلها .

## الاعتذار عن المستول إن لم يعط

قال أبو نواس :

فإن تُورني منك الجليل فأهله وإلا فإنني عاذر وشكور

وقال ابن الرومي :

وإن عاق القضاء نَدَاكَ عني فليست أراك في منعى مُلِها <sup>(١)</sup>

وما غيثٌ إذا يجتازُ أرضاً إلى أخرى بمعتدٍ لثِيا

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبي دُواد : مَسَّنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ ، وَبِضَاعَتُنَا الْمَوَدَّةُ  
وَالشُّكْرُ ، فَإِنْ تُعْطِنَا فَأَنْتَ أَهْلٌ لَذَاكَ ، وَإِنْ لَمْ تُعْطِنَا فَلَسْنَا مِنْ يَلْزُكَ فِي  
الْصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِلَّا لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ <sup>(٢)</sup> وهناك  
من لا يعذر ، رَوَوْا أَنَّ الْحِجَالِجَ لَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ قَالَ لِأَهْلِهَا : أَتَيْنَاكُمْ وَقَدْ غَاضَ  
الْمَاءُ لِكثَرَةِ الزَّوَائِبِ ، فَاعْذِرُونَا ، فَقَالَ رَجُلٌ : لَا عَذْرَ اللَّهُ مِنْ عَذْرِكَ ، وَأَنْتَ  
أَمِيرُ الْمِصْرَيْنِ وَابْنُ عَظِيمِ الْقَرِيَتَيْنِ <sup>(٣)</sup> فَقَالَ : صَدَقْتَ ، وَاسْتَقْرَضَ مَا لَمْ يَنْصَرِفْ  
التُّجَّارُ فَفَرَّقَهُ فِيهِمْ ، وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :

فَلَوْ حَارَدْتُ شَوْلَ عَذْرَتُ لِقَاحَهَا

وَلَسَكُنْ حُرْمَتُ الْبَدْوِ وَالضَّرْعُ حَافِلُ <sup>(٤)</sup>

(١) مليا : فاعلا ما يلام عليه (٢) اللز : العيب والرقوع في الناس . يشير الى

الآية الكريمة (٣) القرينان : مكة والطائف

(٤) حاردت الناقة : قل لبنها ، والشول جمع شائلة والنائلة من الإبل التي أتى عليها

من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، واللحاح : جمع لفحة : الحامل والمراد : عذرتها

## طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابي لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالد بين الحمد والأجر حاجتي فأيهما تأتي فأنت عماد

فقال له خالد : سل ما بدالك ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال : ألف درهم ، قال خالد : ما أدري أين إسرافك أتعجب أم من حطك ، فقال : إنى سأنتك على قدرك ، فلما أبيت سألتُ على قدرى ، فقال : إذن والله لا تغليبي على معروفى ...

## من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعمارة بن حمزة : أتيتك فى حويجة ، فقال : اطلب لها رُجِيلاً ... وقال آخر مثل هذا فقال : دَعها حتى تكبر ... وقال رجل لعبد الله بن عباس رضى الله عنه : أتيتك فى حاجة صغيرة ، فقال : هايتها ، فالحر لا يصغر عن كبير أخيه ولا يكبر عن صغيره ...

## الحث على الصبر والآنأة فى طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الأمور إذا اتسدت مسالكها      فالصبر يفتح منها كل ما رُتِجاً<sup>(١)</sup>  
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته      ومُذْمِنِ القرع للأبواب أن يُلجأ  
لأن تأتسن وإن طال مطالبته      إذا استعنت بصبر أن ترى فرجاً  
وقال أبو نواس :

هذه الشول والدر : اللبن ، وحافل : ملان (١) كل ما رتج : كل ما أغاق

ولا يُدْرِك الحاجاتِ مِنْ حَيْثُ تُبْتَغَى  
 من الناسِ إِلَّا المصباحون على رِجْلٍ<sup>(١)</sup>  
 تَأْتِ مواعيدَ الكرامِ فُرُجاً  
 أَصْبَتْ من الإلحاحِ سَمَحاً على مُبْخَلٍ

وقال القَطَائِي :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْدَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّالُّ  
 والعرب تقول : رُبَّ عَجَلَةٍ تَهْبُ رَيْثاً ؛ يريدون أن الرجلَ قد يَحْرَقُ  
 وَيَحْمُقُ قِيَعَجَلٍ فِي حَاجَتِهِ فَتَأَخَّرُ أَوْ تَبْطُلُ بِذَلِكَ .

العطية لا تجدى في غير وقتها

قال البحرى :

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْغَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ لِلسَّرِّ مَا لَمْ يَأْتِ فِي إِبَائِهِ  
 وقال : \* يُرْجَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ \*

المسئول أهل لأن يُسأل

قال عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْفَحْلِ مَنْ قَصِيدَةٍ يَخَاطِبُ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرٍ  
 الْغَسَّافِي - وَكَانَ أَسْرَ أَخَاهُ شَأْساً فَرَحَلَ إِلَيْهِ يَطْلُبُهُ مِنْهُ - :

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبِطَتْ بِنِعْمَةٍ فُحِّقَ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْبُ<sup>(٢)</sup>  
 وقال أحمد بن أبي طاهر - :

أَتَيْتَكَ لَمْ أَطْمَعْ إِلَى غَيْرِ طَمَعٍ كَرِيمٍ وَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى غَيْرِ مَفْزَعٍ<sup>(٣)</sup>

(١) يقول : إنما يقضيها المشعمرون القيام لا المترملون القيام

(٢) خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخابط الليل . والذنوب :

الحظ والنصيب (٣) فزع إليه : لجأ إليه

## التأسف على الحرمان

قال البحترى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :  
 سحابٌ خَطَّافِي جَوْدِهِ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَّائِي قَيْضِهِ وَهُوَ مُفْعَمٌ<sup>(١)</sup>  
 وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا  
 وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمٌ<sup>(٢)</sup>  
 أَأَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسَّعَ الْوَرَى  
 وَمَا إِنَّ يَذُمُّ الْغَيْثَ إِلَّا مُدَمَّمٌ

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى دَارٍ سَائِلًا : فَقَالَ لَهُ صَبِيٌّ مِنَ الدَّارِ : بورك فيك ، فقال  
 له : قَبِّحَ اللَّهُ هَذَا النَّم ، فَقَدْ تَعَلَّمَ الشَّرَّ صَغِيرًا ... وَوَقَفَّ سَائِلٌ عَلَى قَوْمٍ  
 فَقَالَ أَحَدُهُمْ : صَنَاعَتُنَا وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ السَّائِلُ : فَأَنَا قَوَّادٌ فَهَلْ أَنْتُمْ قَوَّادُونَ ؟

\*\*\*

## يَرُونِ الْهَدَايَا وَالرِّشَى مَدْرَجَةً لِلنَّجَاحِ

كانت العرب تقول : مَنْ صَانَعَ لَمْ يَحْتَشِمِ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ «صانع : هادى» ...  
 وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نِعَمَ الشَّيْءُ : الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ ... وَكَانَ  
 سَفِيَانُ الثَّوْرِي يَقُولُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَزَوَّجَ فَاهْدِ إِلَى الْأُمِّ ... وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ :  
 مَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ يُعْطِي مَهْرًا ... « يريدون مَنْ طَلَبَ حَاجَةً مُهِمَّةً بِذَلِكَ  
 فِيهَا ، وَقَالَ شَاعِرُهُمْ :

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل : هاطل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالى

ما مِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ تَمَّتْ صَدَاقَتُهُ

يَوْمًا بِأَيِّحَ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ طَبَقِ

إِذَا تَقَنَّعَ بِالْمُنْدِيلِ مُنْطَلِقًا لَمْ يَخْشَ نَبْوَءَ بَوَابٍ وَلَا عَلَقِ

لَا تُكَذِّبَنَّ فَإِنَّ النَّاسَ مُذْخَلِقُونَ لِرَغْبَةِ يُكْرِمُونَ النَّاسَ أَوْ فَرَقِ

« نبوة : جفوة ، و فرقة : خوف » وقال رؤبة بن العجاج :

لَمَّا رَأَيْتُ الشُّفْعَاءَ بَلَدُوا وَسَأَلُوا أَمِيرَهُمْ فَأَنكَدُوا

نَامَسْتُهُمْ بِرِشْوَةٍ فَأَقْرَدُوا وَسَهَّلَ اللَّهُ بِهَا مَا شَسَدُوا

« بَلَدُوا : يقال : بَلَدَ الرجل : إذا لم يَتَجَهْ لشيء ، وبَلَدَ : إذا تَنَكَّسَ فِي

الْعَمَلِ وَضَعَفَ حَتَّى فِي الْجَرَى . وَقَوْلُهُ : فَأَنكَدُوا : أَيْ وَجَدُوهُ عَمِيراً

مُقَلَّلاً إِذْ لَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ إِلَّا نِزْراً قَلِيلاً ، وَقَوْلُهُ : نَامَسْتُهُمْ بِرِشْوَةٍ : يَقُولُ :

أَفْهَمْتُهُمْ أَنْ يَلْجَأُوا إِلَى رِشْوَةِ الْأَمِيرِ وَيَحْتَالُوا بِذَلِكَ ، قَالَ فِي اللِّسَانِ : نَامَسَ

الرَّجُلُ صَاحِبَهُ : سَارَّهُ ، وَمِنْهُ النَّامُوسُ ، وَهُوَ صَاحِبُ سَرِّ الرَّجُلِ - وَيُقَالُ لَهُ

الْيَوْمَ السَّكَرَتِيرُ الْخَاصُّ - وَقَوْلُهُ : فَأَقْرَدُوا : أَيْ خَضَعُوا ، وَفِي الْحَدِيثِ : إِيَّاكُمْ

وَالْإِقْرَادَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْإِقْرَادُ ؟ قَالَ : الرَّجُلُ يَكُونُ مِنْكُمْ أَمِيرًا

أَوْ عَامِلًا فَيَأْتِيهِ الْمَسْكِينُ وَالْأَرْمَلَةُ فَيَقُولُ لَهُمْ : مَكَاتِكُمْ ، وَيَأْتِيهِ الشَّرِيفُ

وَالْغَنِيُّ فَيُدْنِيهِ وَيَقُولُ : عَجِّلُوا قِضَاءَ حَاجَتِهِ وَيُتْرَكُ الْآخَرُونَ مَقْرَدِينَ

« أَيْ سَاكِنِينَ دُلًّا »

## قطع العادة

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ قَوْلُ أَعْرَابِيٍّ - وَقَدْ سَأَلَ قَوْمًا ، فَرَّقَ لَهُ :

بِرَجُلٍ مِنْهُمْ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَأَجْرَى لَهُ رِزْقًا أَيَّامًا ثُمَّ قَطَعَ عَنْهُ - فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

تَسَرَّى فَلَهَا حَاسِبَ الْمَرْءِ نَفْسَهُ رَأَى أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ السَّرُّ  
 « تَسَرَّى : أَى تَكَلَّفَ السَّرُّ ، وَالسَّرُّ : السَّخَاءُ » وَقَالَ شَاعِرٌ - قِيلَ هُوَ  
 أَبُو الْإِسْوَدِ الدُّوَلِيُّ ، وَقِيلَ أَنَّهُ بَنَى أَبِي أَنَسٍ اللَّيْثِي - :

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ أَمِيرِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْوَدِّ حَتَّى وَدَّعَهُ  
 لَا تُهْنِي بَعْدَ إِذْ أَكْرَمْتَنِي وَشَدِيدُ عَادَةٍ مُنْتَزَعَةٍ  
 لَا يَكُنْ بَرِّقَكَ بَرِّقًا خُلْبًا إِنَّ خَيْرَ الْبَرِّقِ مَا الْغَيْثُ مَعَهُ

« البرق الخلب : الذى لا مطر معه » وفى الحديث : الخير عادة والشر لجاجة . يقال :  
 لَجَّ فِي الْأَمْرِ يَأْجُجُ وَيَلْجُجُ لَجَاجَةً وَلَجْجًا : إِذَا تَمَادَى عَلَيْهِ وَأَبَى أَنْ يَنْصَرِفَ  
 عَنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ وَأَنْ غَيْرَهُ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ فِيمَنْ أَصْطَنَعَ مَعْرُوفًا ثُمَّ  
 أَفْسَدَهُ بِالْمَنِّ أَوْ قَطَعَهُ حِينَ كَادَ يَنْتَهِي : شَوَى أَخَوَكَ حَتَّى إِذَا أَنْضَجَ رَمَدَ  
 « رَمَدَ : أَلْقَى الشَّيْءَ فِي الرَّمَادِ »

### شكوى العافين

من تفضيل بعضهم على بعض فى العطاء

قَدِمَ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُتُّ مِنَ الْعَرَبِ ، فَأَعْطَاهُمْ  
 وَفَضَّلَ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : كُلُّ الْقَوْمِ عِيَالٌ عَلَيْهِ .

وَأَعْطَى سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَرْمِ حُتَيْنِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانُوا أَشْرَافًا ،  
 يَتَأَلَّفُهُمْ وَيَتَأَلَّفُ بِهِمْ قَوْمُهُمْ ، فَأَعْطَى فِيمَنْ أَعْطَى ، عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ الْفَرَارِيِّ ،  
 وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسِ النِّمَيْ ، أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمَا مِائَةَ بَعِيرٍ ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ  
 مَرْذَاسٍ أَبَا عَرَّ ، وَكَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانَ شَاعِرًا ، فَسَخِطَهَا وَقَالَ :  
 يَعَاتِبُ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ :



أَتَجِدَ - لُ نَهْيٍ وَنَهْبٍ الْعَبِيدِ بَيْنَ عُيُنَتَهُ وَالْأَقْرَعِ <sup>(١)</sup>  
 وما كان حِصْنٌ ولا حَائِشٌ يَهْوِقَانِ مِرْدَاسَ فِي بَجْعٍ <sup>(٢)</sup>  
 وما كنتُ دُونَ امرئٍ مِنْهُمَا وَمَنْ تَضَعُ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعُ  
 وقد كنتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تُدْرَأٍ فَلَمْ أُعْطَ شَيْئًا وَلَمْ أُمْنَعْ <sup>(٣)</sup>  
 إِلَّا أَفَائِلَ أُعْطِيَتْهَا عَدِيدَ قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعِ <sup>(٤)</sup>  
 فلما أنشدما بين يدي رسول الله قال لعلي بن أبي طالب : يا علي ، أقطع  
 عني لسانه ، فقبض على يده وخرج به فقال : أقطع أنت لسانى يا أبا الحسن ؟  
 فقال : إني لَمُضٍ فيك ما أمِرت ، ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال خذ  
 ما حَبَبْتَ ...

### بلاغة المسكين

سأل أعرابي فقال في مسأله : لقد جُفْتُ حتى أَكَلْتُ النَّوَى الْمُحَرَّقَ ،  
 ولقد مَشَيْتُ حتى ائْتَعَلْتُ الدَّمَ ، وحتى سقط من رِجْلِي بَخْصُ لَحْمٍ ، وحتى تَمَنَّيْتُ  
 أن وجهي حذاءٌ لِقَدَمِي ، فهل من أخ يرَحْمُنَا ؟ البَخْصُ : اللحم يَخْلَطُ بِيَاضِ  
 من فساد يَحُولُ به ... ووقف أعرابي على حَلْفَةِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فقال : وَحِمَ  
 اللَّهُ أَمْرًا أَعْطَى مِنْ سَعَةٍ وَوَأَسَى مِنْ كِفَافٍ وَآثَرٍ مِنْ قَوْتٍ . فقال الحسن :

- (١) النهب : الغنمة ، والعبيد بالتصغير اسم قرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد .
- (٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة ، انظر كتب النحاة .
- (٣) تدرا : من الدرا وهو الدفع قال في الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدرا ،  
 أى ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم  
 أعط شيئا الخ أى لم أعط شيئا طائلا أو لم أعط شيئا أستحقه وهو المسألة : ولم أُمْنَعْ  
 من الإعطاء لأنى أعطيت بعضا

(٤) الأفائل : جمع أفيل بالفاء كالفصيل وزنا ومعنى

ماترك أحداً منكم حتى سأله... وقال المازني : وقف علينا أعرابي فقال :  
 رحم الله امرأة لم تَمُجِّجْ أذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذاً من سوء مقامى ،  
 فإن البلاد مُجْدِبَةٌ والحال مُصْعَبَةٌ <sup>(١)</sup> والحياء زاجرٌ يمنعُ من كلامكم ، والعُدْمُ  
 عاذرٌ يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين ، فرحم الله امرأة أمرت بِمَنْعِ  
 ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : بمن الرجل ؟ فقال : اللهم عَقْرًا بمن  
 لا تُضُرُّكَ جَهَالَتُهُ ، ولا تَفْعُكَ معرفته ، ذُلُّ الاكتساب ، يمنع من  
 عز الاتساب .

### حسن الخلق

وعقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه

وهذا هو أحد لَوْنِي الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللَّوْنُ  
 الثالث من ألوان البرِّ ، أعني حُسْنَ الخلق

### تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .  
 وقال : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . « خذ العفو :  
 فالعفو : السهل الميسر ، يقول سبحانه : احْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَأَقْبَلْ مَا سَهَّلَ  
 منها وتيسر ، ولا تَسْتَقْصِ عليهم فيستقصى الله عليك ، دع ما فيه من العداوة  
 والبغضاء قال شريح :

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِينِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوَرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

(١) يقال صعب الأمر وأصعب : صار صعباً

## فَانِ رَأَيْتُ الْحُبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْإِذَى

إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَثِ الْحُبُّ يَنْزَهَبُ

وقوله سبحانه وتعالى : وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ : فالجهل هنا ما قابل العقل والجاهلون : الحمقى الأشرار السيئوا الأخلاق ، أمر الله نبيه بأن لا يُمارى الجاهلين ولا يُكافئهم بمثل أفعالهم «

وقال سيدنا رسول الله : إِنْكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعَوْهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ . وَمِنْ ذَا قَوْلٍ حَكِيمٍ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : هَلْ مِنْ جُودٍ يُتَنَاولُ بِهِ الْخَلْقُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، أَنْ تَحْسَنَ الْخُلُقَ وَتَتَوَبَّى الْخَيْرَ لِكُلِّ أَحَدٍ ... وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي بِمَجَالِسِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ! : أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُؤَطَّنُونَ أَكْنَفَا ، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَبُؤْأَفُونَ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي بِمَجَالِسِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ! الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ ... » قوله : أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا يريد : الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف ، وذلك أن العرب تقول في الوصف : رَجُلٌ حَسَنٌ وَلَمْ تَقُلْ رَجُلٌ أَحْسَنُ ، مع قولهم امرأة حسناء . ونظيره في عكسه : غُلَامٌ أَمْرُدٌ وَلَمْ يَقُولُوا جَارِيَةٌ مَرْدَاءُ . وقوله : الْمُؤَطَّنُونَ أَكْنَفَا : يريد دُمَانَةُ الْخَلْقِ وَلَيْنَ الْجَانِبِ وَأَنْ نَاحِيَتِهِ يَتِمَكَّنُ فِيهَا صَاحِبُهُ غَيْرَ مُؤَدَّى وَلَا نَاقٍ بِهِ مَوْضِعُهُ . وأصل التوطئة : التذليل والتهديد يقال : فَرَأَيْتُ وَطِيءَ إِذَا كَانَ وَرِثِيرًا - أَيْ لَيْنًا - وَالثَّرَثَارُونَ : الَّذِينَ يُكْثِرُونَ الْكَلَامَ تَكَلُّفًا وَتَجَاوُزًا وَخُرُوجًا عَنِ الْحَقِّ ، وَأَصْلُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ مِنَ الْعَيْنِ الْوَاسِعَةِ مِنْ عَيُونِ الْمَاءِ يُقَالُ : عَيْنٌ ثَرَثَارَةٌ وَرَّارَةٌ : إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةً الْمَاءِ ... وَالتَفَيِّهُونَ : بِسَبِيلِ « الثَّرَثَارُونَ » وَهُوَ تَأْسِيسُ لَهُ ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ : فَهَيْقُ الْغَدِيرِ يَفْهَقُ : إِذَا امْتَلَأَ مَاءٌ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مَوْضِعٌ مَزِيدٍ : يَصِفُهُمْ

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملاونها بالكلام . قال أبو العباس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يُريد الصدق في المنطق والقصد وترك ما لا يحتاج إليه : قوله لجريز بن عبد الله البجلي : يا جريز : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف ، وقال الله جل شأنه في الحث على لسان الكلام : وقولوا للناس حسناً . وقال : فقولا له قولاً لينا ، وقال : وقل لهما قولاً كريماً . وقال : فقل لهما قولاً ميسوراً ... وقالوا : من لانت كلمته وجبت محبته . وقالت جدة سفيان بن عيينة له :

بُنِيَ لِمَنْ الْبِرُّ شَيْءٌ هَيْنٌ الْمَفْرَشُ اللَّيْنُ وَالطَّعْمُ

وَ مَنْطِقٌ إِذَا نَطَقْتَ لَيْنٌ \*

« قولها هينٌ : فالعرب تقول : رَجُلٌ هَيْنٌ لَيْنٌ وَهَيْنٌ لَيْنٌ ، وفي الحديث : الْمُؤْمِنُونَ هَيْنُونَ لَيِّنُونَ كَالْجِلِّ الْأَنْفِ إِنْ قُدَّتْهُ انْقَادًا وَإِنْ أَسْتَحْتَهُ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتِنَاخٌ » جل أنف : أى مانوف ، أى يشتكى أنفه من خشاش أوبرة<sup>(١)</sup> أو خزيمة فى أنفه فلا يمتنع على قائده فى شىء للوجع ، فهو ذلول منقاد ، ومعنى المؤمنون كالجل الأنف : أنهم لا يريمون التشكى ، أى يديمون التشكى بما بهم إلى الله وحده لا إلى سواه . أقول : وأحسن من هذا التفسير قول بعضهم : الجمل الأنف : الذليل المواقى الذى يأنف من الزجر ومن الضرب ويُعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً ، كذلك المؤمن ، لا يحتاج إلى زجر ولا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدخَل فى عظم أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع لانقياده . والبرة : ما يوضع فى لحم أنف البعير ويكون من صفر - نحاس أبيض - أما الخزيمة فهى من شعر

عتاب ، وما لَزِيْته من حَقِّ صَبْرٍ عليه وقام به ، وهذا تفسير جميل ، وهو أليق  
بِكلام سيدنا رسول الله . وسُئِلَتْ عائِشة رضى الله عنها عن خُلُقِ النَّبِيِّ صلى  
الله عليه وسلم فقالت : أوما تَقْرؤون القرآن : وإنك لعلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ... وقالوا :  
صَفَاءُ الْإِخْلَاقِ مِنْ نَقَاءِ الْأَعْرَاقِ . «الأعراق جمع عرق وهو الأصل يقال رجل  
مُعْرِقٌ فى الحسب والكرم قالت مُثَيْلَةُ بنت النضر بن الحارث أو أخته :

أُمَحَمَّدٌ وَلَآنَتْ ضَنْءٌ نَجِيَّةٌ فى قومها والفعلُ فُحِلَ مُعْرِقٌ

أى عريق النسب أصيل ، ويستعمل فى اللؤم أيضا تقول : إن فلانا لَمُعْرِقٌ فى  
الكرم ، ومُعْرِقٌ فى اللؤم . والضنء : الولد والأصل والمعدن ، وقال البحترى :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْخَلَائِقِ لِمَا مُسَلَّتٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْنَمٌ

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قرئش أحسنها أخلاقا وأصبُّها  
وجوها وأشدُّها حياءً ، إن حدَّثوك لم يَكْذِبوك ، وإن حدَّثْتَهُمْ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ  
لَمْ يَكْذِبوك : أبو بكر الصِّدِّيق ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن عفان  
رضى الله عنهم ...

وفى الأثر أيضا : أن حُسْنَ الْخُلُقِ وَحُسْنَ الْجَوَارِ يُعَمِّرَانِ الدِّيارَ وَيَزِيدَانِ  
فى الأعمار . وفى كتاب للهند : مَنْ تَزَوَّدَ خَمْساً بَلَّغْتَهُ وَآتَتْهُ : كَفُّ الْأَذَى ،  
وحسن الخلق ، ومُجَانَبَةُ الرَّيْبِ ، والنَّسْلُ فى العمل ، وحسن الأدب

نهيهم عن سوء الخلق

وقالوا : سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الصبر الغسل « الصبر هو هذا  
الدواء المر ولا يسكن إلا فى ضرورة الشعر » وفى الحديث : مَنْ سَاءَ  
خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ ، وقال العتَّابى :

وَكُنْتُ امْرَأً لَوْ شِئْتُ أَنْ تَبَاغَ الْمَتَى بَلَغْتَ بِأَذْنِي غَايَةَ تَسْتَدِيمِهَا  
ولكن فِطَامُ النَّفْسِ أَثْقَلُ مَحْمِلًا من الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ حِينَ تَرُومُهَا  
وقال عِقال بن شَبَّةَ : كنت رديفَ أبي ، فَلَقيته جريراً على بغل ، فحيَّاهُ  
أبي وألطفَهُ ، فلما مضى قلت : أبعَدَ ما نال لنا ما قال ! قال : يا بُنَيَّ ، أذا رَسَّحُ  
جُرْحِي ! . وقال ابن الحنفية : قد يُدْفَعُ باحتمال مَكْرُوهٍ ما هو أعظم منه ...  
وقال أبو الدرداء : إنا لنسْكَشِرُ في وجوه قوم وإن قلوبنا لتقلِّبهم <sup>(١)</sup>  
وقالوا : لا مُداراةَ لِلخَلْقِ السيِّ القبيح ، كالشجرة المُرَّة لو طُلِيَتْ بالعسل  
لم تُثمر إلا مُرّاً ، وكذَنَّبَ الكلب لو أدخلته الفالْبَ سنين لعادَ إلى أعوجاجه .  
ومن طَرَفِهِم في هذا المعنى قول بعضهم لاحد بن أبي خالد : لقد أُعْطِيتَ ما لم  
يُعْطَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن لم تخرُجْ من ذلك لأضربنك ،  
فقال الرجل : إن الله تعالى قال لنبيِّه : ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفَضُوا  
من حولك وأنت فظٌّ ونحن لا نَنفُضُ من حولك . وقال بعضهم : خَطَبْتُ  
امْرَأَةً ، فأجابتنى فقالت : إني بيئ الحاق ؛ فقالت : أسوأُ خُلُقاً منك من يُلجِئُكَ  
إلى سوء الحاق ... وقال بعضهم لرجل بيئ الحاق : إن استطعت أن تغيّر  
خُلُقَكَ وإلا فليَسْعُكَ من أخلاقنا ما ضاق به ذرْعُكَ ...

### صعوبة تغيير الطباع والمتخلق يرجع إلى شيمته

قالوا في ذلك : تأبى الطباعُ على الناقِل ؛ و : العادة طبيعة ثانية ، و :  
ظَلَمْتُ امْرَأَةً كَلَفْتَهُ غَيْرَ خُلُقِهِ وهل كانتِ الْأَخْلَاقُ إِلَّا غَرَايِزًا  
و : كُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَرَشَحُ

(١) نكشر في وجوه قوم : أى نبسم فى وجوههم وأصل الكشر : بدو الانسان  
يكون ذلك فى الضحك وغيره ؛ وتقلبهم : نبغضهم

و : \* إِنَّ الذِّخْلُقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ \*

وقال ذو الإصْبَعِ العَدَوَانِي :

وَمَنْ يَبْتَدِغْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمُهَا

« الخيم : السجية والطبيعة والأصل » وقال زهير بن أبي سُلي :

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى دَلَى النَّاسِ تَعْلَمُ  
وقال أبو تمام :

وَالسِّيفُ مَالِمٌ يُلَفِّ فِيهِ صَقِيلٌ مِنْ سِنِّهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ

« السِّنْخ : الأصل ، والصِقَال : الجلاء » وقال المتنبي :

وَكُلُّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنْ طَبَعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدُ  
وقال :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَقْرِ أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا  
مداراة الناس

قال النظام<sup>(١)</sup> : مَا يَسُرُّنِي تَرْكُ الْمُدَارَاةِ وَلِي حُرُّ النِّعَمِ ، فَقِيلَ لَهُ : وَلِمَ ؟

قال : لِأَنَّ الْأَمْرَ إِذَا شِئْتِكَ فَشَخَّصَتْ لَهُ أَرْدَاكَ ، وَإِذَا طَاطَأَتْ لَهُ  
تَحَطَّاهُ... وقال شاعر :

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ إِذَا شِئْتُ لَا قَيْتُ أَمْرًا لَا أَشَاكُهُ

خَافَتُهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاذُهُ

وقال بشار بن بُرد :

وَمَا أَنَا إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَّاحَتْ صَحَوْتُ وَإِنْ مَاتَ الزَّمَانُ أُمُوقُ

« مَا قِيَمُوقٌ مَوْقًا وَمَوْقًا وَوُقُوقًا وَاسْتِمَاقًا ، كُلُّ أَوْلَئِكَ : تَحَقُّقٌ فِي »

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غبابة، ويقال : فلان أحق مائق : والعرب تقول : أنت متق وأنا متق، أي أنت ممتلئ غضبا وأنا سيئ الخلق، فلا تنفق، وقال معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه : لو كان بيني وبين الناس شجرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها، وهكذا كان معاوية نبي الحلم والأناة والكياسة والرياسة والسياسة .

من حسن خلقه وخلقته ومن اختلف خلقه وخلقته

قال ابن الرومي :

كل الحلال التي فيكم محاسنكم تشابهت فيكم الاخلاق والخلق  
 كأنكم شجر الأترج طاب معاً خملانوراً وطاب العود والورق  
 « الأترج والشترنج : ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكبّاد،  
 والحل بفتح الحاء - والكسر لغة - ثمر الشجرة ؛ ومن دقق هذه اللغة الكريمة  
 أنها تفرق بين الحمل الذي يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحمل الذي يحمل  
 في البطن من الأولاد في جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر  
 يفتحون حاءه، قائلين : ما كان لازماً للشيء فهو حمل وما كان بائناً فهو حمل  
 وأما حمل الشجرة فلما كان شديداً بحمل المرأة لاتصاله فتحوا حاءه ولم كان  
 يُشبه حمل الشيء على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطناً كحمل المرأة  
 من جهة أخرى كسروا حاءه ؛ والنور بفتح النون : الزهر، وفي الأثر :  
 ما أحسن الله خاق أحد وخلق فاطمته النار... ووصف بعضهم رجلاً فقال :  
 يقرى العين جمالا والاذن بياناً<sup>(١)</sup>... وقال قتادة :<sup>(٢)</sup> ما بعث الله نبياً إلا حسن

(١) يقرى يريد : يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى : يغترق، من قولهم في الحسناء إنما تغترق العين أى لاتدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة



الْخُلُقِ حَسَنَ الْوَجْهِ ... وقال الفلاسفة: قَلَّ صَوْرَةُ حَسَنَةٍ تَتَّبِعُهَا نَفْسٌ رَدِيئَةٌ.  
وقال جالينوس: ينبغي الرجل أن يَنْظُرَ إلى وجهه في الْمِرْآةِ، فإن كان  
حَسَنَ الْوَجْهِ جَعَلَ عَنَابَتَهُ أَنْ يَضُمَّ إِلَى جَمَالِ وَجْهِهِ كَمَا لَخُلُقِهِ وَكَمَا لَنَفْسِهِ،  
وإن رأى صَوْرَةَ سَمِيحَةٍ تَحَرَّرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ دَمِيمَ الْخُلُقِ ذَمِيمَ الْخُلُقِ ...  
ونظر فيلسوف إلى غلام حَسَنَ الْوَجْهِ يتعلم العلم فقال: أحسنت، إذ قرئت  
بِحُسْنِ خُلُقِكَ حُسْنَ خُلُقِكَ ... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خيبت  
النَّفْسَ فقال: بَيْتٌ حَسَنٌ وَفِيهِ سَاكِنٌ نَذْلٌ ... ورأى آخرُ شاباً جميلاً فقال:  
سَبَلَبْتُ مَحَاسِنَ وَجْهِكَ فَمَضَائِلَ نَفْسِكَ ... وقالوا:

فَلَا تَجْمَلِ الْحُسْنَ الدَّلِيلَ عَلَى الْفَقْرِ فَمَا كُلُّ مُصْقُولٍ الْحَدِيدَ يَمَانٍ  
و: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْلُفُ طَعْمَهُ

وإن كان لَوْنُ الْمَاءِ فِي الْعَيْنِ صَافِيًا<sup>(١)</sup>

واستعرض المأمون الجُندَ فَرَّ بِهِ رَجُلٌ دَمِيمٌ، فاستنطقه، فَرَأَاهُ أَلْكَنَ،  
فَأَمَرَ بِاسْقَاطِهِ وَقَالَ: إِنَّ الرُّوحَ إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ رَسَامَةً، وَإِذَا كَانَتْ بَاطِنَةً  
كَانَتْ فِصَاحَةً، وَأَرَاهُ لَا ظَاهَرَ لَهُ وَلَا بَاطِنَ ...

«وبعد» فسيمرُّ بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعاني ويمتُّ إليها بسبب  
واصل، في باب الطبائع ... وباب الصداقة والصدق ... وباب عبقرياتهم  
في معاني شتى ...

## التقوى

وهاك اللزوم الأخير من ألوان البر، ولقد أسمعناك فيما أسلفنا أن التقوى

(١) لا كما كان من كبار علماء التابعين ولد سنة ٦٠ وتوفي سنة ١١٨ هـ

(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل: إذا تغير طعمه أو ريحه

هي عماد البر وقوامه، على جميع ألوانه، أى أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صلة الرحم، وكان هناك الإحسان، وكان هناك مكارم الأخلاق، وكان هناك الخير كله والبر في جميع ما يشتمل عليه وينتظمه، ولنورد عليك بادئ ذي بدء قولهم في التقوى والمراد بها، ثم نردف ذلك بعقرياتهم في التقوى وما يتأشب إليها... ويجرى منها على عرق...

### معنى التقوى

التقوى في اللغة من الاتقاء، بمعنى اتخاذ الوقاية، وفي اصطلاحهم: صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، وقال أبو البقاء في كلياته: التقوى - على ما قاله على رضى الله عنه - ترك المعصية وترك لاغترار بالطاعة، وهي التي يحصل بها الوقاية من النار والقوز بدار القرار، وغاية النقي البراءة من كل شيء سوى الله، ومبدؤا اتقاء الشرك، وأوسطها اتقاء الحرام، وغايتها منتهى الطاعات، قال: وقد تسمى التقوى خوفاً وخشية... أقول:

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْها فإنه أخوها غَدَتْهُ أُمُّهُ بِلَبَانِهَا<sup>(١)</sup>

وقد عقد الإمام أبو حامد الغزالي للخوف كتاباً في كتابه الإحياء جاء فيه: إن التقوى والورع أسامٍ اشتقت من معانٍ شَرُّها الخوف، فإن خلت من الخوف لم تُسمَ بهذه الأسامي... أقول: ومن أروع ما قيل في الخوف قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ... أقول: إذَنْ يكون: كلما ازداد المرء علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفاً، كما جاء في الأثر: أعلمكم بالله أشدكم له.

(١) لابي الأسود الدؤلى في نبيذ التمر، واللبن بكسر اللام، يقال: هو أخوه بلبان أمه ولا يقال بلبن أمه، إنما اللبن: الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم.

خشية ... ومن كان من العلماء لا يخشى الله ولا يُراقبه في سائر أحواله ، فليس من العلم بالله في كثير ولا قليل ... وما أجل ما يقول عبد الله بن همام السلولي<sup>(١)</sup> في وصف هذا الصنف من العلماء :

إذا نَصَبُوا لِلْقَوْلِ قَالُوا فَأَحْسِنُوا وَلَكِنْ حُسْنَ الْقَوْلِ خَالَفَهُ الْفِعْلُ  
وَذُتْهُ وَالنَّاسُ الدُّنْيَا وَهُمْ يَرَضِعُونَهَا أَفَؤَيْقَ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَهَا تُعَلُّ  
« قوله : إذا نصبوا الخ يريد : إذا نصبوا أنفسهم للقول وأعدوها له ،  
والأصل في النصب : أن يقوم رافعاً رأسه ؛ ورَضِعَ يَرْضِعُ كضرب يضرب  
في لغة قيس ، وكَسَمِعَ يَسْمَعُ في لغة أهل الحجاز ، فقوله : يرضعونها : تقرأ

(١) من التابعين ، وعداده في أهل الكوفة ، وبيناه المذكوران من آيات له قالها  
للنعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة ، وكان معاوية أمر لاهل  
الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لهم فقال عبد الله :

زِيَادَتَنَا نِعْمَانُ لَا تَحْزَمُنَا خَفِ اللَّهُ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو  
فَإِنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ مِنَّا أَمَانَةً بِمَا عَجَزْتَ عَنْهُ الصَّلَاحَةُ الْبُزْلُ  
وَأَنْ يَكُ بَابُ الشَّعْرِ يُحْسِنُ قَتْلَهُ فَلَا يَكُ بَابُ الْخَيْرِ مِنْكَ لَهُ قُفْلُ  
فَقَدْ زِلْتَ سُلْطَانًا عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لِغَيْرِكَ جَمَاتُ النَّدَى وَلَكَ الْبُخْلُ  
وَأَنْتَ أَمْرٌ حُلُوُّ اللِّسَانِ بَلِيغُهُ فَا بَالُهُ عِنْدَ الزَّيَادَةِ لَا يَحْلُو  
وَقَبْلَكَ قَدْ كَانُوا عَلَيْنَا أُمَمَةً يَسْمَهُمْ تَقْوِيمُنَا وَهُمْ عُصْلُ

« الصلحة : الصلاب المانعة وفي الحديث : عرضت الأمانة على الجبال الصم الصلاخم  
وأصل الصلخم : البعير الجسم الشديد الماضي ، والبزل : جمع بازل ، ويقال رجل بازل  
على التشبيه بالبعير ، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته وانكسار قوته . وجات : كثيرات ،  
وقوله : كانوا علينا أمة فائمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا أرجعت  
الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أمة خبر كانوا ، وعصل : فالعصل  
الاعوجاج وكل معوج فيه صلابة : أعصل .

بكسر الضاد وبفتحها؛ وأفريق جمع أفواق جمع فيقه بكسر الفاء ، وهو اسم للّبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، يريد : أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقسّدار ما يجتمع اللبن فيرضعونها ، وهكذا ، والتعل بضم الثاء وفتحها : خُلف زائد صغير من أخلاف الناقة وصرع الشاة لا يدُر من اللبن شيئا ، يَصِفُهُم بأنهم أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شيء ، وإنما ذكر التعل للبالغة في الارتضاع ، والتعل لا يدُر ، وهي مبالغة حسنة في معنى الاستئصال والتفاد ،

\*\*\*

ومما جاء في الخوف أيضا قوله سبحانه : وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، وقوله جل شأنه : وخافون إن كنتم مؤمنين ، وقوله : وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى : إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلّت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ؛ وقال عز وتقدس : واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ... قال سفيان بن عيينة : لولم يُنزل الله تعالى علينا إلا هذه الآية لكان قد أعذر أعذر : بلغ أقصى الغاية في العذر ، أى صار معذورا عندك إذ تحذرك أن لا تحذره وهو يعلم ما في أنفسنا ؛ ومن هذا المثل : من أنذر فقد أعذر ، ومما يؤثر في باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله .

## الحكمة

وهذا الحديث الشريف - على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إبانَ الحداثة، إذ يلتفتوننا إياه أوائل التعاليم في المكاتب لابدَّ من التبسط في القول عليه . قال صاحب القاموس : الحكمة تأتي بمعنى العدل <sup>(١)</sup> والعلم <sup>(٢)</sup> والحِلْم <sup>(٣)</sup> والثَّبُوت <sup>(٤)</sup> والقرآن والإنجيل <sup>(٥)</sup> ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده ، وقال أبو البقاء في كليته - بعد أن أورد مقال صاحب القاموس - : والحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية ، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدرَ طاقتها ، قال : وقال بعضهم : الحكمة هي : معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة مالها وما عليها ، المُشار إليه بقوله تعالى : ومن يُؤتِ الحكمة فقد أُوتِيَ خيرا كثيرا . وإزطها التجربزة <sup>(٥)</sup> وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمُتشابهات <sup>(٦)</sup> ، وعلى وجه لا ينبغي كمخالفة

(١) ضد الجور ، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يمحور في الحكم

(٢) أى العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عندهيجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى : ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله : وآتاه الله الملك والحكمة وقوله : وآتيناه الحكمة : بمعنى النبوة والرسالة ، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل ، لتضمن كل منهما الحكمة في لونها - العلية والعملية .

(٥) يقال في اللغة : رجل مُجربز : خب خداع خيث منكر والظاهر أن التجربزة والتجربز والتجربز معربات (٦) قال صاحب اللسان - بعد أن أورد كلاما كثيرا في معنى المتشابه من القرآن وفي الحديث - في صفة القرآن : آمنوا بمتشابهه واعملوا بحكمه :

الشرائع؛ وتفرطُها : الغباوة التي هي : تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم ... انتهى .

« وبعد » إن المُستَقْصَى لكل ما أوردوه من معاني هذه الكلمة - الحكمة - يرجع إلى إحكام الشيء ، أى إتيانها ، كيلا يتسرب إليه خللٌ أو فسادٌ ، وكى يبلغ ذروة الكمال جُهدَ الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات ويُثَقِّنُها : حكيم ، ومن ثم يقال للعالم العامل بعلمه : حكيم ، والرجل العاقل المُهَذَّبُ المُوفِّقُ : حكيم ، وللقاضى العادل فى أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرب الذى حنكته التجارب ووثقته حتى لا يصدر عنه إلا كلُّ ما هو سداد : حكيم ، ويقال للمواعظ والأمثال التى ينتفع الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يمنع من الجهل والسَّفه : حكمة ، ومن ذا تسمية القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكل ما يحذو على حذوها ، مما يتضمن مواعظ وآداباً وأخلاقاً فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يرتدُّ إلى معنى الإتيان والتوثيق والإصابة والسداد ... وإذن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أس الحكمة وقواها : الخوف منه سبحانه ، لأن الحكمة من شأنها أن تمنع النفس عن كل ما نهينا عنه ، ولا يحذر المرء على العمل بها إلا الخوف منه ، عز وتقدس ، ومتى كان هذا الخوف شعاره حاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة ؛ وبذلك تكون مخافة الله آكد أسباب النجاة ولا تسمُّ الحكمة إلا بها ...



المتشابه : ما لم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا ردَّ إلى المحكم عرف معناه والآخر ، ما لا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتبع له متبع للعنة لأنه لا يكاد ينتهى إلى شيء تسكن نفسه إليه وراجع اللسان مادة شبه ،

هذا ، ويُعجبني من الشعر في باب الخوف من الله قول محمود النوراني <sup>(١)</sup> :  
 يَناظِرُ أَيْرَنُو بَعِيْنِي رَافِدِي وَمُشَاهِدًا الْأَمْرَ غَيْرَ مُشَاهِدِي <sup>(٢)</sup>  
 مَنِيَّتْ نَفْسَكَ ضَلَّةً وَأَبْجَتَهَا طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهَنْ غَيْرُ قَوَاصِدِ <sup>(٣)</sup>  
 تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفُوزَ الْعَايِدِ <sup>(٤)</sup>  
 وَنَسِيَتْ أَنْ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ  
 وقال الحسن البصري : إن خوفك حتى تَلْقَى الْأَمْنَ ، خير من أَمْنِكَ حتى  
 تَلْقَى الْخَوْفَ ... وقال : يذبحني أن يسكون الخوفُ أَغْلَبَ على الرَّجَاءِ ، فإن  
 الرَّجَاءَ إذا غلب الخوفُ فَسَدَ الْقَلْبُ ... وقال بعضهم : قُلْتُ لِسُفْيَانٍ : بلغني  
 في قول الله تعالى : (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) أنه الذي يَلْقَى رَبَّهُ وليس  
 فيه أحد غيره ، فبكي وقال : ما سمعت منذ ثلاثين سنة أحسنَ من هذا التفسير ...  
 وقالوا : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه  
 الله من كل شيء ... وقال الفضيل بن عياض : إني لَا أَسْتَحِي من الله أن  
 أقول تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ، ولو تركت عليه حقَّ التوكل ، ما خِفت ولا  
 رَجوتُ غيره .

« وأما بعد » فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسان  
 وهو يعلم ما تَوَسَّوَسَ به نفسه ، وهو أقربُ إليه من حبل الوريد <sup>(٥)</sup>  
 ما يَلْفُظُ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد <sup>(٦)</sup> ، وإنَّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين

- (١) هو محمود بن الحسن الوزاق البغدادي مولى بني زهرة يكنى أبا حسن ، شاعر كثير  
 الشعر جيده ، وبلغته في الحكم والمواعظ والزهد : ترجم له صاحب فوات الوفيات .  
 (٢) يرنو : ينظر (٣) غير قواصد ، يريد : وهي حائرة غير مستقيمة  
 (٤) درك : اسم من الإدراك  
 (٥) حبل الوريد : عرق في العنق (٦) عتيد : حاضر

يعلمون ما نفعلون<sup>(١)</sup> :

إِنْ مَنْ يَرْكَبُ الْقَوَاحِشَ سِرًّا حِينَ يَخْلُو بِسِرِّهِ غَيْرُ خَالٍ  
كَيْفَ يَخْلُو وَعِنْدَهُ كَاتِبَاهُ شَاهِدَاهُ، وَرَبُّهُ ذُو الْجَلَالِ<sup>(٢)</sup>

وكذلك هو معلوم أن الناس قواري الله في أرضه<sup>(٣)</sup>، أى أن الناس ولا سيما الصالحون منهم - شهود الله في أرضه - لأنهم يتتبع بعضهم أحوال بعض، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر فقد أوجب<sup>(٤)</sup> ... وبعبارة أخرى : إن على كل إنسان رقباء فهم له بالمِرْصاد، يُزَوِّنُ عليه<sup>(٥)</sup>، ويجمعون بألهم إليه، ولا تكاد تخفى عليهم خليقة لَدَيْهِ :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَاطِئَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ، تَعْلَمُ  
أَلَيْسَ فِي نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ قَبَسٌ مِنْ نَوْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ نَوْرُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ ؟ وَالنَّاسُ بِهَذَا النُّورِ - وَلَا سِوَا الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدُّو  
فِيهِمْ هَذَا النُّورَ خَالِصاً غَيْرَ مَشُوبٍ بِرَيْنٍ وَطَبَعٍ وَغَيْمٍ - يَرَوْنَ بَعْضُهُمْ مِنْ  
بَعْضٍ مَا قَدْ يَتَوَقَّعُ الْجَاهِلُونَ أَنَّهُ لَا يُرَى، فَكَأَنَّ النَّاسَ لَذَلِكَ شُهُودُ اللَّهِ فِي

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان اليتان لنا بعة بنى شيان واسمه عبد الله بن المخارق بن سليمان، شاعر بدوى كان يفد إلى ملوك بنى أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف، وقوارى : أخذه من أن الناس يقرون الناس، أى يتبعونهم فينظرون إلى أعمالهم، وقال الزخشرى : المسلمون قواري الله في الأرض، أى أمناؤه وشهداؤه الميامين، شهبوا بالقواري من الطائر وهى الخضر التى يتبعون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملاً يوجب له الجنة أو النار، والموجبة : الكلمة أو الفعللة توجب لقائلها الجنة أو النار

(٥) زناً عليه : إذا ضيق عليه، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف

بمعناه الصحيح



الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكلُّ تجزئٍ بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا كله حقٌّ لا سبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شعاره خوف الله في السرِّ والعلَن وحُسن سيرته ، رَشَدَ وحسنت سيرته ، ومن عرَّاه الله من هذا الشعار وساءت سيرته ، غيَّ وساءت سيرته . وجملة القول : أن خوف الله وما يستتبعه من قلة الاكتراث لما سواه من الخلق في سبيل الحق ، مما يورث صاحبه ما يلقون عليه اليوم « الشجاعة الأدبية » ، فضلاً عن الجرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النبيلة . يخوف الله كما ترى أس من أسس الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف : رأس الحكمة مخافة الله ، ...

هذا ، وقد يُظنُّ ظان أن مخافة الله مغزاه الخوف من عقابه والطمع في ثوابه ، فن عمل صالحاً فكى يُثاب ويُجزى الجزاء الأوفى ، ومن أئلم فكى ينجو من عذاب النار ، وهذا لغوى ، وإن عدَّ خوفاً ، بيد أنه أذن درجات الخوف ، وهو خوف العامة وأشبه العامة . قال بعض الحكماء : إني لأستحي من ربى أن أعبدَه رجاء الجنة فأكون كاللاجير ، أو خوف النار فأكون كعبد السوء ، إن خاف بحمل وإن لم يخف لم يعمل ، لكن يستخرج من حب ربى ما لا يستخرجه غيره .. وقال بعضهم : من عبد الله بعبود فهو لئيم . وقال بعض الصوفية : لو لم يكن لله ثواب يُرجى ولا عقاب يُخشى لكان أهلاً أن لا يعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، بلا رغب في ثواب ولا رهب من عقاب ، لكن إلهه ، وهو أعلى الدرجات ، أنا نسمع قول موسى عليه السلام : وعجلت إليك رب لترضى ، أقول : . إذن فأفضل الأعمال ما كان

للحق والخير والجمال والمثل الأعلى في ذات الله العليّ الأقدس الذي له  
الاسماء الحسنى (١).

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِلْأَجْلِ ثَوَابِهَا (٢)  
أما الثواب والعقاب فالله سبحانه وما يُعِدُّ لعبده من ذلك، وحقيق بالعبد أن  
يُحسن ظنه بربه ويرجو لديه رحمة التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وليسكن كما قال محمد بن  
وهيب :

وإني لأرجو الله حتى كأني أرى بمجميل الظنّ بالله صانع  
وسيمرّ عليك قريبا طرف من قولهم في الرجاء .

### عقرياتهم في التقوى

ولأخذ الآن في عقرياتهم في التقوى : قال الله سبحانه : « إن أكرمكم عند  
الله اتقاكم » قال الإمام البيضاوي في تفسيره : فإن التقوى بها تكمل النفوس  
وتتفاضل الأشخاص ، فمن أراد شرفاً نليتّمسه فيها ، كما قال عليه الصلاة والسلام :  
« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ » ، ومن سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَامٌ فَلْيَتَوَكَّلْ  
عَلَى اللَّهِ ، ومن سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ  
بِمَا فِي يَدَيْهِ ... أقول : هذا كلامٌ عُلوّى مُعَرِّقٌ له في الصدق والحق والجمال  
والمثل الأعلى .

(١) الحسنی : تأنيث الاحسن يقال : الاسم الاحسن والاسماء الحسنی . والاسماء  
الحسنی معروفة وهي ٩٩ اسماً ، انظر نهاية الأرب ج ٥ ص ٣٢٦ ، ومرادنا بقولنا  
« والله الاسماء الحسنی » الصفات ، وهي الوحدانية والقدرة الى آخر معاني هذه الاسماء  
الحسنی ... وقد جاء في القرآن الكريم : « والله الاسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين  
يلحدون في اسمائهم سيجزون ما كانوا يعملون » سورة الاعراف ،  
(٢) للمعري ، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى .

## كَلِمَةٌ فِي التَّوَكُّلِ

« وبعد » فلمناسبة ذكر التوكل واقتراينه بالتقوى فيما أوردنا عليك من الآيات السكرية والأحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعار المؤمن في كل أسبابه، رأينا أن نُسلم به وبحقيقته إماما . فنقول : التوكل : كلمة يراد بها أمران ، لا يُعَدُّ التوكل توكلا على الحقيقة إلا إذا تحقق معا . فأما أول الأمرين فهو : الاعتقاد بأن الله عزَّ وتقدَّس هو وحده الذي بيده كلُّ شيء ، وأنه لا سواه الذي له مقاليد السموات والأرض ، وأن جميع الخلق فقراء كلُّ الفقير إلى عونه سبحانه ، وأنه :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأُولَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِمَاعُهُ  
وكل هذا مما لا خفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام ؛ وأما الأمر الآخر فهو : أن لا يكون المرء وكَلَّةً ، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه ، وهذا الأمر الثاني يكاد يكون ضَرْبَ قولهم اليوم « الاعتماد على النفس » أو قول الطغرائي :

وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يُعَوِّلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ  
والشرط الأول ، يقتضى الاعتقادَ بالقَدَرِ خيره وشره ، والشرط الآخر يقتضى السعى والاحتياط لأمره ، ولا تنافر بينهما أَلَبَّةً ، وإنما هما ، لدى إنعام النظر ، شيء واحد يُعْبَرُ عنه بالتوكل ...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له : إني أُرْسِلُ نَاقِيًا وأتوكل ؛ فقال صلوات الله عليه : بَلْ أَعْقِلْهَا رَتَوَكَّلْ ... ومَرَّ الشَّعْبِيُّ بِإِبِلٍ قَدْ فُشَا فِيهَا الْجَرَبُ ، فقال لصاحبها : أَمَا تَدَاوِي لِإِبِلِكَ ؟ فقال : إِنْ لَنَا عَجُوزٌ أَتَتَّكَلَّ عَلَى دَعَائِهَا ! فقال : اجْعَلْ مَعَ دَعَائِهَا

شيئا من القَطْران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كره طواعين الشام ورجع إلى المدينة : أ تفرُّ من قدر الله ؟ قال : نعم ، إلى قدر الله ... فقال له أينفع الحذر من القدر ؟ فقال : لسنا بما هناك في شيء « تأمل » إن الله لا يأمر بما لا ينفع ولا ينهى عما لا يضر « ألقِ بالك » وقد قال تعالى : ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التهلكة ، وقال تعالى : خذوا حذرَكُمْ ... وفي كتاب كيلة : لا يمنعُ العاقلَ يقينه بالقدرة من تَوَقُّي الخوفِ ، بل ليجمع تصديقا بالقدر وأخذاً بالحزم ، وقال شاعر :

والمرءُ تلقاهُ مضياً لفرصته حتى إذا فات أمرُ نائبِ القَدَرِ  
وقال آخر :

إذا عُبِرُوا قالوا مقاديرُ قدَّرتُ وما العارُ إلا ما تَجَرُّ المقاديرُ  
وقال آخر :

وأولُ عَجْزِ انْقِومٍ عَمَّا يَنْوِبُهُمْ تَدَاوُعُهُمْ عَنْهُ وَطُولُ التَّوَاكُلِ  
وقالوا في المثل : من العَجْزِ الإحالةُ على المقاديرِ ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري المسمى فتح الباري <sup>(١)</sup> تأييداً لهذا الذي قلنا في التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقادُ ما دلَّت عليه الآية : وما من دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقُها ، وليس المراد به تركُ التَّسَبُّبِ ، والاعتمادُ على ما يأتي من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجرُّ إلى ضدِّ ما يُراد من التوكل ، وقد سُئِلَ أحمد - بن حنبل - عن رجلٍ جلس في بيته أو في المسجد وقال : لا أَعْمَلُ شيئاً حتى يأتيني رزقي ، فقال : هذا رجلٌ جَهِلُ الْعِلْمِ « تأمل » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل رزقي تحت ظلِّ رُجْجِي ،

وقال: لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خصاصاً وتروح  
بطاناً<sup>(١)</sup>، فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق؛ قال: وكان الصحابة  
يتجرون ويعملون في نخلهم، والقُدوة بهم... انتهى. «وبعد، فإن التوكل كما  
ترى وعلى ضوء هذا الذي قلنا: أُس من أُس الأخلاق، إذ أنه يَكْسِبُ  
صاحبه الجرأة والإقدام والشجاعة الأدبية، وأن لا يخشى في الحق لومة لائم،  
ويُنْفِي عنه الجبن والتخاذل والخوف من الموت والجزع لدى نزول المصائب  
وما يجري هذا المجرى؛ ويَكْسِبُ صاحبه كذلك خُلُقَ الاعتماد على النفس  
وأن لا يتسكىل بعد الله إلا على نفسه. ومصدق هذا كله قوله صلى الله عليه  
وسلم: من سره أن يكون أعز الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما  
في يده، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

### عود إلى عبقرياتهم في التقوى

وقال سبحانه: ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب،  
ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء  
قدراً «مخرجاً: مخلصاً من مضائق الدهر، وقوله سبحانه: من حيث لا يحتسب،  
أى من وجه لا يخطر بباله ولا يقع في حسابه، وبالغ أمره: يبلغ ما يريد ولا  
يفوته مراد ولا يُعجزه مطلوب، وجعل لكل شيء قدراً: أى تقديراً وتوقيتاً،  
وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم أن كل  
شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر  
والتوكل، ولا معنى للشخط وعدم الرضا» وعنه صلى الله عليه وسلم: إنى لأعلم

(١) أى تغدو بكرة وهى جياع وتروح عشاء وهى مملئة الاجواف.

آيَةً لِّوَأَخْذِ النَّاسِ بِهَا لِكُفَّتِهِمْ : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ... الْآيَةُ . وَقَالَ سُبْحَانَهُ : يَا أَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . « حَقُّ تَقَاتِهِ  
أَيُّ حَقِّ تَقْوَاهُ ، وَدَوَّ اسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فِي الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى  
اللَّهُ عَنْهُ ، وَمِثْلُهُ : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، يَرِيدُ : بِالْغُفْوِ فِي التَّقْوَى حَتَّى لَا تَقْرُوا  
مِنَ الْمُسْتَطَاعِ شَيْئاً ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ : هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَبُشْكَرَ  
فَلَا يُكْفَرُ وَيُذَكَّرُ فَلَا يُنْسَى ، وَقِيلَ : هُوَ أَنْ تُنَزَّهَ الطَّاعَاتُ عَنِ الْإِلْفَاتِ  
لِأَيِّهَا ، وَعَنْ تَوْقِعِ الْمَجَازَةِ عَلَيْهَا ، وَقِيلَ : هُوَ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْ تَهُ لَا نَمِي  
وَأَنْ يَقُومَ بِالْقِسْطِ - الْعَدْلِ - وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ ابْنِهِ أَوْ أَبِيهِ ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ :  
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ « مُحْسِنُونَ : أَيُّ فِي أَعْمَالِهِمْ ، مِنْ أَحْسَنِ  
الشَّيْءِ : أَتَقَنَّهُ » ... وَقَالَ بَزْرُجْمَهْر : مَنْ قَوِيَ فَلْيَقْوَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَمَنْ  
ضَعُفَ فَلْيَضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ... قَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ : لِيُخْرِصَ الْبُلْغَاءُ أَنْ يَزِيدُوا  
عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ - كَلِمَةِ بَزْرُجْمَهْر - حَرْفًا ، « يَرِيدُ : أَنْهَا كَلِمَةُ جَامِعَةٍ ، وَقَالَ  
عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِبْنِيهِ فِي مَرَضِهِ : أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّهَا أَزِينُ حُلَّةٍ  
وَأَحْصَنُ كَهْفٍ ، فَقَالَ مُسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَكَانَ حَاضِرًا - وَأَثَرُبُ إِلَى  
الصَّوَابِ ، وَأَنْفَعُ فِي الْمَأْتَبِ : فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : هَاتَانِ لَا إِلَّا وَلِيَانِ ... « الْحُلَّةُ :  
كُلُّ ثَوْبٍ جَدِيدٍ ، وَلَا يُقَالُ لَهُ حُلَّةٌ إِلَّا إِذَا اجْتَمَعَ مَعَهُ ثَوْبٌ آخَرُ وَعِمَامَةٌ ،  
وَالْكَهْفُ : الْمَلْجَأُ ، وَأَصْلُهُ كَالْبَيْتِ الْمُنْقُورِ فِي الْجَبَلِ » وَقَالَ الْخَطِيبِيُّ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ تَجْمَعُ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ  
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْأَنْفَى مَزِيدُ  
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ : قَرِيبُ وَلَكِنْ الَّذِي يَمْنَعُ بَعِيدُ

وقال الأعشى في أبياته التي مدح بها سيدنا رسول الله :

أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ      نَبِيَّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى وَأَشْهَدَا  
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْتَحِلْ بَرَادٍ مِنَ الثُّقَى      وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا  
نَدَيْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ مَكَانَهُ      فَتُرْصِدَ لِلْبُوتِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا  
« قوله : أجدك قال سيديوه : هو مصدر كأنه قل . أجدا منك ، ولكنه  
لا يستعمل إلا مضافا ، وقال الأصمعي : أجدك ، معناه : أبجد هذا منك ونصبا  
بطرح الباء ، وقال الليث : من قال : أجدك بكسر الجيم فإنه يستحلفه  
بجده وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجده ، وهو بخته تقول : أجدك  
لا تفعل كذا ، وأجدك لا تفعل كذا . وأرصد : أعد ، وقال لييد :

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ      وَيَا ذَنْ اللَّهَ رَبِّي وَعَجَلُ  
أَحْمَدُ اللَّهَ فَلَا رَدَّ لَهُ      بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ  
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى      نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُ

« النزل : الغنيمة والجمع أنمال ، ثم قل لييد : ويأذن الله وتسهيله ربِّي ، أي  
بطئي ، وعجل : أي سرعتي ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة  
والسكون بيد الله ، ولا ند له : لا مثل له ، ويديه الخير : أي بقدرته التي هي  
كالآلة في أفعاله تعالى ، كاليد في أفعالنا ، وثنية اليد للبالغة في التشبيه ، وما  
شاء فعل : أي ما أراحه فعله وبين ذلك بالبيت الثالث ، ... وقال أبو نواس :

أَخِي مَا بَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْتَقِي      كَأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ الْمَوْتَ حَقًّا  
أَلَا يَا ابْنَ الَّذِينَ قُتُوا وَبَادُوا      أَمَّا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لَتَبَقِي  
وَمَا أَحَدٌ بَرَادٍ مِنْكَ أَحْظَى      وَمَا أَحَدٌ بَرَادٍ مِنْكَ أَشَقِي  
وَلَا لَكَ غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ زَادَ      إِذَا جَعَلْتَ إِلَى اللَّهِ هَوَاتٍ تَرَقِي

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر ، واللاهرات جمع لهواة وهى : لحمه حمراء فى الخنك معلقة على عكدة اللسان ، وقال أبو التماهية :

أطع الله بجُهدِكَ عَمِداً أو دُونَ جُهدِكَ

أعْطِ مَوْلَاكَ كما تَطْلُبُ من طاعةِ عَبْدِكَ

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجاح من كان الله معه ، وقال رجل للشبلى : متى يقربُ العبد من ربه ؟ فزعم ثم أنشد :

مَنْ لم يكن للوصالِ أهلاً فكلُّ إحسانِهِ ذنوب

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله فى غيبة غابها : أما بعد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى جلاءً بصرك ، وعماداً ظهيرك ، فإنه لا عمل لمن لا نيّة له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له ... « قوله : ومن شكره زاده : فسيمر عليك قريباً معنى الشكر ، وقوله : ومن أقرضه جزاه ، فالقرض فى الأصل : ما يُعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ، ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عوز فقد قالوا فى مثل قوله تعالى : وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، و : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له : إن القرض معناه الفعل الحسن من اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل من فعل إليه خيراً : قد أحسنت قرضى وقد أقرضتنى قرضاً حسناً ، وفى الحديث : أقرض من عِرْضِكَ ليوم فقرِكَ ... يقول صلوات الله عليه : إذا نال عِرْضَكَ رجل فلا تجازِهِ ، ولكن استبقي أجرَهُ مُوفراً لك قرضاً فى ذِمَّتِهِ لتأخذه منه يوم حاجتك إليه ، ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى قيامَ الليل ولا صيامَ النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى تركُ



عَا حَرَّمَ اللَّهُ وَأَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ، فَمَنْ رُزِقَ خَيْرًا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ خَيْرٌ ... وَقَالَ  
رَجُلٌ لِحَكِيمٍ: أَرْضَنِي. فَقَالَ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تُسِيءَ إِلَى مَنْ يُحِبُّ فَأَفْعَلْ،  
فَقَالَ: وَهَلْ يُسِيءُ الْمَرْءُ إِلَى مَنْ يُحِبُّ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ نَفْسُكَ إِنْ عَصَيْتَ اللَّهَ.

### التقوى مع الجهل

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَدْرَكْتُ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ يَقُولُونَ: مَنْ تَعَمَّلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ ... وَقَالَ  
أَيْضًا: قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ لَا زُحْدَ مَعَهُ، وَزَاهَدٌ لَا عِلْمَ مَعَهُ، هَذَا يَدْعُو إِلَى  
جَهْلِهِ بِزُهْدِهِ، وَهَذَا يُنْقَرُّ عَنْ عَلَيْهِ بِحِرْصِهِ. وَقِيلَ لَانُوشِرَوَانَ: أَيُّ النَّاسِ  
أَوْلَاهُمْ بِالسَّعَادَةِ؟ فَقَالَ: أَقْلُهُمْ ذُنُوبًا، قِيلَ: وَمَنْ أَقْلُهُمْ ذُنُوبًا؟ قَالَ:  
أَكْمَلُهُمْ عَقْلًا ... وَسَيِّدُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ  
مَنْ عِبَادَهُ الْعُلَمَاءُ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ آنفًا. وَفِي الْآثَرِ: يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قُرَاءَةُ  
فَسَقَةٍ وَعِبَادَةٌ جَهْلَةٍ، وَرَكْعَةٌ مِنْ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكْعَةً مِنْ عَابِدٍ  
لَا عِلْمَ مَعَهُ.

### التماوت والإفراط في الخشوع

وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ جَدَّ فِي الْعِبَادَةِ  
حَتَّى غَارَتْ عَيْنَاهُ: إِنْ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بَرِّقْ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى  
نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ، فَإِنَّ الْمُنْتَبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَثْبَقَ، وَلَنْ يُشَادَّ  
هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ... «مَتِينٌ: أَيُّ شَدِيدٍ، مِنْ مَتْنَانَةٍ: أَشَدُّ وَقَوِيٌّ، قَالَ  
تَعَالَى: وَأَمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ، وَقَوْلُهُ: فَأَوْغِلْ فِيهِ بَرِّقْ: أَيُّ ادْخُلْ، وَأَصْلُ  
الْإِيقَالِ: الْإِمْعَانُ فِي السَّيْرِ وَالْإِبْعَادُ فِيهِ يَقُولُ: يَسِرُّ فِي الدِّينِ بَرِّقْ وَلَا تَحْمِلْ

على نفسك فتكلفها ما لا تطيق فتتجز وتترك العمل ، والنتبت : الذى أنعب  
دأبته حتى عَطِبَ ظهره فَبَقِيَ مُنْقَطِعاً به ، من الانبتات وهو الانقطاع ...  
ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً مُطَاطِئاً رأسه ، فقال له : ارفعِ  
رأسك ، فإن الإسلام ليس بمرىض ... ونظر يوماً إلى رجلٍ مُظهِرِ النَّسْكِ  
مُتَمَاوِتٍ <sup>(١)</sup> خَفَقَهُ بالدرة وقال : لَا تُمِتْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَا تَكُ اللَّهُ ... ونظرت  
السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجلٍ كاد يموت تَخَافُفًا <sup>(٢)</sup> فقالت : ما هذا ؟  
فقالوا : أحدُ القراء ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سَيِّدَ القراء ، فكان إذا  
قال أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أَوْجَع ... وقال صلى الله عليه وسلم :  
إن الله بعثنى بالحنيفية السمحة ولم يبعثنى بالرهبانية ، فمن رَغِبَ عن سُنتي  
فليس مِنِّي ...

### قلة اليقين فى الناس

قال الشعبي : لم يَقْسِمِ الله بين الناس أَقْلًا من اليقين ... وقال ابن الرومى من  
همزته البارعة التى يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجى - ونذكر من أبياتها المختارة  
ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر فى باب القناعة قال :

مرحباً بالكفّافِ يأتى هنيئاً وعلى المتعَباتِ ذَيْلُ العَفَاءِ <sup>(٣)</sup>  
ضَلَّةَ لَامِرِيٍّ يُشَمِّرُ فى الجَمْعِ لِعَيْشٍ مُشَمِّرٍ لِلْفَنَاءِ <sup>(٤)</sup>

(١) المتماوت : الذى يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم

(٢) التخافت : تكلم الخفوت ، وهو : الضعف والسكون

(٣) الكفاف من الرزق : القوت وما كف عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعبات :

الأمور التى تتعب صاحبها فى تحصيلها ، والعفاء : الدروس وإحياء الآثار

(٤) ضل من يسكد فى جمع المال لعيش يسرع فى الزوال

دائِباً يَكُنْزُ الْفَنَاطِيرِ لِلَّوَا رِثَ وَالْعُمُرُ دَائِبٌ فِي انْقِضَاءٍ (١)  
حَبِذَا كَثْرَةُ الْفَنَاطِيرِ لَوْكَا نَتِ لِرَبِّ السَّكَنُوزِ كَنْزٌ بَقَاءٌ  
إِلَى أَنْ قَالَ :

حَسْبُ ذِي إِرْبَةٍ وَرَأْيٍ جَلِيٍّ نَظَرْتُ عَيْنُهُ بِلَا غُلُوءٍ (٢)  
صِحَّةُ الدِّينِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعُرِّ ضِ وَإِحْرَازُ مُسْكَةِ الْحَوْبَاءِ (٣)  
تِلْكَ خَيْرُ لَعَارِفِ الْخَيْرِ مِمَّا يَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ فَضُولِ الثَّرَاءِ  
وَلَهَا مِنْ ذُرَى الْأَصَالَةِ عُشَا قُ وَلَيْسُوا بِتَابِعِي الْأَهْوَاءِ  
لَيْسَ لِلْمُسْكِرِ الْمُنْعَصِ عَيْشٌ إِنَّمَا عَيْشُ عَائِشٍ بِالْهَنَاءِ  
إِلَى أَنْ قَالَ :

ظَلِمْتُ حَاجَتِي فَلَاذَتْ بِحَقَّةٍ يَكُ فَاسَلَتْهَا لَكَفَّ الْقَضَاءِ (٤)  
وَقَضَاءُ الْإِلَهِ أَحْرَطٌ لِلنَّاسِ مِنْ الْأَمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ (٥)  
غَيْرَ أَنْ الْيَقِينَ أَضْحَى مَرِيضًا مَرَضًا بِاطْنًا شَدِيدَ الْخَفَاءِ  
مَا رَجَدْتُ أَمْرًا يُرَى أَنَّهُ يُوَرِّقُنُ إِلَّا وَفِيهِ شَرِبُ أَمْرَاءِ (٦)  
لَوْ يَصْحُ الْيَقِينَ مَا رَغَبَ الرَّأْغِبُ إِلَّا إِلَى مَلِيكَ السَّمَاءِ  
وَعَسِيرٌ بُلُوغُ هَاتِيكَ جَدَا تِلْكَ عَلَيَا مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ

(١) دائِباً من دأب في عمله : مضى فيه يجد وتعب ، ويكنز من باب ضرب ونصر : يحرز الأموال ، والفناطر : يعني من الذهب والفضة وما إليها  
(٢) الإربة : الدهاء ، والغلواء : الغلو (٣) أى والحصول على ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب ، والخرباء : النفس (٤) لاذت : لجأت واحتضنت ، والحقو بفتح الحاء وكسرها : الإزار أو معقده يقول : فتعلقت بأهدائك أى التجأت إليك فسلمتها وتركتها للقضاء (٥) أحوط : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد أحداً يظن أن عنده يقينا بالله إلا وفي نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تتخير يوماً عن خير الدنيا بالتسوية : طمعاً في الربح ، طفيف ربح مع ما فيه من الخطر ، وتأبى أن تُقرض الله درهماً بثمانمائة ، مع زعمك وقولك إن مُستقرضه ملىء وفى هكذا وردت هذه الكلمة في محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إما محرفة وإما أنها معاطلة<sup>(١)</sup> وهى على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول : إن بما يدل على قلة اليقين أنك لو خيَّرت بين ربح كثير آجل نسبته عند الله ، بأن تُقرضه مثلاً درهماً بثمانمائة ، وبين ربح طفيف عاجل في الدنيا قد حُف بالخطر ، لاخترت الثانى على الأول ، مع زعمك بأن من تقرضه - وهو الله عز وجل - مضطلع بمضاعفة القرض وتوفيتك حقك وإعطائك إياه وإفيا ...»

### إصلاح الضمير

دخل حميد الطويل على سليمان بن على وإلى البصرة فقال له : عِظْنِي ، فقال حميد : لئن كنت حين عصيت ربك ظننت أنه يراك فقد اجترأت على الله ، وإن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ... وقالوا : إذا فسدت النية وقعت البلية ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعناك يا رسول الله تقول : شيبتنى هود<sup>(٢)</sup> ، فما الذى شيبك منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقيم كما أمرت ... ورووا أن السيد المسيح صلوات الله عليه قال : يارب ، مَنْ أَشْرَفُ النَّاسِ ؟ قال : مَنْ إِذَا خَلَا عِلِمَ أَنَّى ثَانِيهِ فَأَجَلَ قَدْرِي عَنْ أَنْ يُظْهِرَنِي عَلَى مَعَاصِيهِ ... وَمَرَّ

(١) معاطلة : أى عاظها قائلها : أى عقدها عجزاً عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله : فاستقيم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة في غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شيبتنى هود

عمر يرضى الله عنه بمملوك يرعى غنما، فقال: أتبيعني منها شاة؟ قال: ليست لي، قال: فأين العِلَلُ؟ قال: فأين الله: فاشتراد عمر وأعتقه، فقال المملوك: اللهم قد رزقتني العِتَقَ الأصغر فارزقني العِتَقَ الأكبر، أعوذ بك من قلب غائب عنك... وقال السري السقطي<sup>(١)</sup>: بتصحيح الضمائر أختفر الكبار؛ وفي الأثر: تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة «أى تعرّف إليه في الرخاء بالشكر وذكّر الآلاء يعرفك في الشدة بالعصمة...» وقال بعض المتصوفة: إن الله لا يشغله عنك شيء فإن استطعت أن لا يشغلك عنه شيء فافعل...

### احتمال المكارة في العاجل رجاء المسار في الآجل

ومن جوامع الكلم في ذلك قول سيدنا رسول الله: حُفَّتِ الجنة بالمكارة وحُفَّتِ النار بالشهوات «حُفَّت: أحيطت، والمكارة جمع مكردة وهى: مايكرهه المرء ويشق عليه، والشهوات: كل ما يوافق النفس وتصبو إليه. قال الإمام القرطبي: أصل الحَفَّت: الدائر بالشئ المحيط به الذى لا يتوصل اليه إلا بعد أن يُتخطى، فنل المصطفى المكارة والشهوات بذلك، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكارة والصبر عليها، والنار لا يُنجى منها إلا بفطم النفس عن مطالباتها، وقال ابن حجر: هذا من جوامع كلم المصطفى وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس، والحث على الطاعات وإن كرهتها وشقت عليها» ولما تاب بعض الصوفية كان لا يتَهَنَأُ بطعام ولا شراب فقالت له أُمّه: آرقُ بنفسك، فقال: الرُّقُّ أطلبُ لها... وهذا كقول الربيع بن خثيم وقد صلى طول ليلته حتى أصبح وقال له رجل: أتعبت نفسك فقال: راحتها أطلب...

(١) أحدر رجال الطريقة وخال أبي القاسم الجنيدي، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا - وإن كان من بابة أخرى - قول العباس بن الأحنف :  
 سأطلبُ بعدَ الدارِ عنكم لتَقْرُبوا      وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُمُوعَ لِتَجْمُدَا<sup>(١)</sup>  
 وقول الآخر :  
 تقولُ سَلِمَتِي لَوَأَقَّتْ بِأَرْضِنَا      ولم تَدْرِ أَنِي لِلْمَقَامِ أَطَوُّفُ

### مراعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : ولا تَدَسَّ نصيبك من الدنيا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس  
 بخيركم من ترك دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، ولا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ ، حتى يُصِيبَ منهما جميعاً ، فإن  
 الدنيا بلاغٌ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كَلَّاءَ على الناس ... « كَلَّاءٌ : عيالاً وثِقَلَاءَ »  
 وكان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يقول : اللهم أَعِنِّي على الدنيا بِالْغِنَى ،  
 وعلى الآخرة بِالتَّقْوَى . وقال مروان بن أبي حفصة لعمارة بن حمزة<sup>(٢)</sup> : أَنَشَدْتُ  
 المأْمُونِ قولي :

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُشْتَغِلاً      بِالْدينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلاً  
 فلم يَهْتَمَّ لذلك إِنْ قَالَ عَمَارَةٌ : مَا زِدْتُ عَلَى أَنْ صَيَّرْتَهُ عَجُوزاً مُعْتَكِفَةً فِي مَحَارِبِهَا ،

(١) كنى بالجمود عن السرور ... وللنقاد في هذه الكناية كلام حسن انظره إذا  
 شئت في شرحنا على التلخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أدبياً وكان كاتباً وكان جواداً كريماً وكان من سروات  
 الناس وكان تياها معجباً معتدلاً بنفسه وكان في زمن السفاح والمنصور وبقى الى زمن  
 المأمون وتولى الولايات العظيمة في أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه إذا أخطأ  
 يعضى على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخُطَأُ  
 أهون من ذلك ، انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت وهي زاخرة بكل ما يطرب  
 ويعجب من سيرة هذا عمارة بن حمزة ،

فَهَنَ لَامُورِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلًا قَلْتَ كَمَا قَالَ جَرِيرٌ :  
 فَمَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيبُهُ  
 وَلَا عَرَضُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ !  
 والمشهور في هذا المعنى قول الفاروق رضي الله عنه : اَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ  
 أَبَدًا وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا... وقال الشاعر :  
 وَلِلَّهِ مِنِّي جَانِبٌ لَا أَضِيعُهُ      وَلِلْهَوَى مِنِّي وَالْخَلَاةُ جَانِبٌ  
 وسيمر بك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في مواضع أخرى من  
 هذا الكتاب .

### الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى : فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ : يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، وقال حكيم :  
 أَرْجُ إِذَا خِفْتُ وَخَفْتُ إِذَا رَجَوْتُ ، وَكُنْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ لَيْسَ رَجَاؤُهَا أَنْ تَلِدَ  
 وَلَدًا ذَكَرًا بِأَكْثَرِ مِنْ خَوْفِهَا أَنْ تَلِدَ أُنْثَى . وقريب من هذا قول رجل لابنه :  
 خَفِ اللَّهَ خَوْفًا لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الرَّجَاءِ ، وَارْجُهُ رَجَاءً لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخَوْفِ ، فَاَلْمُؤْمِنُ  
 عَلَيْهِ قَلْبَانِ : يَرْجُوهُ أَحَدُهُمَا وَيَخَافُهُ الْآخَرُ وقال :

أَنَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ      وَاقِفٌ بَيْنَ وَعْدِهِ وَالْوَعِيدِ  
 وقال أبو نُوَّاس :

لَا تَحْظَرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا آخِرَ جَأ      فَإِنَّ حَظَرَكَ كُهُ بِالْدِّينِ إِذْ رَأَى  
 وقال أيضا :

يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفْوِ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْثَرُ

وقال :

تَبَسَّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ مَمَرِ الذُّنُوبِ  
وقال :

تَكْتَبُرُ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالسَّخْرِ رَبًّا غَفُورًا  
سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ عَفْوًا وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا  
تَعْصُ نَدَامَةً كَفَيْكَ مَا تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورَا

وفي الأثر : مَا أَحْبَبَ أَنْ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أَى آيَةٍ أُرْجَى ؟ قال : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، فقال : إِنَّ هَذِهِ لِمَرْجُوءَةٌ ، وَأُرْجَى مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ... وقال أعرابي لابن عباس : مَنْ يَحْسَبُ الْخُلُقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قال : يَحْسَبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ : نَجُونَا وَرَبُّ السَّكْبَةِ ، فَقَالَ : كَيْفَ ! قَالَ : إِنْ الْكَرِيمُ إِذَا قَدَرَ غَفَرَ ... وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَنْقَذَنَا مِنْهَا . وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يُلْقَيْنَا فِيهَا ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : خَذُوهُ مِنْ غَيْرِ فَقِيهِ ...

\*\*\*

### العبادة لا طلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آتفا قول في ذلك وتزيد فتور دُطرَفا من عبقرياتهم في هذا المعنى : قال الشُّبْلِي : مَنْ عَبَدَهُ رَجَاءَ الْجَنَّةِ فَهُوَ عَبْدُهَا ، أَوْ خَوْفَ النَّارِ ، فَهُوَ عَبْدُهَا ، لِأَنَّهُ مِنْ خَافَ شَيْئًا أَوْ رَجَاهُ فَهُوَ مُعْبُودُهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ عَبَدَ



الله بعوض فهو لثيم ، وقال آخر : اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فأحرقنى ، أو طمعا فى جنتك فأحرمنىها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك حُباً لك وشوقاً إلى لقائك فأبجّنيهِ ... وقيل لراية العدوية : مالك لا تسألين الله الجنة فى دُعائك ؟ فقالت : الجار ثم الدار ... « تعنى بالجار : ذا الجلال والإكرام » وقد أوردنا بيت المعرى :

ولتفعل النفسُ الجميلَ لأنه خَيْرٌ وأحسنُ للأجلِ ثوابها

غير مرة فيما أسلفنا ، وقال بعضهم فى قوله صلى الله عليه وسلم : أكرهُ أهل الجنة البُلهُ ، قال : لأنهم فى سُغُلٍ فأكهون ، سَغَلَهُم النعيمُ عن المنعم ، وعن رضى بالجنة عن الله فهو أبله . أقول : حديث : أكره أهل الجنة البُلهُ : حديث ضعيف « انظر شرح الجامع الصغير للناوى » وعلى أنه ضعيف فقد أولوه تأويلاً حسناً : فقال الأزهري : الأبله : الذى طُبِعَ على الخير ، فهو غافلٌ عن الشرِّ لا يعرفه - أقول : أو يعرفه ولكن يتجنبه - وقال النَّضر بن شميل : الأبله : الميتُ الداء ، أى أن شره ميت لا يلبث له . والمرأة باهاء ، قال الشاعر :

ولقد هَوَتْ بِطِفلةٍ مَيَّالَةٍ بِلَهَاءٍ تُظْلِعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

أراد : أنها غر لا دهاء لها فهى تخبرنى بأسرارها ولا تَفْطِنُ لما فى ذلك عليها . وقال الزُّبْرَقَان بن بدر : خيرُ أولادنا الأبلهُ العقول ، يعنى : أنه لشدّة حَيَاتِهِ كالأبله وهو عقول «مبالغة من العقل» وقال الزُّخَشْرى فى صفة الصُّلَحَاء : هَيُنُونَ كَيُنُونَ ، غير أن لاهراة فى الحق ولا دهانة ، بُلّه ، غَوَّضَهُمْ عَلَى الْحَقَائِقِ يُعْمَرُ الْأَلْبَابَ وَالْأَذْهَانَ ، وذلك لأنهم أغفلوا أَمْرَ دُنْيَاهُمْ ففهلوا حَذَقَ التَّصَرُّفِ فِيهَا فَأَقْبَلُوا عَلَى آخِرَتِهِمْ فَشَغِلُوا بِهَا فَاسْتَحَقُّوا أَنْ يَكُونُوا أَكْثَرُ أَهْلِهَا ،

## الرياء

الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه : ومن عبقرياتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : **إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ الظَّاهِرُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ** . وقالوا : **أَعْظَمُ الرِّيَاءِ حُبُّ الْمُحَمَّدَةِ** . وقالوا : **إِذَا عَمِلَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ وَكَتَمَهُ وَأَحَبَّ لِإِعْلَامِ النَّاسِ أَنَّهُ كَتَمَهُ ، فَذَلِكَ أَقْبَحُ الرِّيَاءِ ،** وقال أبو نواس :

وإِذَا نَزَعْتَ عَنِ الْغَوَايَةِ فَلْيَكُنْ اللَّهُ ذَاكَ النَّزْعُ لِلنَّاسِ  
وقال لقمان لابنه : **آتَقِ اللَّهَ وَلَا تُرَيِّ النَّاسَ أَنْكَ تَحْشَاهُ لِيُكْرِمُوكَ ...**  
وقال بعضهم : **كَانَ النَّاسُ يُرَاوْنُ بِمَا يَفْعَلُونَ فَمَارُوا يُرَاوْنُ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ .**  
وقالوا : **مَا الدِّخَانُ بَادِلٌ عَلَى النَّارِ مِنْ ظَاهِرٍ أَمْرُ الرَّجُلِ عَلَى بَاطِنِهِ ...** وقالوا  
في وصف المرائي : **لَهُ سَمْتُ أَبِي ذَرٍّ عَلَى قَلْبِ أَبِي جَهْلٍ (٢)** وقال صلى الله  
عليه وسلم **فَيَمْنُ تَنْسُكَ طَمَعًا فِي عَرَضِ الدُّنْيَا : أَكْثَرُ مُنَافِقِي هَذِهِ الْأُمَّةِ**  
**قَرَأُوهُ** ، قال ابن الأثير : **أَيُّ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ تَنْمِيًا لِلتَّهْمَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ**  
**وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَضْيِيعَهُ (٣) ،** وكان المنافقون في عصر النبي بهذه الصفة . وقال

(١) إذا أردت التوسع في القول على الرياء وحقيقته وأنواعه وعلاجه فعليك بإحياء علوم الدين للغزالي

(٢) أبو ذر الغفاري هو الصحابي الجليل الزاهد الورع الصادق للهجة الذي قال فيه سيدنا رسول الله : **مَا أَقَلَّتِ الْغِبْرَاءُ وَلَا أَظَلَّتِ الْخَفْرَاءُ أَصْدَقُ لُحْجَةٍ مِنْ أَبِي ذَرٍّ** وقال فيه سيدنا علي : **أَبُو ذَرٍّ عَامٌ مَلِيٌّ** ، علما ثم أوكى عليه ، أوكى عليه أي شدد بالوكا . وهو الخيط يشد به فم القربة ، توفي سنة ٣١ هـ أما أبو جهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا رسول الله قتل في غزوة بدر (٣) أي مضمرون عدم العمل به

الزنجشري : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة مافى الظاهر خلاف مافى الباطن . وقال الغزالي : أحذر من خصال القراء الأربعة : الأمل والعجلة والكبر والحسد ، قال : وهى عللٌ تُعترى سائر الناس عموماً والقراء خصوصاً ، ترى القارئ يطول الأمل فيوقعه في الكسل ، وراه يستعجل الخير فيقطع عنه ، وراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله فربما يبالغ به مبالغاً يحمله على فضائح وقبايح لا يُقدم عليها فاسق ولا فاجر . وكان الفضيل بن عياض لا يثبته : اشترؤا داراً بعيدة عن القراء ، مالى والقوم ! إن ظهرت منى ذلةٌ تملونى ، وإن ظهرت على حسنة حسدوني ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخف بهم مُعَبِّساً وجهه كأنما يمين على الناس بما يُصلى زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشوراً بالجنة والبراءة من النار ، أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ، ثم دو مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت ، وهذا لا يليق بالكبر والترفع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يبصر ... أقول : كل ما قالوه فى القراء مما يصح أن يقال فى علماء الدين وفى المتتسكين ، لأنه يقال تقرأ فلان أى تنقّه ، ويقال : تقرأ : أى تلتك ، قال زيد بن تركي الرُبَيْدِيّ ، وقال القراء : أنشدني أبو صدقة الدبيري :

ولقد عَجِبْتُ لكَاعِبِ مَوْدُونَةٍ    أطرافها بالحنى والحناء  
بيضاء تصطاد القوي وتنتهي    بالحنن قلب المسلم القراء

« مودونة : عُلَيْنة وأطرافها نائب فاعل ، ودونة ، ورووا أن بلال بن أبي بردة وفد على عمر بن عبد العزيز فجعل يُدِيمُ الصلاة فقال عمر : ذلك التَّصَنُّعُ ، فقال له العلاء : أنا آتيك بخبره ، فجاءه وهو يصلى فقال له : مالى عندك إن بعثت أمير المؤمنين على توليتك العراق ؟ قال عمه التى سنة أى وظيفتى ومُرَّتَيْي . وكان مبلغه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتب به خطك ، فكتب إليه ، فجاء الملاء إلى عمر فأخبره ، فقال : أراد أن يغرنّا بالله ... ودخل على أبي جعفر المنصور رجل بين عيديه كركبة البعير - وذلك يكون من أثر السجود - يريد القضاء ، فقال المنصور : إن كنت أبررت الله بهذا فما ينبغي أن تشغلك عنه ، وإن كنت أردت خداعنا فما ينبغي أن ننخدع لك . وقال شاعر :

لا تصح - بن صحابة حلقوا الشوارب للطمع  
يكي وجل بكانه ما للفريسة لا تقع

وقال آخر :

عمرؤا وضع التصنع منهم  
ويروي هذا البيت على وجه آخر ...

وروا أن بعض الناس كان يبيع زكاته من الفقير ويسترجعها منه بدرهم أو درهمين . ويروي أغرب من ذلك وأقعد في باب الحيل الشرعية المحرمة ، وذلك أن أحد مشيختنا الذين تولوا مشيخة الإسلام والإفتاء في الجبل الغابر بمصر - كان غنيا ثريا - كان يحتال في زكاة المال بأن يضع قيمة ما يجب عليه أن يزكاه - عن ماله في العياب « الزكائب » المملوءة قحاشم يفهم الفقراء أن هذه هي زكائهم ثم يشتريها منهم بضمن دغير ، وبذلك يظن أنه قد قام بفريضة الزكاة ويخادعون الله وهو خادعهم ،

### التوبة

التوبة : الرجوع عن الذنب ، يقال : تاب إلى الله يتوب توبة وتوبتا ومتابا .  
أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة ، وتاب الله عليه : وفقه إلى التوبة أو

عاد عليه بالمغفرة ، وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : استغفار باللسان ونية بالقلب وترك بالجوارح وإظهار أن لا يعود .  
 وفي الحديث : من تاب قبل موته بقواق ناقة حرم الله وجهه على النار .  
 « الفواق : أن يُحلب الناقة ثم تُترك لحظة يرصعها الفصيل لتدّر ثم تحلب »  
 وقال عز وجل : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . التوبة النصوح : الخالصة التي لا يُعاود بعدها الذنب ، وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني مُتبت الآن يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحترم على الله لمن أذنب بجهالة وسفه . فإن ارتكب الذنب سفهه وتجاهل ، ومن ثم قيل : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالة . ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر ، قال المفسرون : وسماه قريبا لأن أمد الحياة قريب ، أو قبل أن يُشرب في قلوبهم حبه فيتعذر عليهم الرجوع ،

### المبادرة إلى التوبة

وقد حثوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإفلاع عن المعاصي فروا أنه قيل لرجل : أوّس ، فقال : أحتذركم سوف ، وقال شاعر :  
 والمرءُ مرتهنٌ بسوفٍ وأيتنى . وهلاكه في سوفيه والليت  
 وقال آخر :  
 أسوفُ توبتي خمسين عاما وظنى أن مثلى لا يتوب

وقال بعضهم : نحن لانريد أن نموت حتى نتوب ولا نتوب حتى نموت...  
 وقال بعضهم لرجل : عظمي ، فقال : قد قطعت عظامي سفرك ، فإن استطعت  
 ألا تفضل في آخره فافعل... وقال مصعب بن الزبير : ادفع سطوة الله  
 بسرعة الشروع ، وحسن الرجوع ، فيوشك أن المنايا تسبق الوصايا ، وقالوا في  
 قوله تعالى : بل يريد الإنسان ليفجر أمامه : يكثر الذنوب ويؤخر التوبة.  
 أو يسوف بالتوبة ويقدم الأعمال السيئة ، وقال مؤرج السدوسي<sup>(١)</sup> : جرح :  
 إذا ركب رأسه فمضى غير مكترث ، وقوله : ليفجر أمامه : يفيض أمامه راكبا  
 رأسه... وقال سيدنا رسول الله لرجل وهو يعظه : اغتنم خمسا قبل خمس :  
 حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك  
 قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك . « اغتنم حياتك قبل موتك : اغتنم ما تبقى  
 نفعه وأوابه بعد موتك . وصحتك قبل سقمك : اغتنم العمل حال الصحة  
 فقد يمنع مانع كالمرض فتقدم بهير زاد . وفراغك قبل شغلك : اغتنم فراغك  
 في هذه الدار قبل شغلك بأهوال ما بعد الموت ، أى اغتنم فرصة الإمكان  
 لعلك تسلم من الجحيم . وشبابك قبل هرمك : اغتنم الطاعة وفعل الخير حال  
 قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك فتندم على ما فرطت في جنب الله .  
 وغناك قبل فقرك : اغتنم الإحسان والتصدق بفضول مالك قبل أن تنزل  
 جائحة تفقرك . ولك أن تقول : إن هذه الوصية الكريمة مغزاها عام شامل  
 يراد بها المبادرة إلى العمل وانتهاز الفرص قبل فواتها ، وقال الشاعر .  
 إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً      نديت على التفريط في زمن البذر  
 وقال أبو العتاهية :

فواعجبا كيف يعصى المليك أم كيف يجحده الجاحد

(١) نحوى بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفي هو وأبو نواس في يوم واحد سنة ١٩٥

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيرٍ كَمَةٌ . وَتَسْكِينَةٍ فِي الْوَرَى شَاهِدُ  
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ  
وَقَالَ الْآخَرُ :

تَرْجُو النَّاجَةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنْ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ  
وَجَاءَ حَبِيبُ بْنُ الْحَارِثِ إِلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ : إِنِّي مُقَارِفٌ لِلذُّنُوبِ ،  
فَقَالَ : تُبُّ ، قَالَ : إِنِّي أَتُوبُ ثُمَّ أَعُودُ ، فَقَالَ : كَلِمَا أَذْنَبْتَ ذَنْبًا فَتُبُّ ، فَعَفُوَّ  
اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ ذُنُوبِكَ . وَفِي الْحَدِيثِ : إِنْ الرَّجُلُ لِيَذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ ،  
فَقِيلَ : وَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : يَكُونُ نُصَبٌ عَيْنِهِ خَائِفًا مِنْهُ حَتَّى يَدْخُلَ  
الْجَنَّةَ ... وَاجْتَمَعَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ عِنْدَ كِسْرَى فَتَذَاكَرُوا فِي شَرِّ الْأَشْيَاءِ فَقَالَ  
أَحَدُهُمْ : الِهْمُّ يَقْتَرِنُ بِالْعُذْمِ - الْفَقْرُ - وَقَالَ الثَّانِي : سُقْمُ الْبَدَنِ وَدَوَامُ الْحُزَنِ ،  
وَقَالَ الثَّلَاثُ : دُنُوُّ أَجَلٍ وَسُوءُ عَمَلٍ ... فَحُكِمَ لِهَذَا ... وَدَعَا بَعْضُ الصَّالِحِينَ  
فَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَقُوعِ الْمَنِيَةِ وَلَمَّا أُبْلِغَ الْأُمْنِيَةَ ... وَقَالَ حَكِيمٌ :  
الْأَيَّامُ صَحَائِفُ أَجَالِكُمْ فَأَوْدِعُوهَا أَجَلَ أَفْعَالِكُمْ ... وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا : عَاجِبْتُ لِمَنْ يَحْتَمِي عَنِ الطَّعَامِ لِمَضَرَّتِهِ وَلَا يَحْتَمِي عَنِ الذَّنْبِ لِمَعَرَّتِهِ !  
وَقَالَ بَعْضُهُمْ حَضَرْتُ مَجْلِسَ الشُّبْلِيِّ <sup>(١)</sup> فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَالَ لَهُ :  
أَوْصِنِي ، فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ أَوْصَاكَ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ :

قَالُوا تَوَقَّ دِيَارَ الْحَيِّ إِنْ لَمْ يَمُتْ  
عَيْنًا عَلَيْكَ إِذَا مَا نِمْتَ لَمْ تَمُتْ

(١) الشُّبْلِيُّ - وَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ - هُوَ أَبُو بَكْرٍ دَلْفُ بْنُ جَعْدَرٍ ، وَالشُّبْلِيُّ :  
نِسْبَةٌ إِلَى شُبْلَةٍ ، بَلَدَةٌ مِنْ بِلَادِ مَاوَرَاءِ النَّهْرِ - سَمَرْقَنْدَ وَبِخَارَى وَمَا إِلَيْهِمَا - كَانَ مِنْ مَبْدَأِ  
أَمْرِهِ وَالْيَا لِأَحَدِي الْوَلَايَاتِ ثُمَّ تَابَ وَتَصَوَّفَ وَبَلَغَ الْمُبَائِغَ فِي ذَلِكَ ، كَانَ جَلِيلَ الْقَدْرِ  
مَالِكِي الْمَذْهَبِ وَصَحْبَ الشَّيْخِ أَبِي الْقَاسِمِ الْجَنْدِيدِ وَمِنْ فِي عَصْرِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ تَوَفَّى سَنَةَ  
٣٣٤ هـ بِبَغْدَادَ وَعُمُرُهُ سَبْعٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً

وقال يحيى بن معاذ : اجتناب السيئات أشد من اكتساب الحسنات ...  
وسمع الحسن البصري رجلا يقول : اللهم اجعلنا منك على حذر ، فقال : إنه فَعَلَ  
ذلك ، أليس قد سترَ عنك أجلك ، فليست من حياة ساعة على يقين !

### الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجَبُ لِمَنْ يَقْنَطُ ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا  
لاصغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ،  
لا بُدَّ لكم من المعاصي الكبار فافعلوا بإزائها طاعات عظيمة ، أيها الأوساط ،  
يُمْسِكُكم الطاعات العظيمة ، كالمصالح التي لا يَقْدِرُ عليها إلا السلاطان ، فلا تركبوا  
المعاصي الكبيرة ... وقال بعضهم : سَمِعَنِي رَاهِبٌ أقول : أَسْتَغْفِرُ اللهَ ، فقال :  
يَا قَتِي ، سُرْعَةُ اللسان بالاستغفار تُوْبَةُ الكُذَّابِينَ ... ويدُلُّ على ما قاله قوله صلى  
الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المُصِرُّ على الذنب كالمُسْتَهْزِئِ بربه . وقال  
الربيع بن خُثَيْم : لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فيكون ذنباً  
جديداً إذا لم يفعل ، ولكن لِيَقُلْ : اللهم ، تُبْ عَلَيَّ وَاغْفِرْ لِي ، فقل : ولم ؟  
فقال : أنتَ عَمَّا يَنُهَاك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضى الله عنه : لم أَرَ  
أشدَّ طلباً وأسرعَ دَرَكَاً من حسنة حديثه لذنبٍ قديم . « دركا بسكون الراء  
وتجها : لحافا وإدراكا » ... وسُئِلَ بعضُ المُجَّانِ : كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرقه  
بالمعاصي وأرْتَعَهُ بالاستغفار ...

« وأما بعد ، فلو يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَاتَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا  
مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ  
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا <sup>(١)</sup> .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤاخذ الله الناس... الآية



يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا      فِي ظُلُمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ  
وَيَرَى عُروْقَ نِبَاطِهَا فِي تَحْرِهَا      وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّحْلِ  
أَغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَطَاتِهِ      مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)

## عقريات شتى

### في الخوف والتقوى

ورد في الحديث الصحيح : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ولما ساء لكم الطعام ولا الشراب ، لضحكتم قليلا ، أي لم تضحكوا ألبتة إذ القليل ههنا بمعنى العدم ، ... وجاء في خطبة لسيدنا رسول الله : أيها الناس ، إن لكم معارلم فأنهوا إلى معارلمكم ، وإن لكم نهاية فأنهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل السكبر ومن الحياة قبل الممات ، فوالذي نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ ، وما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة والنار ... معارلم جمع معارلم ، وهو ما جعل علامة للطرق والحدود ، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الآيات لجار الله الزمخشري أنشدتها في الكشف عند تفسير قوله تعالى : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، ونسبها إلى بعضهم ، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره ، يقول : يا الله ، يا مبصر الخفيات حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل ، اغفر لي الخ والبهيم : المظلم ، لانهايم الأشياء فيه ، والليل أقل تفضيل من الليل وإن كان جامدا ، للبالغة في الظلمة ، والنياط : عرق غليظ منوط بالقلب متصل به عرق دقيقة . والنحر : أسفل العنق ، والمخ : ما في وسط العظام ، والنحل : جمع ناحل أي دقيق ، والفرطات : ذنوبه التي قرطت منه ، وما كان : مفعول اغفر ، والزمان الأول : زمن الشباب . وقد تمثل المؤلف بهذه الآيات كما تمثل الزمخشري

« ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه »، ومستعتب : مصدره يمي معناه طلبه الرضا، تقول : استعبت فلانا : إذا طلبت منه العتي ، وهي الرضا ، يريد : ليس بعد الموت من استرضاه ، لأن الأعمال بطلت وانقضت زمانها ، وما بعد الموت دار جزاء لا دار عمل »

وقال أبو العتاهية :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا  
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم مغبر  
الحيز بما ليس يخفى هو المعروف والشر ذو المنكر  
والوعد الموت وما بعده الحشر فذاك الموعد الأكبر  
لا تخز إلا غر أهل الثقي غدا إذا ضمهم المحشر  
ليعلمن الناس أن الثقي والبر كانا خير ما يذخر  
عجبت الإنسان في غيره وهو غدا في قبره يقبر  
مأبال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر  
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر  
وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

وأما قوله : يا عجباً للناس لو فكروا... ألييت ، فأخوذ من قولهم : الفكرة مرآة تريك حسنك من قبحك ؛ ومن قول لقمان لابنه : يا بني ، لا ينبغي لعاقل أن يخفى نفسه من أربعة أوقات ، فرقت منها يناجي فيه ربه ، ووقت يحاسب فيه نفسه ، ووقت يكسب فيه لمعاشه ، ووقت يخفى فيه بين نفسه وبين لذتها ليستعين بذلك على سائر الأوقات . وقوله : وعبروا الدنيا إلى غيرها... ألييت - مأخوذ من قول الحسن البصري : اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها .

وقوله : الخير مما ليس يخفى ... ألبيت ، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس <sup>(١)</sup> مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ <sup>(٢)</sup> وصارَ الناسُ هكذا ، وشَبَّكَ بين أصابعِهِ ؟ فقلتُ : مُرَّتِي ، يا رسول الله ، فقال : تُخَذُّ مَاعَرَفَتَ وَدَعَّ مَا أَنْكَرْتَ وَعَلَيْكَ بِخَوْصَةِ نَفْسِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَّهَا <sup>(٣)</sup> ... وقوله : لِيَعْلَمَنَّ النَّاسُ ... ألبيت ، مأخوذ من حديث أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا حُشِرَ الناسُ في صعيد واحد نادى مُنَادٍ من قِبَلِ الْعَرْشِ : لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ الْمَوْقِفِ مَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ الْيَوْمَ ؟ لِيَقُمَ الْمُتَّقُونَ ، ثم تلا رسول الله : إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ، وقد تقدم صدرَ باب البر أن الأَخطَلَ سَبَقَ أبا العتاهية في هذا بقوله :

وإذا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ  
وقوله : ما بال من أوله نطفة ... ألبيت ، مأخوذ من قول علي رضي الله عنه : وما ابنُ آدمَ والفَخْرُ وإنما أَوَّلُهُ نطفة وآخِرُهُ جيفة ، لا يَرْزُقُ نَفْسَهُ ، وَلَا يَدْفَعُ حَتْفَهُ ، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه يقول : أيها الناس إنما خُلِقْتُمُ الْأَبَدَ ، وَلَكِنكُمْ تُنْقَوْنَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ... وقال مالك بن دينار <sup>(٤)</sup> :

- 
- (١) أصل الحُثَالَة : ما يَبْقَى فِي الْإِنَاءِ مِنْ رَدَى الطَّعَامِ ، وَحُثَالَةُ التَّمْرِ : أَرْدُوهُ وَمَا لَاحِيزٍ فِيهِ ، ضَرَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ لِرِذَالِ النَّاسِ وَشَرَارِهِمْ  
(٢) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ : اخْتَلَطْتَ وَذَهَبَتْ بِهِمْ كُلُّ مَذْهَبٍ ، وَمَرَجٌ : كَطَرِبٌ ، أَمَّا مَرَجُ الْمَاءِ بِمَعْنَى سَالٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَانِعٌ ، فَبَابُهُ نَصْرٌ .  
(٣) خَوْصَةٌ : تَصْغِيرُ خَاصَةٍ ، بِأَمْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ وَبِحَذَرِهِ مِشَارَكَةَ الْعَامَّةِ فِي أَعْمَالِهَا  
(٤) كَانَ عَالِمًا زَاهِدًا لَا يَأْكُلُ إِلَّا مَنْ عَمِلَ يَدُهُ مَاتَ سَنَةً إِحْدَى وَثَلَاثِينَ بِالْبَصْرَةِ .

جاهدوا أهواءكم كما يجاهدون أعداءكم... وقال على رضى الله عنه : مَنْ سَرَّهُ  
الغنى بِلأَمالٍ ، والعزُّ بِلأَسْطانٍ ، والكثرةُ بِلأَشبيرةٍ ، فليُخْرِجْ مِنْ دُلِّ  
مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ ، فَإِنَّهُ وَاجِدُ ذَلِكَ كُلِّهِ ... وقال يزيد بن الصَّقِيلِ العَقِيلِيُّ -  
وكان يَسْرِقُ الْإِبِلَ فِي عَهْدِ بَنِي أُمَيَّةٍ ثُمَّ تَابَ وَوُقِّتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - :

أَلَا قُلْ لِأَرْبَابِ الْخَائِضِ أَهْمِلُوا      فَقَدْ تَابَ يَمَّا تَعْلُونَ يَزِيدُ  
وإنَّ امْرَأَةً يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا      تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ

« الخائض جمع مخاض - ومخاض واحد خِلْفَةٌ - الناقة استبان حملها - فخائض  
جمع الجمع، ومخاض : جمع على غير واحد، كما تقول : امرأة ونساء، وقوله : أهملوا :  
أى أسرحووا إبلكم - » وفي هذا الشعر :

إذا ما اللَّيْثُ أَخْطَأَ نَكَ وَصَادَفَتْ      حَمِيمَكَ فَأَعْلَمَ أَنَّهَا سَتَعُودُ

وفي معنى هذا البيت ما يروى عن محمد بن الحنفية - ابن الإمام على - أنه  
كان يقول - إذا مات له جارٌّ أو حميم - : « أُولَى لِي ، كِدْتُ وَاللَّهِ أَكُونُ  
السَّوَادَ الْمُخْشَتَرَمَ ... » « أُولَى لِي ، مثله : أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى ، وهى  
كلمة تهديد ووعد ، معناها : قاربك ما تكره ، أو الشرُّ أقرب إليك ، والسوادُ :  
شخص الإنسان وكلُّ شيء من متاع وغيره ، وفي الحديث : إذا رأى أحدكم سواداً  
بليس فلا يكن أجبن السَّوَادِينَ ، فإنه يخافُكَ كما تخافُهُ ، والمخترم - من اخترمته  
المنية : أخذته من بين أصحابه ... »

وقال أبو نواس :

ولقد نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بِدَلْوِهِمْ      وَأَسْمَتُ سُرْحَ اللَّهِوْ حَيْثُ أَسَامُوا  
وبلغتُ ما بَلَغَ امْرُؤٌ بِسَبَابِهِ      فَإِذَا عُصَاةَ كُلِّ ذَاكَ أَقَامُ

« أُنَام كَسْلَام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلوهم يقال : نهزت بالدلو في البئر : إذا حركتها لثمتلي... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس :  
لقد عَوَيْتُ زَمَانًا مَعَ الْغَوَاةِ وَلَهَوْتُ كَمَا لَهَوُوا وَخَلَعْتُ عِذَارِي كَمَا خَلَعُوا عِذَارَهُمْ  
وَبَلَغْتُ شِبَابِي الْمُبَالِغَ ، مِنَ اللُّهُوِّ وَالتَّبَغْيِ وَالْفَسَادِ ، وَأَتَلَّمْتُ أَقْصَى مَا يَشْتَهَى مِنْ شَهَوَاتِ  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَوَجَدْتُ كُلَّ ذَلِكَ ضَلَالًا فِي ضَلَالٍ وَعَبَثًا فِي عَبَثٍ وَظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا  
فَوْقَ بَعْضٍ ، وَمَا جَنَيْتُ مِنْ وِرَائِهِ إِلَّا الْمُرَّ وَالْحَنْظَلَ ، مِنَ الْأَدْوَاءِ وَالْأَسْقَامِ وَالْبُعْدِ  
عَنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ وَقُدْسِيَّتِهِ ، وَكُلَّ مَا تُورِثُهُ الْمَعَاصِي مِنَ الدَّنَسِ وَالطَّبَعِ وَالرَّيْنِ ، وَإِنَّ  
فِي ذَلِكَ لِعِبْرَةً لِمَنْ أَعْتَبَرَ »

وقال هشام بن عبد الملك - وهو من الآيات المنفردة القائمة بنفسها - :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعِصِ الْهُوَى قَادَكَ الْهُوَى

إلى بعض ما فيه عليك مقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلبة للسيدة عائشة رضي الله عنها : مَنْ أَرْضَى  
اللَّهُ يَسْخِطِ النَّاسَ ، كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ يَسْخِطِ  
اللَّهُ ، وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ ، وَمَنْ أَصْلَحَ سُرِيرَتَهُ ، أَصْلَحَ اللَّهُ عِلَانِيَتَهُ . وفي  
حديث الدعاء : لَا تَيْكُنْ إِلَى نَفْسِي طَرَفَةً عَيْنٍ فَأَهْلِكَ ... تَوَلَّانا اللَّهُ بِرِعَايَتِهِ  
الصَّمَدَانِيَّةُ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ...

## الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشكر بابٌ له مكانته فيما خلّفوه لنا من آدابٍ وذخائرٍ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لرحماً ماسّةً وقرابةً قريبةً، ومن ثم جعلناه رِدْفَآله، وأفردنا له هذا الباب .

### معنى الشكر

والشكر : مُقَابَلَةُ النعمة بالقول والفعل والنية ، فُتُنِّي الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ عَلَى الْمُنْعِمِ بِلِسَانِهِ ، وَيُذَيَّبُ نَفْسَهُ فِي طَاعَتِهِ ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُوَالِيهَا ؛ وَهُوَ مِنْ شَكَرَتِ الْإِبِلَ تَشْكُرُ : إِذَا أَصَابَتْ مَرَعًى فَسَمِنَتْ عَلَيْهِ . وَإِذَنْ يَكُونُ مَعْنَى شُكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ : أَنْ يَحْهَدَّ الْعَبْدُ جُهْدَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَيُؤَدِّي مَا وَظَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ عَزَّ وَتَقَدَّسَ ... وَقَدْ جَاءَ الشُّكُورُ وَصْفًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَزْكُو عِنْدَهُ الْقَلِيلُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَيَضَاعِفُ لَهُمُ الْجَزَاءَ ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ : الْمَغْفِرَةُ ... هَذَا ؛ وَإِنْ فَرَّقْنَا بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ ، فَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ يَدٍ ، وَالْحَمْدُ عَنْ يَدٍ وَعَنْ غَيْرِ يَدٍ وَأَنْشَدُوا لَأَبِي نُحَيْلَةَ <sup>(١)</sup> :

---

(١) شاعر إسلامي ، وكان أسود ، والرجز أغلب عليه من الشعر ، وسمى أبا نُحَيْلَةَ لِأَنَّ أُمَّهُ وَلَدَتْهُ تَحْتَ نَخْلَةٍ فَهُوَ اسْمُهُ ، وَيَمْدَحُ بِهَذَا الشَّعْرُ مُسْلِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا :  
أَتَسَلَّمَ إِنِّي يَا ابْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ      وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا قَمَرِ الْأَرْضِ  
وقوله : فَتَبَّهْتُ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا : أَخَذَهُ أَبُو تَمَامٍ فَكَشَفَ مَعْنَاهُ وَحُسْنَهُ بِالصَّنَاعَةِ

شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حُبْلٌ مِنَ الثَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي  
فَنَبَّهْتَ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ  
قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ يَدٍ ، أَلَا  
تَرَاهُ يَقُولُ : وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي ؟ أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً  
يَشْكُرُكَ عَلَيْهَا ... وَيُقَالُ : شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ ، وَبِاللَّامِ أَفْصَحُ ، وَتَقُولُ : شَكَرْتُ  
نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَلِنِعْمَتِهِ ، وَتَشْكُرُ لَهُ بِلَاءَهُ ، كَشَكَرَهُ ، وَتَشْكُرُ لَهُ مِثْلَ شُكْرٍ لَهُ ،  
هَذَا خِلَاصَةٌ مَا قَالَهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ . وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ فِيمَا قَالَ ، إِذْ أَطَالَ : الشُّكْرُ :  
عِرْفَانُ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْ اللَّهِ الْمَجَازَاةُ ، وَأَصْلُ الشُّكْرِ : تَصَوُّرُ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارُهَا  
وَحَقِيقَتُهُ : الْعَجْزُ عَنِ الشُّكْرِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَالشُّكْرُ الْعُرْفِيُّ : صَرْفُ الْعَبْدِ  
جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ  
وَأَعْطَاهُ لِأَجَلِهِ ، كَصَرْفِ النَّظَرِ إِلَى مَصْنُوعَاتِهِ ، وَالسَّمْعِ إِلَى تَلْقَى إِنْذَارَاتِهِ ،  
وَالذَّعْنِ إِلَى فَهْمِ مَعَانِيهَا ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ :  
وَتَوْفِيَّةُ شُكْرِ اللَّهِ صَعْبٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُشْنِ بِالشُّكْرِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا عَلَى إِبْرَاهِيمَ  
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ  
يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَعَلَى

فَقَالَ مِنْ آيَاتِ يَمْدَحِهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْوِيَاتُ :

لَقَدْ زِدْتُ أَوْضَاحِي امْتِدَادًا وَلَمْ أَكُنْ

بِهِمَا وَلَا أَرْضِي مِنَ الْأَرْضِ بِجَهْلَا

وَلَكِنْ أَيْادٍ صَادَفَتْنِي جِسَامُهَا أَغَرَّ فَأَوْفَتْ بِي أَغَرَّ مُجْجَلَا

وَالْأَوْضَاحُ جَمْعُ وَضَحٍ وَهُوَ الْبَيَاضُ ، وَالْبِهِمُ : الْأَسْوَدُ ، وَالْجَهْلُ : أَرْضُ بِلَا أَعْلَامٍ  
، وَهَذَا عَلَى الْمَثَلِ ،

نُوح عليه السلام إذ قال: إنه كان عبداً شكوراً... ونزيد هذا تأكيداً وتبييناً  
 بإيراد كلمة الراغب في الذريعة، قال الراغب - مع شيء من التصرف - :  
 الشكر تصورُ المنعم عليه النعمة، وإظهارُها، وإيضاده الكفرُ، وهو - أى الكفر -  
 من كَفَرَ الشيء : غَطَاه ، ودَابَّةٌ شكور : أى مُظْهِرَةٌ بِسْمَنِهَا لِإِسْدَاءِ صَاحِبِهَا  
 إِلَيْهَا ؛ وقيل : أصله من عَيْنُ شَكَرَى : أى مُتَمَلِّئَةٌ ، فالشكر هو : الامتلاء من  
 ذكر المنعم عليه المُنْعِم ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغُ من الحمد ، لأن الحمد  
 ذِكْرُ الشئ بصفاته ، والشكر : ذكر الشئ بصفاته وبنعمه ، فالشكر على ثلاثة  
 أضربٍ : شكرٌ بالقلب ، وهو تصورُ النعمة ، وشكرٌ باللسان ، وهو الثناء على المنعم ،  
 وشكرٌ بسائر الجوارح ، وهو مكافأته بقدر استحقاقه ؛ وهو أيضاً باعتبار الشاكر  
 والمشكور : ثلاثة أضرب : شكر الإنسان لمن هو فوقه ، وذلك يكون بالخدمة  
 والثناء والدعاء ، وشكرٌ لنظيره ، وهو بالمكافأة ، وشكر لمن هو دُونَهُ ، وهو  
 بالثواب والإفضال . وشكرُ العبد لله سبحانه هو : معرفتهُ نعمته وحِفْظُ جوارحه  
 بمنعها من استعمال مالا ينبغي . ثم قال : وشكرُ المنعم في الجملة واجبٌ بالعقل ،  
 كما هو بالشرع ، - وهذه مسألة كلامية انظرها في كليات أبي البقاء ، - وأوجبها  
 شكرُ الباري تعالى ، ثم شكرُ مَنْ جعله سبيلاً لوصول خيرٍ إليك على يده ، ولهذا  
 قال عليه الصلاة والسلام : لا يشكرُ اللهَ مَنْ لم يشكرِ الناسَ ؛ قال : وقال  
 بعضهم : كلُّ نعمةٍ يُمكنُ شكرُها إلا نعمةَ الله ، فإنَّ شكرَ نعمته نعمةٌ منه ،  
 فيحتاج العبد أن يشكرَ نعمةَ الشكر ، كما شكر أصلَ النعمة ، وهكذا حتى يُؤدَّى  
 ذلك إلى مالا يتناهى ، ومن هذا أخذ الشاعر الذى يقول :

إذا كان شكرى نعمةَ الله نعمةً      علىَّ له فى مثْلِها يجبُ الشكرُ  
 فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بفضله      وإن طالتِ الأيامُ وانْقَصَلَ العمرُ



ولهذا قيل: غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالتعجزِ عنه، بل قد قال الله تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وأيضا فكلُّ ما يفعلُ الله بعبده فهو نعمة منه، وإن كان بعض ذلك يُعَدُّ بليَّةً، ولهذا قال بعض الصالحين: يامن منعه عطاءً وبلاؤه نعمة<sup>(١)</sup>... ولأجل صعوبة شكر الله قال عز وجل: وقليل من عبادي الشكور...

## عقرياتهم في الشكر

### حثُّهم على الشكر

قال حكيم: إذا قُصِرَتْ يَدُكَ عن المكاوِفة فليَظُلْ لِسَانُكَ بالشكر؛ وقالوا: النِّعم إذا شُكِرَتْ قَرَّتْ وإذا كُفِرَتْ قَرَتْ. والأصل في هذا قوله تعالى: وإذا تَأَذَّنْ رَبُّكُمْ لئن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ولئن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ... وقالوا: النِّعمُ وحشيَّةٌ فاشْكُروها بالشكر؛ يقال: شكَل الدابة يشكُلها: شدَّ قوائمها بجمل، واسم ذلك الحبل: الشِّكال؛ وقال ابن المقفع: استَوْثِقُوا عُرَى النِّعم بالشكر. «العُرَى جمع عُروة، والعروة في الأصل تقول للعروة الدَّلْو والكوز ونحوه، أى مقبضه. ولعروة المازدة أى أذنها. ولعروة القميص: مدخل زرته، ولعروة النَّبات: ما بقى له خضرة في الشتاء ترعاها الإبل إذا أجذب الناس، ومن.

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية في النفاسة، وقديما قرأت كلاما لا أذكر لفظه بيدان. معناه لا يزال عالقا بذهني، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما إليهما، شرونة، ولكنه في الحقيقة نعمة، إذ لو أعطى ما يشتهي من المال أو الجاه لساءت حاله وكان هذا المال أو الجاه مما يفسده لئما يصلحه ومن ثم حثوا على أن يرضى الإنسان بما أعطى ويعتد ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله إياه مهما كان قليلا هو الخير كل الخير في الواقع ولا خير في غيره ولا صلاح...

هذا استعاروا العروة لكل ما يلجأ إليه ويُعَوَّل عليه ويوثق به ويُتَمَسَّك؛ فيقال لقادة الجيش : العُرى ، والصحابة رضوان الله عليهم : عُرى الإسلام ، وقوله تعالى : فقد آسَمَسَكَ بالعروة الوثقى لا انفصام لها ؛ شَبَّه ما يُعْتَصَم به من الدين بالعروة التي يُتَمَسَّك بها ويلجأ إليها ، والوثقى : المُحْكَمَة ، فقول ابن المقفع : استوثقوا : أى أحكموها ، وقال البهترى :

يزيد تفضلاً وأزيد شُكراً      وذلك دأبه أبداً ودأبى  
وقال عمرو بن مَسْعَدَة : لا تَصْحَب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك  
أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفرائد نعمه . وقال يحيى بن أكرم : كنت  
عند المأمون فأنى برجل تُرْعِد فرائضه ، فلما تَئَلَّ بين يديه قال المأمون :  
كفرتَ نعمتى ولم تشكر معروفى ! فقال : يا أمير المؤمنين ، وأين يقعُ شُكرى  
فى جُنب ما أنعم الله بك علىَّ ؟ قال يحيى : فنظر إلى المأمون وقال مُتَمَثِّلاً :  
ولو كان يَسْتَعْنى عن الشُكر ماجدٌ      لرفقة نذر أو عُلُو مكان  
لما أمرَ الله العبادَ بِشُكره      فقال : اشكروا لى أيها الثقلان  
ثم التَمَّت إلى الرجل وقال : هَلَّا قلت كما قال أصرم بن حُميد :  
مَلِكْتِ حَمْدِي حَتَّى إِنِّى رَجُلٌ      كُلِّى بِكُلِّ نِئَاءٍ فَيْسَكِ مُشْتَغِلٌ  
خَوَّلْتِ شُكْرِي لِمَا خَوَّلْتِ مِنْ نِعَمٍ      فُحِرْتُ شُكْرِي لِمَا خَوَّلْتِنى خَدَمٌ  
وقريب من هذا قول أبى الفتح البُستى :  
لئن عَجَزْتُ عن شُكر بَرِّكَ قُوَّتِي      وأقوى الوَرَى عن شُكر بَرِّكَ عَاجِزُ  
إِنَّ نِئَانِي وَاعْتِقَادِي وَطَاقَتِي      لَأَفْلَاحٍ مَا أُولِيَتْهَا مَرَاكِزُ  
ومن أروع ما قيل فى الشُكر قول البُحترى :  
فَلَوْ كَانَ لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يَمِينُ      إِذَا مَا تَأَمَّلَهُ النَّاضِرُ

لَبَّيْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ فَذَنَلَمْ أَنِّي أَمْرُو شَاكِرٍ  
ولكنه ساكنٌ في الضمير يُحَرِّكُهُ السَّائِرُ  
وقال عبدُ الله بنُ الزَّيْبِرِ الأَسَدِيُّ في عمرو بن عثمان بن عفان - لما زاره فَنَظَرَ  
عمرو فرأى تحت ثيابه ثوباً رثناً ، فدعا وكيله وقال : اقترض لنا مالا ، فقال : هيات  
ما يُعطينا التُّجَّارَ شيئا ، قال : فأرجعهم ماشوا : فاقترض له عشرة آلاف فوجه  
بها إليه مع ثياب « التخت : وعاء تصان فيه الثياب » - :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَبْتُ مَنِيَّتِي أَيَادِي لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتْ  
قَتَّى غَيْرُ مُحْجُوبٍ الْغَنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إِذَا النُّعْلُ زَلَّتْ  
رَأَى خَلَّتْ مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَذَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ  
د قوله : سأشكر : فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل  
وتأكيده ولا تريد التنفيس فيه . ولم تمن : لم يتبعها من ، وإذا النعل زلت :  
يريد : إذا زلت قدمه في مزالق الدهر فلا يجد مركبا يقيه مصرع السوء  
ولا متكئا يعتمد عليه في نهضته ، والحلة : الحاجة ، وقوله من حيث يخفى  
مكانها : أي من حيث لا يدركها لحاظ غيره ، وفكانت قذى عينيه : أبرع كلمة  
في معنى الاهتمام بالحاجة ...

وقال ابن عَنقَاءُ الْفَزَارِيُّ في عُمَيْلَةِ الْفَزَارِيِّ - وكان قد وصله بنصف ما !  
لما رأى من رَثَاةِ حَالِهِ ، وكان عَمَيْلَةُ عَلامًا جَمِيلًا - :

رَأَى عَلَى مَابِي عُمَيْلَةَ فَاشْتَكَى إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَرَ  
دَعَانِي فَأَسَانِي وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أَلَمْ عَلَى حِينٍ لَا بَدْوٌ يُرْجَى وَلَا حَضَرُ  
عُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَارْفَعَا لَهُ سَيِّمَاءُ لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصَرِ  
كَانَ الشَّرِيًّا عُلِقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشُّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرُ

إِذَا قِيلَتِ الْعُورَاءُ أَغْضَى كَأَنَّهُ      ذَلِيلٌ يُبَلَا ذُلٌّ وَلَوْ شَاءَ لَا تَنْصَرُّ  
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدُ اسْتُعِيرَتْ ثِيَابُهُ      تَرَدَّى رِداءً وَاسِعَ الذَّلِيلِ وَأَنْزَرُ  
فَفَلَتَ لَهُ خَيْرًا وَأَثْنَيْتُ فِعْلَهُ      وَأَوْفَاكَ مَا أَسَدَيْتَ مَنْ ذَمَّ أَوْ شَكَرَ

« السِّمَا والسِّمِيَا والسِّمَاء والسِّمِيَاء : العلامة يُعرف بها الخير والشر ،  
وقوله : لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصَرِ يريد : لَا تُوْذِيهِ بِلِ يُسْرِثُهَا ، وَالْهُرْيَا : مِنَ الْكُوكَبِ  
كَثِيرَةِ الْإِنْجَمِ مَعَ صَغَرِ مَرَاتِهَا ، وَالشَّعْرَى يَرِيدُهَا الشَّعْرَى الْعَبُورُ ، وَهُوَ كُوكَبُ  
نِيرٍ خَلْفَ الْجُوزَاءِ يُطْلَعُ فِي صَبِيحِ الْحَرِّ . وَالْعُورَاءُ : الْكَلِمَةُ الْقَبِيحَةُ ،  
وَأَغْضَى : أَطْبَقَ أَجْفَانَهُ حَيَاءً وَنَبَلًا ؛ وَاسْتُعِيرَتْ ثِيَابَهُ : كُنِيَ بِذَلِكَ عَنْ  
قَلَّةِ الْإِجَادِ »

### العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أَيَادِي لَا أَسْطِيعُ كُنْهَ صِفَاتِهَا      وَلَوْ أَنَّ أَعْضَائِي جَمِيعًا تَكَلَّمُ  
وَقَالَ آخَرُ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَثْبِتٍ شَعْرَةٌ      لِسَانًا يَبْكُ الشُّكْرَ فِيكَ لَقَصَّرا  
وَقَالَ بَعْضُهُمْ : شُكْرِي لَا يَقَعُ مِنْ نِعْمَةِ الظَّاهِرَةِ : مَوْقِعِ النَّقْطَةِ مِنَ الدَّائِرَةِ .

وَقَالَ أَبُو نُوَّاسٍ :

قَدْ قُلْتُ لِلْعَبَاسِ مُعْتَذِرًا      عَنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفًا  
أَنْتَ أَمْرٌو جَلَلْتَنِي نِعْمًا      أَوْ هَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفا  
فَالْيَكِ مِنِّي الْيَوْمَ تَقْدِمَةٌ      تَلْقَاكَ بِالتَّصْرِيحِ مُنْكَشِفًا  
لَا تُسَدِّدِينَ إِلَى عَارِيَةٍ      حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَاسَلَفَا

«شكريه : شكري إياه» وقال المتنبي :

ولم تَمَلِّ تَفْقَهُدَكَ الْمَوَالِي      ولم نَذُمَّمُ أَيَادِيكَ الْجِسامَا  
ولكنَّ الْغُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ      بأَرْضِ مُسَافِرٍ كِرَةِ الْمُقَامَا

«الموالي جمع ولي : العبد، وتروى الموالى : أى الذى يلى بعضه بعضاً، والآيادى : النعم ، والجسام : العظام ، وقوله ولكن الغيوث ... البيت ، فالغيوث جمع غيث : المطر ، وتوالت : تتابعت ، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثر عليه المطر ملّ إقامته واحتباسه ، لأجل المطر ، كذلك نحن ، عطايك تتوالى علينا وأنت قيدتنا يا حسناك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أتملّ نعمتك ، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر...» وقال البُحْتَرى وأبعد:

أُحْجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَدَتْ      ما يَبْنِنَا تِلْكَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ  
وَقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى لَأَنَّى      مُتَخَوِّفٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِقَاءُ  
صِلَّةٌ عَدَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ طِيعَةٌ      عَجَبٌ، وَيَرْ رَاحَ وَهُوَ جَفَاءُ  
وقال أيضاً :

إِهْبَاءُ بِالْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبٍ      أَقْصَرُ فَمَالٍ فِي جَدْوَالِكَ مَنْ أَرَبِ  
لَا أَقْبِلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لَا يَقُومُ بِهِ      شُكْرِي وَلَوْ كَانَ مُسَدِّدِهِ إِلَى أَبِي  
ومن ألفاظهم في ذلك : شُكْرُهُ شَأْوٌ بَعِيدٌ لَا تَبْلُغُهُ أَشْوَاطِي ، وَلَا أَتْلُ فِي  
التفريط فيه يافراطي « الأشواط جمع شوط : الجرى مرّة إلى غاية تقول : عدا - جَرَى - شوطاً ، أى طَلَقَا » وعندى له مَبَارٌ أُعْجِزُنِي شُكْرُهَا ، كما عَوِزُنِي حَضْرُهَا  
« مَبَارٌ جمع مبرة » وقال بعض الشعراء في الصاحب بن عباد :

وَفَدْنَا لِلشُّكْرِ كَافِي الْكُفَاةِ      وَتَسْأَلُهُ الْكَفَّ عَنْ بَرِّنَا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفِّيت ، فإن الصاحب صار لا يُعْطَى شيئاً ...

## من لا تخفى أياديته

قال نصيب<sup>(١)</sup> :

فَعَا جُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ      وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ  
وقال بعضهم :

وَكَيْفَ بَكَفَرَانِي صَنَائِعُهُ الَّتِي      إِذَا جُحِدَتْ يَوْمًا أَقَرَّ بِهَا جِلْدِي  
ومثله :

وَإِذَا سَكَتُ فَإِنَّ أَنْطَاقَ مِنِّي      عَنِّي يَدُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ  
وقالوا في أمثالهم : لسانُ الحال أفصح من لسان الشكر ... ومن كلمة  
للجاءظ : نحن نُزَخِرُفُ بِاللِّسَانِ ، وَالنَّاسُ يَقْضُونَ بِالْعِيَانِ ، وَفِي أَمْرِنَا أَثَرٌ  
يَنْطَاقُ عَنَا ، وَيَتَكَلَّمُ إِذَا سَكَتْنَا ...

## الشكر بقدر الاستحقاق

وَعَتَبُهُمْ مَنْ شَكَرُوهُ وَلَمَّا يَنْتَوِجِبْ

قال علي بن أبي طالب : اثناء من غير الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل وِذَانَ وَكَانَ عَبْدًا لِرَجُلٍ مِنْ كِنَانَةَ هُوَ وَأَهْلُ  
بَيْتِهِ ، وَكَانَ أَهْلُ الْبَادِيَةِ يَدْعُوْنَهُ النَّصِيبَ ، تَفَخُّمًا لَهُ وَكَانَتْ أُمُّهُ أُمَةُ سُودَاءَ وَكَانَ شَاعِرًا  
فَقَلَّ نَصِيحًا مُقَدِّمًا فِي النَّسِيبِ وَالْمَدِيحِ وَكَانَ أَثِيرًا عِنْدَ الْمُلُوكِ ، وَهَذَا الْبَيْتُ مِنْ أَيْيَاتِهِ  
فِي سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَوَّلِ الْآيَاتِ :

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقِيَتْهُمْ      تَفَازَاتٍ أَوْشَالٍ وَمَوْلَاكَ قَارِبُ  
قَفُّوا خَبْرُوْنِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنِّي      لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانٍ طَالِبُ  
فَعَا جُوا ... ..

وقفا : أي خلاف والعرب تقول : لقيت فلانا قفا العقبية أو الثانية : أي خلفها ، ومولاك  
يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أوشال : موضعا بعينه ، والقارب  
في الأصل : طالب الماء ليلا ،

الاستحقاق عني وحسب، وقال رجل لابن الإعرابي: إن نضيباً — الشاعر الذي تقدم ذكره — يقول: إنما تمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إن العرب تقول: على قدر ريحكم تمطرون... وقال صاحب بن عبّاد:

وإذا الصديق أدام شكري للتي لم آتيا إلا على التقدير  
أيقنت أن العتب باطن أمره فسكتُ نحتشما على التفسير

### من لم يردغه خوفه عن الشكر

بعث أبو جعفر المنصور إلى شيخ من بطانة هشام بن عبد الملك، فاستحضره وسأله عن تدبير هشام وأحواله، فأقبل الشيخ يقول: قتل رحمه الله، وقال يوم كذا رحمه الله، فقال المنصور: قم لعنك الله، أخطأ بساطي وترحم على عدوي! فقال الشيخ: إن نعمة عدوك لقلادة في عنق لا ينزعها إلا غاسلي، فقال المنصور: أرجع إلى حديثك، فإني أشهد أنك غرس شريف وابن حرة... ولما قتل مسلمة بن عبد الملك يزيد بن المهلب أمربان يحضر الشعراء ليقولوا في ذلك، فلم يألوا أن ذكروه بأقبح ما قدروا عليه، ما خلا رجلاً من بني دارم فإنه قال: لا أذم رجلاً لا أملك ريعاً ولا مالاً ولا أثاثاً إلا منه ولو قُطعت إرباً إرباً<sup>(١)</sup>، ولقد رثيته بأحسن ما رثي به رجل. وأنشد أحياناً رائعة — فجراه مسلمة خيراً وقال: إذا اضطنّع فليضطنّع مثل هذا... أقول: لا أدري: أبعوق هؤلاء البررة الأوفياء الشجعان الصرخاء يُعجب المرء، أم بأولئك الملوك الذي يقدرون هذا الوفاء ويطربون له ولو كان في جانب أعدائهم! فلهذا ذرأ أولئك الناس الذين شرفوا الإنسانية بهذه الخلائق الكريمة النبيلة، بينما غيرهم من أهل النفاق والجبن والنذالة قد كَلَمُوا<sup>(٢)</sup> الإنسانية

(٢) كَلَمُوا: جرحوا

(١) إرباً إرباً: عضوا عضوا

وهووا بها إلى الحضيض الأوهده...

شكر من همّ بإحسان ولم يفعل  
وقالوا : من لم يشكرك على حسن النية ، لم يشكرك على إساءة العطية .  
وقال شاعر :

لأشكرنك معروفاً فتمت به إن أهيمالك بالمعروف معروف  
ولا أذمك إن لم يمتضيه قدره فالشيء بالقدّر المحتوم مصروف

### ثقلُ الشكر والحمد

وقال أبو تمام في ثقل الشكر والحمد من أبيات له في الحسن بن وهب :  
والحمدُ شهْدٌ لا ترى مُشْتارَه      يَجْنِيهِ إِلَّا مِنْ نَقِيعِ الْخَنْظَلِ (١)  
غُلٌّ لِحَامِلِهِ وَيَحْسِبُهُ الَّذِي      لَمْ يُوْهِ عَاتِقُهُ خَفِيفَ الْمَحْمِلِ (٢)  
وقيل لبعض الصالحين : مالك لا تطالب الدنيا ؟ فقال : من خاف السؤال  
عن الشكر طابت نفسه عن المال ...  
وقال أبو العتاهية :

ما فاتني خيرُ امرئٍ وَضَعْتُ      عَنِّي يَدَاهُ مَوْوِنَةَ الشُّكْرِ

ترغيبهم في الشاء ووصفهم إياه بالبقاء  
وتفضيلهم إياه على المال والعتاء

قال عمر بن الخطاب لابنة هريم بن سنان مدوح زهير بن أبي سلمى :

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل في شمعها  
(٢) الغل : القيد ، والمحمل : الحمل



ما وَهَبَ أبوكَ لَزُهَيْرٍ ؟ فَعَالَتْ : أَمْوَالاً فَتِيَتْ وَأَنْوَاباً بَلِيَتْ وَأَشْيَاءَ انْتَسِيَتْ ،  
فَقَالَ الْفَارُوقُ : لَكِنْ مَا أُعْطَا كَمُوهُ زُهَيْرٌ لَا يَفْنَى وَلَا يُنْسَى ... وَكُتِبَ  
أَرْسَطُو إِلَى الْإِسْكَانْدَرِ الْمَقْدُونِيِّ : إِنَّ كُلَّ عَقِيلَةٍ <sup>(١)</sup> يَأْتِي عَلَيْهَا الدَّهْرُ ، فَيُخْلِقُ  
أَثَرَهَا وَيُمِيتُ ذِكْرَهَا ، إِلَّا مَا رَسَخَ فِي الْقُلُوبِ ، مِنْ الذِّكْرِ الْحَسَنِ يَتَوَارَثُهُ  
الْأَعْقَابُ . وَقَالُوا : فِي الشَّيْءِ الْبَاقِي عَلَى الدَّهْرِ ، خَلْفٌ مِنْ نَفَادِ الْعَمْرِ .  
قَالَ الشَّاعِرُ :

وَإِنِّي أَحِبُّ الْحُلْدَ لَوْ اسْتَطِيعَهُ      وَكَالْحُلْدِ عِنْدِي أَنْ أَيْتَ وَلَمْ أَلَمْ  
وَقِيلَ لِزُبَيْرٍ جَهْرَ حِينَ كَانَ يُقْتَلُ : تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ نَذَرَهُ ، فَقَالَ : الْكَلَامُ  
كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ إِنْ أَمَكْنِكَ أَنْ تَكُونَ حَدِيثًا حَسَنًا فَافْعَلْ .  
وَلَمَّا رَضِعَ الْوَزِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَادُ فِي التَّنَوُّرِ قَالَ لَهُ خَادِمُهُ :  
يَاسِيدِي ، قَدْ صِرْتَ إِلَى مَا صِرْتَ وَلَيْسَ لَكَ حَامِدٌ قَالَ : وَمَا تَنْفَعُ الْبَرَامِكَةَ  
مِنْ صَنِيعِهِمْ ، قَالَ : ذِكْرُكَ لَهُمُ السَّاعَةَ ، فَقَالَ : صَدَقْتَ ... وَقَالَ شَاعِرٌ :  
لَمَنْ طَبِئَتْ نَفْسًا عَنْ ثَنَائِي فَأَتَنِي      لَا طَيْبُ نَفْسًا عَنْ تَذَاكُلِي عَلَى عُسْرِي  
فَخَلَسْتُ إِلَى جَدِّوَاكَ أَعْظَمَ حَاجَةً      عَلَى شِدَّةِ الْإِعْسَارِ مِنْكَ إِلَى شُكْرِي  
وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :

وَمُحَجَّبٌ حَارَلْتُهُ فَوَجَدْتُهُ      نَجْمًا عَنِ الرَّكْبِ الْعُقَاةِ شَسُوعَا  
أَعْدَمْتُهُ - لَمَّا عَدِمْتُ نَوَالَهُ -      شُكْرِي فَرُحْنَا مُعْدِمِينَ جَمِيعَا  
وَقَالَ عَوْفُ بْنُ حِلْمِ الشَّيْبَانِيِّ :  
قَتَّى يَنْتَهِي أَنْ يَخْدِشَ الدَّمُ عِرْضَهُ      وَلَا يَتَقَى حَدَّ السُّيُوفِ الْبَوَارِ

(١) العقيلة في الأصل: المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل في الكريم من كل شيء.  
في الذوات والمعاني . وعقائل الإنسان : كرام أمواله ، وهو المراد هنا

وقال حكيم: من أحبَّ الشَّاءَ، فليصبر على بَذْلِ العطاء، وليوَظِّنْ نَفْسَهُ  
على الحقوق المُرَّة، وعلى احتمال المؤنة ... وقال الشاعر في هذا المعنى:  
ما أعلم الناس أنَّ الجودَ مكسبةٌ للحمْدِ اكْنَهْ يأتي على النَّسبِ

### تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يُشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفرزدق: أحسن الكميَّات في الهاشميات، فقال: وَجَدَ آجُرًا وَجِصَّةً  
قَبْنِي... وقال شاعر:

ما لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ سُعْرَاءَ  
وقال ابن الرومي:

كُرَّمْتُمْ بِلِجَاشِ الْمُفْتَحَمُونَ لِلدَّحِكِ إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَقَصَّصُوا  
كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ فَأَضْحَتْ وَعُجِمَ الطَّيْرُ فِيهَا تُغَرَّدُ  
وبما كتبه بعضهم: فَتَحَتْ شَيْئُهُ عَلَى الْمُدَّاحِ مُسْتَغْلَقَاتِ الْكَلَامِ ...  
وقال أبو تمام:

مَلِكٌ إِذَا مَا الشَّعْرُ حَارَ يَبْلُدُهُ كَانَ الطَّرِيقَ لِحَافِهِ الْمُتَحِيرِ  
وقال المتنبي:

يَا أَيُّهَا الْمَحْسِنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جَنَّتِي وَالشُّكْرُ مِنْ قَبْلِ الْإِحْسَانِ لَا قَبْلِي  
وقال ابن طباطبا<sup>(١)</sup> فيمن يُستفاد منه ما يمدح به:

(١) ابن طباطبا: هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسيني المصري نقيب الطالبيين  
بمصر، ترجم له ابن خلكان، وطباطبا: لقب جده إبراهيم، وذكره الثعالبي في اليتيمة توفي  
سنة ٣٤٥ هـ

لَا تُنْكِرْنَ إِعْدَاءَنَا لَكَ مِنْطَقًا      مِنْكَ اسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ  
 فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْكُرُ فَعَلَ مَنْ      يَتْلُو عَلَيْهِ وَحْيَهُ وَكَلَامَهُ  
 وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني <sup>(١)</sup> فيمن يليق به مدحه :  
 وَأَرَى الْمَدِيحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِصَةً      فَأَعَاْفَهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِهِ  
 فَإِذَا امْتَدَحْتَ سُؤَالَكَ قَالَ الشَّعْرَى      لَمْ تَرَعْ حَقِّي إِذْ أَبْجَحْتَ بِحَارِمِي  
 ووصف أعرابي رجلاً مجمعا على مدحه : كَأَنَّ الْأَلْسَنَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ  
 لَهُ ، فَمَا تُعَقِّدُ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ . وقال البحرى :  
 وَأَرَى الْخَلْقَ مُجْمِعِينَ عَلَى فَضْلِ \* لِكَ مِنْ بَيْنِ سَيِّدٍ وَمَسُودٍ  
 عَرَفَ الْجَاهِلُونَ فَضْلَكَ بِالْعِ \* لَمْ وَقَالَ الْجَهَّالُ بِالْثَقِيلِ سِدِ  
 وقال ابن الرومى :

يَا مَنْ إِذَا قُلْتَ فِيهِ صَالِحَةً      عِنْدَ عَدُوِّ أَقْرَ وَاعْتَرَفَا  
 وقال البحرى فى المُسْتَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ لِكثْرَةِ فَضْلِهِ :  
 جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ قَتَدَ كَادَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءُ  
 وقال المتنبى :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَتْهُ      بِأَكْثَرِ مَا يُثْنَى عَلَيْهِ يُعَابُ

### حُبُّ الْمُنْعِمِ أَنْ يَرَى أَثَرَ أَنْعَامِهِ

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وصاحب الآيات المشهورة التي أولها :  
 يقولون لى فيك أنقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أتجما  
 توفي سنة ٨٣٦٦ هـ

رُفِعَتْهُ عَلَى عِبدِهِ ... قَالَ الْإِمَامُ الْمَنَاورِي فِي شَرْحِهِ عَلَى الْجَامِعِ الصَّغِيرِ :  
 قِيلَ مَعْنَى يُرَى : مُزِيدُ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالنَّشَاءِ وَالذِّكْرِ لَهُ بِمَا  
 هُوَ أَهْلُهُ ، وَالْعَطْفُ وَالتَّرَحُّمُ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ فَضْلِ مَا عِنْدَهُ وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ  
 اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ ، فَيُرَى أَثَرُ  
 الْجِدَّةِ عَلَيْهِ زِيَّاءً وَإِنْفَاقاً وَشُكْراً ، إِلَى آخِرِ مَا قَالَ ، وَهَكَذَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ  
 يُرَى أَثَرُ لِنِعْمَتِهِمْ عَلَى مَنْ يُنْعِمُونَ عَلَيْهِمْ ، رَوَى أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ عَنْ  
 الْعُتْبِيِّ مَا يَلِي : أَرَادَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى حَاجَةً كَانَ طَرِيقُهُ إِلَيْهَا عَلَى بَابِ الْأَصْمَعِيِّ  
 فَبَدَعَ إِلَى خَادِمٍ لَهُ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ وَقَالَ : إِنِّي سَأَعْرِجُ فِي رَجْعَتِي عَلَى  
 الْأَصْمَعِيِّ ، ثُمَّ سَيُحَدِّثُنِي وَيُضِحِّكُنِي ، فَإِذَا ضَحِكْتُ فَضَعِرَ الْكَيْسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،  
 فَلَمَّا رَجَعَ وَدَخَلَ إِلَيْهِ رَأَى حُبًّا مَكْسُورًا<sup>(١)</sup> الرُّأْسِ وَجَرَّةً مَكْسُورَةَ الْعُنُقِ ،  
 وَقِصَّةً مُشَعَّبَةً ، وَجَفَنَةً أَعْشَارًا ، وَرَأَاهُ عَلَى مُصَلًّى بِالِ وَ عَلَيْهِ بَرْنُكَانٌ<sup>(٢)</sup>  
 أَجْرَدٌ ، فَغَمَزَ غُلَامُهُ أَنْ لَا يَضَعِ الْكَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَدَعْ الْأَصْمَعِيُّ شَيْئًا  
 مِمَّا يُضْحِكُ الشُّكْلَانَ وَالْغَضَبَانَ إِلَّا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَبَسَّمْ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ  
 لِرَجُلٍ يُسَاطِرُهُ : مَنْ اسْتَرْعَى الذَّنْبَ ظَلَمَ ، وَمَزَزَعَ السَّبِيخَةَ<sup>(٣)</sup> حَصَدَ الْفَقْرَ ،  
 إِنِّي وَاللَّهِ لَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَكْتُمُ الْمَعْرُوفَ بِالْفِعْلِ مَا حَفِلْتُ بِنَشْرِهِ  
 لَهُ بِاللِّسَانِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ مَدِيحُ اللِّسَانِ مِنْ آثَارِ الْعِيَانِ ! إِنْ اللِّسَانُ قَدْ  
 يَكْذِبُ ، وَالْحَالُ لَا تَكْذِيبَ ، وَلِلَّهِ دَرُّ نُصَيْبٍ حَيْثُ يَقُولُ :

فَمَا جُورَ فَاثَنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكْتُوا أَنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

ثُمَّ قَالَ : أَعْلِمْتُ أَنَّ نَاوُوسَ أَبْرِيزَ أَمْدَحُ لَابَرُوزَ مِنْ زَهْرٍ لَالٍ سِنَانٍ !

(١) الحب : الخاية ، فارسي معرب (٢) برنكان على وزن زعفران :

ضرب من الأكسية . (٣) أرض سبخة : ذات ملح ونز

وقالت الحكماء : لسان الحال أصدق من لسان الشكر : وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال :

حالي تبوح بما أوليت من حسن فكل ما تدعيه غير مردود  
كلّي هجاء وقتلي لا يحل لكم فما يداويكم مني سوى الجود  
وتالوا : شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال

لا يمدحون إلا إذا أعطوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل : تجدنا بشعرك ، فقال : افعلوا حتى أثني ، ونحوه قول عمر بن ممد بكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت  
وأجرت : قطعت ، يقول : لو قاتل قومي أو أبوا لذكرت ذلك وغرت  
به ، ولكن رماحهم أجرتني : أي قطعت لسانى عن الكلام بفرارهم ، أراد  
أنهم لم يقاتلوا

وقال بعض الأكابر لأبي هفان <sup>(١)</sup> : مالك لا تمدحني ؟ فقال :

لسان الشكر ينطقه العطايا ويخرس عند منقطع النوال  
وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدحه سواء  
فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها :

أما القوافي فقد حصلت عذرتها فما يصاب دم منها ولا سلب

(١) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزى العبدى ، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

مَتَّعْتَ إِلَّا مِنْ الْأَكْفَاءِ نَاكِحَهَا      وَكَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ  
 وَلَوْ عَصَلْتَ عَنِ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا      وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَطْهَارِهَا أَرْبُ  
 كَانَتْ بَنَاتٍ نُصِيبُ حِينَ ضَنَّ بِهَا      عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلِ بِهَا الْعَرَبُ

« العذرة : البكارة ، والحذب : الإشفاق ، وعصل الأيتم : فالأيم : التي  
 لا زوج لها بكرا كانت أو نيبا والجمع : أيايم وأياميم ، وعصل الرجل أيمه  
 يعصلها ويعصلها عضلا : منعها الزواج ظلما قال تعالى : فلا تعصلوهنَّ أن  
 ينكحنَّ أزواجهنَّ ، نزلت في معقل بن يسار المزني - وكان زوج أخته  
 رجلا فطلقها ، فلما انقضت عدتها خطبها ، فآلى أن لا يزوجه إياها ورغبت  
 فيه أخته فنزلت الآية ... وكان نصيب الشاعر الأسود له بنات وكان يرغب  
 عن أن يزوجهنَّ من الموالى ، والعرب لا ترغب فيهنَّ ، فبقين بلا زواج ،  
 قيل له يوما : ما حال بناتك ؟ فقال : صبت عليهن من جلدى فكسدن على ... ،  
 وكتب هذا الوزير الزيات إلى أبي تمام يوما يحتج عليه بأنه يمدح غيره وأنه  
 لو اقتصر عليه لأغناه وأن كثرة مدحه الناس زهدته فيه :

رَأَيْتُكَ تَسْمَحُ الْبَيْعَ سَهْلًا وَإِنَّمَا      يُغَالِي إِذَا مَاضٍ بِالشَّيْءِ بَائِعُهُ  
 هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَعْتَهُ طَابَ وَرَدُّهُ      وَيَقْسُدُ مِنْهُ مَا تُبَاحُ شَرَائِعُهُ

فكتب إليه أبو تمام :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ شَاعِرًا      أَسْأَلُ فِي بَيْعِي لَهُ مَنْ أَبَايُهُ  
 قَدْ كُنْتَ قَبْلِي شَاعِرًا ذَارِيَّةً      تُسْأَلُ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ بَضَائِعُهُ  
 وَصِرْتَ وَزِيرًا وَالْوِزَارَةُ مَشْرَبٌ      يَغْصُ بِهِ بَعْدَ اللَّذَازَةِ كَارِعُهُ  
 وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْنَا مُسَلِّطًا      رَأَيْنَاهُ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ  
 وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ سِهَاهَا      وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تُقْلُ مَقَامِلُهُ

« يقول : إن مِهماً الله مصيبةً لا تُخطئ رسيقه لا يثلم ألبتة ، فهو الذى جعلك وزيراً ولو شاء لآنزلك عن دستك »

### حُثِّمَ عَلَى الشُّكْرِ وَلَوْ لَمَنْ لَيْسَ عَلَى دِينِهِمْ

قال رجلٌ لسعيد بن جبَّير : المجوسى يؤلِّنى خيراً فأشكره ، ويُسَلِّمُ على فأردُّ عليه ؟ فقال سعيد : سألتُ ابنَ عباسٍ عن نحو هذا ، فقال لى : لو قال لى فرعونُ خيراً لرددتُ عليه ... وسَلَّمْ نصرانى على الشَّعْبِىِّ ، فقال الشَّعْبِىُّ : وعليك السلام ورحمةُ الله ، فقال له رجلٌ : سبحان الله ، تقول لهذا النصرانى ورحمة الله ! فقال الشَّعْبِىُّ : أليس فى رحمة الله يعيش ؟ قال : بلى ، قال : فما وجهُ الإنكار على عافاك الله ورحمنا وإياك برحمته ؟

### استحياءٌ هم من المديح

ولا سيما إذا كان مُتَكَلِّفاً أو مُبَالِغاً فيه

سمع سيدنا رسول الله رجلاً يُثْنِى على آخر ، فقال : قَطَعْتَ مَطَاهُ ، لوسم ما أَفْلَحَ « المطا : الظهر » وقالوا : استحياءُ الكريم من المدح أكثرُ من استحياء اللئيم من الذمِّ ... وأثنى رجلٌ على هشام بن عبد الملك ، فقال : إنا نَكْرَهُ المدح ، فقال : لستُ أمدحك ولكنى أحمَدُ الله فىك ... وكان أبو بكر الصديق رضوان الله عليه يقول إذا مَدِّح : اللهم ، أنت أعلم مِنِّى بنفسى منهم ، اللهم ، اجعلنى خيراً مما يَحْسَبُونَ ، واغفرلى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ... وكان رجلٌ يُكثِّرُ الثناء على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعَلِمَ من قلبه خلافَ قوله ، فقال له : أنا دونَ ما تقول ، وفوق ما فى نفسك ؛ وقال الجاحظ : شرُّ الشكر ، ثناءُ المُواجهِ لك المُسرِّفِ فى مدحك ،

وخيرُهُ، ثناء الغائب عنك ، المقتصد في وَصْفِكَ . وقالوا : كنْ من أفرط في  
توكيتك أَحَدَر من أفرط في الزرابة بك . وقالوا : مَنْ مَدَحَ الرجل بما ليس  
فيه فقد بالغ في ذمِّه . وقال أبو فراس الحمداني :

ولا تَقْبَلَنَّ القولَ من كلِّ قائلٍ سَأَرْضِيكَ مَرَأًى لست أَرْضِيكَ مَسْمَعاً  
وقال الفضيل بن عياض : لو شِئْتُمْ رائحة الذنوب منى ما قَرِبْتُمُونِي ...  
وأُتِنِي على زاهدٍ ، فقال : لو عَرَفْتَ مِنِّي ما عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِي لَا بَغْضَتَنِي .  
وقال المتنبي :

يُحَدِّثُ عَنْ نَفْسِهِ مُكْرَهاً كَأَنَّهُ لَه مِنْهُ قَلْباً حَسُوداً

### من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه خطبة حسنة ، فقال : هل من  
خليل ؟ فقال رجل من عُرض الناس : خللٌ كَلَلِ الْمُتَخَلِّ ، فاستدعاه وقال :  
ماذا لك الخلل ؟ قال : إعجابك به ومدحك له ... وقيل للحكيم : ما الذى لا يحسنُ  
وإن كان حقاً ؟ قال : مدحُ الرجل نفسه ... وقال معاوية لرجل : مَنْ سَيِّدُ  
قومك ؟ فقال : أنا ، فقال له : لو كنتَ كذلك لم تَقُلْهُ ... ! ومن طُرْفِهِم  
في ذلك ما رَوَى عن بعض الشعراء أَنَّهُ سُئِلَ : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحتُ  
والله أَظَرَفَ الناس وأشعرَ الناس وآدَبَ الناس ، فقال السائل : آسكتَ حتى  
يقول الناس ذلك ، فقال : أنا مُنْذُ ثلاثين سنة أنتظر أن يقولَ الناس وليسوا  
يقولون ... ومدحَ أعرابي نفسه فعُوتِبَ في ذلك ، فقال : أأَكِلُهُ إِلَيْكُمْ إِذْنُ وَاللَّهِ  
لا تقولوا أبدا ...



عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومي في ذلك :

وَعَزِيزٌ عَلَى مَدْحِي لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي جُشِّنْتُهِ الدَّلَالَةَ

وَهُوَ عَيْبٌ يَكَادُ يَسْقُطُ فِيهِ كُلُّ حُرٍّ يُرِيدُ يُظْهِرُ حَالَهُ

ووصف لآبي جعفر المنصور بعض الأفاضل ، فأمر بإشخاصه إليه ؛ فلما دخل

قال له : أعالم أنت ؟ فقال : أكره أن أقول : نعم ، وفيه مافيه ، أو أقول : لا ،

فأكون جاهلا . فأعجب المنصور بجوابه وألزمه المهدي

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لا تهرف قبل أن تعرف ، أي لا تمدح قبل التجربة ، وأصل الهرف :

الهديان قال الأزهري : الهرف : شبه الهديان من الإعجاب بالشئ يقال : هو

يهرف بفلان نهاره كله هرفا ، وقالوا : لا تحمدن أمة عام شرايها ، ولا حرة

قبل بنائها ، قبل الدخول بها ... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إن فلانا

رجل صدق ، فقال : هل سافرت معه ، أو اتتمنته ؟ قال : لا ، فقال :

إذن لا تمدحه ، فلا علم لك به ، لعلك رأيت يرفع رأسه ويخفيه في المسجد

ختام الباب

عقريات شتى في الشكر

قال أبو ذرّ : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : الرجل يعمل العمل ويحبه

الناس ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن ... وقال صلوات الله عليه :

إذا أردتم أن تعملوا ما للعبد عند الله فانظروا ماذا يتبعه من الشاء ...

وقال شاعر :

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو ثَمٍّ      لَكِنَّهُ يَشْتَهِي حَمْدًا بِمَجَانٍ  
وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا

حتى يَرَوْا قَبْلَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

وقال معاوية بن أبي سفيان يُعَارِبُ قُرَيْشًا :

إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ الْقَلِيلَ شَكُوتُمْ      وَإِن أَنَا أُعْطِيتُ الْكَثِيرَ فَلَا شُكْرُ  
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حَقِّكُمْ      وَقَدْ كَانَ لِي فِيهَا اعْتَذَرْتُ بِهِ عُذْرُ  
وَأَمْنُكُمْ مَالِي وَتُسْكُنُ رِغْمَتِي      وَتَشْتِمُ عِرْضِي فِي تَجَالِيهَا فَهَرُ (١)  
إِذَا الْعُذْرُ لَمْ يُقْبَلْ وَلَمْ يَنْفَعِ الْآسَى      وَضَاقَتْ قُلُوبُ مَنْهُمْ حَشْوُهَا الْغَمْرُ (٢)  
فَكَيْفَ أَدَاوِي دَاءَكُمْ وَدَوَاؤَكُمْ      يَزِيدُكُمْ غَيًّا ! فَقَدْ عَظُمَ الْأَمْرُ (٣)  
سَاحِرُكُمْ حَتَّى يَذِلَّ صِعَابُكُمْ      وَأُبَاغُ شَيْءٍ فِي صَلَاحِكُمُ الْفَقْرُ (٤)  
وقال ابن الرومي :

كَمْ مِنْ يَدٍ بَيْضَاءٍ قَدْ أَسَدَتْ يَتَهَا      تَنَنِي إِلَيْكَ عَيْنَانِ كُلٌّ وَدَادِ  
شَكَرَ إِلَاهُ صَنَائِمًا أَوْ لَيْتَهَا      سَلَكَتْ مَعَ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ

وقال الشريف الرضي :

أَلْبَسْتَنِي رِغْمًا عَلَى رِغْمٍ      وَرَفَعْتَ لِي عِلْمًا عَلَى عِلْمٍ  
وَعَلَوْتَ بِي حَتَّى تَشَيْتُ عَلَى      بُسْطٍ مِنَ الْأَعْتَاقِ وَالْقِمَمِ  
فَلَا شُكْرَ نِيْدِيكَ مَا شَكَرْتُ      خُضْرُ الرِّيَاضِ مَصَانِعِ الدَّيْمِ

(١) فهر : هو فهر بن غالب بن النضر بن كنانة ثم سمي به القبيلة وقريش كلهم ينسبون إليه (٢) الآسى : العلاج والدواء والإصلاح والعدل ، والغمر : الحقد (٣) الغى : الضلال (٤) يذل : ينقاد

فَالْحَمْدُ يُبْقِي ذِكْرَ كُلِّ قِيٍّ وَيُبَيِّنُ قَدْرَ وَاقِعِ الْكَرَمِ  
وَالشُّكْرُ مَهْرٌ لِلصَّدِيقَةِ إِنَّ طَلِبْتَ مُهُورَ عَقَائِلِ النِّعَمِ

« القمم جمع قمة : أعلى الرأس وأعلى كل شيء ، والديم جمع ديمة :  
المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ،  
والصنيعة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال ، وقال  
رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهه بالشكر ضرب من الملق ، منسوب  
من عرف به إلى التَّخَاتِي ، وأنت تمنعني من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ،  
ولذلك تَرَكْتُ إِقَامَكَ بِهِ ، غيرَ أَنِّي مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِمَعْرِفِكَ ، وَنَشْرِ مَا تَطْلُو  
منه ، والإشادة بذكره عند إخوانك ، والانتساب إلى التقصير مع الإطباب  
في وصفه ، على ما أرجو أن أكون قد بلغت به حالَ الْمُحْتَمَلِ لِلصَّدِيقَةِ  
الناهِضِ بِحَقِّ النِّعْمَةِ . وقال أبو يعقوب الخَرَمِيُّ :

زَادَ مَعْرِوْفَكَ عِنْدِي عِظَمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ تَحْفُورٌ صَغِيرٌ  
تَنَاسَاهُ كَانَ لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرٌ

وقال بعضهم : لا تَتَّقِ بِشُكْرٍ مِنْ تُعْطِيهِ حَتَّى تَمْنَعَهُ ، فَإِنَّ الصَّابِرَ هُوَ  
الشَّاكِرُ ، وَالْجَازِعُ هُوَ الْكَافِرُ ... وقال الشاعر :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَى الْخَيْرِ أَهْلُهُ وَلَمْ أَذُمَّ الْجَبَسَ اللَّثِيمَ الْمَذْمُومًا (١)  
فَقِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِي اللَّهُ الْمَسَامِحَ وَالْقَمَا  
وقال ابنُ التَّوَيْمِ (٢) : كُلُّ مَنْ كَانَ ، جُودُهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَوْ لَا رُجُوعُهُ

إِلَيْهِ لَمَا جَادَ بِيْلِكَ ، وَلَوْ تَبَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي رِوَاكَ لَمَا قَصَدَ إِلَيْكَ ،  
فَلَيْسَ يَجِبُ لَهُ تِلْكَ الشُّكْرُ ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِالْجُودِ فِي الْحَقِيقَةِ وَيُشْكَرُ عَلَى

(١) الجبس : النذل الدق . (٢) هو عقبة بن التوهم من رجال الحديث

النَّفْعَ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ ، الَّذِي إِنْ جَادَ عَلَيْكَ فَلَمَّا جَادَ ، وَنَفَعَكَ أَرَادَ ، مِنْ  
غَيْرِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ جُودُهُ بِشَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَهُوَ اللَّهُ  
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنْ شَكَرْنَا النَّاسَ عَلَى بَعْضِ مَا جَرَى لَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ،  
فَالْأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا التَّعَبُّدُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْوَالِدِينَ وَإِنْ كَانَا  
شَيْطَانَيْنِ ، وَتَعْظِيمِهِمْ مِنْ هُوَ أَسْنُّ مِنَّا وَإِنْ كُنَّا أَفْضَلَ مِنْهُ . وَالْآخَرُ : لِأَنَّ  
النَّفْسَ مَا لَا تُحْصِلُ الْأُمُورَ وَتُمَيِّزُ الْمَعَانِيَ ، فَالسَّابِقُ إِلَيْهَا حُبٌّ مَن جَرَى  
لَهَا عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُرْزَها وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهَا . أَلَا تَرَى أَنَّ عَطِيَّةَ  
الرَّجُلِ صَاحِبَهُ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ أَوْ لِعَبْدٍ لِلَّهِ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَتَوَابَهُ عَلَى  
اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَحِبُّ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ شُكْرَهُ وَهُوَ لَوْ صَادَفَ ابْنَ سَبِيلٍ غَيْرِي لَمَا  
أَعْطَانِي ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ لِلذِّكْرِ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَاِنَّمَا جَعَلَنِي  
سُؤْلًا إِلَى حَاجَتِهِ وَسِبْأً إِلَى بُغْيَتِهِ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ طَلِبًا لِلْمُكَافَأَةِ  
فَاِنَّمَا ذَلِكَ تِجَارَةٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِحُرُوفِ يَدِي أَوْ لِسَانِي أَوْ اجْتِرَارَ مَعُونَتِي  
وَنُصْرَتِي ، وَسَبِيلُ هَذَا مَعْرُوفٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِلرَّحْمَةِ وَالرَّفَقَةِ وَلِمَا يَجِدُ  
فِي قَوَادِهِ مِنْ انْتِصَارٍ وَالْأَلَمِ ، فَاِنَّمَا دَاوَى بِتِلْكَ الْعَطِيَّةِ مِنْ دَائِهِ ، وَرَفَقَهُ مِنْ  
خِيفَتِهِ ... وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

أُثْنِي عَلَيْكَ وَلِيَّ حَالٍ تُكْذِّبُنِي فِيمَا أَقُولُ فَاسْتَجِبِي مِنَ النَّاسِ  
قَدَقْتُ إِنْ أَبَاحَ فَصِّ لَا كَرَمُ مَنْ بَمَشْيِ نَخَاصِمِي فِي ذَاكَ الْفَلَاسِ  
وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :  
يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ أَثْنِي عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى  
وَقَالُوا : خَمْسَةُ أَشْيَاءَ ضَائِعَةٌ : سِرَاجٌ يُوقَدُ فِي شَمْسٍ ، وَهَطْرٌ جَوْدٌ فِي  
سَبَخَةٍ ، وَحُسْنَاءُ تُزْفُّ إِلَى عَيْنَيْنِ ، وَطَعَامٌ اسْتُجِيدَ وَفُتِّمَ إِلَى سُكْرَانٍ ،  
وَمَعْرُوفٌ صُنِعَ إِلَى مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ ...

## الباب الثالث

في الصبر وعبرياتهم فيه ، وفي الدنيا وأكدارها ، وفي هادم اللذات

ماذا يُراد بالصبر في هذا الباب ؟

قال علماء اللغة : الصبرُ : نقيض الجزع ، أو حبسُ النفس عند الجزع ، يقال : صبرَ فلانٌ عند المصيبة يصبرُ صبراً ، وصبرتهُ أنا : حبستهُ ، والتصبرُ : تكلفُ الصبر ، قال عمر رضي الله عنه : أفضلُ الصبرِ : التصبرُ ... وقال الراغب الأصفهاني في الذريعة : الصبرُ ضربانٍ : جَسْمِيٌّ ونَفْسِيٌّ ، فالجَسْمِيُّ : هو تحمُّلُ المشاقِّ بقدرِ القوة البدنية ، وأكثرُها لذوى الجسوم الحسنة ، وليس ذلك لفضيلة تامّة ، وذلك في الفعل كالمشي ورَفْع الحجر ، وفي الأفعال كالصبر على المرض ، والنفسِيُّ - وبه تُملَأُ الفضيلة - ضربان : صبرٌ عن تناول مُشْتَهَيٍّ ، ويقال له : العِفَّةُ ؛ وصبر على تحمل مكرهه أو تحبُّوب ، وهذا تختلف أسماءه بحسب اختلاف مواقفه ، فإذا كان في نزول مُصِيبَةٍ فإنه مما استَبَدَّ به اسم الصبر ، وضده الجزع والهلع والحزن ، وإن كان في احتمال غَيٍّ فقد سُمِّيَ ضبط النفس ويُضَادُّه الدَّقْع والبَطَر ، <sup>(١)</sup> وإن كان في محاربة سُمِّيَ شجاعةً وبضادّه : الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب سُمِّيَ حِلْماً ، وبضادّه : التذمُّر <sup>(٢)</sup> ، وإن كان في نائية مُضْجِرَةٍ سُمِّيَ سَعَةً الصدر ؛ وبضادّه ضيق الصدر والضجر والتبرُّم ، وإن كان في إمساك كلام

(١) الدَّقْع : الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر ، والبَطَر : الطغيان في النعمة

(٢) التذمُّر : التَغَضُّب ومنه : فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطته ،

وحايته وما يجب على أهله التذمُّر له والغضب من أن ينال منه

في الضمير سُمِّيَ كتمان سرٍّ ، ويضادُّه : الإفشاء ، وإن كان في الإمساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهداً ، وهذا يضادُّه : الحرص والشره ...  
« وبعد ، فها أنت ذا ترى بما أوردنا عليك من كلام الراغب : أن الصبر ألوانٌ ، ومن أخص ألوانه : الصبر على المصائب ، ذلك الذي يضادُّه الجزع وهذا اللون هو الذي سوف تتصدَّى له في هذا الباب ، أمَّا سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلي هذا الباب من الأبواب .

### عقرياتهم في الصبر

قال الراغب في فصل عنوانه « مداواة الغم وإزالة الخوف » مع شيء من التصرف : خُلِقَ الإنسان أن يعلم أن الدنيا جَمَّةُ المصائب رَنَقَةُ المشارب تُشِيرُ لِلْبَرِيَّةِ أَضْعَافَ الْبَلِيَّةِ<sup>(١)</sup> ، فيها مع كلُّ لُقْمَةٍ عُصَّة<sup>(٢)</sup> ، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرَقَةٌ<sup>(٣)</sup> ، فهي عَدُوَّةٌ وَتَحْبُوبَةٌ كما قال أبو نواس :  
إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ  
وَمَا رَوَى عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : مَا مَثَلُنَا مَعَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا قَالَ كَثِيرٌ :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا لَوْلَمَةٍ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٍ إِنْ تَقَلَّتْ<sup>(٤)</sup>

- (١) البرية : الخلق ، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية : المحنة
- (٢) العصة : الشجى - ما ينشعب في الخلق من عظم وغيره
- (٣) الجرعة من الماء : حسوة منه ، والشرقة : العصة ولكنه بالماء والريق ونحوهما

قال عدى بن زيد :

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلِيقِي شَرِيقُ كُنْتُ كَالْفَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتَصَارِي  
(٤) مقليّة : مكروهة ، وتقلت بحذف إحدى التامين وتقلّى الشيء : تبغض ، خاطب كثيرهم غائب

فأحدهُ فيها إلا وهو في كلِّ حالاته غرض لِسِمَاهَا :

مُتَنَاضِلُهُ الْآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَتُخْطِئُهُ يَوْمًا وَيَرْمَا تَصِيبُهُ <sup>(١)</sup>

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقدُ محبوبٍ أو فوتُ مطلوبٍ ، ولا يَسْكُمُ منهما إنسان ، لأنَّ الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد . فمن أحبَّ أن يعيش هو وأهله وأحبابه سالمين فهو غيرُ عاقل ، لأنه يريدُ أن يَمْلِكَ ما لا يَمْلِكُ ، ويوجد له ما لا يوجد ، فحقيقُ بالمرء أن لا يُخْلِى قلبه من الاعتبار بما يَرَى ، من ارتجاع لودائمه من أربابها ، وحلول لنوائبها بأصحابها .

ثم من حقّه أن يقلل من اقتناء ما يُورِثُه الحزن ، فقد قيل لحكيم : لم لاتغنم ؟ فقال : لأنى لم أقتن ما يُغْنِي فَقْدُهُ ، أخذه الشاعر فقال : فمن سرُّه أن لا يرى ما يسوؤه فلا يتَّخِذُ شيئاً يخاف له فقدا

وقيل لحكيم : هل الإنسان أن يعيش آمناً ؟ قال : نعم ، إذا احتس من الخطيئة ، وتنعى بحلاله ، ولم يحزن لما هو واقع به لاحالة . واعلم أنَّ الجزع على مافات لا يُلِمُّ ما تشعَّت ولا يُبرِّمُ ما انتكث ؛ فأما غمه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه : إمَّا في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن ، فإن كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذى هو حتمٌ في رقاب العباد ، وإن كان ممكناً كونه فإن كان من الممكن الذى لا سبيل إلى دفعه كما كان الموت قبل الحرِّم فالحزن له جهل ، واستجلابُ غمٍّ ، وإن كان من الممكن الذى يصحُّ دفعه فالوجه أن يحتال إلى دفعه بفعلٍ غير مشوبٍ بحزن ، فإن دفعه وإلا

(١) ناضله مناضلة فضله : باراه في الرى تغلبه

تلقاه بصبرٍ، وليتحقق قوله عز وجل : ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم ، فمن عَلِمَ أنَّ ما جرى في حكمه ، وسَبَقَ في عليه لاسيّل إلى أن لا يكون ، هانت عليه النُّوبُ ، واعلم أن الذي يَغُرُّ النَّاسَ هو حسنُ ظَنِّهم باغترارِ الآفات ، واغترارُهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات ، ولو تأملوها لتحقّقوا أنها كما قال عليُّ رضي الله تعالى عنه : ما قال الناس لقرم طوبى لكم إلا وقد خبأ الدهرُ لهم يومَ سوءٍ :

إِنَّ اللَّيَالِيَّ لَمْ تُحَسِّنْ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بِمَدِّ إِحْسَانِ

انتهى كلام الراغب، ومن أبدع ما قيل في الصبر والجزع قول ابن الرومي :

أَرَى الصَّبْرَ مَحْمُودًا وَعِنْدَهُ مَذَاهِبٌ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مَذْهَبٌ <sup>(١)</sup>  
هُنَاكَ يَحِقُّ الصَّبْرُ وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ وَمَا كَانَ مِنْهُ كَالضَّرُورَةِ أَوْجِبٌ <sup>(٢)</sup>  
فَسَدَّ أَمْرُؤُ بِالصَّبْرِ كَكُفًّا فَإِنَّهُ لَهُ عِصْمَةٌ أَسْبَابُهَا لَا تَقْضُبُ <sup>(٣)</sup>  
هُوَ الْمَهْرَبُ الْمُنْجِي لِمَنْ أَحْدَقَتْ بِهِ مَكَارِهِ دَهْرِ لَيْسَ مِنْهُنَّ مَهْرَبٌ <sup>(٤)</sup>  
أَعْدُ خِلَالًا فِيهِ لَيْسَ لِإِعَاقِلٍ

من الناس - إن أنصفن - عنهن مرغب <sup>(٥)</sup>

لبؤس جمال، جنة من شمتهم شفاء أسى يُثْنَى به ويُثَوَّب <sup>(٦)</sup>

(٢٠١) يقول : إن صبر الإنسان على ما يناله من مكروه أو عما يريد نيله من محبوب : محمود ، ولو أنه يجد طرقاً كثيرة يتخلص بها من المكروه أو يحصل بها على الرغائب ، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أعظم وجوباً

(٢٠٢) فسَدَّ أمرؤ بالصبر ككفا يقول : تخليق بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل المكروه ، إذ أن الصبر عِصْمَةٌ وثيقة لا تنقطع حبالها فتعم الملاجأ هو لمن أحاطت به نوائب الدهر التي لا يحصى عنها

(٢٠٥) يقول : إن في الصبر خلالاً لا يليق بعاقل أن يتركها إذا كان هناك لإنصاف



فِيَا عَجَبًا لِلشَّيْءِ هَذِي خِلَالُهُ . وَتَارَكَ مَا فِيهِ مِنَ الْحِظِّ أَعْجَبُ  
وَقَدْ يَتَنَظَّى النَّاسُ أَنْ أَسَاهُمْ وَصَبَرُهُمْ فِيهِمْ إِبْطَانُ مَرْكَبُ<sup>(١)</sup>  
وَأَنَّهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُصَرَّفٍ يُصَرِّفُهُ ذُو نَسْكَبٍ حِينَ يُنْكَبُ  
فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَأْسَى أَطَاعَ لَهُ الْآسَى وَإِنْ شَاءَ صَبَرَ جَاءَهُ الصَّبْرُ يُجْلَبُ  
وَلَكِنْ ضَرُورِيَانِ كَالشَّيْءِ يُبْتَلَى بِهِ الْمَرْءُ مَغْلُوبًا وَكَالشَّيْءِ يَذْهَبُ  
وَأَيْسَابُ كَمَا ظَنُّوهُمَا ، بَلْ كِلَاهُمَا لِكُلِّ لَبِيبٍ مُسْتَطَاعٌ مُسَبَّبُ<sup>(٢)</sup>  
يُصَرِّفُهُ الْمُخْتَارُ مِنَّا ، فَتَارَةُ يُرَادُ فَيَسْأَلُ أَوْ يُزَادُ فَيَذْهَبُ<sup>(٣)</sup>

ومعدلة، وهذه الخلال هي : أن الصبر لبوس جمال ، أى أنه زينة وحلية جميلة ، وأنه جنة من شمانية ، أى وقاية من فرح الأعداء بما يصاب به المرء :

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لَرِيبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ  
وَأَنَّهُ شِفَاءُ أَمْسَى ، أَى مَذْهَبِ الْحُزَنِ ، وَأَنَّهُ يَثْنَى بِهِ ، أَى أَنَّهُ مَدْرَجَةٌ لِلْحَصُولِ عَلَى الثَّنَاءِ ، وَأَنَّهُ يَثُوبُ ، أَى يُجَازَى عَلَيْهِ

(١) يتنظى أصلها : يتظن ، أى يعملون الظن ، أى يذهبون مع ظنهم ، والآسى : الحزن ، وطباع : أى طبع ، يقول : وقد يظن الناس أن الحزن والصبر طبع ، لا حيلة لمن طبعه الحزن في أن يصبر ، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن ، ثم قال في البيت التالى : وأن كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التى يمكن تحويها من حال إلى حال حتى يحولها المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا إليه - وهذا معنى قوله فإن شاء ... البيت ، ثم قال : ولكن يظن الناس أن كلا من الآسى والصبر ضروريان كأن الحزن شئ يملك على الإنسان أمره لا حيلة له فى التخلى عنه وكذلك الصبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شئ لا بد أن يتحمل فقده أى يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله : وليس كما ظنوهما ... الآيات

(٢) يقول : وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنماهما بما يقدر عليه ومن المستطاع التصرف فيهما والتسبب لتحويل كل منهما وتركه إلى الآخر  
(٣) المختار : ذو الإرادة ، ويزاد : يدفع ويبعد

- (١) إذا احتججُ نَحْنُج على النفس لم تَكَدُّ على قدرٍ يُمنِّي لها تَعْتَبُ (١)
- وساعدها الصبرُ الجميلُ فأَقْبَلَتْ إلهامه طوعاً جَنَائِبُ تُجَنَّبُ (٢)
- وإن هو مَنَّاها الأباطيلَ لم تَزَلْ تُقَارِلُ بالعقبِ القضاءَ وتُغْلِبُ (٣)
- فَتُضْحِي جزوعاً إنْ أَصَابَتْ مُصِيبَةٌ وَتُغْشَى هلو عماً إنْ تَعَذَّرَ مَطْلَبُ (٤)
- فلا يَعِذِرَنَّ التاركُ الصبرَ نفسه بأن قيل: إن الصبرَ لا يَتَكَسَّبُ (٥)
- وقال الأصمعيُّ: أحسنُ ما قيل في الصبر مع الشرح قول أبي ذؤيب الهذلي:
- وَتَجَسَّدِي للشائِئِينَ أُرِيهُمُ أَنَّ لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ  
حتى كأنِّي للحوادثِ مَرُوءَةٌ بِصَفَا المُشَقَّرِ كُلِّ يَوْمٍ تُفْرَعُ  
«لا أتضعع: لا أذل ولا أخضع، وريب الدهر: صرْفُهُ، والمرُوءة واحدة  
المرُوءة وهي: حجارة بيض براقه يقدح منها النار: ومرُوءة المَسْعَى التي تذكر مع  
الصفاء في الحج» وهي أحدر رأسه اللذين ينتهي السعي إليهما - سميت بذلك، وبصفا
- 
- (١) يعني: يقدر يقول: إذا أقمت للنفس الدلائل على أن الصبر اختياري مكتسب  
ثم ألت بها المصائب فإنها تقنع ولا تعتب على القضاء والقدر
- (٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب  
المجنوب، وله متعاقب بجنائب أي جنائب للصبر، يقول: متى اطمأنت النفس إلى الدليل  
على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل  
يواتيها مسعفاً
- (٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والأباطيل فإنها لا تزال في  
عتب على القضاء والقدر عما أصابها ولا تزال أعتب عبثاً وبلا فائدة حتى تهقر وتغلب
- (٤) الهلوع: الجزوع جزعاً شديداً يقول: فيشتد جزعها إذا أصابها مصيبة ويشند  
أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها
- (٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغتراراً بقول القائل: إن الصبر طبع غير  
مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابي

المَشَقَّر يروى : بصفا المَشَرَّق ، أما المَشَقَّر فهو : موضع أو حصن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمَشَرَّق فهو : جبل يسوق الطائف ، والصفاء : جمع صفاء : صخرة مأساء وبه سمي أحد جبلى المسعى ؛ وهذان البيتان من قصيدة أبى ذؤيب <sup>(١)</sup> التى يَرثى بها بَنِيه الخمسة وقد ماتوا فى عام واحد ، وأولها :

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْهٍ تَوَجَّعُ      وَالْدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَن يَجَزَعُ <sup>(٢)</sup>  
قَالَتْ أُمَامَةُ : مَا لِي جَسِيمُكَ شَارِحًا      مُنْذُ ابْتُلَيْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ <sup>(٣)</sup>  
أَمْ مَا لِي جَسِيمُكَ لَا يَلَانُكُمْ مَضْجَعًا      إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ <sup>(٤)</sup>

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاوية فى مرض موته ليعودَه ، فأَذَهَنَ واكْتَحَلَ - أى معاوية - وأمرَ أن يُقَعَّدَ وَيُسَدَّ وَقَالَ :  
إِنِّذَنُوهُ ، وَلْيُسَلِّمْ قَائِمًا وَلْيَنْصَرِفْ ، فَلَمَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ وَوَلَّى ، أَنشَدَ معاوية قول أبى ذؤيب : وتجلدى للشامتين ... أليبت : فاجابه ابن عباس على الفور :  
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا      أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ  
ثم ما خرج من داره حتى سمع نعيه ... وقال ضابط بن الحارث البرمجي من أبيات قالها فى سجن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضى الله عنه :

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ صَيْرَةٌ      وَلِلْقَلْبِ مِنْ تَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبُ  
وَلَا خَيْرَ فِى مَنْ لَا يُؤْطِنُ نَفْسَهُ      عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ

- 
- (١) أبو ذؤيب الهذلى : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم  
(٢) المنون هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية أنه ، معتب : مزيل عتبة ، أى مُرِيض  
(٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : ما لجسيمك شاحبا ومثل مالك لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبذول  
(٤) إلا أقض عليك ذاك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهى : الحصى الصغار

« قوله : لا تضيرك ضيرة ، فالعرب تقول : ضارُهُ يضيرُهُ ضيراً وضيرةً -  
المرّة من الضير - ولا ضيرَ عليك ، وضرةً يضُرُّه ولا ضررَ عليه ، والمخشاة :  
مصدر خشيه يخشاه خشية ومخشاة ومخشية : خافه ، وفي معنى هذا البيت يقول  
أبر العتاهية :

وقد يَهْلِكُ الإنسانُ من بابِ أُنْهِ وَيَنْجُو بِإِذْنِ اللَّهِ من حيثُ يَحْذَرُ  
والأصل في هذا قوله عز وجل : وَعسى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ  
فيه خيراً كثيراً ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... البيت : نظيره  
قول كثير عزة :

أقول لها : يا عَزْرُ ، كُلُّ مُصِيبَةٍ إِذَا وُطِنَتْ يَوْماً لها النفسُ ذَلَّتْ

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس ،  
وفي الأثر : للمِحنِ أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله لها ،  
زيادة فيها قال تعالى : إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي  
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قلُ حَسْبِيَ اللَّهُ عليه يتوكلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ...  
وقلوا : الْمُتَحَنُّنُ كَالْمُخْتَنِقِ كلما ازداد اضطراباً ازداد اختناقاً ... وحكى عن  
بعض الصالحين : أن ابناً له مات فلم يُرَ به جَزَعٌ ، فقيل له في ذلك فقال : هذا أمرٌ  
كنا نتوقعه ، فلما وقع لم نُنْكِرْهُ ... وقالوا : مَنْ أَرَادَ طَوْلَ الْبَقَاءِ فَلْيُوطِنْ نَفْسَهُ  
على المصائب ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجاذع اثنتان ، وقال أكرم بن  
صيفي : حيلةٌ مَنْ لا حيلةَ له : الصبر . وسيد الكلام في الصبر قول المصطفى  
صلوات الله عليه : لو كان الصبرُ رجلاً لكان رجلاً كريماً الكريم ضد اللثيم ،

## عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكندي: أسباب الحزن: فقدُ محبوب ، أو  
 قوتُ مطلوب ، ولا يسلّم منهما إنسانٌ ، لأن الثبات والدوام معدومان في  
 عالم الكون والفساد ؛ وقال الحسن البصري : الدنيا دارُ غموم ، فمن عوِجَلْ  
 فُجِعَ بنفسه ، ومن أُجِلْ فُجِعَ بأحبابه ؛ وقال بعض الفلاسفة : من أراد أن  
 لا يُصابَ بمُصِيبَةٍ ، فقد أرادَ مالا يسكون ، لأن المصائب في عالم الكون والفساد  
 طبع بالطبع ؛ فيلجئ أن يكون متاعاً على بال : أن جميع الأشياء التي تصل إلينا  
 كانت قبلنا لغيرنا ، فانتقلت إلينا على شريطة ما كان لنا قبلنا ... وقيل لسقراط :  
 مالك لا تنزع ؟ قال : لأنني لأقتني ما يُحزِنُنِي فَقَدْهُ ... وقال ابن الرومي في  
 هذا المعنى :

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يُسَوِّهُ      فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا  
 أقول : يريدون بذلك : أنه لا بُدَّ في هذه الدنيا من المصائب مادام ، هناك  
 قُنْيَةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ما هو مُسْتَهْدَفٌ لِسَهَامِ الأيام ، ومن  
 أراد أن لا يصابَ فلا يفتني ما يسوؤه فَقْدُهُ - والقُنْيَةُ لا بُدَّ منها في هذه الحياة  
 الدنيا ، وإذن لا بد من توطئ النفس وإعدادها لتلقّي المصائب ... وإذا كان  
 هناك مَنْ يترامى بمثل هذا الكلام إلى الحثِّ على الزهد ، فهذا مرعى آخر ،  
 منهم مَنْ يفزعُ إليه لمثل هذا الغرض - تَوَقَّى المصائب ما أمكن - ولا غراض  
 أخرى تراها بعدُ ... وقالوا : الجزعُ مُنْقِصَةٌ للحياة ، ومن أعان على نُقْصَانِ  
 حياته ، فقد عَظُمَتْ خطيئته ... وقالوا : التأسف على الفائت تضييع وقتٍ  
 ثمين ، إن كنتَ جازِعاً لِمَا أَفَلَتْ مِنْكَ فَاجْزَعْ عَلَى مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ ؛ وقال

على كرم الله وجهه : الصبر مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُؤُ ، وَالْقَنَاعَةُ سَيْفٌ لَا يَنْبُؤُ . وقال  
عمر رضى الله عنه : لو كان الصبرُ والشكرُ بَعِيرَيْنِ مَا بَايَعْتُ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ ؛  
وقيل : الصبرُ يُنَاضِلُ الْخَدَثَانِ ، وَالْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ ، وَمَا فِي الشُّكْرِ  
إِلَّا أَنْ تُخْزِنَ صَدِيقَكَ وَتُشْمِتَ عَدُوَّكَ ؛ وقيل : اجْعَلْ صَبْرَكَ عَلَى النَوَابِ  
كِفَاءً شُكْرَكَ عَلَى الْمَوَاقِبِ ، الصبرُ عِنْدَ النِّقَمِ ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وقال  
حكيم : جَمِيعُ مَسْكَرِهِ الدُّنْيَا تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ ، ضَرْبٌ فِيهِ حِيلَةٌ ، فَلَا ضَرْابُ <sup>(١)</sup>  
دَوَاؤُهُ ، وَضَرْبٌ لَا حِيلَةَ فِيهِ ، فَالصَّبْرُ شِفَاؤُهُ ، وَقَالَتِ الْفُرُسُ : كَلِمَتَانِ  
يَقُولُهُمَا الْعَاقِلُ عِنْدَ نَائِبَتِهِ : إِحْدَاهُمَا : هَذِهِ الْحَالُ خَيْرٌ مِمَّا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا ،  
وَالْأُخْرَى : اَللَّهُ أَنْ يَحْتَمِلَ فِي هَذَا الْمَكْرُوهِ خَيْرًا ، وَكَلِمَتَانِ يَقُولُهُمَا الْجَاهِلُ :  
لَعَلَّ مَا أَصَابَنِي يَدْعُو إِلَى شَرٍّ مِنْهُ ! وَالْأُخْرَى : لَوْ كَانَ بَدَلُ كَذَا كَذَا مِنْ  
الْمَصِيبَةِ ! وَقَالُوا : الصبرُ عَلَى مَرَارَةِ الْعَاجِلِ ، يُفِضِي إِلَى حَلَاوَةِ الْآجِلِ ،  
لِأَنَّكَ لَا تَنَالُ قَلِيلَ مَا يُحِبُّ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى كَثِيرِ مَا تَكْرَهُ ، وَقَالُوا : لِكُلِّ شَيْءٍ  
ثَمَرَةٌ ، وَثَمَرَةُ الصَّبْرِ الظَّفَرُ ، وَالصَّبْرُ كَاسْمِهِ ، وَعَاقِبَتُهُ الْعَسَلُ . . وَالصَّبْرُ عَلَى  
الْمَصِيبَةِ مُصِيبَةٌ عَلَى الشَّامِتِ . وَقَالَ عَلِيٌّ : إِنْ صَبَرْتَ فَأَنْتَ مَاجُورٌ ، وَإِنْ جَرِئْتَ  
جَرَى عَلَيْكَ الْمَقْدُورُ .

## حُثُّهُمْ عَلَى تَصَوُّرِ الْمَصَائِبِ

وَالِاسْتِعْدَادَ لَهَا كَيْ تَخِفَّ وَطْأَتُهَا

وَقَالُوا فِي ذَلِكَ : مَنْ كَانَ مُتَوَقِّعًا ، لَمْ يُلْقَ مُتَوَجِّعًا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ

(١) الاضطراب : يريد : الحركة والاحتياال في دفعه

- قيل لابن الرومي، ولم أرها في ديوانه، وإن كانت أشبه بمنهج ابن الرومي - :

أَلَمْ تَرَ رُزْءَ الدَّهْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ      كَيْفَ إِذَا فَكَّرْتَ فِي الْخَلَوَاتِ  
فَمَا لَكَ كَالْمَرِيِّ فِي مَا مَنَّ لَهُ      بِبَيْلِ أَتْنُهُ غَيْرِ مُرْتَقَبَاتِ  
فَإِنْ قُلْتَ مَكْرُوهُ أَنَا فُتْجَاءَةٌ      فَمَا فُوجِدْتَ نَفْسَ مَعَ الْخَطَرَاتِ  
وَلَا عَوَّقِبْتَ نَفْسَ بِيْلَوَى وَقَدْرَاتِ      عِظَاتٍ مِنَ الْإِيَّامِ بَعْدَ عِظَاتِ  
إِذَا بُعِثَتْ أَشْيَاءٌ قَدْ كَانَ مِثْلُهَا      قَدِيمًا فَلَا تَعْتَدُهَا بَغَاتِ  
وهذه الآيات من الوضوح والإزالة بحيث لا يعوزها شرح ، وقالوا :  
ما أمتنع الدهر إلا لينع ، ولا أعطى إلا ليستر ، ولولا اغترار الجاهل  
بعوائده ، لحلت النفوس من الحسرة على نوائبه ، وقالوا : لا تُخِلْ فِكْرَكَ  
مِنْ عَوَارِضِ الْفِكْرِ وَخَوَاطِرِ الذِّكْرِ فِيمَا تَعْرُوكَ بِهِ الْإِيَّامُ ، من ارتجاع  
ودائرها ، وحلول وقائدها ، - وهذا ما قاله ابن الرومي آنفا ،

## الغم يورث السقم والهزم

قال المتنبي :

وَاللَّهِمَّ يَخْتَرِمُ الْجِسْمَ خَافَةً      وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ  
« يخرم : يستأصل ويقنطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والناصية : الهزال ،  
والناصية : شعر مقدم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على  
المرء أذهب جسم العظيم الجسد وهزله حتى يأتى عليه من الهزال ، ويشيب  
الصبي قبل الأوان حتى يصير كالهرم من الضعف والعجز » ... وسئل عبد الله  
ابن عباس عن الحزن والغضب فقال : أصلاهما واحد ، وذلك وقوع الأمر

على خلاف المحبة ، فأما قرعاهما فنختلِفان ، فالمكروهُ مَن فُوتَكَ يذتج حزنا  
ومنْ دونك يُلتجُ غضبا

هـ فُحْزُنُ كُلِّ أَخِي حُزْنُ أَخِي الْغَضَبِ <sup>(١)</sup> \*

### الحزن يبلَى بتقادم العهد

وقالوا في الحزن يبلَى بعد انقضاء مُدة : الْحُزْنُ يَنْضُو عَنْ ابْنِ آدَمَ كَمَا  
يَنْضُو الصَّبْغُ عَنِ الثَّوْبِ <sup>(٢)</sup> وَلَوْ بَقِيَ لَقَتَلَهُ .

وقال المتنبي :

إِذَا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الْكَرِيمِ مُصَابَهَا بِحُبِّ ثَلْتِ فَاسْتَدْبَرَتْهُ بِطِيبِ  
وَالْوَاجِدِ الْمَكْرُوبِ مِنْ زَفَرَاتِهِ سُكُونٌ عَزَاءٍ أَوْ سُكُونٌ لُغُوبِ  
« قوله : إِذَا اسْتَقْبَلَتْ ... أَلَيْتِ ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والحُبُّ  
هنا : الجوع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجوع ، وثنت : صرفته - أى الجوع -  
النفس ، يقول : إِذَا جَزَعُ الْكَرِيمِ - ضد التَّيَمُّ - فِي أَوَّلِ نَزُولِ الْمَصِيبَةِ ،  
وَرَاجِعِ أَمْرِهِ ، عَادَ إِلَى الصَّبْرِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَمَنْ لَمْ يُوطَّنْ نَفْسَهُ عَلَى الْمَصِيبَةِ فِي  
أَوَّلِ الْأَمْرِ صَعُبَ عَلَيْهِ عِنْدَ وَقُوعِهَا . وقوله : وَلِلْوَاجِدِ الْمَكْرُوبِ ... أَلَيْتِ

(١) للمتنبي في مرثيته التى يرنى بها أخت سيف الدولة وأوله :

بِحَزَاكَ رُبُّكَ بِالْأَحْزَانِ مَغْفِرَةً لِحُزْنِ كُلِّ أَخِي حُزْنُ أَخِي الْغَضَبِ  
يقول : غفر الله لك أحزانك إذا حزنت بما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب من هو دونك إذا  
أصابك بما تكرهه والحزن من هو فوقك ، والإنسان إذا حزن على مصيبة تصيبه فكأنه يغضب  
على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدور مما يستغفر منه  
(٢) يقال : أضنا الحَضَابَ ونَضَوْا : ذهب لونه ونصل



يقول : لا بُدَّ للمحزون من سكون ، إما أن يَسْكُنَ عَزَاءً ، أو يَسْكُنَ إعياءً ،  
وإذن لتحقيق بالعامل أن يَسْكُنَ تعزياً ، كما قال محمود الوراق :

إذا أنت لم تَسْلُ اضْطِباراً وحِسْبَةً      سلوت على الأيامِ مثلَ البهائمِ -  
وكما قال أبو تمام :

أَنْصَبِرُ لِلْبَسْوَى عَزَاءً وَحِسْبَةً      فَتُوجَرُ أَمْ تَسْلُوا سُلوَ الْبَهَائِمِ  
« الحسبة : طلب الأجر والثواب ،

ومن أحسن ما قيل من الشعر القديم ، في أن الحزن يبلى إذا تقادم عهد .  
قول أبي خراش الهذلي - شاعر مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، يوم حزين - :  
على أنها تَعْفُو السُّكُومُ ، وإنما      تُوكَلُّ بِالْأَذَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي  
وقبل هذا البيت :

حَمِدْتُ إلهي بَعْدَ عُرْوَةٍ إِذْ نَجَا      خِرَاشٌ ، وَبَعْضُ الشَّرَّاهُونَ مِنْ بَعْضِ  
فوالله : مَا أَنْتَى قَبِيلاً رُزْنَتُهُ      بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ  
على أنها تعفو الكلام ... البيت

ولم أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ      على أنه قد سُلَّ عن ماجد مَحْضٍ  
وكان من حديث هذا الشعر ، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ مَرْة أَخَا أَبِي خِرَاشٍ ، وَخِرَاشُ  
ابن أبي خراش ، اصطحبا في مُتَصَرِّفٍ لهما : فَأَسْرَمَا بِطَنَانٍ مِنْ  
نُمَالَةٍ : بنو رازم وبنو بلال - وكانا موتورَيْن - فاختلفوا في الإبقاء  
عليهما وقتلهما ، قال بنو بلال إلى قتلهما ، وتفاقم الأمرُ بينهما في ذلك ، إلى  
أن صار يُؤَدَّى إِلَى الْمَقَاتِلَةِ ، فَتَفَرَّدَ أُولَئِكَ بِعُرْوَةَ فقتلوه ، وتفرَّد دُولَاءُ بِخِرَاشٍ  
فغلبوا به واحدٌ منهم : مُنْتَهِزاً لِلْفُرْصَةِ فِي الْإِسْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ دَلِيلَاكَ ؟  
فقال : قِطَاةٌ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ وَقَالَ : ائْجُ ، فَرَّ لَطِيطُهُ ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا لِلنَّظَرِ

في أمره قال لهم مُمَسِّكُهُ إِنَّهُ أَفَلَتْ، فطردوه - أَيْ تَبِعُوا خِرَاشًا - فَأَعْيَاهُمْ، فَلَمَّا  
وَصَلَ خِرَاشٌ إِلَى أَبِيهِ وَخَبَّرَهُ بِمَا جَرَى عَلَى عُرْوَةٍ وَبِمَا أَتَّفَقَ مِنْ صَاحِبِهِ فِي بَابِهِ،  
اِقْتَصَصَ قِصَّتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ... وَقَوَّسَى اسْمَ مَكَانٍ، وَقَوْلُهُ : عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو  
الْكَلَامَ ... أَلَيْتَ فَإِنَّ هَذَا يَجْرَى مَجْرَى الْعِذَارِ مِنْهُ وَالِاسْتِدْرَاكِ عَلَى نَفْسِهِ فِيمَا  
أَطْلَقَهُ مِنْ قَوْلِهِ : «لَا أُنْسَى قَتِيلًا رُزِئَتْهُ مَا مَشِيَتْ عَلَى الْأَرْضِ» ، أَيْ مَدَّةَ  
حَيَاتِي ؛ وَالضَّمِيرُ فِي أَنَّهَا : لِلْقِصَّةِ ، وَخَبِيرٌ أَنَّ : الْجُمْلَةَ بَعْدَهَا ؛ وَالْعَفَاءُ : الدُّرُوسُ  
وَالذَّهَابُ ؛ وَالْكَلُومُ جَمْعُ كَلَمٍ ؛ وَبِعَيْنِي بِهِ : الْحَزَّ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْفَجْيعَةِ ، وَجَلَّ :  
عَظُمَ ؛ يَقُولُ : لَا أَنْسَاهُ وَلَوْ طَالَ عَهْدُهُ وَعَفَتْ آثَارُهُ ؛ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّ  
الْإِنْسَانَ يُؤَكِّلُ بِالْجُزَعِ الْمَصِيدَةَ الْقَرِيبَةَ الْعَهْدِ ؛ فَأَمَّا الْمُنْقَادِمُ مِنَ الْأَرْزَاءِ  
فَإِنَّ مُضَيَّ الزَّمَنِ يُعْضِيهِ . وَقَوْلُهُ : وَلَمْ أَذَرِ ... أَلَيْتَ ؛ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَأَبُو غَيْدَةَ  
لَا نَعْرِفُ مَنْ مَدَحَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرَ أَبِي خِرَاشٍ ،

التَّاسِي بِمَنْ مَصَابِهِ كَمَصَابِ الْمَصَابِ أَوْ يُرْبِي عَلَيْهِ

وقولهم في عكس ذلك

أما قولهم في عكس ذلك فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي :

ليس تأسو كلوم غيري كلومي مابه مابه وما بي ما بي

«تأسو: تداوى، والكوم: الجروح، وقبل هذا البيت - وهي أبيات يندبُ  
بها الشباب - :

يا شبابي ! وأين مني شبابي ؟ أَذَنْتَنِي حِبَالُهُ بِانْقِصَابِ

لُحْفِ نَفْسِي عَلَى نَعِيمِي وَلُحْوِي تَحْتَ أَفْنَانِهِ اللَّدَانِ الرَّطَابِ

وَمُعَزِّ عَنْ الشَّبَابِ مُوسٍ بِمَشْيِبِ اللَّذَاتِ وَالْأَثْرَابِ

قلت - لما انتحى يُعدُّ أساهُ من مُصابٍ شبابهُ فمُصابٍ :  
 ليس نأسوكلوم غيرى كلومى ... ... أليت  
 وأما قولهم فى الناسى بمن مصيبتيه كمصاب المصاب أو تُربى عليه فمن ذلك  
 قول أفلاطون لرجل رآه مغموماً : لو أحضرت قلبك ما فيه الناس من  
 المصائب ، لقلَّ همُّك ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخر هذا الباب » ...  
 وقالت الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى  
 وما يئسكون مثل أخى ولكن أسبلى النفس عنه بالناسى  
 وقال حُرَيْث بن سَلَمَةَ بن مُرارة بن مُحَقِّص ، أحد بنى خزاعى بن مازن -  
 شاعر جاهلى - :

ولولا الاشئى ما عشتُ فى الناس بعده ولكن إذا ما شئتُ جاؤ بنى مثلى

### « عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والناسى »

كان عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وابن الزبير بن العوام  
 - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وابنِ صفية عمّة سيدنا رسول الله - وشقيق  
 عبد الله بن الزبير - الذى ولي الخلافة فى الحجاز حينما من الدهر أزمان بنى أمية  
 والذى تولى قتله الحجاج - وأم عروة أسماء بنت أبى بكر الصديق - وهى ذاتُ  
 التُّطَلّاقين <sup>(١)</sup> ، وخالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وكان عالماً صالحاً ،

(١) النطاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على  
 الأسفل إلى الركبة عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها ، وكان لأسماء نطاقان تلبس

أقول : كان عروة هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقدر خيريه وشره ورجحان العقل ، بحيث يُعَدُّ مثلاً أعلى للصبر والتسلي ، وذلك أنه وقد من المدينة على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشْقَ - عاصمة الأمويين - وكان معه ابنه محمد - وكان من أجمل الناس ، فيقال : إن الوليد عانته - أصابه بعينه - فدخل محمد دار الدواب ، فضربته دابةً فخرَّ ميتاً ، ووقعت في رجل عروة الأكلة - داء في العضو يأكل منه - ولم يدع ورده تلك الليلة ، فقال له الوليد : آفطعها وإلا أفسدت عليك جسدك ، فلما دُعي الجزار ليقطعها قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجرد لك ألباناً ، فقال : لأستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ، قالوا : نسقيك المُرْقَدَ « دواء يُرْقِدُ شاربَه كالأفيون » قال : ما أحب أن أُسَلِّبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه « أحتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قوم أنكرهم فقال : ما دؤلاء؟ قالوا : يُمسكونك فإن الألم ربما يعزب مع الصبر « يعزب : يبعد » قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي ، فقُطِعت كعبه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وُضع عليها المِشْشار ، فقُطِعت وهو يهلل ويكبر « يهلل : يقول : لا إله إلا الله ، ويكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أُغِلِّي له الزيت في مغارف الحديد ، فحَسِمَ به ، فغشي عليه ، فأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولما رأى القدم بأيديهم دعا بها فقلبها

أحدهما وتحمل في الآخر الزاد إلى سيدنا رسول الله وأبي بكر وهما في الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وروى عائشة : أن النبي صلوات الله عليه لما خرج مع أبي بكر مهاجرين صنعنا لهما سفرة « طعام المسافر » في جراب « وعاء من جلد » فقُطِعت أسماء بنت أبي بكر من نطاقها وأوكت به الجراب « شدته بالكاء : الحبل الذي يشد الوعاء » فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

في يده ، ثم قال : أما والذي حَمَلَنِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنِّي مَامَشَيْتُ بِكَ إِلَى حَرَامٍ ، وَلَمَّا دَخَلَ ابْنُهُ إِصْطَبِيلَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَتَلَتْهُ الدَّابَّةُ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يُسْمِعْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَوْلَهُ « لَقَدْ لَقَيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ، وَلَمَّا قُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ : اللَّهُمَّ ، إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافُ أَرْبَعَةٍ فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ لِي ثَلَاثَةً ، فَكَانَ الْحَمْدُ ، وَأَيُّمُ اللَّهِ ، لَئِنْ أَخَذْتُ لَقَدْ أَبْقَيْتُ ، وَإِنْ ابْتَلَيْتُ لَقَدْ عَافَيْتُ ... وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ ، وَقَدَّ فِي هَذِهِ الْإِيَّامِ عَلَى الْوَلِيدِ قَوْمٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ عَيْنِيهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَتُّ لَيْلَةٍ فِي بَطْنٍ وَادٍ وَلَا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي ، فَطَرَقْنَا سَيْلٌ فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَمَالٍ ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ مَوْلُودٍ ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا ، فَذَنْدٌ ، فَوَضَعْتُ الصَّبِيَّ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ فَلَمْ أَجَاوِزْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ ابْنِي وَرَأْسَهُ فِي فَمِ الذَّنْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ، فَلَحَقْتُ الْبَعِيرَ لِأَحْبِسَهُ فَتَفَقَّحَنِي بِرِجْلِهِ « ضَرْبُهُ بِحَدِّ خُفِّهِ » عَلَى وَجْهِهِ ، فَخَطَمَهُ وَذَهَبَ بِعَيْنَيَّ ؛ فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ لِي وَلَا أَهْلًا وَلَا وَلَدًا وَلَا بَصَرَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةٍ يَعْلَمُ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ بِلَاءً ...

وَمِنْ عَزَى عُرْوَةٍ : إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ مَا بَكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشْيِ وَلَا أَرَبٌ فِي السَّعْيِ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَكَ عِضْوٌ مِنْ أَعْضَائِكَ وَابْنٌ مِنْ أَبْنَائِكَ ؛ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ وَالْكُلُّ تَبِعٌ لِلْبَعْضِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَقَدْ أَبْقَى اللَّهُ لِنَامَتِكَ مَا كَاتَبَ إِلَيْهِ فَقَرَاءٌ ؛ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنِيَاءَ ، مِنْ عَلَيْكَ وَرَأْيِكَ ؛ فَتَعَلَّكَ اللَّهُ وَإِيَّانَا بِهِ وَاللَّهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ ؛ وَالضَّمِينُ بِحَسَابِكَ ...

## مطرح الهموم

وهذه كلمة طريفة في معنى ما نحن بصدده، كتبها الكاتب «أديسون» ونقلها المرحوم محمد السباعي إلى مجلة البيان التي كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب، قال أديسون :

«ما يؤثرُ عن الحكيم سُقْرَاطُ أنه قال : إذا جُمِعَتْ مصائبُ البشرِ كُلِّها في وعاءٍ ، ثم قُسمَتْ على جميع الناسِ بالسَّواءِ لأصبح من كان يحسِبُ نفسه أشقى الناسِ وأخسرَهم يُفَضَّلُ أولى الحالَتين على الثانية ، وجاء بعد سُقْرَاطُ الشاعرُ الرومانيُّ «هوراس» فعدَّلَ هذا المعنى فقال : إنَّ ما يُكابدُ أحَدنا من المصائبِ أخفُّ عليه من مصائبِ أيِّ إنسانٍ آخر إذا وقع بين الرُّجُلَيْنِ تبادلٌ... فينا أنا ذات يوم مُتَّكِئٌ في خَلْوَتِي أَفَكِّرُ في هاتَيْنِ الحِكْمَتَيْنِ وقد أَخَذَتْنِي سِنَةٌ من النومِ إذ نُحِيلُ إلى أَنَّهُ بَأْسَرُ إِلهِ الْإِلَهِ قَدْ نَوَدَى في الناسِ : أَنْ يَحْمِلَ كُلُّ امرئٍ مصائبَه فَيَأْتُواها جميعاً فيَطْرَحوها بَعْضُها فوق بَعْضٍ ، في سَهْلٍ فسيحٍ ، فوقفتُ وَسَطَ ذلك السَّهْلِ ، وسرَّني أَنَّ أرى الناسَ طُرّاً يَأْتُونَ واحداً بعد واحدٍ يُلْقُونَ أَثْقَالَهُم العَدِيدَةَ ، حتى ارتفع من مجموعها جَبَلٌ طالَتْ<sup>(١)</sup> دُؤَابَتُهُ السَّحاب .

وكان هنالك امرأةٌ نحيلةٌ خفيفةٌ قد شَمَّرَتْ عن ساعِدِ الجِدِّ وَسَطَ هذه

(١) سميت فوق السحاب قال :

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ صَخْرَةً عَادِيَةً طالت - فليس تنالها - الأَجْبالا

فليس تنالها جملة معترضة والأجبالا مفعول طالت والتقدير : طالت الأجبالا  
فليس تنالها الأجبال .

الخلاق، تحيل في إحدى يديها مجهرًا، وعليها ثوب فضفاض هفّ هفّ سابغ  
الذيل موشى بعدد عديد من تصاور الجان والعفاريت، كلما ضربت الريح  
الجلباب تلوّنت وتشكّلت تلك التهاويل أشكالا وألوانا؛ وكان في عينها وآه  
وتلهّف وحيرة، وكان اسمها «الوهم» وهي التي كانت تسوق كل فرد من  
البشر إلى المكان المعين بعد إعاتها إياه على ربط حزمته وحجبها وإلقائها على  
عاتقه، فأذاب قلبه رؤيته لإخوت وأبناء أمي وأبي ينوون بأحلامهم. ويثنون  
تحت أثقالهم؛ وفئت كيدي أن أبصر ذلك الجبل الباذخ الذي من أحزانهم  
تسكون، ومن آلامهم تألف، على أنه ألهاني عند ذلك، وسلاي هنالك:  
عدّة من القوم، لغريب أحوالهم وعجيب هيئاتهم؛ فمن بين هؤلاء رجل في  
حلة مطرزة أقبل يسعى حتى جاء المكان، فأخرج من تحت حلته الموشاة  
المزركشة حملا، فألقاه فحدّجت بصرى أتبينه، فإذا هو: الفقير؛ وأقبل  
آخر يزرع تحت ثقله، وبعد كثير من التنفس والزفير ألقى حملة؛  
فنظرت؛ فإذا هو؛ زوجته؛ ورأيت عددا عديدا من العشاق على كواهلهم  
أثقال عجيبية من سهام وشعل؛ ولكن أعجب من ذلك أنه برغم ما رأيته يكاد  
يمزق قلوبهم من غلواء الوجد وبرحاء الكمد؛ وبرغم زفرة لهم ترقى؛  
وعبرة لا ترقا<sup>(١)</sup> كانوا لا يستطيعون مطاوعة عقولهم على إلقاء تلك الأثقال  
عند ما بلغوا الكثيب؛ ولكنهم بعد قليل من المحاولة - محاولة المتشاكل  
المتكره - هزّوا رؤسهم ورجعوا بأثقالهم أشد ثقلا وأفدح  
حملا، وأبصرت كثيرا من العجائز يلقين تغاضين وجوههن

(١) أي: لا تفيض ولا تجف وأصل ترقا: ترقا فحفف، وترقى الأولى: ترتفع

وكثيراً من الفتيات يُلقين سُمرَ جلودهنّ . ورأيت كوماً<sup>(١)</sup> من أنوف حمراء  
 وأسنان قُلحاء<sup>(٢)</sup> وشفاه قُلحاء<sup>(٣)</sup> . والعجب العُجاب أني رأيت معظم الجبل  
 مؤلفاً من غاهات بدنية . وآفات جسدية ، ثم لحتُ من بعيد رجلاً على ظهره  
 رجلٌ لم أر في سائر الاحمال ما يداينه عظاماً ، فأنعمتُ النظر فإذا هي حذبةٌ ،  
 فألقاها - فرحاً بذلك - بين سائر البلايا الآدمية . ورأيت كذلك عذلاً وأمراضاً  
 من كل ضرب وصنف ، غير أني رأيت الوهمي من ذلك أكثر من الحقيقي  
 وشاهدتُ بين هذه نوعاً قد أُلّف من جميع الأمراض والعِلل يحمله في الأكف  
 عددٌ عظيمٌ من ذوى النعمة والرفاهية ، واسمُ هذا الداء : المَلَلُ ، وأعظمُ  
 عَجبي وحيرتي أني لم أر أحداً قط ألقى بين هذه الآفات والمصائب شيئاً بما  
 ابتليتُ به نفوسُ البشر من الرذائل والحماقات والاضاليل والنقائص والسخافات  
 والأباطيل ، فأدهشني ذلك أيما دهش ، إذ كنتُ قد ظننتُ أنها فرصة لا يدعُها  
 أحد حتى يطهر نفسه من أدران الأهواء والشهوات . ويُخلص طبعه من  
 أكدار العيوب والعورات . ورأيت في الجماعة رجلاً فاسقاً لم أشك في أنه جاء  
 مُثَقلاً بأوزاره وآثامه : قلباً أقبلتُ على مارماه أفتشهُ ألفتيتُ أنه لم يَرَم شيئاً  
 من تلك الذنوب والآثام وإنما رَمَى ذاكرته ، وتبعه رجلٌ ساطعُ جاهلٍ ،  
 فنظرته فإذا هو قد نبذَ حياته لا جهله ... ولما قرع الناس من طرَح أثقالهم  
 وفرغتِ الجَنِيَّةُ النَحِيلَةُ الخفيفة<sup>(٤)</sup> من عملها ، وكانت قد رأت مني رجلاً ينظرُ

(١) جمع كومة ، يقال : كوم كومة بالضم : إذا جمع قطعة من تراب ورفع رأسها  
 ونظيره : الصبرة من الطعام

(٢) القلح : صفرة في الأسنان (٣) قُلحاء : مشقوقة

(٤) الوهم كما يذكر التماري



وَلَا يَعْمَلُ، دَنَتْ مَنَى، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَفْعُهَا الْمَجْهَرُ إِزَاءَ عَيْنِي، وَكُنْتُ أَعْرِفُ فِي وَجْهِ الْقَصْرِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ تَنَاهَى قَصْرَ أَحْتَى عَادَ أَبْشَعَ شَيْءٍ، فَسَاءَ نِي مَنَظَرُهُ، فَأَلْقَيْتُهُ كَمَا يُلْقَى الْقِنَاعُ. وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ بِبُرْهَةٍ أَبْصَرْتُ رَجُلًا رَمَى بِوَجْهِهِ لِفَرْطِ طَوْلِهِ، وَكَانَ أَطْوَلَ وَجْهِهِ حَتَّى لَذِقْتُهُ وَحَدَّهَا تَطَوَّلُ<sup>(١)</sup> وَجْهِهُ بِأَكْسِلِهِ، فَاسْتَرَاحَ مِنْ مَصِيبَتِهِ وَاسْتَرَحْتُ، وَاسْتَرَاحَ الْخَلْقُ طُرًّا؛ وَأُطْلِقَ لِكُلِّ امْرِئٍ أَنْ يَسْتَبْدِلَ يَبْلُوَاهُ مِحْنَةً غَيْرَهُ.

على أنه لم يبق في الجمع إلا متعجب من هذه المِحْنِ كيف عَدَّهَا أَهْلُهَا مِحْنًا وَكَيْفَ كَانَ قَدْ غُرِّبَهَا وَخُدِعَ فِيهَا، فَحَسِبْتُهَا نِعْمًا وَفَوَائِدًا وَبَيْنَا نَحْنُ نَتَأَمَّلُ خَلِيطَ الْمَصَائِبِ، وَمَزِيجَ النِّوَابِ، صَدَرَ أَمْرُ الْإِلَهِ الْأَكْبَرِ أَنْ يَسْتَبْدِلَ كُلَّ امْرِئٍ بِمُصَابِهِ وَيَرْجِعَ إِلَى مَثْوَاهُ بِحِظِّهِ الْجَدِيدِ، عِنْدَ ذَلِكَ تَحَرَّكَ «الْوَهْمُ»، وَقَسَمْتُ الْكُتَيْبَ فِي أَخْفَ نَشَاطٍ وَأَكْمَلَ سُرْعَةً، فَأَعْطَتْ كُلًّا نَصِيْبَهُ، - وَكَأَنِّي بِالْيَرَّاعِ يَعِجُزُ أَنْ يَنْتَعِمَ مَا حَدَّثَ إِذْ ذَاكَ مِنْ هَرْجٍ وَمَرْجٍ<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ كَانَتْ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ أَذْكَرُ الْآنَ بَعْضُهَا:

رَمَى شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلَى كُتَيْبِ الْمَصَائِبِ عِلَّةً كَانَتْ فِي بَطْنِهِ، وَكَانَ عَاقِرًا، يَتَمَنَّى وَلَدًا يَكُونُ عِمَادَ شَيْخَرِخْتِهِ وَوَارِثَ ثَرْوَتِهِ، فَدَّ يَدَهُ لِيَتَعَاضَّ مِنْ دَائِهِ الَّذِي طَرَحَهُ فَاخْتَلَفَ وَلَدًا فَاجِرًا عَاقًا، كَانَ آفَةً أَبٍ لَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ الْآبُ قَدْ نَبَذَهُ فِي النَّبَاتِ<sup>(٣)</sup> يَرِيدُ بِهِ بَدِيلًا، وَقَدْ أَخَذَ بَدْلَهُ مَرَضَ الْبَطْنِ الَّذِي رَمَى بِهِ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ. فَلَمْ تَمْضِ إِلَّا بِرُهَةٍ حَتَّى رَأَيْتَ ذَلِكَ الْغَلَامَ قَدْ ثَارَ بِالشَّيْخِ الْكَبِيرِ فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَنَاصِيَتِهِ، وَهَمَّ أَنْ يَفْلُقَ رَأْسَهُ. فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَبْصَرَ الْآبُ

(١) تَزِيدُ عَلَيْهِ طَوْلًا (٢) اخْتِلَاطٌ (٣) الْمُنْبُذَاتُ، أَيْ: الْأَشْيَاءُ الْمُنْبُذَةُ  
يَعْنِي بِهَا الْآفَاتُ الَّتِي كَانَ النَّاسُ يَرْمُونَهَا تَخْلُصًا مِنْهَا وَلِيَتَقَاوُوا بِدَلِّهَا

الأصلي، وكان يسعى نحوه ممسكا بحشاه من وجع المعدة حتى صاح به :  
يرحمك الله وإيانا، نحذ ولدك بارك الله فيه وأعطيني عِلَّتِي، ولكن قضى  
الامر، وكان مالا يكون تبديله، ولا يُستطاع تحويله ...

يا ابن بُورَان لا مفر من الله ولا من قضائه المحترم  
ورأيت أسيرا مُقَيَّدًا خُلع قيده، وقُلِّع صفده، فاعتاض منه النِقِرَس<sup>(١)</sup>  
ولكن أبدى من التأوه والتأفف والتلوى والتنزي ما دل على أنه لم يكن  
في تجارته تلك بالراج الصفقة .

ولقد كان من المُمْتِنح اللاذ أن تبصر ما وقع إذ ذاك من المبادلات  
والمقايضات، من علة بخلة<sup>(٢)</sup> وجوع يفقدان شهوة، وهم وتسيد، بأسر  
وتقييد . أما النساء فكان من تبادل الأعضاء - أعضاء الوجه والجسم - في  
شغل شاغل، فواحدة تستعوض لمة شمطاء، من جلدة سمراء، وثانية تأخذ  
عنقا قصيرا، وتعطى أنفا كبيرا، وثالثة ترمى عرضا مفضوحا. وتلتقط وجهها  
مقبوحا، وما منهن إلا من تدرك في الحال أنها اعتاضت من سيئ أسوأ،  
ومن ردى أردأ، وكذلك حال سائر الجمع في كل بلية وآفة، لعله لأن  
ما أصابنا به الله مناسب لمقدار صبرنا واحتمالنا، أو لأن كل مصيبة تذللها  
العادة ...

فقلت لها : يا عَزْ، كل مصيبة إذا وطئت يوما لها النفس ذلت  
ولقد رَحِمْتُ من صميم مُهَجَّتِي ذلك الاحدب الأنف الذَّكْر، إذ راح معتدل  
القامة وإني الشَّطَّاط، لكن يدهاء في كُلاه؛ وعلة في حشاه، كما رَحِمْتُ مُعَاقِدَهُ  
ومُبايعه الذي راح مُحْدَوِّدِ بَظْهُرِ يَطَّاعٍ وَسَطِ سِرْبٍ من الفتيات كن قبل به مواعات

(١) من مرض بفقر (٢) داء في الرجلين يمنعهما من الحركة .

وفيه هائمات . ولست ناسياً ذِكرَ شأني وشأنِ ذِي الوجهِ الطويل ، فإن ذلك الرفيقَ ما كادَ يأخُذُ وجهي القصيرَ حتى أخفى فيه أعجوبةَ الأعاجيب ، فاستلقيتُ ضاحِكاً من وجهي حتى أُنَجِلْتُ وجهي ، وأدرك الرجلُ المسكينُ خطيئته وعَرَفَ غَلَطَته ، ففجّل وأستَحْيَ ، غيرَ أني ما لَبِثْتُ أَنْ رَفَعْتُ <sup>(١)</sup> إِلَى نَفْسِي فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ لِي أَنْزَهُى وَأَخْتَالَ وَأَسْخَرَمَنَ الْغَيْرِ وَأَنَا سُخْرَةٌ ، وَأَضْحَكَ مِنْهُمْ وَأَنَا ضُحْكَةٌ <sup>(٢)</sup> ، وَإِنْ لِي فِي غَرَابَةِ هَيْئَتِي لَشُغْلًا عَنِ اللَّهِ وَهَيْئَاتِ النَّاسِ وَمَنْدُوحَةً ، وَذَلِكَ ، أَيُّهَا الْقَارِئُ ، أَنِّي رَفَعْتُ يَدِي أُرِيدُ جَبْهَتِي فَلَمْ تَقَعْ لِطَوْلِ وَجْهِهِ إِلَّا عَلَى الشَّفَةِ الْعُلْيَا ، وَكَذَلِكَ بَيْنَا أَنَا أَجِيلُ يَدِي فِي وَجْهِهِ أُرِيدُ إِحْدَى عَيْنَيْهِ صَكَّتُ يَدِي أَنِّي ، لِبرُوزِهِ وَضَخَامَتِهِ ، مِرَاراً .

ثُمَّ نَظَرْتُ نَاحِيَةَ مَنْى فَأَبْصَرْتُ رَجُلَيْنِ فِي مِثْلِ حَالِنَا مِنَ السُّخْرِيَةِ قَدْ أَحْدَثَا تَبَادُلًا فِي زَوْجَيْنِ مِنَ الْأَرْجُلِ ، زَوْجٌ غَلِيظٌ أَعْوَجٌ قَصِيرٌ ، وَزَوْجٌ طَوِيلٌ نَحِيلٌ ، فَكَانَ صَاحِبُ الرَّجُلَيْنِ النَّحِيلَتَيْنِ كَأَنَّمَا قَدْ رُفِعَ فِي الْهَوَاءِ عَلَى عُمُودَيْ بَيْتٍ ، فَهَامَتُهُ تَدَوَّرُ مَعَ الرِّيحِ حِينَما دَارَتْ ، وَأَمَّا صَاحِبُ الرَّجُلَيْنِ الْعَوَجَاوَيْنِ الْقَصِيرَتَيْنِ فَكُلُّمَا حَاوَلَ السَّيْرَ دَارَ فِي مَكَانِهِ لَا يَبْرَحُهُ . وَلَمَّا رَأَيْتُ عَلَى نُحْيَاهُ سِيماً الْحِلْمِ وَالظَّرْفِ وَالْفَكَاهَةِ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ أَمَّا زَوْجُهُ فَقُلْتُ لَهُ : سَأَجْعَلُ لَكَ كَذَا وَكَذَا إِنْ أَتَيْتَ أَنْ تَبْلُغَ هَذَا ، وَرَسَمْتُ لَهُ خَطًّا عَلَى مَسَاقَةِ ذِرَاعَيْنِ مِنْ مُرْسَى قَدَمَيْهِ ، فِي مُدَّةِ نِصْفِ سَاعَةٍ .

\*\*\*

وَأخيراً تَمَّ تَوْزِيعُ كَثِيرِ الْمِحَنِ وَالْآفَاتِ عَلَى أَهْلِهَا ، مِنْ ذِكْرِ وَأَثَى .

(١) رَجَعْتُ (٢) يُقَالُ : فَلَانُ سَخْرَةٌ كَسْفَرَةٌ : يَسْخَرُ مِنْهُ ، وَسَخْرَةٌ كَهَمْزَةٍ : يَسْخَرُ مِنَ النَّاسِ ، وَضَحْكَةٌ بِسُكُونِ الْحَاءِ : يَضْحَكُ مِنْهُ وَبِفَتْحِهَا : كَثِيرُ الضَّحْكِ

وأقبلوا جميعاً تحت أُنْقَالِهَا الجديدة رُزْحاً حَسْرَى . وَلَهَا حَيْرَى . وقد مَأْوَى  
السَّهْلَ وَالْحَزْنَ ضَجَّةً وَأُنِيناً . وَرَنَةً وَحَنِيناً . ثم أدرَكْتُم رَحْمَةَ اللَّهِ ، فَأَمْرُهُمْ  
بَطْرَحِ أَنْقَالِهِمْ كَرَّةً أُخْرَى ، فَأَلْقَوْهَا فَرِحِينَ بِإِلْقَائِهَا مَسْرُورِينَ . وَأَمْرُهُم ،  
تلك الشَّيْطَانَةُ الَّتِي غَرَّرَتْ بِهِمْ وَضَلَّلَتْهُمْ ، أَنْ تَنْصَرِفَ ، فَانْصَرَفْتُ ، وَأَرْسَلَ  
إِلَهِهُ بِدَلِّهَا مَلَكاً كَرِيماً ، جَدَّ مُخَالِفٍ لَهَا هَيْئَةً وَشَكْلاً . مُبَايِناً لَهَا خَلْقاً وَخُلُقاً ،  
رَزَبِنَ الْحَرَكَاتِ ثَابِتَ الْجَنَانِ ، قَدْ جَمَعَ فِي هَيْئَتِهِ بَيْنَ الطَّلَاقِ وَالْجِدِّ وَالْوَقَارِ وَالْبِشْرِ ،  
لَا يَنْفَكُ مِنْ حَيْنٍ إِلَى آخِرٍ يَرْفَعُ نَحْوَ السَّمَاءِ طَرْفَهُ ، وَيُسْمُو إِلَى عَرْشِ اللَّهِ  
بَأْسَلِهِ ؛ وَأَسْمُ هَذَا الْمَلِكِ . الصَّبْرُ ، وَأَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ مَقَامَ بِجَانِبِ  
جَبَلِ الْأَلَامِ إِلَّا وَأَخَذَ الْجَبَلَ يَهْبِطُ وَيَضُولُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ رُبْعِهِ ،  
ثُمَّ أَعَادَ مَلَكُ الصَّبْرِ إِلَى كُلِّ حَظَّةٍ الْأَوَّلَ ، وَأَلْهَمَهُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ ، وَأَشْعَرَ قَلْبَهُ  
قُوَّةَ الْجَلَدِ وَنُورَ الْيَقِينِ ، فَرَاحَ مُغْتَبِطاً سَعِيداً يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ مَا أَعْطَاهُ ، تَائِباً مِمَّا  
اقتَرَفَهُ مِنَ الْجَهْلِ وَجَنَاهُ .

فَمَا أَفْذْتُ مِنْ هَذِهِ الْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ أَنِّي لَسْتُ حَقِيقاً أَنْ أَتَبَرَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا  
بُصِيئَتِي بِهِ اللَّهُ أَوْ أَنْفِيسَ عَلَى أَمْرِي هِبَةً أَوْ رِنْعَةً ، إِذْ كَانَ مُسْتَحِيلًا عَلَى أَمْرِي  
أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ جَارِهِ وَيَعْرِفَ سِرَّ صَاحِبِهِ وَيَقِفَ عَلَى مَبَاغِزِ أَحْزَانِهِ وَأَشْجَانِهِ  
وَكُرْبِهِ ، وَنُوبِهِ ، وَبَلَايَاهُ ، وَرَزَايَاهُ ، فَكُلُّ لُكْلٍ سِرٍّ غَائِضٍ وَخِزَانَةٍ مُقْفَلَةٍ  
وَسِفَرٍ مُطَبَّقٍ . وَلَكِنِّي آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَخَذَ نَفْسِي بِثَلَاثِ : كِتْمَانِ الْعَلَّةِ ،  
وَكِتْمَانِ الْفَاقَةِ ، وَكِتْمَانِ الْمَصِيبَةِ ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا جَمِيعاً ، وَأَنْ لَا أُحْسَدَ أَمْرًا عَلَى  
شَيْءٍ ، وَأَنْ أَكُونَ أَبَدًا حَاضِرَ الصَّفْحِ لِلنَّاسِ ، وَاسِعَ الْعَفْوِ ، إِذْ كَانَ أَعْمَلُ  
النَّاسِ أَعْذَرَهُمُ لِلنَّاسِ ...

## عقرياتهم في الدنيا وأنها دار يحزن وأكدار

ولأن الدنيا التي أسماها سيدنا رسول الله : أم دفر - والدفر ، النتن ،  
دقرا دارفرا لهذه الدنيا - أقول : لما كانت هذه الدنيا دار مصائب ويحزن  
وأكدار ، وحسبك بهاديم الذات - الموت - الذي فضع هذه الدنيا وبديها  
أتما فضيحة والذي هو نهاية كل حي ، من مصيبة أى مصيبة - لأجل هذا  
قال الأوائل والأواخر في هذه الدنيا وأبدعوا وافتنوا كل الافتنان ؛ ونحن  
فسوف نورد عليك أطيب ما قالوا في ذلك ، لما بينه وبين الصبر  
من واشجة الرحم ، ولأنه كلام خالد ، لأنه حق وصدق ، لا يليق بعاقل أن  
لا يكثر له ، وإنما الواجب أن يجعله دائما نصب عينيه ، وأن ينظر إليه  
نظرة رجل ثاقب الرأى بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحق ممتلئ العقل  
أعمته أباطيل هذه الحياة وألهاء الشكائر وبهرجها عن كنهها فارتطم في أوحالها  
وصار يمتلئ في لذاتها ملخا ، لاهيا عن المنهاة المؤسسة التي تنظرنا جميعا ،  
جالبا بنفسه على نفسه ما يضاعف آلامها ، لا ما يخفف أحزانها ويهون ما أمكن  
شدائدنا وأكدارها . ونحن إذ نورد في هذا الكتاب ما قالوا في الدنيا فإننا  
لاندعو إلى الزهد فيها وفي تعميرها - كما سيمر عليك في هذا الفصل - ولكن  
مادام كتابنا في عقريات الأوائل والأواخر ، في كل شيء ، كان واجبا علينا  
أن نورد عقرياتهم في الدنيا ، وفي الموت ، كما نورد عقرياتهم في سائر المعاني  
التي يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذموا الدنيا إنما يترامون  
بذلك وأولا ، إلى أن يصدتوا بالحقيقة وهي أن الدنيا في الواقع دار أحزان  
وأكدار ، ودنائيا ، إلى حث الناس على الإجمال في الإقبال عليها ، والتعقل في

التهافت على شهواتها، والاعتبار بعبرها، والتزوّد فيها لما بعدها، ومن يُنكر أن ذلك جميل ونافع ! ذمّ رجل الدنيا بحضرة علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال علي: أسكت، ابن الدنيا دارُ صدق لمن صدّقها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مهبط وحى الله، ومتجر أوليائه... إلى آخر ما قال. ومن كلامه أيضا رضى الله عنه: الناس أبناء الدنيا ولا يُلام المرء على جُب أمه... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا...

### أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنى الدنيا: أمّ دُفِر، أسماها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدُفِر: النَّشْنُ، وتُكنى كذلك: أمّ شَمْلَة، أنشد ابن الأعرابي:

مِنْ أُمِّ شَمْلَةٍ تَرْمِينَا بِذَانِفِهَا غَرَارَةٌ زِيلَتْ مِنْهَا التَّهَافِيلُ

وكذلك تُكنى: أمّ شَمْلَة، قال أبو عمرو بن العلاء: إنما سُمّيت الدنيا والخر بذلك - بذلك - لأنهما يشتملان على عقل الإنسان فيغيثانه... أقول: ومن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدة تعاقبهم بها وتكالبهم عليها، وضراوتهم بشهواتها، واقتنائهم بزيفتها وخوضهم غمراتها، بحيث يُعدّون كأنهم مُنزفون مُستلبو العقول حتى إذا رماهم هاذم اللذات بسهامه صَحَّوْا وأفاقوا... وصدق سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نِيَاثٌ فإذا ماتوا انتهبوا... أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سَمَّوه أبا المعجب قال:

وما الدَّعْرُ فِي رَفْعِهِ إِلَّا أَبُو الْعَجَبِ \*

والنسبة إلى الدنيا: دُنياوى، ويقال: دُنْيَوِيٌّ ودُنْيَوِيَّةٌ - وجهها دُنْيٌ، وإنما

سميت دنيا: لِإِدْنُوها، لِأَنَّها دَنَتْ وَقُرُبَتْ، وتأخّرت الآخرة، أما الدهر فالنسبة إليه دُهرِيٌّ بضم الدال تقول: رجل دُهرى: أى قديم مُسِنٌ، أما رجل دَهرى بفتح الدال فعناه: ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر، وقوله صلى الله عليه وسلم: لَا تُسَبِّحُوا الدهرَ فَإِنَّ اللهَ هو الدهر، فعناه: أن العرب كان من شأنها أن تَدُمَّ الدهرَ وتُسَبِّهه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موتٍ أو هرمٍ فيقولون: أصابهم توارعُ الدهر وحوادثه وأبادهم الدهر، فيجملون الدهر الذى يفعل ذلك فيدُمونه، وقد أخبر الله بذلك فى كتابه العزيز ثم كذَّبهم فقال: وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نمت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر، ثم قال الله: وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون، وجمع الدهر أدهر وأدهور، أما الدهارير فهى تصاريف الدهر، وقيل جمع للدهر على غير قياس، قال الشاعر القديم (١):

فَاسْتَقْدِرِ اللهَ خيراً وَأَرْضَيْنِ بِهِ      فبينما العُسرُ إِذْ دَارَتْ مِياسِرُ  
وبينما المرءُ فى الأحياءِ مُغْتَبِطٌ      إِذَا هو الرُّمُسُ تُعْفَوُ الأعاصِرُ  
يَسْكِي عليه غريبٌ ليس يَعْرِفُهُ      وذو قرابته فى الحىِّ مُشْرورُ  
حتى كأنَّ لم يكن إلا تَذَكُّرُهُ      والدهرُ أَيَّما حِينٍ دَهارِرُ

« قوله: فاستقدر الله خيراً: أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً، وقوله: فبينما العسر؛ فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره فبينما العسر كائن أو حاضر، إِذْ دَارَتْ مِياسِرُ: أى حدثت وحلت، والمِياسِر جمع ميسور، ومُغْتَبِطٌ أى فى غبطة: أى مَسْرَّةٍ وحُسن حال، والرُّمُس: القبر، وتعفوه: تدرسه وتمحو أثره،

(١) قال أبو عمرو بن العلاء: لرجل من أهل نجد. وقال ابن برتى: لعثير بن لبيد العذرى، قال: وقيل لحريث بن جبلة العذرى

والأعاصير جمع إعصار وهي : الريحُ تهبُّ بشدةٍ ، وقوله : كأن لم يكن إلا تذكره فيمكن تاءة وإلا تذكره فاعل بها واسم كأن مضمّر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء في تذكره عائدة على الهاء المقدّرة ، والدهر مبتدأ ودهاير خبره وأيتما حال ظرف زمان والعامل فيه ما في دهاير من معنى الشدة ، والدهاير قال الزمخشري : تصاريف الدهر ونوائبه ، مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعبايد

### قِلة لبث الإنسان في الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه : رَهِيمٌ أَنَا مِنَ الدُّنْيَا ؟ وَمَالِي وَلَهَا ؟ وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُهَا كَرَاكِبٍ سَارٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ، فَرُفِئَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا ، قَالَ : مِنَ الْقِيلُولَةِ وَهِيَ الْإِسْتِرَاحَةُ نِصْفُ النَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَوْمٌ ، يُقَالُ : قَالَ يَقِيلُ قِيلُولَةً فَهُوَ قَائِلٌ ،

وقال علي بن أبي طالب : الدُّنْيَا دَارُ مَرَّةٍ لَا دَارُ مَقَرٍّ وَالنَّاسُ فِيهَا رُجُلَانِ رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا « أَوْبَقَهَا : أَهْلَكَهَا بِسَبَبِ تَهَاوُنِهِ عَلَى الدُّنْيَا وَلِمُعْرَاضِهِ عَنِ الْآخِرَةِ ، وَابْتَاعَ : اشْتَرَى ، وَأَعْتَقَهَا أَيْ مِنَ النَّارِ ، بِتَجَنُّبِهِ الْمَعَاصِيَ وَشَهَوَاتِ الدُّنْيَا » وَقِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الَّذِي عَاشَ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا - : كَيْفَ وَجَدْتَ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : كَدَّارٌ لَهَا بَابَانِ دَخَلْتُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَخَرَجْتُ مِنَ الْآخَرِ

### قِلة متاع الدنيا

قال الله تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى » قَلِيلٌ : سَرِيعُ النِّفَاقِ ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ



السَّامِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ  
الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادُونَ عَلَيْهَا أَمْرًا لَيْلًا  
أَوْ نَهَارًا جَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَنْسِ،

« قوله سبحانه : إنما مثل الحياة الدنيا ، أى فى سرعة تَقْضِيهَا وَذَهَابِ نَعِيمِهَا  
بعد إقبالها واعتزاز الناس بها ، وزخرفها : حسنها وبهجتها ، وقادرون عليها : أى  
متمكنون من حصدها ، وأتاهَا أَمْرًا ، أى نزل بزرعها ما يحتاجه فجعلها الله  
كأنها حُصِدَتْ من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن ، وقال أبو جعفر المنصور  
حين حَضَرَتْهُ الوفاة : يَئِنَّا الْآخِرَةَ بِنُومَةٍ ... وقال شاعر :

أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّ فَإِنَّهَا سَحَابَةٌ صَيِفٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ  
وقال أعرابي : ما كانت الدنيا على بنى فلان إلا طَيْفًا لَمَّا انْتَبَهَوْا وَلَى  
عَنْهُمْ ، وقال آخر :

مَرَزْتُ بِدُورِ بَنِي مُصْعَبٍ      بِدُورِ السُّرُورِ وَدُورِ الْفَرَحِ  
فَشَبَّهْتُ سُرْعَةَ أَيَّامِهِمْ      بِسُرْعَةِ قَوَيْسٍ يُسَمَّى فُزَحَ  
تَلَوْنَ مُعْتَرِضًا فِي السَّمَاءِ      فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا نَزَحَ

### الماضى والحاضر والمستقبل

قال الحسنُ البَصْرِيُّ : أَمْسَ أَجَلٌ ، وَالْيَوْمُ عَمَلٌ ، وَغَدَا أَمَلٌ ... ، وقال  
حكيم : بَيْنِي وَبَيْنَ الْمُلُوكِ يَوْمٌ وَاحِدٌ ؛ أَمَّا أَمْسٌ فَلَا يَجِدُونَ لَذَّةَ وَلَا أَجْدُ شِدَّةَ  
وَأَمَّا غَدَا فَنَاقِئٌ وَإِيَّاهُمْ مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ ، وَمَاهُو إِلَّا الْيَوْمُ ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ !

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم : اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا

وقال الحسن البصري: ما وَعَظَني شيءٌ مِثْلُ ما وَعَظَني كلامُ الحِجَاجِ في حُطْبَتِهِ: إنْ أَمَرًا أَنتَ عليه سَاعَةٌ مِنْ عُمْرِهِ لم يَذْكُرْ فيها رَبَّهُ أَوْ يَسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يُفَكِّرُ في مَعَادِهِ ، لَجِدِيرٌ أَنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يومَ القيامةِ ... وكان الحجاج بليغاً ومن مصاقع الخطباء ، ومن كلماته التي تشبه كلمات الحسن البصري ، وهي بما قاله على ذؤابة المنبر : أيها الناس ؛ ائِدْعُوا هذه الأنفُسَ ، فإنها أَسْأَلُ شيءَ إِذَا أُعْطِيَتْ ، وَأَمْنَعُ شيءَ إِذَا سُئِلَتْ ، فَارْحِمَ اللهَ أَمْرًا جعل لنفسه خِطأَما وزِماماً ، فَقادها بِخِطَايَها في الله ، وَعَظَفَها بِزِمامِها عَن مَعْصِيَةِ الله ، فَإني رأيتُ الصَّبرَ عَن محارِمِ الله أَيْسَرَ مِنَ الصَّبرِ على عَذابِهِ ... « ائِدْعُوا : أي ائِمْنُوا ، والخطام : حَبْلٌ من ليف أو شَعْر أو كَتَنان يُشْنى طَرَفُهُ على مِخْطَمِ البعير ليقادَ بِهِ ، والزمامُ : حَبْلٌ دَقِيقٌ يُجْعَلُ في أنْفِهِ »

### الأيام تهدم الحياة

قال حكيم : مَنْ كان اللَّيْلُ والنَّهارُ مَطْيَبَةً ، ساراً بِهِ وإنْ لم يَسِرْ ، أَخَذَهُ الشَّاعِرُ فَقَالَ :

رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وإنْ كان خائِضاً أَخا سَفَرٍ يُسَرِّى بِهِ وهو لا يَدْرِي  
« خائِضاً : يريدُ مَقِيماً في خَفْضٍ وَدَعَةً »

وقالوا : أنفاسُ المرءِ حُطَاها إلى أَجَلِهِ ، وَأَمَلُهُ خادِعُهُ عَنِ عَمَلِهِ ؛  
وقال الشاعر :

ما رتَدَّ طَرَفُ امرئٍ بِلَحْظَتِهِ إِلا وَشْيٌ يَمُوتُ مِنْ جَسَدِهِ  
وقال أبو العتاهية :

تَظَلُّ تَفَرُّحُ بِالْأَيَّامِ تَقْطَعُها وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ

وقال عمرو بن قبيصة - شاعر قديم في الجاهلية - :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً      خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لَجَامِي  
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا      أَنُوءُ ثَلَاثًا بِمَدَّهِنَّ قِيَامِي  
رَمَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى      فَكَيْفَ بَعْدَ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِي  
فَلَوْ أَنَّهُ تَبَلُّلٌ إِذْنُ لَا تَقِيَّتُهَا      وَاسْكَنْتَنِي أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِي

« قوله : خلعت بها عني عذار لجامي : فالعرب تقول : خلع فلان العذار يريد : خلع الحياء ، مثل للشباب المنهمك في غيئه كما يخلعُ الفرسُ العذار فيجمع ويطمح لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذي يضم حبل الحطام إلى رأس البعير والناقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهو حيث أسام الغواية في هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عدم التماسك كما يذنه في البيت الثاني ، وقوله : « أَنُوءُ ثَلَاثًا يعني : أنه ينفض ثلاث مرات بانحناء ثم يستقيم ، وبنات الدهر : نوبته »

### البقاء في الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لم يكنسب ابن آدم إلا الصَّحَّةُ والسَّلاَةِ لَكَفَى بِهِمَا دَاءٌ « لأن السَّلاَةِ تُنْسِلُهُ إِلَى الْهَرَمِ وما يستتبعه من الهمِّ والسَّقَمِ » وقيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : ما حالٌ من يَفْنَى بَيَقَانِهِ ، وَيَسْقَمُ بِسَلَامَتِهِ ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنَتِهِ ! وقال حُمَيْدُ بْنُ أَوْرٍ الهَلَالِي - وهو شاعر إسلامي ترجم له أبو الفرج في الجزء الرابع من أغانيه - :

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَابَتْ بَعْدَ صِحَّةٍ      وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا  
وَلَا يَلْبَثُ الْعَصْرَانِ : يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ      إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكََا مَا تَيَمَّمَا

وقال أبو حَيَّةَ التَّمِيمِيُّ - من شعراء الدولتين - :

أَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا      لَبِسْنَ الْبِلَى بِمَا لَبِسْنَ اللَّيَالِيَا  
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ      تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا  
وقال بعض شعراء الجاهلية - وقيل : القائل عبد الرحمن بن سُويْدِ الْمُرِّي -  
كَانَتْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَازِمٍ      فَأَلَانَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ  
وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ جَاهِدًا      لِيُصَحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ  
« كانت قناتي لا تلين لغازم : من الغمز ، وهو العُضْرُ باليد وهو مَثَلُ  
يريد : أنه كان صُلبَ الْعُودِ شديد القوة على من يشتد ويحتري عليه » وقال  
النَّمِرُ بْنُ تَوَلَّبٍ - شاعر جاهلي إسلامي ، وقد على سيدنا رسول الله وَحَسَنَ  
إِسْلَامُهُ ، ومن قوله : صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ ، وصَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يُذْهِبُنْ كَثِيرًا  
مِنْ وَحَرِ الصَّدْرِ - قال :

تَذَارَكَ مَا قَبْلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ      حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَمُرُّ وَأَغْفِيلُ  
يَسُرُّ الْفَتَى طُولُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا      فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ  
يَرُدُّ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصِحَّةٍ      يَذُرُّ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ  
« والبقاء مقصورٌ لضرورة الشعر وتروى : والغنى » ... وقال الصَّلْتَانُ  
العَبْدِيُّ - شاعر إسلامي كان في زمن جرير والفرزدق - :

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا      أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ قَتَى  
وهذا البيت من أبيات جميلة للصَّلْتَانِ اختارها أبو تمام في حماسه  
يقول فيها :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَقَى الْكَبِيرَ      يَرَكُّرُ الْغَدَاةَ وَمَرُّ الْعَشِيِّ  
إِذَا لَيْلَةٌ ... الْبَيْتِ

نَرُوحُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لَا تَنْقُضِي  
تَمُوتُ مَعَ الْمَرَّةِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

### فرح الدنيا مشوب بالترح مُعْتَقَبٌ بِالْهُمُومِ

نَظَرَ كِسْرَى أُنُو شِرْوَانٍ إِلَى مُلْكِهِ يَوْمًا فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ : هَذَا مُلْكٌ إِلَّا أَنَّهُ  
هُلْكَ ، وَنَعِيمٌ إِلَّا أَنَّهُ عَدِيمٌ ، وَغَنَاءٌ لَوْلَا أَنَّهُ عَنَاءٌ ، وَسُرُورٌ لَوْلَا أَنَّهُ سُرُورٌ ،  
وَيَوْمٌ لَوْ كَانَ يُوثِقُ لَهُ بِغَدٍ ... وَقَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ حَبْنَاءٍ - هُوَ وَأَخْرَاهُ صَخْرٌ وَيَزِيدٌ  
كَانُوا شَعْرَاءَ ، وَكَانَ الْمَغِيرَةُ مِنْ رِجَالِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ تَوَفَى سَنَةَ ٩١ هـ :  
وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ مَا تَمُّهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ

### الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ سَحَكِيمٌ رَجُلًا يَقُولُ لَأَخَّرَ : لَا أَرَاكَ اللَّهُ مَكْرُوهًا ، فَقَالَ : دَعَوْتَ  
عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ ، مَنْ عَاشَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَكْرُوهٍ ، وَقِيلَ لِلنَّظَامِ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ  
الْمَعْتَزَلِي - وَفِي يَدِهِ قَدْحُ دَوَاءٍ - : كَيْفَ حَالُكَ ؟ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ فِي دَارِ بَلِيَّاتٍ أَدْفَعُ آفَاتِ بَاقَاتِ

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّهْمِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤١٦ هـ يَصِفُ الدُّنْيَا - :  
طُمِعْتَ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفَوًا مِنَ الْإِقْدَامِ وَالْإِكْدَارِ  
وَمُسْكَفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ تُجْدُوهُ نَارِ  
وَلِذَا رَجَّوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا تَبْنِي الرِّجَاءَ عَلَى شَفِيرِ هَارِ

« الجذوة : الحجر ، والشفير : ناحية الوادى من أعلاه ، وهار : يقال : هار  
الجرف والبناء : انهار وانهدم »

وقال شاعر :

أَمَرَ الزَّمانُ لَنَا طَعْمَهُ      فما إِن تَرى سَاعَةً عَذْبَهُ

وقال آخر :

أَفَ من الدنيا وأَسبابِها      فإنها لِلْحُزنِ مَخْلُوقَةٌ  
هُمُّومُها ما تَنْقُضِي سَاعَةً      عن مَلِكٍ فيها ولا سُوْقَةٍ

وقال آخر :

تَأْتِي المَكْارِهُ حين تَأْتِي جُمْلَةً      وترى الشُّرُورَ يَحْجِئُ في الفَلَتَاتِ  
وقال ابن بُبَاة السَّعْدِي :

وما خَيْرُ عَيْشٍ نَفْصُهُ سِنَّةُ الكَرَى      وَنَفْصٌ بِهِ نَعْتَلُ أو تَتَوَجَّعُ  
مع الوَقْتِ يَمْضِي بُؤْسُهُ وَنَعِيمُهُ      كَأَن لَمْ يَكُنِ وَالوَقْتُ عُمُرُكَ أَجْمَعُ  
وقال الشريف الرضی :

يا أَمَرَ الأَقْدارِ بِأِدْرٍ صَرَفَها      وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّالِبِينَ حِثَّاتُ  
تُحْذِرُ مِنْ كَوْنِكَ ما اسْتَطَعْتَ فَإِنما      شُرَكَائُكَ الأَيَّامُ وَالوُرَّاثُ  
لَمْ يَقْضِ حَقَّ المَالِ إِلَّا مَعْشَرُ      وَجَدُوا الزَّمانَ يَغِيثُ فِيهِ فَعائُوا  
تَحْشُو على عَيْبِ الغِنَى يَدُ الغِنَى      والفقر عن عَيْبِ الفَقْرِ بِحَاتُ  
المالُ مالُ المرءِ ما بَلَغَتْ به الشَّ      هَوَاتُ أو دَفَعَتْ به الأَحْداثُ  
ما كان مِنْه فَاضِلاً عَنْ قُوَّتِهِ      فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مِيراثُ  
مالِي إلى الدنيا الغُرُورَةُ حاجَةٌ      فَلْيَخْزَ سَاحِرُ كَيْدِها النِّفَّاثُ  
سَكَنَها مُحْذُورَةٌ وَعَهْدُها      مَنْقُوضَةٌ وَحِبَالُها أُنْكَاثُ

أَمْ الْمَصَائِبِ لَا يَزَالُ يَرُوعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ نَوَائِبٍ وَإِنَّا  
لَأَنَّى لَا يَجِبُ مِنْ رِجَالٍ أَمْسَكُوا بِجَبَائِلِ الدُّنْيَا وَهُمْ رِثَاثُ  
كَتَزُوا السُّكُوزَ وَأَغْفَلُوا شَهْوَاهَهُمْ فَالْأَرْضُ تَشْبَعُ وَالْبُطُونُ غِرَاثُ  
«صَرَفَهَا : حَدَّثَانَهَا وَنَوَائِبَهَا ، وَحِثَّاتُ : سِرَائِعُ ، وَحِثَا التُّرَابُ : صَبَّ ، يَقُولُ  
فِي هَذَا الْبَيْتِ : إِنَّ الْغَنَى يَغْطِي عِيُوبَ الْإِغْنِيَاءِ أَمَا الْفَقْرُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ  
يَفْتَشُوا عَنْ عِيُوبِ الْفُقَرَاءِ وَيُلْصِقُوا بِهِمُ الْعِيُوبَ لِصَافَأَ . وَنَكَثَ الْحَبْلُ :  
نَقَضَهُ ، وَرِثَاثُ جَمْعُ رِث : بَالٍ ، وَغِرَاثُ : جَائِعَاتُ ...»

### النقصان بعد التمام

قَالُوا : مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ ... وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ :  
وَجَدْتُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ بَيْتَيْنِ كَأَنَّهُمَا أَخِذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : حَتَّى إِذَا فَرِحُوا  
بِمَا أَوْثَرُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ، وَهَمَّا :  
أَخَذْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ غِبَّ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ  
وَسَالِمَتِكَ اللَّيَالِي فَانْتَرَتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَخْذُ السُّكُورُ  
وَمِنْ دُعَاءِ بَعْضِهِمْ : صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ آفَاتِ التَّمَامِ ...  
وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْصُهُ تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ  
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : عَرَضُ الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ ، وَمَنْ فِيهَا ضَيْفٌ ،  
وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ ، وَالضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ «الْعَارِيَّةُ : مَا تَسْتَعِيرُهُ مِنْ قَرِيبِكَ أَوْ صَدِيقِكَ  
أَوْ جَارِكَ لِتَنْتَفِعَ بِهِ حِينَئِذٍ تَرُدُّهُ إِلَى صَاحِبِهِ ، وَعَرَضُ الدُّنْيَا : مَا نَزَلَ مِنْهَا  
مِنْ مَتَاعِهَا وَحُطَّامِهَا ،

وقال حكيم : الدنيا تُطعمُ أولادها ، وتأكلُ أولادها . وقال الشاعر :  
وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ      ولا بُدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ  
وقال المتنبي :

أبدأً تسترِدُّ ماتهُبُ الدنيا فيألتِ جودَها كانَ بُخلاً  
فكفَّتْ كَوْنُ فرحةٍ تُورِثُ النِّعمَ      ويخِلُ يُغادرُ الوجدَ خِلاً  
ويقول المتنبي : شيمة الدنيا أن تسترِدَّ ماتهُبُ وتعطى ، فليتها بخلت وما  
جاءت إذ لو بخلت ولم تُعطِ لكففتنا الفرح بوجود شيء يُعقِبُ لذقده النعم ،  
والفرح بوجود خليل يؤرِّسُ بقرِّه ثم تخترمه المنية فيغادرُ الهمَّ خليلاً للحازن  
عليه ، وفي هذه القصيدة يقول المتنبي :

ولذيذِ الحياةِ أنْفُسُ في النَّفْسِ      س وأشهى من أن يُملَّ وأحلى  
وإذا الشَّيْخُ قال أَيْ فَا      مَلَّ حَيَاةٍ وإنما الضَّعْفُ مَلَا  
آلَةُ العَيْشِ حِجَّةٌ وشبابُ      فإذا وَلَّيا عن المرءِ وَلَى

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر :

هل الدهرُ إلا ساعةٌ ثم تنقضي      بما كان فيها من بلاءٍ ومن خَفَضِ  
فهو نكَّ لا تحفيلُ إساءةٍ عارِضِ      ولا فرحةٍ تأتي فيكَلَّتْهُما تَمْضِي  
« الحَفَضُ : الدَّعةُ ولينُ العيشِ وسَعَتُهُ ، والهَوْنُ مُصْدِرُ الهَيْئِ في معنى  
السكينة والتَّثَبُّتِ والوقار والرفق قال :

فَهُوَ نَكَا لَا يَرُدُّ الدَّهْرُ مَا فَاتَا      لَا تَهْلِكَا أَسْفَا فِي إِثْرِ مَنْ مَاتَا

وقال آخر :



وما اكْتَابَتْ نَفْسٌ قَدَامَ اكْتِسَابِهَا وَلَا ابْتَهَجَتْ نَفْسٌ فِدَامَ ابْتِهَاجِهَا  
ودخل أعرابيٌّ عُمَرُ مائَةٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً عَلَى مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ :  
صِفْ لَنَا الدُّنْيَا : فَقَالَ : سُدِّيَّاتٌ بَلَاءٌ وَسُنِّيَّاتٌ رَخَاءٌ ، يُولَدُ مَوْلُودٌ وَيَمْلِكُ هَالِكٌ  
ولولا المولود بادَّ الخلقُ ، ولولا الهالك ضاقت الأرض .

### الدنيا غُرَّارة

قال بعضهم : هذه الدنيا قَحْبَةٌ يَوْمًا عِنْدَ عِطَارٍ ، وَيَوْمًا عِنْدَ بَيْتَارٍ ...  
وقال المتنبي :

فَذِي الدَّارِ أَخُونُ مِنْ مُومِسٍ وَأَخْدَعُ مِنْ كَفَّةِ الْحَايِلِ  
تَفَانِي الرِّجَالُ عَلَى حُبِّهَا وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلِ

« الحايِل : الصائدُ ذُو الْجِبَالَةِ ، وَهِيَ الشَّرَكُ ، وَالطَائِل : مَا كَانَ لَهُ قَدْرٌ .  
يقول المتنبي : إِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا فَاجِرَةٌ خَوَانَةٌ لِبَيْتِهَا كَالْمُومِسِ يُخْلِفُ مَنْ وَثِقَ بِهَا ،  
وَهِيَ كَذَلِكَ أَخْدَعُ مِنْ جِبَالَةِ الصَّائِدِ تَصْرَعُ مَنْ أَطْمَأَنَّنَ إِلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ  
الثَّانِي : تَفَانَى النَّاسُ عَلَى حُبِّهَا وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْصُلُوا مِنْ أَمْرِهَا عَلَى طَائِلٍ لِأَنَّهَا  
تَسْتَرِدُّ مَا تَعْطِيهِ وَتَهْدِمُ مَا تَبْنِيهِ ، وَتَمُرُّ بَعْدَ حُلَاوَتِهَا وَتَعُوجُ بَعْدَ اسْتِقَامَتِهَا .  
وَقَالُوا : مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ كَيْنُ مَشَاهَا وَفِي جَوْفِهَا السُّمُّ النَّاقِعُ ، يَهْوِي إِلَيْهَا  
الصَّبِيُّ الْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا الْحَاظِمُ الْعَاقِلُ . » يَهْوِي إِلَيْهَا : يُسْرِعُ وَذَلِكَ كَمَا تَقُولُ  
رَأَيْتُ فَلَانًا يَهْوِي نَحْوَكَ ، مَعْنَاهُ : يَرِيدُكَ ، قَالَ تَعَالَى : فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ  
تَهْوِي إِلَيْهِمْ : أَيْ تَرِيدُهُمْ وَتُسْرِعُ ، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : كُنْتُ أُدْرِرُ فِي  
ضَيْعَتِي فِي شِدَّةِ الْحَرِّ فَسَمِعْتُهَا تَفَا يَقُولُ :

وَلَا أَمْرًا دُنْيَاءُ أَكْبَرُ هَمِّهِ لَمْسْتَمْسِكْ مِنْهَا بِجَبَلٍ غُرُورٍ  
( ١٧ - ١ )

فَنَقَشْتُ ذَلِكَ عَلَى خَاتَمِي . وَقَالَ الشَّاعِرُ :  
وَمَنْ عَرَفَ الْآيَامَ لَمْ يَرْخَفْضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يَعُدِّدْ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى

### حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وقد ذُكِرَ له قَوْمٌ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا - :  
هُمْ أَبْنَاؤُهَا ، أَفِيلَامُ الرَّجُلِ عَلَى حُبِّ الدَّيَّةِ ! وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : مَا أَعْلَمُ لَنَا وَلِلدُّنْيَا  
كَقَوْلِ كَثِيرِ عَزَّةَ :

أَسِيْدِي بِنَا أَوْ أَحْسَنَى لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنَّ تَقَلَّتْ  
« وقد تقدم » وقال شاعر :

يَذْمُونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا يُذَمُّ وَيُحْلَبُ  
« لا يريحون دَرَّهَا قَالِدَرٌ : اللَّبَنُ يَقُولُ : لَانِهِمْ مَعَ ذَمِّهِمْ لِيَاهَا يُلْحُونَ فِي  
الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَيَكْلِبُونَ وَيَشْرَهُونَ حَتَّى مَا يَتْرَكُونَ دَرَّهَا يَسْتَرِيحُ ، وَهَذَا عَلَى  
الْمِثْلِ . . . »

وقال أبو العتاهية :

كُنَّا يُكْسِرُ الْمَدْمَةَ لِلدُّنْيَا وَكُلَّ بِحُبِّهَا مَفْتُونُ

### الدنيا تضر محبيها

قالوا في ذلك : الدُّنْيَا تُضُرُّ مُحِبِّيَهَا ، وَمَا كُرِّمَتْ عَلَى أَحَدٍ نَفْسُهُ إِلَّا هَانَتْ  
عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَقَالُوا : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الدُّنْيَا : أَنْ آخِذِي مَنْ إِيْجْفَاكِ وَاسْتَخِذِي  
مَنْ يَهْوَاكِ ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ جَمِيلٌ وَخَقٌّ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : الدُّنْيَا  
لَا تُضُرُّ إِلَّا مَنْ أَمِنَهَا وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا مَنْ حَذَرَهَا . وَقَالَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ : مَا كَانَتْ الدُّنْيَا لِمَنْ أَمَرِي إِلَّا لَزِمَ قَلْبَهُ خِصَالُ أَرْبَعٍ : فَقَرُّ لَا يَذَرُكَ

غناه ، وَهَمْ لَا يَنْقِضِي مَدَاهُ ، وَشُغْلُهُ لَا يَنْقُذُ أَوْلَاهُ ، وَأَمَلُهُ لَا يُدْرِكُ مُنْتَاهَهُ .  
وقال الشاعر :

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كُلُّهَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ  
تُهِنُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بَصْفَرٌ وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ  
وَالصَّغَرُ : الصَّغَارُ ، أَيْ الذِّلُّ وَالضَّيْمُ ،

وقال المتنبي :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ؟ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ  
« مَنْ : استفهامية ، يقول المتنبي : مَنْ ذا الذي لم يعشق الدنيا من قديم  
الدهر ؟ كُلُّ أَحَدٍ يَهْوَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ وَصَالِهَا ، أَيْ أَنْ  
كَثِيرًا مِنْ عُشَّاقِهَا وَاصِلَهَا وَوَاوَصَلَتْهُ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ الْوِصَالِ فَإِنَّ  
وِصَالَهَا يَعْقِبُهُ الْهَجْرُ وَسُرُورُهَا يَعْقِبُهُ الْحُزْنُ وَأَيَادُهَا تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ »

### بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ فَقَالَ : كَيْفَ يُصْبِحُ مَنْ هُوَ  
غَرَضٌ لثَلَاثَةِ أَشْهُمٍ : سَهْمُ رِزْيَةٍ ، وَسَهْمُ بَلِيَّةٍ ، وَسَهْمُ مَنِيَّةٍ . وَقَالُوا : مَنْ  
أَخْطَأَهُ سَهْمُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يُخْطِئْهُ سَهْمُ الرِّزْيَةِ ، وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتِزِ :  
الدَّهْرُ يَطْرِفُ بِالْعَنَاءِ وَالنَّاسُ بَيْنَ جُفُونِهِ  
« يَقَالُ : طَرَفَ بَصَرَهُ يَطْرِفُهُ طَرَفًا : إِذَا أَطْبَقَ أَحَدٌ جَفْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ ؛  
وَالْعَنَاءُ هُوَ الْعَنَاءُ أَيْ النَّصَبُ » وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

أَفِ لِدُنْيَا تَلَاعَبَتْ بِي تَلَاعَبَ الْمَوْجِ بِالْغَرِيقِ

## الأيام تمضى فى تراذلها

سَمِعَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ امْرَأَةً تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْزِلْ عَنَّا زِيَادًا ، فَقَالَ : زَيْدِي  
فِي دَعَائِكَ : وَأَبْدِلْنَا خَيْرًا مِنْهُ ، فَإِنَّ الْآخِرَ أَبَدًا سَرٌّ ... وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ <sup>(١)</sup> :  
مَعْرُوفُ زَمَانِنَا مُنْكَرُ زَمَانٍ قَدَفَاتٍ ، وَمُنْكَرُهُ مَعْرُوفُ زَمَانٍ لَمْ يَأْتِ ،

## حمدهم ماضى الزمان وذمهم حاضره

كَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تُنْشِدُ قَوْلَ لَبِيدٍ :  
ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَانِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ  
وَتَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ لَبِيدًا ، كَيْفَ لَوْعَاشٌ إِلَى زَمَانِنَا ! وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
الزُّبَيْرِ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ وَيَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ عَائِشَةَ ، كَيْفَ لَوْعَاشَتْ إِلَى  
زَمَانِنَا ! وَمِنْ كَلَامِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : كَانَ النَّاسُ وَرَقًا بَلَا شَوْكٍ فَصَارُوا شَوْكًا  
بَلَا وَرَقٍ ... وَقَالُوا :

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيتُ فِيهِ فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيتُ عَلَيْهِ  
وَهُنَاكَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ مَاضِيَ الزَّمَانِ كَحَاضِرِهِ ، لَا يُفْضَلُ قَدِيمُ الزَّمَانِ  
حَدِيثُهُ ، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ كُلُّهَا ، أَوِ النَّاسُ جَمِيعًا ، قُدَّامُهُمْ وَمُحْدُوهُمْ وَأَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ  
سَوَاسِيَةٌ فِي أَنْتَهُمْ خَلْفٌ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ ، وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ تِلْكَ  
الْكَلِمَةُ الَّتِي كَتَبَهَا بَدِيعُ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيُّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ إِلَى أَسْتَاذِهِ أَبِي الْحُسَيْنِ  
ابْنِ فَارَسٍ صَاحِبِ الْمُجْمَلِ فِي اللُّغَةِ ، جَوَابًا عَلَى رِسَالَةِ كَتَبَهَا ابْنُ فَارَسٍ إِلَى الْبَدِيعِ

(١) هُوَ عُوَيْمَرُ بْنُ قَيْسٍ بْنِ زَيْدِ الْإِنصَارِيِّ ، الصَّحَابِيُّ الْمَشْهُورُ ، شَهِدَ مَعَ سَيِّدِنَا  
رَسُولِ اللَّهِ وَقَعَةَ أَحَدٍ وَمَا بَعْدَهَا وَتَوَفَّى فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ

في ذَمِّ الزمان<sup>(١)</sup>، قال البديع: نَعَمْ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ، إِنَّهُ الْحَقُّ الْمَسْنُونُ<sup>(٢)</sup>، وَإِنْ طُنَّتِ الظُّنُونُ، وَالنَّاسُ لَأَدَمَ، وَإِنْ كَانَ التَّهْدُ قَدْ تَقَادَمَ، وَارْتَبَكَتِ الْأَضْدَادُ، وَاخْتَلَطَ الْمِلَادُ؛ وَالشَّيْخُ يَقُولُ: فَسَدَ الزَّمَانُ، أَفَلَا يَقُولُ: مَتَى كَانَ صَالِحًا؟ أَمِنَ الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ وَقَدْ رَأَيْنَا آخِرَهَا وَسَمِعْنَا أَوَّلَهَا؛ أَمِ الْمُدَّةُ الْمَرْوَانِيَّةُ وَفِي أَخْبَارِهَا «لَا تَكْشَعُ الشُّوْلُ بِأَغْبَارِهَا»<sup>(٣)</sup>... أَمِ السَّنِينَ الْحَرَبِيَّةُ<sup>(٤)</sup>:

وَالسَّيْفُ يُعْمَلُ فِي الطَّلِي وَالرُّمُحُ رُكُزٌ فِي الْكُلَى<sup>(٥)</sup>

- (١) قيل: ذكر الهذاني في مجلس ابن فارس فقال مامعناه: إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه، وعمتنا وشمخ بأنفه عنا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان، فبلغ ذلك البديع، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة.
- (٢) الحما: الطين الاسود. والمسنون: المتغير المنتين
- (٣) هذا من قول الحارث بن حنظلة:

لَا تَكْشَعُ الشُّوْلُ بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ  
وَاحْلُبْ لِأَضْيَافِكَ أَلْبَانَهَا فَإِنَّ شَرَّ اللَّابَنِ الْوَالِجُ

والكسع: ترك بقية من اللبن في خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها، وهو أشد لها والشول من النوق: مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر قبل لبنها وخف ضرعها والأغبار: جمع الغبر وهو بقية اللبن في الضرع، والوالج: الذي يلبج في ظهورها من اللبن المكسوع يقول الحارث: لا تغزري إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لأضيافك فلعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بني مروان وقلة الخير في أيامهم

- (٤) الحربية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد بذلك خلافة معاوية وبين يدايه
- (٥) الطلي: الأعناق واحده طلية بضم الطاء، وركز الرمح. دفته وأثبتته والكلى: جمع كلية وكلوة، والكلتان أو الكلوتان معروفان

وَمَبِيتُ حُجْرٍ فِي الْقَلَا وَالْحَرَّتَانِ وَكَرَّ بَلَا<sup>(١)</sup>

أُمُّ الْبَيْعَةِ الْهَاشِمِيَّةِ وَعَلَى يَقُولُ : لَيْتَ الْعَشْرَةَ مِنْكُمْ بَرَّاسَ ، مِنْ بَنِي فِرَاسَ ؛  
أُمُّ الْإِيَّامِ الْأُمَوِيَّةِ<sup>(٢)</sup> وَالنَّفِيرُ إِلَى الْحِجَازِ ، وَالْعِيُونُ إِلَى الْأَعْجَازِ ؛ أُمُّ الْإِمَارَةِ  
الْعَدَوِيَّةِ<sup>(٣)</sup> وَصَاحِبُهَا يَقُولُ : وَهَلْ بَعْدَ الْبُزُولِ إِلَّا النُّزُولُ ؛<sup>(٤)</sup> أُمُّ الْخِلَافَةِ النَّسَبِيَّةِ<sup>(٥)</sup>  
وَهُوَ يَقُولُ : طُوبَى لِمَنْ مَاتَ فِي نَائِنَةِ الْإِسْلَامِ<sup>(٦)</sup> أُمُّ عَلَى عَهْدِ الرَّسَالَةِ  
وَيَوْمَ الْفَتْحِ قِيلَ : اسْكُنِي يَا فُلَانَةَ ، فَقَدْ ذَهَبَتِ الْأَمَانَةُ ؛ أُمُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ  
وَلَيْدٌ يَقُولُ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كِلِيدِ الْأَجْرَبِ

(١) حجر : هو حجر بن عدى الكندى من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبي  
سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى على ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة  
منهم ، وكان يجتمع عليه كل من وافقه في هذا الرأي من أهل المصرين حتى ولى زياد  
على العراق فكتب إلى معاوية في أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به  
إليه مشدوداً بالحديد ، ففعل ، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه ، وكان  
حجر من أشرف العراق وخياره ، انظر تاريخ الطبري في حوادث سنة إحدى  
 وخمسين ، ويشير بقوله والحزتان إلى وقعة الحزاة التي كانت بين جنود يزيد بن معاوية  
 وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة في حزة واقم وهي شرقي المدينة  
 وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير ، وكر بلا موضع في طرف البرية عند الكوفة  
 وهو الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه في خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يزيد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يزيد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والعدوية نسبة إلى عدى بن كعب  
ابن لؤى ، وهم رهط عمر

(٤) البزول : تشقق ناب البعير ، وذلك في السنة التاسعة ، يزيد بهذا : وهل بعد  
الوصول إلى الغاية إلا الأخذ في النقصان ؟ (٥) يزيد خلافة أبي بكر رضى الله عنه  
والتسمية : نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ، وهم رهط أبي بكر

(٦) النائنة : أول الإسلام قال الزخشرى : ومعناها : الضعف قبل أن يقوى ويعز

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَخُو عَادٍ يَقُولُ :

بِلَادُهَا كُنَّا وَكُنَّا نَحْبِبُهَا إِذِ النَّاسُ نَاشِ وَالزَّمَانُ زَمَانُ

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَيُرْوَى لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُغْبِرًا قَبِيحُ

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ لِبَارِئِهَا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؛ <sup>(١)</sup> مَا فَتَسِدُ النَّاسُ ، وَلَكِنْ أَطَرَدَ الْقِيَاسُ ؛ وَلَا أَظْلَمَتِ الْآيَامُ ، وَإِنَّمَا امْتَدَّ الْإِظْلَامُ ؛ وَهَلْ يَفْسُدُ الشَّيْءُ إِلَّا عَنْ صَلَاحٍ ، وَيُمْسَى الْمَرْءُ إِلَّا عَنْ صَبَاحٍ !

### إنكار ذم الدهر

رَوَى النَّاعِنُ سَيِّدَ نَارِ سَوَالِ اللَّهِ ، لَا نُسَبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ، يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ مَا أَصَابَكَ مِنَ الدَّهْرِ فَأَلْهُ فاعلمه ليس الدَّهْرُ ، فَإِذَا شَتَمْتَ الدَّهْرَ فَكَأَنَّكَ أَرَدْتَ بِهِ اللَّهَ : وَكَانَ مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ أَنْ تَذُمَّ الدَّهْرَ وَتُسَبِّهَ عِنْدَ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ تَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ مَوْتٍ أَوْ هَرَمٍ وَيَقُولُونَ : أَبَادَهُمُ الدَّهْرُ وَأَصَابَتْهُمْ قَوَارِعُ الدَّهْرِ وَحَوَادِثُهُ ، فَيَجْعَلُونَ الدَّهْرَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ فَيَذْمُونَهُ ، وَقَدْ ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ وَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ثُمَّ كَذَّبَهُمْ فَقَالَ : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَا لَهُمْ

(١) قَالَ الشَّيْخُ صِلَاحُ الدِّينِ الصَّفْدِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى لَامِيَةِ الْعَجَمِ لِلطُّغْرَانِيِّ : اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ خَلْقٌ آخَرُ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُمْ أَفْسَدُوا فِيهَا وَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا !

بذلك من عِلْمٍ إِنَّ هُمُ إِلَّا يَظُنُّونَ ، والدهرُ : الزمانُ الطويلُ ومُدَّةُ الحياةِ الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ، عَلَى تَأْوِيلٍ : لَا تَسُبُّوا الذي يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سَبَبْتُمْ فاعِلَها فإنما يَقَعُ السَّبُّ عَلَى الله تعالى لأنه الفاعلُ لها لا الدهر... » وقد تقدم ذلك «

وقال أبو بكر الخوارزمي تريبا من هذا المعنى الذي نعالجه :

وَكَمْ نَكْنِي وَكَمْ نَهْجُو أَلْيَالِي      وَلَيْسَ بِخَصْمِنَا إِلَّا الْقَضَاءُ <sup>(١)</sup>

وقال رجلٌ للأصمعي : فَسَدَ الزَّمانُ ، فقال :

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طُولِ اخْتِلَافِهِمَا      لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ <sup>(٢)</sup>  
والبيت المشهور في هذا هو قول بعضهم :

نَعِيبُ زَمَانِنَا وَالْعَيْبُ فِينَا      وَلَوْ نَطَقَ الزَّمانُ بَنَّا هَجَانَا

وقال المتنبي :

أَلَا لَأَرَى الْأَحْدَاثَ تَحْدَا وَلَا ذَمًّا      فَمَا يَبْطِشُهَا جَهْلًا وَلَا كَفُّهَا حِلْمًا <sup>(٣)</sup>  
وقال بعض الصالحين لأبي العتاهية : أَيُّ خَلْقٍ اللهُ أَصْغَرُ عنده ؟ قال :  
الدنيا ، لا تُساوى عند الله بجنّاح بعوضة ، قال : أَصْغَرُ منها يُحِبُّهَا ...

### المسرة من حيث تُخشى المضرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طَلَبَ الْحِجَاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ أَبِي ، فخرج

(١) يقال . كنى عن الأمر بغيره بكنى كناية وهو : أن تتكلم بشيء وتريد غيره

(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لأنهما لا يبليان أبدا

(٣) يقول المتنبي ، لأحمد الحوادث السازة ولا أذم الضارة فإنها إذا بطشت بنا أو آذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حلما ،

يعنى : أن الفعل في جميع ذلك ليس لها



منه هاربا إلى اليمين ، فإننا لَدَسِيرِ بَصَحْرَاءِ الْيَمِينِ إِذْ لَحِقْنَا لِاحِقٍ يُلْشِدُّ :  
رُبَّمَا تَكْرَهُ النَّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ  
فَقَالَ أَبِي : مَا الْخَبْرُ ؟ قَالَ : مَاتَ الْحِجَاجُ ، قَالَ أَبُو عَمْرٍو . فَاَنَا بِقَوْلِهِ :  
لَهُ فَرْجَةٌ أَشَدُّ سُورًا مِنِّي بِمَوْتِ الْحِجَاجِ ، قَالَ : فَقَالَ أَبِي : أَصْرِفْ رُكْبَانَا  
إِلَى الْبَصْرَةِ ، قَالَ : وَكَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ قَدْ خَنَقْتُ بِضْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ... رُبَّمَا  
تَكْرَهُ النَّفُوسُ ... أَلَيْتَ هُوَ لِأَمِيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ وَقَبْلَهُ :

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأَدْوَرِ فَقَدْ تُكْشَفُ عَمَّاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالٍ

وَمَنْ بَدِيعَ هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهَا تَفَرِّقُ بَيْنَ فَرْجَةٍ «بِفَتْحِ الْفَاءِ»  
وَبَيْنَهَا بِالضَّمِّ ، فَالْأُولَى : التَّفَقُّصُ مِنَ الْهَمِّ ، وَالْآخِرَى ، أَى الْفَرْجَةُ بِالضَّمِّ : كُلٌّ  
مِنْفَرَجٌ بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَمِنْحَوْهُمَا . وَالْغَمَاءُ : الْكَرْبُ ، وَقَالُوا : خَفِيَ الْمَضَارُّ مِنْ  
تَحَلُّلِ الْمَسَارِ (١) ، وَارْجُ النَّفْعِ مِنْ مَوْضِعِ الْمَنْعِ ، فَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي الْأَمْنُ مِنْ  
مَحَلِّ الْفَزَعِ ؛ وَقَالُوا : أَغْنَاكَ الْأُمُورُ تَنْشَابَهُ ، قُرْبٌ مَحْبُوبٍ فِي مَكْرُوهِ وَمَكْرُوهِ  
فِي مَحْبُوبٍ وَمَغْبُوطٍ بِنِعْمَةٍ هِيَ دَاوَاهُ وَمَرْحُومٍ مِنْ دَاءٍ فِيهِ شِفَاؤُهُ ... وَقَالُوا :  
رُبَّ سَلَامَةٍ تَكُونُ لِلتَّلَفِ سَبِيلاً ، وَمَكْرُوهِ يَكُونُ لِلنَّجَاةِ مِفْتَاحاً :

وَقَدْ يَأْسَفُ الْمَرْءُ مِنْ قُوْتِ مَا لَعَلَّ السَّلَامَةَ فِي قُوْتِهِ

وَقَالَ حَكِيمٌ : اللَّهُ مَصَالِحٌ فِي مَكَارِهِ عِبَادِهِ ، وَقَالُوا : الْعَاقِلُ لَا يَجْزَعُ  
لِأَوَّلِ نَكْبَةٍ وَلَا يَنْفَرِحُ بِأَوَّلِ نِعْمَةٍ فَرُبَّمَا أَقْلَعَ الْمَحْبُوبُ عَمَّا يُضُرُّ وَأُسْفَرَ  
الْمَكْرُوهُ عَمَّا يُسَرُّ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ « اِشْتَدَّى أَرْزَمَةُ تَنْفَرِجِي ،  
« الْأَرْزَمَةُ : الشَّدَّةُ وَالْفَحْطُ » وَيُقَالُ فِي ذَلِكَ : إِنَّ الشَّدَّةَ إِذَا تَتَابَعَتْ انْفَرَجَتْ  
وَإِذَا تَوَالَتْ تَوَلَّتْ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ « فَتَسَى  
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »

(١) مِنْ خِلَالِ الْمَسَارِ : أَى مِنْ خِلَالِهَا .

## الفرج بعد الشدة

أَتَى يَزِيدُ بِخَارِجِي، فَهَمَّ بِقَتْلِهِ فَقَالَ الْخَارِجِيُّ:  
 عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلُّ يَوْمٍ فِي خَلْقَتِهِ أَمْرٌ  
 فقال يزيد : والله ، لَا ضَرِبَنَّ عُنُقَكَ ، أَقْتُلُوهُ ، فدخل الهيثمُ بن الأسود  
 النَّخَعِيُّ ، فقال : أَمْسِكُوهُ قَلِيلًا ، فَدَنَا مِنْهُ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَبْ  
 مُجْرِمَ قَوْمٍ لَوْ أَفْدَيْهِمْ ، فقال : هُوَ لَكَ ، فَفَرَجَ الْخَارِجِيُّ وَهُوَ يَقُولُ : تَأْتِي عَلَى  
 اللَّهِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يُكْذِبَهُ وَغَالِبَهُ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَغْلِبَهُ ... وَأُحْضِرَ رَجُلٌ  
 أَمَامَ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، فَدَعَا بِطَعَامٍ فَأَخَذَ يَأْكُلُ وَيَضْحَكُ ، فَقِيلَ لَهُ : تَضْحَكُ  
 وَأَنْتَ مَقْتُولٌ ؟ فقال : مِنْ السَّاعَةِ إِلَى السَّاعَةِ فَرَجٌ ، فَسَمِعَتْ صَيْحَةً فَقِيلَ :  
 مَاتَ الْمَلِكُ ، فَنُفِلُوا الرَّجُلَ ... وَشَدَّ بَعْضُ الْعُمَالِ - الْوُلاَةِ - رُجُلًا إِلَى أَسْطُوَانَةٍ  
 - عَمُودٍ - يُرِيدُ ضَرْبَهُ ، فَقَالَ حُلَّتِي مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فَخَلَّه ، فَسَاحَلَهُ إِلَّا وَقَدْ  
 عَزَلَ وَشَدَّ إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ بَعِيْنَهَا ...

## من زال كربه فنسى صنع الله

قالوا : ما صاحب البلاء الذي طال بلاؤه بأحقَّ بالدعاء من المعاق . وقيل :  
 مَنْ سَبَّحَ فِي النَّهْرِ الذي فِيهِ التَّمَسَّاحُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ . وشكا يوسف  
 عليه السلامُ طُولَ الْحَبْسِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ  
 حَيْثُ قُلْتَ : السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ . وقال الله عزَّ وتقدس « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ  
 الضُّرُّ دَعَا لِحَبْنِهِ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ - كَأَنْ لَمْ يَدْعُهَا  
 إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ - كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ... وقال سبحانه :  
 قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَنْ أَنتَجِيَنَا

من هذه لتسكونن من الشاكرين ، قل الله يُنجيكم منها ومن كل كُرب ثم أنتم تُشركون .

### لا تُعرف النعمة إلا عند فقدها

قالوا : كم من نعمة عرفت بيلية نزلت ، ونعمة جهلت بسلامة لبثت .  
وقالوا : شيئا لا يعرف فضلها إلا من فقدَها : الغنى والعافية ... وقال الشاعر :

فالوجهُ مثلُ الصبحِ مُبيضُ      والشعرُ مثلُ الليلِ مُسودُّ  
ضدانِ لما استجمعا حُنا      والخذُّ يُظهرُ حُسنةَ الخدِّ  
وقال المتنبي :

• وبضدها تَبَيَّنُ الأشياءُ •

وقال أبو تمام :

وليس يَعْرِفُ طيبَ الوصلِ صاحبهُ      حتَّى يُصابَ بِبُئْىٍ أو بهجرانِ  
وقال المتنبي :

ولولا أيا دى الدهرِ فى الجُحِ بيننا      غَفَلْنَا فلم نَشْعُرْ لَهُ بِذُنُوبِ  
« يقول المتنبي : إن الدهر تارة يُحَسِّنُ وتارة يُسِيءُ فلولم يُحَسِّنْ إلينا  
بالجمع بيننا لما شعرنا بذُنُوبِهِ فى تَفْرِيقنا ، فإِحسانُهُ عَرَفْنَا إِسَاءَتَهُ »

### فضل العافية وسلامة الدين

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فى سِرْبِهِ مُعَافًى فى بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ  
يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِزَّتْ لَهُ الدُّنْيَا »  
« قال ابنُ بَرى : قال جماعةٌ من أهل اللغة : السَّرْبُ : النفس قال : وأنكر

ابن دَرَسْتَوِيَه قول من قال في نفسه قال : وإنما المعنى : آين في أهله وماله وولده ، ولو آمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلْ هو آين في سِرِّه ، وإنما السَّرْب هُنا : ما للرجل من أهل ومال ، ولذلك سمي تطيع البقر والطباء والقطا والنساء سربا ، وكان الأصل في ذلك أن يكون الراعي آمنا في سِرِّه والفحل آمنا في سِرِّه ، ثم استُعْمِل في غير الرعاة استعارة فيما شَبَّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وُضِّعَتْ ، وبِحِذا فيرها : بأَسْرِها .  
وقال ابن الرومي :

إذا ما كساكَ اللهُ سِرْبَالاً صِحَّةً      ولم تَخْلُ من قُوْتٍ يَحِلُّ وَيَعْدُبُ  
فلا تَغِيْظَنَّ الْمُتَرَفِّينَ فَإِنَّهُمْ      على حَسْبٍ مَا يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْلُبُ  
«السربال : القميص ، وحل : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تمنى مثل حال المغبوط - الحسن الحال - من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد ، وقالوا : من أوتي العافية فظن أن أحدا أوتي أكثر منه فقد قلل كثيرا وكثر قليلا » كثر قليلا ، لأن ما عدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها ، ...

### عقريات شتى في الدنيا

قال أبو حازم : وما الدنيا ! أما ما ضى فحلم وأما ما بقي فأمان . وقال بكر بن عبد الله : المستغنى عن الدنيا بالدنيا كالْمُطْفِئِ النَّارِ بِالتَّبَنِ . وقال ابن مسعود : الدنيا كُلُّها غموم ، فما كان فيها من سرور فهو رنج .  
وقال بعض الحكماء : مثل الدنيا والآخرة مثل رجل له ضرطان إن أَرْضَى أحدهما أَسَخَطَ الأُخْرَى ... وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : تركَ الملوكَ لِمِ الحِكْمَةِ فاتركوا لهم الدنيا . وقال يحيى بن خالد البرمكي : دَخَلْنَا في الدنيا دُخُولاً

أَخْرَجْنَا مِنْهَا . وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ كَثِيرًا مَا يَتِمَثَّلُ كُلَّمَا جَرَى ذِكْرُ  
الدُّنْيَا :-

الْيَوْمَ عِنْدَكَ دَلُّهَا وَحَدِيثُهَا وَغَدًا لَغَيْرِكَ كَفُّهَا وَالْمِعْصَمُ  
وَهَذَا الْبَيْتُ كَذَلِكَ يُقَالُ فِي غَدْرِ الْمَرْأَةِ وَفَلَةِ وَفَاتِهَا . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَمَ  
الْعَجَلِيُّ يَقُولُ :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْرِيقِ دَيْلِنَا فَلَا دَيْلُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرَقِّعُ  
وَقَالَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ : أَنَا الَّذِي كَفَّأْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهَا ، فَلَيْسَتْ لِي زَوْجَةٌ  
تَمُوتُ وَلَا بَيْتٌ يَخْرُبُ . وَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ : لِمَنْكَ لَتَرْضَى بِالْدُّنْيِ فَقَالَ :  
لِنَّمَا رَضِيَ بِالْدُّنْيِ مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا ... وَقَالَتْ امْرَأَةٌ لَزَوْجِهَا وَرَأَتْهُ مُهْمُومًا :  
مِمَّ هُمُّكَ ؟ أِبَالِدُنْيَا فَتَنْدَقَرَّغُ اللَّهُ مِنْهَا أَمْ بِالْآخِرَةِ فَرَادَكَ اللَّهُ هَمًّا ؟ وَقَالَ السَّيِّدُ  
الْمَسِيحُ : حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ وَالْمَسْأَلُ فِيهَا دَاءٌ كَثِيرٌ ، قِيلَ : مَا دَاوَاهُ ؟  
قَالَ : لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهُ مِنَ الْفَخْرِ وَالْكِبَرِ ، قِيلَ : وَإِنْ سَلِمَ ؟ قَالَ : يَشْفَعُ لَهُ  
إِصْلَاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ . وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ : مَنْ أَصْبَحَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ  
وَسَدَنَهُ <sup>(١)</sup> نَزَعَ اللَّهُ الْغِنَى مِنْ قَلْبِهِ ، وَصَيَّرَ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا  
إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ؛ وَمَنْ أَصْبَحَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَنَهُ نَزَعَ اللَّهُ الْفَقْرَ مِنْ قَلْبِهِ  
وَصَيَّرَ الْغِنَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِبَةٌ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ  
لِلضَّحَّاكِ بْنِ سُفْيَانَ : مَا طَعَامُكَ ؟ قَالَ : اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ قَالَ : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى  
مَاذَا ؟ قَالَ : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ ، قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ  
ابْنِ آدَمَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا ... وَكَانَ بَشَرُ بْنُ كَعْبٍ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ إِذَا قَرَّغَ مِنْ  
حَدِيثِهِ : انْطَلِقُوا حَتَّى أُرِيَكُمْ الدُّنْيَا ، فَيَجِيءُ فَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى الشُّوقِ ، وَهِيَ  
يَوْمَئِذٍ مَزْبَلَةٌ ، فَيَقُولُ : انْظُرُوا إِلَى عَسَلِهِمْ وَسَمِّهِمْ وَإِلَى دَجَاجِهِمْ وَبَطْلِهِمْ

(١) السدم : الولوع بالشئ ..

صارَ إلى ماتَرَوْنِ ...

وقال محمد بن وهيب: <sup>(١)</sup>

نُراخُ لِدِكْرِ المَوْتِ ساعَةً ذِكْرِهِ      وَتَعْتَرِضُ الدُّنْيَا فتلَهُو وَتَلْعَبُ  
ونحنُ بنو الدنيا حُلِقْنَا لِغَيْرِهَا      وما كُنْتَ مِنْهُ فهُوَ شَيْءٌ حَبِيبُ <sup>(٢)</sup>  
يَقِينُ كَأَنَّ الشَّكَّ غَالِبُ أَمْرِهِ      عَلَيْهِ وَعِرْفَانُ إِلَى الْجَهْلِ يُنْسَبُ  
أقول: لعله ينظر إلى قول جرير:

تَرَوْنَسَا الجَنائِزُ مُقْبِلَاتٍ      فَتلَهُو حِينَ تَذْهَبُ مُدْبِرَاتٍ  
كَرْوَعَةٍ ثَلَاثَةٍ لِمَغَارِ ذَنْبٍ      فَلَمَّا غَابَ عَادَتْ رَاتِعَاتٍ <sup>(٣)</sup>  
قال أبو عمرو بن العلاء: جلستُ إلى جرير وهو يُمدلي:

\* وَدَعِ أُمَامَةً حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ \*

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شَيَّيْتَنِي هَذِهِ الجَنَائِزُ، قلتُ: فَلِمَ تُسَابُ  
النَّاسُ؟ قال: يبدؤونني ثم لا أعفو وأعتدى ولا أبتدى، ثم قال هــذين  
البيتين... وقول محمد بن وهيب: يقين كأنَّ الشكَّ أغلب أمره... البيت  
فأخوذ من قول الحسن البصري: ما رأيتُ يقيناً لاشكَّ فيه أشبهَ بِشَكِّ  
لا يقين فيه، إلا الموت... .

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتصم ويعتد وسطاً في طبقة  
دعبل وأبي سعيد الخزومي، وكان يتشيع ويستميل الناس بشعره، انظر ترجمته في  
معاهد التنصيص

(٢) يقول: إننا أبناء الدنيا وما دمنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا.

(٣) الثلاثة: بفتح الثاء. جماعة الغنم، أما الثلاثة بضم الثاء فالجماعة من الناس، وهذا  
من غرائب هذه اللغة الكريمة.

وقال أحد الظرفاء : إن الدنيا قيد استودقت وأتعظ الناس : « استودقت يقال : ودقت الفرس تدق ودقا واستودقت : إذا طلبت الفحل » وقال حكيم : من أراد الدنيا فليتهياً للذل . ومن كلبة لعلي بن أبي طالب : أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام . . . ومن كلامه رضى الله عنه - وقد قال له رجل وهو فى خطبة : يا أمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا فقال : ما أصف من دار أو لها عناء وآخرها فناء ، فى حلالها حساب وفى حرامها عقاب ، من صبح فيها مأمين ، ومن مريض ندم ومن استغنى فتن ، ومن افتقر فيها حزن ! وقال أيضاً : إنما المرء فى الدنيا غرض تلتضل فيه المنايا ، ونهب للبصائب ، ومع كل جرعة شرقي ، وفى كل أكلة غصص ، ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، فنحن أحوال الخوف ، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء ، فنأين نرجو البقاء ! وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً إلا أسرع السكره فى هدم ما بلىا ، وتفريق ما جمعا ، فاطلبوا الخير وأهلكه ، واعلموا أن خيراً من الخير مُعطيه ، وشرّاً من الشر فاعله ... « الغرض : الهدف ، والنهب : المال المنهوب غنيمة والجمع نهب وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصص ، وقوله : فنحن أحوال الخوف فالحتف : الموت ، ومعنى أننا أحوال الموت : أنا نأكل ونشرب ونجمع ونركب الخيل والسفن والطائرات ونحوها ونتصرف فى أسبابنا وحاجتنا وما ربنا ، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلاط مُحدِثها الماء كل والمشارب ، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابة هو راكبها أو من ضعف يلحقه من الجوع المفرط أو مصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه فى مآربه وحركته وسعيه ونحو ذلك ،

فكأننا نحن أعنا الموت على أنفسنا»

وقال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : مالك من عيشك إلا لذة تزديف بك إلى حمامك وتقرّبك من يومك ، فاية أكلة ليس معها غصص أو شربة ليس معها شرق ! فتأمل أمرك فكأنك قد صرّت الحبيب المفقود والخيال المحترم ، أهل الدنيا أهل سفر لا يحلون عقد رحالهم إلا في غيرها . قوله : تزديف بك إلى حمامك : أى تقرّبك إلى موتك ، والمحترم المستأصل والمقتطع .

وقال حكيم : من ذا الذى يبنى على موج البحر داراً تلجم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً ... وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الأبدان ، ويُجدد الآمال ، ويُقرّب المنيّة ، ويُبعد الأُميّة ، قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفّر به تعب ، ومن فاته كتاب ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

ومن يحمّد الدنيا لِعيش يسره      فسوف لعمرى عن قليل يلوّها  
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة      وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

قال حكيم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، إما أن تزيد له وإما أن تنقص ... وقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سَلَمُ بنَ عمرو      أذلّ الخِرُصُ أعناقَ الرجال  
هَبِ الدنيا تُساقُ إليك عَفْوا      أليس مَصيرُ ذاكِ إلى الزَّوالِ  
وما دُنْيَاكَ إلا مِثْلُ قِيءٍ      أَظْلَكَ نَمَّ آذَنٍ بَانْتِقَالِ  
ولنجتزئ بهذا المقدار فَعَبَقرياتهم في الدنيا لا يكاد يبلغها الإحصاء .



## عقرياتهم في الموت

### أسماء الموت ووصفه

الموت : ضد الحياة، ويقال : مات يموت ويمت - لغة طائية - وقالوا : ميت تموت ؛ قال ابن سيده ؛ ولا نظير لها من المعتل ، ورجل ميت وميت ، وقيل : الميت : الذي مات ، والميت والمات : الذي لم يمُت بعد ، يقال : هو ميتٌ غدا ومات ولا يقال : ميتٌ ، قالوا : وهذا خطأ ، وإنما ميت يصلح لما قد مات ولما سيموت ، وقد جمع بين اللغتين عدي بن الرعلاء الغساني - والرعلاء أمه - فقال :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كثيرا كاسفاً بأله قليل الرجاء

فأناسٌ يَمُصُّونَ يَمَاداً<sup>(١)</sup> وأناسٌ حُلُوفُهُمْ في الماء

فجعل الميت كالمت ... ويقال للموت : الهميع ، وقيل : الهميع : الموت المعتجل : أقول : ولعله سُمي كذلك لأن الروح تمع : أي تسيل ، من همع الدمع والماء : سال . ومن أسماء الموت أيضا : النيط ، روى عن علي رضي الله عنه أنه قال : لَوَدَّ مُعَاوِيَةُ أَنَّهُ مَابِقِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ نَافِعُ ضَرَمَةٍ إِلَّا طُعِنَ فِي نَيْطِهِ<sup>(٢)</sup> ، معناه : إلامات ، قال ابن الأثير : والقياس : النوط ، لأنه من ناط ينوط : إذا علق ، وقيل : النيط : نياط القلب ، وهو : العرق الذي يتعلق به القلب ... ومن أسماء الموت : الرمذ قال أبو وجرة السعدي :

صَبَبْتُ عَلَيْكُمْ حَاصِبِي فَتَرَكْتُمْ كَأَصْرَامٍ عَادٍ حِينَ جَلَّلَهَا الرَّمْدُ

«الحاصب . العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء ، والأصرام : الجماعات

(١) الثاد : الماء القليل الذي لا مادة له (٢) الضربة بتحريك الميم : الجرة أو النار نفسها ، ويقال ما بالدار نافخ ضربة : أي ما بها أحد .

من الناس « والرماة : الهلاك ؛ ومنه قيل : عام الرماة ؛ لأن الناس والأموال هلكت فيه كثيرا<sup>(١)</sup> ومن أسمائه : أُم قَشْعَم ، قال أبو عبيد : أُم قَشْعَم : التَّعْنِيَة ، ويقال للشيخ الكبير والمسن من النُّسور والرخم : قَشْعَم ، إطول عمره . وأُم قَشْعَم في قول زهير في معلقته :

فَقَشَدَ وَلَمْ يُفْزِعْ يُيُونَا كَثِيرَةً لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُم قَشْعَمِ

قيل : الحرب ، وقيل : المنية ، وقيل : الضُّبُع ، وقيل : العنكبوت ، وقيل : الذِّلَّة ... ومن أسمائه : أُم اللّهِم . قال الخليل بن أحمد : أُم اللّهِم : المنية ، لأنها تلتهم كل شيء . ومن أسمائه : شَعُوبُ ، قال ابن السكيت : شَعُوبُ : اسم المنية ، مؤنثة معرفة لاتنصرف وأنشد :

❖ وَمَنْ تَدْعُ يَوْمًا شَعُوبُ يُجِيبُهَا ❖

قال : وإنما سميت المنية شَعُوبَ لأنها أَشْعَبُ — أى تُفَرِّقُ — يقال : شَعَبَ وَأَشْعَبَ وَأَنْشَعَبَ : هَلَكَ . . ومن أسمائه : الْفَوْدُ ، فَادٌ يَفُودُ فَوْدًا : مات ، قال لبيد بن ربيعة يَذْكُرُ الحارث بن أبي شمر الغَسَّافِيَّ ، وَكَانَ كُلُّ مَلِكٍ مِنْهُمْ كَلِمًا مَضَتْ عَلَيْهِ سَنَةٌ زَادَ فِي تَاجِهِ خَرَزَةٌ ، يُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ يُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ الَّتِي مَلَكَهَا ، فَأَرَادَ أَنَّهُ عُمُرٌ حَتَّى صَارَ فِي تَاجِهِ خَرَزَاتٌ كَثِيرَةٌ :

رَعَى خَرَزَاتِ الْمُلْكِ سِتِّينَ رِحْجَةً وَعِشْرِينَ حَتَّى فَادَ وَالشَّيْبُ سَامِلُ  
ومن أسمائه : الْحَامُ . يقال نَزَلَ بِهِ حَامُهُ : أى مَوْتُهُ وَقَدَرُهُ ، مِنْ حُمِّ كَذَا  
أى قَدَرِ أَنْشَدَ ابْنُ بَرِّى الْخُتَابِ بْنِ عُزَيْرٍ :

(١) عام الرماة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وأرْمِيْ بِنَفْسِيْ فِيْ فُرُوجِ كَثِيْرَةٍ وَلَيْسَ لِأَمْرِ سَمِّهِ اللهُ صَارِفٌ  
وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمُنُونُ ، قِيلَ : الْمُنُونُ تَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ  
الْهَذَلِيُّ ...

✽ أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَزِيْهِ تَتَوَجَّعُ ✽

وَمِنْ جَمْعِهِ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ الْعَبَادِيِّ :  
مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ خَلَدْنَ أُمَّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرٌ  
وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْمُنُونُ وَاحِدٌ لِاجْتِمَاعِهِ لَهُ ، فَأَمَّا قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فَعَلِيَ  
مَعْنَى الْعُمُومِ وَالْكَثَرَةِ فِي الْمَوْتِ ، إِذْ كَانَ أَدهَى الدَّوَاهِيْ : وَقَالَ ابْنُ جَنِّيَ : مَنْ  
أَنْتَ الْمُنُونُ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى الْمُنِيَّةِ وَمَنْ ذَكَرَ أَرَادَ الدَّهْرَ ، وَسُمِّيَ الدَّهْرُ مَمُونًا  
لِأَنَّهُ يَذْهَبُ بِمُنَّةِ الْإِنْسَانِ : أَيْ قُوَّتِهِ ... وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ ، قَالَ  
صَاحِبُ اللِّسَانِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ وَالْمَوَاتُ كُلُّهُ : الْمَوْتُ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ :  
يَكُونُ فِي النَّاسِ مَوْتَانٌ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، فَالْمَوْتَانُ : الْمَوْتُ الْكَثِيرُ الْوَقُوعُ .

✽ ✽ ✽

وَمِنْ صِفَاتِ الْمَوْتِ : مَوْتُ زَوَامٍ : أَيْ كَرِيْهِ ، وَقِيلَ : عَاجِلٌ ، وَقِيلَ :  
سَرِيْعٌ مُّجْهِزٌ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْأَصَحُّ ؛ وَمِنْ أَوْصَافِهِ أَيْضًا : مَوْتُ زُعَافٍ  
وَزُعَافٌ وَزَوَافٌ وَجُحَافٌ ، جُحَافٌ : شَدِيدٌ يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ يُقَالُ : سِيلٌ  
جُحَافٌ وَجُرَافٌ : يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَزُعَافٌ وَزَوَافٌ وَزُعَافٌ : سَرِيْعٌ  
وَجِيْءَ ، وَقِيلَ : شَدِيدٌ ، وَمِنْهَا : مَاتَ قَعَصًا : أَيْ مَوْتًا وَحِيًّا ، وَيُقَالُ لِمَنْ مَاتَ  
فُتْجَاءَةً : فَتَسَ يَفْقِسُ فُقُوسًا ، وَفَطَسَ يَفْطِسُ فَطُوسًا ، وَيُقَالُ لِمَنْ لَبِقَ إِصْبَعَهُ  
وَطَنًّا وَتَدَبَّلَ : أَيْ مَاتَ ، وَيُقَالُ أَطْلَى الرَّجُلُ : أَيْ مَالَتْ عُنُقُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ،  
وَيُقَالُ : تَجَرَّضَ بِرَيْقِهِ ، وَأَصْلُ الْجَرَضِ : الْغُصَّةُ ، وَالْمُرَادُ : عَالَى غَصَصِ الْمَوْتِ

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضِ دونَ القريضِ ، قاله عبيد بن الأبرص للنذر  
حين أراد قتله وقال له : أنشدني من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون  
القريض ، والجريض : الفصص واختلاف الفكّين عند الموت ، والقريض :  
الجرة<sup>(١)</sup> - لأنه إذا غُصّ لم يقدر على قرضِ جرّته ، والقريض أيضاً : الشعر ،  
ويقال استأثر الله به ، وانحلّ تركيبه ، ونصّي لما خُلِقَ له ، وأتاه ما كان  
يحذر ، وأكل الدهرُ عليهم وشرب ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر  
وشربوا ؛ وصِفِرَ وطأبه ، ومعناه : أن جسّمه خلا من روحه ؛ وأجود وصف  
للموت قول سيدنا رسول الله : أكثروا من ذكر هاذم اللذات<sup>(٢)</sup> ...  
ولنجتري بهذا المقدار<sup>(٣)</sup>

## تعظيم أمر الموت

قال الحسن البصري : إنَّ الموتَ قد فضَحَ الدنيا ...  
وكان كثيراً ما يقول : عند الموت يأتيك الخبر ... وقال له رجل يوماً  
إن عشتَ تر ما لم تره ، فقال : إن ميتاً تر ما لم تره ... وفي الأثر : ما رأيتُ  
منظراً فظيماً إلا والموتُ أعظم منه ...

- 
- (١) الجرة : ما يخرج البعير وكل ذي كرش ليضعه ثم يباعه  
(٢) تقرأ هادم بالذال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشيء من أصله والرواية  
بالمعجمة .  
(٣) إذا أردت التوسع في أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من  
المختصر لابن سيده

## حشهم على تصور الموت

كان الحسنُ البصريُّ إذا خَوَّف من الموت يقول للشَّيْخ : الزرُّعُ إذا  
بانح ما يُصنَّع به؟ قالوا : يُحَصِّد ، ويقول : للشُّبَّان : يامعشرَ الشُّبَّان كم  
من زرع لم يبلغْ أدركته الآفة !

وقال بعضُ الخُلَفاء لابن السماك <sup>(١)</sup> : عِظْني وأرْجِزْ ، فقال : اعْلَمْ أنك أوَّلُ  
خليفة تموت ؛ وهذا كما سأل أَرْدَشِيرُ بعضَ الحكماء عن دارِ بناها وقال : هل  
ترى فيها عيباً؟ قال الحكميم : نعم ، عيباً لا يمكنك إصلاحه ، فقال وما هو؟  
قال : لك منها خُرْجة لا عود بعدها أو دُخْلَةٌ لا خروج بعدها ... وقالوا :  
من ضاق به أمرٌ فليذكر الموت فإنه يتَّسعُ عليه ... ونحوه : مَنْ أَحْسَنَ بأنَّه  
يموتُ فليس يَنْبغي أن يَغْتَمَ لأمْرِ صَعْبٍ ينزل به .

وشكا رجلٌ إلى سيدنا رسول الله قساوة قلبه فقال صلوات الله عليه :  
أَكْثَرُ مَنْ ذَكَرَ هَازِمَ اللَّذَاتِ ، فإنه ما ذكره أحدٌ في ضيقٍ إلا وسَّعَهُ عليه  
ولا في سَعَةٍ إلا ضَيَّقَهَا عليه ... وقال بعضُ الصالحين : نِعْمَ نصيحةُ القلبِ  
ذِكْرُ الموتِ ، يطرُدُ نضولَ الأملِ ، وَيُكَفِّفُ غَرْبَ المُنَى وَيَهْوِي المصائبَ ، ويحول  
بين القلبِ وبين الطُّغْيَانِ ... وقال الحسنُ البصريُّ - وقد قعد عند رأسِ  
مَيِّتٍ : إن أمرا هذا آخره لأهلٌ أن يُزْهَدَ فيما قَبْلَهُ ، وإن أمرا هذا أوله  
لَأَهْلٌ أن يُحْذَرَ ما بعده ، ونظر الحسن إلى صبيَّة بين جِثَاة أبيها تقول :  
يا أبتِ مثلي يومك لم أره ، فضمَّها الحسن وقال : أيُّ بُليَّةٍ ، وأبوكِ مثلُ  
هذا اليوم لم يره ؛ فبكى الناس ... ومر على بن أبي طالب رضى الله عنه بمقابر

(١) هو أبو العباس محمد بن صباح العابد المحدث المتوفى سنة ١٨٣

الكوفة فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المظفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، أما الأزواج فقد نسكت، وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت؛ هذا خير ما عندنا، فما خير ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: إنا وجدنا خير الزاد التقوى.

### استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهله

قال أبو نواس من أبيات قد أوردناها عليك في باب التقوى :  
 ألا يا ابن الذين قتلوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى  
 وقال بعض الصالحين: إن أئماً ما بينه وبين آدم أب إلا ميت لمعرق في  
 الموت ... وقال لييد :

فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لملك تهديك القرون الأوائل  
 فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ودون مَعْدٍ فلتزعك العواذل  
 وهذان البيتان من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها:  
 ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل  
 وفيها يقول :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل  
 وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهمية تصفر منها الأنامل  
 وقوله: فإن أنت لم تصدقك ... أليبت يقول: إن لم تصدقك نفسك عن  
 هذه الأخبار، بل كذبتك، فانتسب: أي قل: أين فلان بن فلان، فإنك  
 لا ترى أحداً بقي، وملك تهديك القرون وترشدك، وقوله: فإن لم تجد... أليبت

فزعك : تكفُّفك ، والعواذل هنا : حوادث الدهر وزواجره ، وقال  
بعض الشراح : العواذل : النساء ، يقول : لم يبق لك أبٌ حتى إلى عدنان  
فكُتَّ عن الطمع في الحياة ، ومعنى البيتين : إن غاية كلِّ حتى الموت ، فينبغي  
للإنسان أن يتعظ : بأن ينسب نفسه إلى عدنان ، فإن لم يجد من بينه وبينه  
من الآباء باقياً فليعلم أنه يصير إلى مصيرهم ، فينبغي له أن ينزع عما هو عليه «  
ومثله قول امرئ القيس :

فبعض اللوم عاذلتني فإني سيعكفيني التجارب وانتسابي  
إلى عرق الثرى وشجتي عروقي وهذا الموت يسلبني سبابي  
« وشجتي » : اشتبككت ، وقال أبو تمام في قصيدة له يمدح مالك بن طوق  
ويعزيه عن أخيه القاسم :

تأمل رويداً هل تعدن سالماً إلى آدم أم هل تعدن ابن سالم  
متى تُزع هذا الموت عيناً بصيرة تجذ عادلاً منه شبيهاً بظالم  
« قوله : متى تُزع أبيت يقول : متى أنعمت النظر وأفكرت في أمر الموت  
وجدت منه عادلاً أشبه بظالم ، وذلك أنه قد يخترم من يكون اختراؤه أصلح  
له لدى العزيز الحكيم الذي يعلم مصالح خلقه وقد يتحقق عليك وجه الحكمة  
فتظن العدل جوراً ،  
وقال البحتري :

وما أهل المنازل غير ركب منايام رَوَّاح وإبتكار  
نسب في الدهر آمال طوال تُرجيها وأعمار قصار  
والبيت الثاني مثله قول ابن هانئ الأندلسي من أبيات يرثي بها والده  
يحيى وجمفر ابني علي صاحب المسيلة بالمغرب ، وهذه هي الأبيات :

صَدَقَ الْفَنَاءُ وَكَذَّبَ الْعُمُرُ      وَجَلَّ الْعِظَاتِ وَبَالَغَ النُّذُرُ  
 إِنَّا ، وَفِي آمَالِ أَنْفُسِنَا      طُولُ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصَرُ  
 لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا      لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ  
 مَا دَهَانَا أَنْ حَاضِرَنَا      أَجْفَانُنَا ، وَالْغَائِبُ الْفَكْرُ  
 وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحَنَا      فَأَكْثَرُ الْعَيْنِ وَالنَّظَرُ  
 لَوْ كَانِ لِلْأَلْبَابِ مُتَحَنُّنٌ      مَا عَدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ<sup>(١)</sup>  
 أَيْ الْحَيَاةِ الَّتِي عِشَّتْهَا      مِنْ بَعْدِ عَلَيَّ أَنِّي بَشَرُ  
 خَرِسَتْ لَعَمْرُ اللَّهِ أَلْسُنُنَا      لَمَّا تَكَلَّمَ فَوْقَنَا الْقَدَرُ

### الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدي بن زيد العبادي :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعِيرُ بِالْدهْرِ      رَأَيْتِ الْمُسَبِّرَ الْمَوْفُورُ<sup>(٢)</sup>  
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَائِقُ مِنَ الْآيَا      يَمْ بَلْ أَنْتَ جَاعِلٌ مَقْرُورُ  
 مَنْ رَأَيْتَ الْمَذُونِ خَلَدَنَ أَمْ مَنْ      ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ<sup>(٣)</sup>  
 ابْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشَرُ      وَإِنْ أَمْ ابْنِ قَبْلَهُ سَابُورُ<sup>(٤)</sup>  
 وَبَنُو الْأَضْفَرِ الْكِرَامُ مِلُوكُ الرُّومِ      يَمْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ

(١) أي ما عُد من الممتحنات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواعظ فلا يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) الموفور : يريد الذي لم تصبه نوائب الدهر

(٣) المذون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير ، وسابور ذو الاكتاف وهو سابور

ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنوشروان



وأخو الحَضِرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ لَهُ نُجُجِي إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ <sup>(١)</sup>  
شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّاهُ كَأَنَّ سَا فَلَاطِيرٍ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ <sup>(٢)</sup>  
لَمْ يَهْبُهُ رَبُّ الْمَذُونِ فَبَادَ الْـ مُلْكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ  
وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخَوْرَتِ إِذْ أَصْدَحَ بِوَمَا وَلِلْهَدَى تَفْكِيرُ <sup>(٣)</sup>  
سَرَّهُ سَحَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْدُ لَكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّدِيرُ <sup>(٤)</sup>  
فَارْعَوَى قَلْبُهُ فَقَالَ : وَمَا غِبُّ طُهُ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ  
ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالنَّعَةِ مَتَى وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ  
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ فَأَلَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالْدَّبُورُ <sup>(٥)</sup>

وبما كان يصح أن يذكر في هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسي عبد المجيد ابن عبدون التي يرثي بها بني الأفطس - من ملوك الطوائف بالأندلس - وذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فماتوا جثثاً تقيهم من وثباته، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسدت عليهم

(١) الحَضِر : قصر كان بجمال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحَضِر كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره في الأغاني ج ٢ في ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أى النورة وأخلاطها تطل بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكر : العش

(٣) صاحب الخورنق - وهو القصر الذى بناه سنار - هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزيد جرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها في الأغاني وهو الذى ساق على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معرض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أى اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهب به

الْمَنِيَّةُ بِكَأْسٍ حُتِفَهَا ، وَمَطْلَعُهَا :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ      فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالْأُصُورِ  
يَدُ أَنَا لِطَوْلِهَا رَأَيْنَا أَنْ نَضْرِبَ عَنْ إِرَادِهَا هُنَا صَفْحًا ، وَتَرَاهَا فِي الْمَجْلَدِ  
الخامس من نهاية الأرب للتويزي الذي قامت بطبعه دار المکتب المصرية...  
وقد شرحها ابن بدرون ، ومن أبياتها :

فَلَا تَغُرَّنَكَ مِنْ دُنْيَاكَ تَوَمُّتُهَا      فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنِهَا سِوَى السَّهَرِ  
مَا لِلْيَالِي — أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَنَا      مِنْ اللَّيَالِي وَخَانَتْهَا يَدُ الْغَيْرِ  
فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ      مَنَاجِرَاتٍ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ الْبَصَرِ  
تَسُرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغُرُّ بِهِ      كَالْأَيْمِ<sup>(١)</sup> نَارًا إِلَى الْجَانِي مِنَ الدَّمَرِ  
وقال المتنبي :

أَبْنِي أَيْبِنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ      أَبَدًا عُرَابُ الْبَسِينِ فِيهَا يَنْعِنُ  
نَبْسِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ      جَمَعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا  
أَيْنَ الْأَكْسِرَةِ الْجَبَّارَةِ الْأُتَى      كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِيَ وَلَا بَقُوا  
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَنَاشِهِ      حَتَّى تَوَى فَخَوَّاهُ لَعْدُ ضَيْقِ  
خُرُسٍ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا      أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقُ  
وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنَّفُوسُ تَفَاسُ      وَالْمُسْتَفِرُّ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحَقُّ  
وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ ، وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةُ      وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ ، وَالشَّيْبَةُ أَنْزَقُ

« أَبْنِي أَيْبِنَا : يَا إِخْوَتَنَا ، يَا بَنِي آدَمَ ، وَأَرَادَ بِغُرَابِ الْبَسِينِ : دَاعِيَ الْمَوْتِ  
يقول : نحن نازلون في منازل يتفرق عنها أهلها بالموت ، فقوله : نبسكى على

(١) الأيم : الأفعى .

الدنيا... ألبيت مثله قول جرير يرثي امرأته :

لَا يَلْبَثُ الْقَرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكُورُ عَلَيْهِمْ وَنَهَارٌ

ونوى - بالمثلثة : أقام في القبر؛ وبالمثناة : هلك، وهذا البيت من قول أشجع :

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا أَضِيقُ الصَّحَاصِحَ

« الصحاصح جمع صحصح : وأصله ما استوى من الأرض وكان أجرد »

والمستغر : المغرور، يقول في هذا البيت : النفوس يأتي عليها الموت وإن

كانت عزيزة نفيسة لا يمنعها ذلك من أخذها، واللاحق هو المغرور بالدنيا

وبما يجمعه فيها، أما العاقل فإنه لا يغير بما جمعه لعله أنه لا يبقى هو ولا ما جمعه،

وقوله : والمرء يأمل... ألبيت يقول : المرء يرجو الحياة لطيبها لديه،

والشيب أكثر له وقاراً من الشباب، يعنى : أن المرء يكره الشيب ويحب

الشباب والشيب خير له، لأنه يُكسبه الحلم والأناة والوقار، والشباب شر

له، لأنه يحمله على الطيش والنزق والحُمق، وقال الشاعر :

رُبَّ قَوْمٍ عَبَرُوا مِنْ عَيْشِهِمْ فِي نَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَغَدَقَ

سَكَتُ الدَّهْرِ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَقَ

« الغدق المراد به الخصب والسعة، وقال مالك بن دينار :

أَنْتِ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهُنَّ أَيْنَ الْمَعْظَمِ وَالْمَحْتَقِرِ

وَأَيْنَ الْمُدِلِّ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْمُرَكِّي إِذَا مَا أَفْنَحُرِ

قال : فنوديت من بينها ولا أرى أحدا :

تَفَانُوا جَمِيعاً فَمَا تُخْبِرُ وَمَاتُوا جَمِيعاً وَمَاتَ الْخَبَرُ

تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ السَّيِّ وَتَمْنَحُو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّورِ

فِيَسْأَلُنِي عَنْ أَنَاسٍ مَضَوْا أَمَّا لَكَ فَمَا تَرَى مُعْتَبِرًا

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النعمانُ بنُ المنذرِ ومعه عدىُّ بنُ زيدِ العبادىُّ فى ظلِّ شجرة عظيمةٍ  
ليلهوا ، فقال له عدى : أتدرى ما تقولُ هذه الشجرة ؟ قال : لا ،  
قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَمْزُجُونَ الْخَمْرَ بِالمَاءِ الزَّلَالِ  
نَمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدهرُ بِهِمْ وَكَذَاكَ الدهرُ حالًا بعد حالٍ  
ونظرتِ امرأةٌ إلى جعفر بنِ يحيى البرمكى وزير الرشيد ، وهو مصلوب  
فقال : لئن كنتَ فى الحياة غايَةً فلقد صِرتَ فى المماتِ آية ... ولحاماتِ  
الإسكندرُ المقدونى وَقَفَ عليه أرسطو الفيلسوف فقال : طالما كان هذا  
الشخصُ واعظاً بليغاً ، وما وَعَظَ بمَوْعِظَةٍ فى حَيَاتِهِ أَبْلَغَ من عِظَتِهِ فى مَمَاتِهِ ،  
أَخَذَ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :  
وكانت فى حَيَاتِكَ لى عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

من مات فَقَدْ تَنَاهَى فى البُعدِ

قال التابعُ الدُّيَّانِي :

حَسِبَ الخَلِيلِينَ نَأَى الأَرْضِ بَيْنَهُمَا هَذَا عَلَيْهَا وَهَذَا تَحْتَهَا بِأَلِى  
وقال أبو حِيَّةَ النَمِيرِي :  
فلا غَائِبٌ من كان يُرَجَّى إِيَابُهُ وَلَكِنَّهُ مَن ضَمَّنَ اللَّحْدَ غَائِبٌ

## غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

الناس في غفلاتهم ورَحَى الْمُنِيَّةِ تَطْحَنُ  
وقال الحسن البصري : مارأيتُ يَقيِنَا لاشكَّ فيه أشبه بِشَكِّ لا يقين فيه  
مِثْلَ المَوْتِ « وقد تقدم » وقال عمرُ بنُ عبد العزيز في خطبة له : ما هذا  
التغافلُ عما أمرُتم به ، والتسرعُ إلى ما نُهيتم عنه ! إن كنتم على يقين فأنتم  
مَحَقُّقٌ ، وإن كنتم على شكِّ فأنتم هَلَكِي ...

وقال شاعر :

ونأملُ من وعدِ المُنَى غيرَ صادقٍ ونأمنُ من وعدِ المُنَى غيرَ كاذِبٍ  
نُراغُ إذا ما شِيكَ لِمَحْضٍ بَعْضُنا وأقدأنا ما بين شوكِ العقاربِ  
« المُنَى : جمع المُنِيَّةِ وهو ما يَتَمَنَّاهُ المرءُ ، والمُنَى : الموت ، وأصله القَدَرُ  
تقول : مَنَى اللهُ لَكَ ما يَسُرُّكَ : أى قدر الله لك ما يَسُرُّكَ . ويسمى الموت بالمُنَى  
لأنه قُدِّرَ علينا ، وقيل : مَنَ لم يَرْتَدِعْ بالموتِ وبالقُرْآنِ ثم تناطحتِ الجبالُ  
بين يَدَيْهِ لم يَرْتَدِعْ .

## لا ينجو من الموت أحد

قيل : من لم يَمُتْ عاجِلاً ماتَ آجِلاً ؛ وقال أُمَيَّةُ بنُ أبى الصلتِ :  
مَنَ لم يَمُتْ عِبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا للموتِ كَأَنَّ المَرءَ ذائِقُهَا  
مَالِدَةُ النَفْسِ في الحَيَاةِ وإنْ عاشَتْ قليلاً فالموتِ لَأَحَقُّهَا  
يَقْوُدُهَا قَائِدٌ إِلَيْهِ وَيَخْدُوها حَاشِئًا إِلَيْهِ سَائِقُهَا

« يقال : مات فلان عَظَةً : أى شاباً ، وقيل : شاباً صحيحاً ، وأصل العيظ من اللحم : ما كان سليماً من الآفات ويقال : عَظَ الشاة والناقة وكل دابة : تحرّها أو ذبحها من غير داء وهى فتية ،

وقيل لابن المقفع : قد كنت نُعيت لنا ! فقال : ما بعد كائن ولا قرب بآن ... وقال ابن المعتز :

ألا إنما جسمي لروحي مَطيّةٌ ولا بدّ يوماً أن يُعرى من الرّحل  
« الرّحل : المنزل ، والسرج يوضع على ظهر الدابة ، وعُرى منه نزع عنه وهذا على المثل ، وقال محمود الوراق :

وما صاحب السبعين والعشر بعدها بأقرب من حنكته القوايل  
ولكن آمالاً يؤمّأها الفتى وفيه للراjin حق وباطل  
« القوايل جمع قابلة : المرأة تتلقى الولد لدى الولادة « المولدة » ، وحنكته فالتحريك : أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبي داخل فيه ، ...  
وقال المتنبي :

وأوفى حياة الغايرين لصاحب حياة امرئ خائته بعد مشيب  
« يريد المتنبي : أن الحياة وإن طالت فهي إلى انقضاء ، يقول : أوفى عمر أن يبق حتى المشيب ثم يخونه عمره بعد ذلك ، وتصاراه الموت ، أو تقول : إذا عاش المرء إلى بلوغ المشيب ثم خائته حياته يومئذ فقد تناهت في الوفاء ،  
ومر شيخ من العرب بـ غلام فقال له الغلام : أحصدت يا عمّاه ، فقال : يا بني ، وتختضرون . أحصدت : آن لك أن تُحصّد ، وتختضرون : تموتون خُضرًا في شبابكم ،

## الموت لا يتحرز منه بشيء ولو كان الطَّبَّ

قال المتنبي :

يموتُ راعى الضَّانِ فى جَهْلِهِ مَوْتَهُ جالينوس فى طَبِّهِ  
ورُبَّمَا زَادَ على عُمرِهِ وزاد فى الأَمْنِ على سِرِّهِ <sup>(١)</sup>  
وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لا تَقْلِبُ الْمُضْجَعِ عَنْ جَنْبِهِ <sup>(٢)</sup>  
يَنْسَى بِهَا مَا كَانَ مِنْ عُنْجِهِ وما أذاقَ المَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ <sup>(٣)</sup>  
نَحْنُ بنو المَوْتِ فما بَالُنَا نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ <sup>(٤)</sup>  
تَبْخَلُ أَيْدِينَا بأَرْواحِنَا على زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ <sup>(٥)</sup>  
فهذه الأَرْواحُ مِنْ جَوْهٍ وهذه الأَجْسامُ مِنْ تُرْبِهِ <sup>(٦)</sup>

(١) السرب : النفس (٢) لا بدَّ للإنسان من اضطرجاع في القبر يبق بترك  
الضجعة لا يقبله ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .

(٣) إذا نزل القبر نسي الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .  
(٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مداراة علينا ولا بد لنا من شربها فبالنا نكرها  
فكما مات أبائنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزيه  
في أبيه : أما بعد ، فأيا أمان من أهل الآخرة سكنا في الدنيا ، أموات ، آباء أموات ،  
أبناء أموات ، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت ...  
(٥) تبخل أيدينا بأرواحنا وتمسك بها بخلاها على الزمان والأرواح مما أكسبه  
الزمان قال حكيم : إذا كان تناشؤ الأرواح من كروار الأيام فما لنا نعان رجوعها  
إلى أما كننا !

(٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالأرواح من الجوهر  
والهواء ، والأجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الذِّى يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ (١)  
لَمْ يُرَ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَكَّتِ الْأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ (٢)  
إلى أن قال بعد البيتين المذكورين آنفا :

وِغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سِلْمِهِ كِغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ (٣)  
فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ (٤)  
وقيل للربيع بن حُثَيْمٍ في مَرَضِهِ : أَلَا نَدْعُو لَكَ طَبِيبًا ؟ قَالَ : أَنْظِرُونِي ،  
ثُمَّ فَكَّرَ فَقَالَ : وَعَادًا وَنَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ، لَقَدْ  
كَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ ، فَمَا أَرَى الْمُدَاوِيَّ بَقِيَ وَلَا الْمُدَاوَى صَلُحَ . . . .  
وَدَخَلَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ فَسَمِعَهُ يَطْلُبُ طَبِيبًا فَقَالَ :  
يَا طَالِبَ الطَّبِّ مِنْ دَاءٍ نَخَوْتُهُ إِنَّ الطَّبِيبَ الَّذِي أَهْلَكَ بِالدَّاءِ  
هُوَ الطَّبِيبُ الَّذِي يُرْجَى لِعَافِيَتِهِ لَأَمِنْ يَدُوفٍ لَكَ التَّرْيَاقُ بِالدَّاءِ  
« الَّذِي أَبْلَى الْمَرِيضَ بِالدَّاءِ وَالَّذِي يَرْجَى لِعَافِيَةٍ : هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .  
وَيَدُوفٌ : يَخْطَأُ . وَنَخَوْتُهُ : غَيْرَ حَالِهِ إِلَى أَسْوَأِهَا ، وَيُرْوَى : نَخَوْنَهُ وَالتَّرْيَاقُ :  
الدَّوَاءُ هُنَا ، وَأَهْلَاهُ : صَنَعَ بِهِ مَا يَمْتَحِنُ بِهِ وَيَخْتَبِرُ

(١) العاشق للشيء المستهام به لو أفكر في منتهى حسن المعشوق وأنه يصير إلى  
زوال لم يعشقه ولم يملك عشقه إياه عليه أمره . وهذا يطرد في كل شيء .  
(٢) لا بد من الفناء فالشمس من رآها طالعة علم أنها غاربة لاحالة ، كذلك كل شيء .  
معيره إلى الزوال .

(٣) إن الذى أفرط وجاوز الحد فى السلم كالذى أفرط وجاوز الحد فى الحرب ،  
الكل إلى فناء وإذن لا عذر لمن يجزع قال حكيم : آخر إفراط التوق أول موارد  
الحتوف (٤) من خاف الموت لا أدرك حاجته ، بدعو المتنبى على الجبان - لأنه  
إذا كان الهلاك متيقناً فلم يخاف الإنسان من الموت ويجزع فزعاً منه !



وقال ابن الرومي :

غَلِطَ الطَّيِّبُ عَلَى غَلْطَةٍ وَوَرِدَ عَجَزَتْ مَوَارِدُهُ عَنِ الْإِصْدَارِ  
وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّيِّبَ وَإِنَّمَا غَلِطَ الطَّيِّبُ إِصَابَةَ الْمِقْدَارِ<sup>(١)</sup>  
وقال أبو ذؤيب الهذلي :

وَإِذَا النِّيبَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْقَيْتَ كُلَّ تَيْمَمَةٍ لَا تَنْفَعُ  
وقال علي بن الجهم :

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَتَجَا وَمَاتَ طَيِّبُهُ وَالْعَوْدُ  
وقد أخذ هذا من قول عدى بن زيد :

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَتَمُودُ  
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْأَسْرِ وَالْأَنْدِ مَا طِ أَفْضَتْ إِلَى الشَّرَابِ الْخَدُودُ  
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ بَعْدَ ذَا الْوَعْدِ كُكُلُهُ وَالْوَعْدُ  
وَأَطْبَاءُ بَعْدَهُمْ لِحَقْوِهِمْ ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ  
وَصَحِيحٌ أَخْضَى يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَذْنَى لِلْمَوْتِ يَمِّنُ يَعُودُ

« السَّعُوطُ : الدَّوَاءُ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنَ الْأَنْفِ ، وَاللَّدُودُ : مَا يُؤْخَذُ مِنَ  
الدَّوَاءِ بِالْمِسْقَطِ وَيُصَبُّ فِي أَحَدِ شَقَى الْفَمِ » وَيُرْوَى : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ  
كَرَبَ مِنَ الطَّاعُونَ ، فَرَكِبَ لَيْلاً وَأَخْرَجَ غُلَاماً مَعَهُ ؛ وَكَانَ يَنَامُ عَلَى دَابَّتِهِ ،  
فَقَالَ لِلْغُلَامِ : حَدِّثْنِي ، فَأَقْلَمَ وَمَنْ أَنَا حَتَّى أُحَدِّثَكَ ! فَقَالَ : عَلَى كُلِّ حَالٍ حَدِّثْ  
حَدِيثًا سَمِعْتَهُ ، فَقَالَ : بَلْغَنِي : أَنَّ ثَمَلِيًّا يَخْدُمُ أَسَدًا لِيَحْمِيَهُ وَيَمْنَعُهُ يَمِّنُ يُرِيدُهُ  
فَكَانَ يَحْمِيهِ ، فَرَأَى الثَّغْلَبَ عُقَابًا ، فَجَاءَ إِلَى الْأَسَدِ ، فَأَقْعَدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَانْقَضَ  
الْعُقَابُ وَاخْتَلَسَهُ ، فَصَاحَ الثَّغْلَبُ : يَا أَبَا الْحَارِثِ ، أَغَشَيْتَنِي وَأَذْكَرَ عَهْدَكَ لِي

(١) بلحون : يلومون ، والمقدار : القدر

فقال الأسد: إنما أقدر على منعك من أهل الأرض، وأما أهل السماء فلا سبيل لي إليهم، فقال عبد الملك: وعظمتي وأحسن، انصرف ورضى بالقضاء...

ولمناسبة الحرب من الطاعون نورد هنا ما أوردنا نظيره في قولنا على التوكل، وهو أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه لما بلغه أن الطاعون وقع بالشام فأنصرف بالناس: قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم تفر من قدر الله إلى قدر الله؛ أريت لو أن لك إبلاً هبطت بها وادياً له جهتان إحداهما خصية والآخرى جدية، أليس لو رعيت في الخصية رعيتها بقدر الله، ولو رعيت الجدية رعيتها بقدر الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال: عندي في هذا علم سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سمعتم به - بالطاعون - في أرض فلا تقدموا عليها، وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، فحمد الله عمر ثم انصرف بالناس...

وقال المتنبي:

نُعِدُّ المَشْرِفِيَّةَ والعَوَالِي وتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتَالِ  
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتٍ وَمَا يُنْجِيَنَّ مِنْ حَبِّ اللَّيَالِي  
وَمَنْ لَمْ يَعْشِقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا وَلَكِنْ لَاسَبِيلَ إِلَى الوَصَالِ

«المشرفية: السيوف -، والعوال: الرماح، والمنون: الموت، والسوابق جمع سابق وسابقة، والمقربات من الخيل هي الكرام التي ترتبط لكرامتها على أصحابها أو لفرط الحاجة إليها والحب: عدو ولا يستفرغ الجهد؛ يقول المتنبي: نحن نُعِدُّ السُّيُوفَ والرماح لمنازلة الأعداء ومُدَافعة الأقران: والموت يُخْتَرَمُ نُفُوسَنَا

دُونِ قِتَالٍ أَوْ نِزَالٍ ، لَا يُمَكِّنُنَا حِذَارُهُ وَلَا يَتِمُّ لَنَا دِفَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ  
الثَّانِي : وَنَرْتَبِطُ الْحَيُولَ الْكَرِيمَةَ وَمَعَ هَذَا لَا تُنَجِّينَا مِنْ طَلَبِ الدَّهْرِ لِإِيَانَا  
وَحَبَبَ لِيَالِيهِ فِي آثَارِنَا :

كَأَنَّا فِي حُرُوبٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَتَنُّنُ مِنْ بَيْنِ تَجْرُوحٍ وَمَطْعُونٍ  
وَقَدْ تَقْدِمُ مَعْنَى الْبَيْتِ الثَّالِثِ .

### موت الفجاءة والصحيح يموت

قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَاتَ فُلَانٌ أَصَحَّ مَا كَانَ ! فَقَالَ : أَوْ صَحِيحٌ مَنِ الْمَوْتُ  
فِي عُنُقِهِ ! وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنْ أَنْ أَكُونَ  
مُخْتَلِسًا « أَيْ يَخْتَلِسُهُ الْمَوْتُ عَلَى غَفْلَةٍ » وَفِي الْحَدِيثِ : بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ مَرَضًا  
حَاسِبًا أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : كَيْفَ مَاتَ أَبُوكَ ؟ قَالَ : مَاتَ سِرًّا  
« أَيْ جَفَاءً » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَرُبَّمَا عَوْفِصَ ذُو غِرَّةٍ أَصَحَّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْلَمْ  
« يَقَالُ : غَافِصَ الرَّجُلِ مُغَافَصَةً وَغِفَافًا . أَخَذَهُ عَلَى غِرَّةٍ فَفَرَّقَتْهُ بِمَسَاءَةٍ »  
وَقِيلَ لِرَجُلٍ : مَا كَانَ سَبَبُ مَوْتِ فُلَانٍ ؟ قَالَ : كَوْنُهُ « أَيْ وَجُودُهُ » وَالْبَيْتُ  
الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بَغْيَرَةٍ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

### كل إنسان معرض لموته أو موت أحبته

قَالَ حَكِيمٌ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ رَأَى الْمَصَائِبَ فِي إِخْوَانِهِ وَجِيرَانِهِ ، وَمَنْ قَصُرَ  
عُمُرُهُ كَانَتْ مَصِيبَتُهُ فِي نَفْسِهِ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَمَوْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ وَمُعْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ  
وقال يزيد بن الحكم الثقفى :

كُلُّ امْرِئٍ مَسْتَتِيمٌ مِنْهُ الْعَرْسُ أَوْ مِنْهَا يَنْتِمِ  
« العرس : الزوجة ، وآمت المرأة من زوجها تَنِيمُ وتَأَيَّمَتْ مات عنها  
زوجه أو قُتِلَ وأقامت لا تتزوج ، وكذلك الرجل ..... »

### جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْرِي  
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... وقيل لجعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم :  
كيف يأتي الموت من وجه شتى ، على أحوال شتى ؟ فقال : إن الله أراد أن  
لا يُؤْمَنَ في حال ... وقالوا : أمرٌ لا تَدْرِي متى يغشاك ألا تستَعِدُّ له قبل  
أن يَفْجَأَكَ اوقال ديك الجن <sup>(١)</sup>

والناس قد عَمِلُوا أن لا بقاء لهم لو أنهم عَمِلُوا مِقْدَارَ مَا عَمِلُوا

### الموت يسوي بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبي في رثائه أبا شجاع فاتكا :

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة  
العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ومن قوله في الخمر وقد أعجب به  
أبو نواس :

ظَلَّلْنَا بِأَيْدِينَا نَتَّبِعُ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ مِنْ أَقْدَامِنَا الرَّاحُ ثَارَهَا  
مُورَدَةً مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَدَارَهَا

وَصَلْتُ إِلَيْكَ يَدُ سَوَاءٍ عِنْدَهَا أَبَاؤُ الْأَشْهَبِ وَالْغُرَابُ الْإِبْقَعُ  
 «البازُ الأشهبُ : الذي غَلَبَ عليه البياضُ ، والابقعُ : الذي في صدره  
 بياضٌ يقول المتنبي : وصلت إليك يَدٌ - يريد المنيّة - الشريف والوضيع لديها  
 سواء ، ففعلها مع الباز الأشهب مع كرمه كفعلها بالغراب الابقع مع قبحه  
 ودمايته ، وهذا على المثل » ... وَيُرْوَى أَنَّ الْإِسْكَنْدَرَ الْمَقْدُونِيَّ مَرَّ بِمَدِينَةٍ  
 قَدْ مَلَكَهَا غَيْرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ ؛ فَقَالَ : انظُرُوا هَلْ يَبْقَى بِهَا أَحَدٌ مِنْ تَسْلِ  
 مَلُوكِهَا ؟ فَقَالُوا : رَجُلٌ يَسْكُنُ الْمَقَابِرَ ، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ إِقَامَتِهِ هَذِهِ ؛  
 فَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أُمَيِّزَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ عِبِيدِهِمْ فَرَجَدَتْهَا سَوَاءً ،  
 فَقَالَ : هَلْ تَنْبَغُنِي فَأُخِي لَكَ شَرَفَكَ إِنْ كَانَ لَكَ هِمَّةٌ ؟ فَقَالَ : هِمَّتِي عَظِيمَةٌ  
 إِنْ أَتَانِيهَا ، فَقَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : حَيَاةٌ لَا مَوْتَ مَعَهَا ، وَشَبَابٌ لَا هَرَمَ مَعَهُ ،  
 وَغِنًى لَا فَقْرَ مَعَهُ ، وَسُرُورٌ لَا مَكْرُوهَ فِيهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ عِنْدِي هَذَا ، فَقَالَ :  
 دَعْنِي أَلْتَمِسَهُ مَنْ هُوَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ حَكِيمًا ؛ ... وَقَالَ مَالِكُ بْنُ  
 دِينَارٍ : قَدِمَ عَلَيْنَا بَشْرُ بْنُ مَرْوَانَ أَخُو الْخَافِضَةِ - عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ -  
 فَطَعَنَ - أَصَابَهُ الطَّاعُونَ - فَمَاتَ فَأُخْرِجْنَاهُ إِلَى الْقَبْرِ ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْجَبَانِ  
 - الْجَبَّانَةِ - إِذَا نَحْنُ بِسُودَانٍ يَحْمِلُونَ صَاحِبًا لَهُمْ إِلَى الْقَبْرِ ، فَدَفَنَاهُ وَدَفَنُوا  
 صَاحِبَهُمْ ، فَعُدْتُ قَبْلَ الْأَسْبُوعِ فَلَمْ أَعْرِفْ قَبْرَ الْأَسْوَدِ مِنْ قَبْرِهِ ؛ وَفِي هَذَا  
 يَقُولُ الشَّاعِرُ :

ولقد مررتُ على القبور فما ميزتُ بين العَبْدِ وَالْمَوْلَى

وقال صالح بن عبد القدوس :

فيا منزلاً سَوَى الْبَيْتِ بَيْنَ أَهْلِهِ فَلَمْ يَسْتَيْنِ فِيهِ الْمُلُوكُ مِنَ السُّوقِ

## انقضاء ناس بعد ناس

## ورجوعهم إلى الموت

قال على كرم الله وجهه : إنَّ الله في كلِّ يومٍ ثلاثَ عساكرَ : عسكرٌ ينزلُ من الأضلاب إلى الأرحامِ ، وعسكرٌ ينزلُ من الأرحامِ إلى الأرضِ ، وعسكرٌ ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ <sup>(١)</sup> وقال الشاعرُ :

وما نحنُ إلا رُقَقَةٌ غيرَ أتنا أقمنا قليلاً بعدهم ونزوحُ

وقال آخر :

إذا زُرْتُ أرضاً بعد طولِ اجتنائها فقتُ صديقاً والبلادُ كما هيّا

وقال : \* أرى الأرضَ تبقى والأخلاءُ تذهب \*

وقيلَ للبهلول <sup>(٢)</sup> - وقد أقبل من الجبَّانِ - : من أين ؟ فقال :

من عسكرِ الموتى ، فقبل ما قلت وما قالوا ؟ فقال : سألتهم : متى يرحلون ؟ فقالوا : ننتظر قدرمكم ثم نرحل ... ورووا : أن راهبَيْنِ دخلا البصرةَ من ناحية الشام فنظرا إلى الحسنِ البصريِّ ، فقال أحدهما : ملُ بنا إلى هذا الذي كانَ سمتهُ سمْتُ المسيح ، فعدلا إليه ، فألفياه مُفترشا بذقنه ظاهرَ كَفِّهِ وهو يقول : يا عجبا <sup>(٣)</sup> لقوم قد أُمروا بالزاد وأذنوا بالرحيل ، وأقام

(١) العسكر : الجماعة من كل شيء يقال : عسكر من رجال ومن خيل

(٢) كان البهلول هذا مجنونا مرورا وكان ظريفا وكان يتشيع ، قال له قائل : اشم فاطمة وأعطيك درهما فقال . بل أشم عائشة وأعطني نصف درهم ا و مر به بعضهم وهو يأكل خبيصا ، فقال له : أطعمني ، فقال : ليس هو لي ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلى لآكله لها ...

(٣) يا عجبا : لك أن تقرأ بالتوين وبدونه أما بدونه فإنه يريد : يا عجبي فقلب يا المتكلم

أولهم على آخرهم ، فليَتَ شعري ماذا ينتظرون ! وفي رواية أخرى هذه الزيادة بعد قوله : وأقام أولهم على آخرهم : وآخرهم قُعود يلعبون « قوله : أمروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأذنوا بالرحيل : أذنوا : أعللوا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم على آخرهم : إعلله يريد : أن أولهم يرضى فعل آخرهم فلم يُنكر عليه ، ولعله يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور في هذا آيات قُس بن ساعدة الايادي :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر  
لما رأيتُ مَوارِدًا للوتِ ليس لها مَصَادِرُ  
ورأيتُ قومي نحوها يَمْضِي الأصاغرُ والأكابرُ  
لا يَرْجِعُ الماضي إلى ولا من الباقيين غايرُ  
أَيَقُنْتُ أَنِّي لَأَحْمَا لَهَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

« في الذاهبين : متعلق ببصائر في آخر البيت ، وبصائر : عبر ، والقرون جمع قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إذا ذهبَ الْقَرْنُ الذي أنتَ فيهِمْ وَخُلِّفَتْ في قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ  
ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا في تحديد القرن من الزمان فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألفا وأما بالتثنية فكأن تجعل عجباً نادى منكراً ، ولك أن تجعل دياً ، حرف تنبيه وعجبا مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجباً وأن تجعل دياً ، حرف نداء والمنادي محذوف أى يا قوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ الورد ، أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ،  
أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبِرَ بمعنى : مكثَ وبقي ،  
وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الأضداد ،

### من يخاف الموت ولا يستعد له

وحثهم على تعاظم ما بهون أمر الموت

جاء رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يا نبي الله ، ما لي لأحِبُّ الموت ؟  
فقال له : هل لك مالٌ ؟ قال : نعم ؛ قال : قدّمه بين يديك ؛ قال : لأطيقُ  
ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إن المرأة مع ماله إن قدّمه أحبّ أن يلحقَ به  
وإن أخره أحبّ أن يتخلف معه ... وقال الحسن البصرى ثشيخ في جنازة : <sup>(١)</sup>  
أترى هذا الميت لورجع إلى الدنيا أكان يعمل صالحا ؟ قال : نعم ، قال :  
إن لم يكن ذاك فكأن أنت ذاك ... وقال القاضي أبو الحسن على بن عبد العزيز  
الجزجاني :

إذا قلت لم يبلغ بي السن مَبْلَغًا      وُعِظْتُ يُطْفَلٍ صار قَبْلِي إلى التُّرْبِ  
وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أنتم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال :  
من رجّا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه ... وقال أبو الدرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح  
الجيم فالميت قال أبو على الفارسي : لا يسمى جنازة - بالكسر - حتى يكون عليه ميت وإلا  
فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى في أفواه الناس جنازة بالفتح والنحارير  
ينكرونها ، وقال بعضهم إن اللفظ نبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشيء  
يجنزه جنزا ستره وذكروا أن النوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن  
يصلى عليها الحسن البصرى فقليل له في ذلك فقال : إذا جنزتموها فأذنوني



لَنْ يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِإِسَاءَتِهِ وَلَا يَكْرَهُ الْإِسَاءَةَ فِي حَيَاتِهِ ... وقال رجل  
لأبي الدرداء : ما باننا نَكْرَهُ الموت ؟ قال : لأنكم أَخَرْتُمْ آخِرَ نَفْسِكُمْ وَتَحَرَّمْتُمْ  
دُنْيَاكُمْ فَكِرِهْتُمْ أَنْ تُنْقَلُوا مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْخُرَابِ ... وقال أبو حازم : كلُّ  
عَمَلٍ تَكْرَهُهُ الْمَوْتُ لِأَجْلِهِ فَدَعُهُ كَيْلًا تَخَافُ مِنْهُ مَتَى أَتَاكَ ...

### من أمر ذويه بالبكاء عليه

رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ... قَالَ  
الْعُلَمَاءُ : أَرَادَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا وَصَّى الْمَيِّتُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ  
يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَقَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

إِذَا مِتْ فَاثْنَيْنِ بِمَا أَنَا أَهْلُهُ      وَشَقَى عَلَى الْجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبِدٍ<sup>(١)</sup>

وقول الفرزدق :

إِذَا مِتْ فَاثْنَيْنِ بِمَا أَنَا أَهْلُهُ      فَكُلُّ جَيْلٍ قُلْتُ فِي مَصْدَقٍ

وقول ابن المعتز :

إِذَا مِتْ فَاثْنَيْنِ بِمَا أَنَا أَهْلُهُ      وَلَا تَذْخَرِي دَمْعًا إِذَا قَامَ نَائِحٌ  
وَقُولِي : تَوَى طَوْدُ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى      وَعُطِّلَ مِيزَانُ مِنَ الْحِلْمِ رَاجِعُ  
« تَوَى : هَلَكَ ، وَتَقَرَأُ : تَوَسَّى وَالطَوْدُ : الْجَبَلُ الْعَظِيمُ ، وَالْحِلْمُ : الْأُنَاةُ وَالْعَقْلُ ،  
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْأَوَّلَى : أَنْ يُقَالَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ : يَسْمَعُ صَوْتَ الْبُكَاءِ  
هُوَ نَفْسُ الْعَذَابِ ، كَمَا أَنَّ نَعْدَبُ الْبُكَاءِ الْأَطْفَالَ ، فَالْحَدِيثُ عَلَى ظَاهِرِهِ »

(١) من معلقة طرفة ، ومعبد أخوه يوصي ابنة أخيه بأن تشيع خبر هلاكه إذا هو  
مات - بالشاء الذي يستحقه وشق جيها عليه وبعد البيت :

وَلَا تَجْعَلْنِي كَأَمْرِئٍ لَيْسَ هُمُهُ      كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي غَنَائِي وَمَشْهَدِي  
« الْهَمُّ : الْهَمَةُ وَالطَّمُوحُ إِلَى الْعِلَالِ ، وَالْغَنَاءُ : الْكَفَايَةُ . وَالْمَشْهَدُ : الشُّهُودُ أَيْ مَلَابِسُهُ

من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه

لَمَّا احْتَضَرَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ جَعَلَ يَدُهُ فِي وَضْعِ الْغُلِّ «الْيَدِ» مِنْ عُنُقِهِ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا فَقَرَّطْنَا ، وَنَهَيْتَنَا فَرَكِينَا ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْعُنَا إِلَّا رَحْمَتُكَ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ هَجِيرَاهُ حَتَّى قُبِضَ ... وَقِيلَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ حِينَ احْتَضَرَ : مَا حَالُكَ ؟ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلا زَادٍ ، وَيَنْزِلُ حُفْرَةً مِنَ الْأَرْضِ مُحِشَّةً بِلا مُؤْنِسٍ ، وَيَقْدُمُ عَلَى مَلِكٍ جَبَّارٍ قَدْ قَدَّمَ إِلَيْهِ الْعُذْرَ بِلا حِجَّةٍ ؟ وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ : وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ غَسَّالًا أَكُلُ كُلَّ يَوْمٍ كَسْبَ يَوْمِي لَا يُفْضَلُ عَنِّي ... فَقِيلَ ذَلِكَ لِأَبِي حَازِمٍ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا بِحَيْثُ يَتَمَنَّى الْمُلُوكُ حَالَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَتَمَنَّى حَالَهُمْ ... وَلَمَّا أَذْنَفَ<sup>(١)</sup> الْمَسَامُونُ بْنُ الرَّشِيدِ أَمْرًا أَنْ يُقَرَّشَ لَهُ جِلٌّ — بِسَاطٌ — لِجَعْلٍ يَتَمَرَّغُ فِيهِ وَيَقُولُ :

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ أَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا  
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ أُرْعَى الْوُعُولَا<sup>(٢)</sup>  
وَأُغْنِيَّ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ :

لَيْتَكُمَا لَيْتَكُمَا لَيْتَكُمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكُمَا

اللَّهُمَّ لَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَتَصَرَّ

ثُمَّ أُنْغِيَّ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدِكَ لَا أَلْمَا<sup>(٣)</sup>

الحروب والوقائع (١) أذنف المريض : نقل مرضه ودنا من الموت .

(٢) الشعر لامية بن أبي الصلت . والوعول : جمع وعل : تيس الجبل

(٣) لامية بن أبي الصلت كذلك وألم الرجل من اللم وهو مادون الكبائر من الذنوب قال سبحانه : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم وقيل : اللم : أن يلم المرء بالمعصية ولم يصر عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبتُ  
الأمور العظامَ جرأةً مني عليك ؛ فإنك تعلم أني قد أطعْتُك في أحبِّ الأشياءِ  
إليك : شهادةً أن لا إله إلا أنت ، منَّا منك لا منَّا عليك ... وكان سببُ إحرامه  
من الحضراء أنه كان يوماً نائماً فأتاه آت في منامه فقال :

كَانَ فِي هَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَعُرِيَ مِنْهُ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ  
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ نِعْمَةٍ إِلَى جِدَّتِ تُثْنَى عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ  
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَشْمُهُ وَحَدِيثُهُ تُبْكِي عَلَيْهِ مَعُولَاتِ حَلَالَتِهِ<sup>(١)</sup>  
فاستيقظ مرعوباً ثم نام فأتاه الآتي فقال :

أَبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَقَاتُكَ وَانْقَضَتْ سِنُوكَ وَأَمْرُ اللَّهِ لَا بَدَّ وَاقِعُ  
فَهَلْ كَاهَنُ أَعَدَّتَهُ أَوْ مُنَجِّمٌ أَبَا جَعْفَرٍ عَنْكَ الْمَنِيَّةُ دَافِعُ  
فقال : ياربِّعُ اتْنَى بِطُورِي ، فَقَامَ وَانْتَغَسَلَ وَصَلَّى وَلَبَّى وَتَجَهَّزَ لِلْحَجِّ ،  
فَلَمَّا صَارَ فِي الثُّلُكِ الْأَوَّلِ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : يَارَبِّعُ أَقْنِي فِي حَرَمِ  
اللَّهِ ، فَاتَ بِسِتْرِ مِيمُونَ<sup>(٢)</sup> ... وَقَالُوا : لَقَدْ مَيَّنَّاكَ - أَيْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - فَإِذَا  
قَالَهَا فَدَعَاهُ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِهَا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا تُضَيِّرْهُ .

### من امتنع من التوبة عند موته

اعْتَلَّ أَعْرَابِيٌّ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ تُبَّتَ ، فَقَالَ : لَسْتُ مِنْ يُدْخِلُنِي عَلَى الذِّلِّ ،

(١) تبكى - بالتشديد - مثل تبكى بالتخفيف ، وحلالتة : زوجاته ، ومعولات : رافعات  
أصواتهن بالبكاء ..

(٢) بنو ميمون : بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي .

إن عافاني الله تُبْتُ وإلا مِت هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال :  
 « إن كنتُ مسيئاً فليست هذه ساعة التَّوبَة ، وإن كنتُ مُحسناً فليست ساعة الفَرَع  
 » الفزع : الاستغاثة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت  
 الحساب والمجازاة وإنما ذلك يوم الفزع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى :  
 مادمت محسناً فليس ثمت داع للخوف »

### من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : ما من نفسٍ حيَّةٍ إلَّا والموتُ خيرٌ لها ، إن كان  
 برا فإن الله تعالى يقول : وما عند الله خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجراً فإن الله  
 تعالى يقول : ولا يحسبن الذين كفروا أنمسا نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملى  
 لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذابٌ مُهين <sup>(١)</sup> وحضرَ أحدُ الصالحين الموتَ ، ففرَّحَ  
 فقيل له : تستبشرُ بالموت ؟ فقال : أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كتمامي  
 على مخلوقٍ أخافه ! وسُئل حكيمٌ عن الموتِ ، فقال : هو فزعُ الأغنياء وشهوةُ  
 الفقراء ... وقال بعضهم : لا يكون الحكيمُ حكيماً حتى يعلم أن الحياة تُسترقُّه  
 والموتُ يُعتَقُّه .. وقال المتنبي :

تغرُّ حلاواتُ النُّفوسِ قلوبَنَا فتختارُ بمضِّ العيشِ وهو حِمَامٌ

« يقول المتنبي : حُبُّ الحياة يغرُّ القلبَ حتى يختارَ عيشاً فيه ذل :

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن  
 فالذين فاعل وما في إنما نملى لهم مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت  
 متصلة في الإمام - المصحف العثماني - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر ؛ وقيل .  
 تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام  
 في قوله سبحانه ليزدادوا إثماً لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وَشَرُّ الْخَامِينَ الزُّوَامِينَ عَيْشَةُ      يَذِلُّ الذِّي يَخْتَارَهَا وَيُضَامُ ،

وقال أيضا :

وما الدهرُ أهلٌ أنْ تُؤمَلَ عندهُ      حياةٌ وأنْ يُشتاقَ فيه إلى البسَلِ

« وقد تقدم » وفي هذه القصيدة يقول المتنبى :

نَبْكَى لِمَوَاتَانَا عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ      تُقَوُّ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا مَوْهَبٍ جَزَلِ

إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ      تَيَقَّنْتَ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرْبٌ مِنَ الْقَتْلِ

« يقول : نحن نبكى على موتانا ونحزن لهم ونأسف لفراقهم ونحن على يقين من أنهم لا يفوتهم من الدنيا ما يُرَغَّبُ في مثله ولا يمتعون منها بما يصح أن ينافس في نيله ؛ ثم قال في البيت التالي : وأنت إذا ما تأملت وأنعمت النظر في تصاريف الدهر وخطوبه تيقنت أن الموت المحتوم على المرء كالذي يتوقعه من القتل وإذن لا داعى للجبن والذعر ولا موجب لحُب الحياة والتهافت عليها قال عنتره :

فَأَجِبْتُهَا : إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ      لَا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بِذَلِكَ الْمَنَهْلِ

فَأَقْنَى خِيَاءَكَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَى      أَنِّي أَمْرٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

« فأقنى خباءك : فالزميه واحفظيه واتخذيه قنية ، وقال الإمام الجنيدي :

مَنْ كَانَ حَيَاتُهُ بِنَفْسِهِ يَكُونُ تَمَاتِهِ بِذَهَابِ رُوحِهِ ، فَتَصْعَبُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ حَيَاتُهُ بِرَبِّهِ فَإِنَّهُ يَلْتَقِلُ مِنْ حَيَاةِ الطَّبَعِ إِلَى حَيَاةِ الْأَصْلِ ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ .

## تمنى الموت

قال أعرابي : خيرٌ من الحياة ما إذا فَقَدْتَهُ أَبْغَضْتَ لِفَقْدِهِ الحياة ، وشرُّ

من الموت ما إذا نزل بك أحببت لنزوله الموت ... وقال المتنبى :  
كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا  
تمنيتهما تمتيت أن ترى صديقا فأعيا أو عدواً مدارجيا  
وقال المهلبى الوزير<sup>(١)</sup> :

ألا موتٌ يُباع فأشتره فهذا العيش مالا خيراً فيه  
ألا موتٌ لذيدُ الطعم يأتى يُخلصنى من العيش الكريه  
إذا أبصرتُ قبراً من بعيد وددت لو آتني مما يليه  
ألا رحم المهيمين نفس حرة تصدق بالوفاة على أخيه  
واعتل الشبلى ثم برأ ، فقال له بعض أصحابه كيف أنت : فقال :  
كلما قلت : قد دنا حل قيدي قدّموني وأوثقوا المساراً

## الحياة لا تمل

قال حكيم : الحياة وإن طالّت لا تُتمل ، وإنما يمتل المرء تكاليف الحياة ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلاً محباً لأهله وكان قبل اتصاله  
بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى  
اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الايات ارتجالاً ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى  
فلما سمع الايات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه وضرب الدرهم من ضرباته  
وافترقا حتى تولى المهلبى الوزارة وضاعت الاحوال برفيقه هذا فقصدته وكتب إليه :

ألا قل للوزير فدته نفسى مقالة مذكر ما قد نسيه  
أتذكر إذ تقول لضعفك عيش ألا موتٌ يُباع فأشتره

فلما وقف على ذلك هزته أريجحة الكرم وأمر له فى الحال بسبعمئة درهم ووقع فى  
رقعته : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل  
سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به

ولهذا فَضَّلَ قولُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :

سَيِّئَتْ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسْأَمُ  
على قول لييد :

ولقد سَيِّئَتْ من الحياةِ وطولها وسؤالِ هذا الناس : كيف أَبِيدُ  
« تكاليف الحياة : مشاقها وشدائدها ، أما لييد فإنه يكاد يكون معذورا إذا  
هو ملّ الحياة نفسها ولم لا وقد عُمرَ حتى بلغ ثلاثين ومائة سنة ؟ » وقال المتنبي :  
ولذيذُ الحياةِ أَنْفُسُ في النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُبْمَلَ وَأُحْلَى  
وإذا الشَّيْخُ قالَ أَفِ فإِمْ لُ حَيَاةٍ وَإِمْ الضَّعْفَ مَلَأَ  
آلَةُ الْعَيْشِ صَحَّةٌ وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّيَا عَيْنَ الْمَرِيءِ وَلَّى  
« وقد تقدمت » ودخل سليمانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فرأى  
شيخا ، فقال : يَا شَيْخُ ، أَيُّشْرَكَ أَنْ تَمُوتَ ؟ فقال : لا والله ، قال : ولمَ وقد  
بَلَغْتَ مِنَ السَّنِّ مَا أَرَى ؟ قال : مَضَى الشَّبَابُ وَشُرُهُ ، وَبَقِيَ الشَّيْبُ وَخَيْرُهُ ،  
فأنا إذا قَعَدْتُ ذَكَرْتُ اللَّهَ ، وإذا قَمْتُ حَمِدْتُ اللَّهَ ، فَأُحِبُّ أَنْ تَدُومَ لِي  
هَاتَانِ الْحَالَتَانِ ...

### تسلي الناس عمن مات

قالوا : إذا أردت أن تنظرَ الناسَ مِنْ بَعْدِكَ فأنظرْ إليهم بعدَ مَنْ مات  
قَبْلَكَ ... وقال أبو العتاهية :

سَيُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ  
وقال منصور الفقيه : <sup>(١)</sup>

(١) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي الفقيه المصري الشافعي

كلُّ مذكورٍ من النَّاسِ إِذَا مَا فَقَدُوهُ  
صارَ في حُكْمِ حَدِيثٍ حَفِظُوهُ فَلَسُّوهُ

وقال آخر:

هَالُوا عَلَيْهِ التُّرْبُ ثُمَّ انْتَشَرُوا عَنْهُ وَخَلَّوْهُ وَأَصْمَالَهُ  
لَمْ يَنْقُضِ النَّوْحُ مِنْ دَارِهِ عَلَيْهِ حَتَّى انْقَسَمُوا مَالَهُ  
سَهْمِ الْمَنَايَا بِالذَّخَائِرِ مَوْلَعِ

قال أبو تمام (١)

عليكَ سَلامُ اللَّهِ وَفَقًّا فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُحْرُ  
وقال من أبيات يرثي بني حميد أيضا:

إِنْ يَنْتَحِلْ حَدَنَانُ الْمَوْتِ أَنْفَسَكُمْ وَيَسْلُمُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ  
فَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيًّا أَنْ أُعَذِّبَهُ يَفْسَى وَيَمْتَدُّ عُحْرُ الْأَجِينِ الْأَسَنِ  
وقال ابن النبية المِصْرِيُّ من أبيات مختارة نوردتها عليك:

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَحَيْلِ الطَّارَادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادِ

الضريه، كان فقيها شافعيًا وكان أديبا شاعرا متقنا توفي بمصر سنة ٨٣٠ هـ ومن شعره السائر:

لِي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنْهَمُ وَلَيْسَ فِي الْكَذَّابِ حِيلَةٌ  
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَكُونُ وَلِخَيْلِي فِيهِ قَلِيلُهُ  
ومنه: إِذَا تَخَلَّفْتَ عَنْ صَدِيقٍ وَلَمْ يُعَانِبْكَ فِي التَّخَلُّفِ  
فَلَا تُعَذِّبْ بَعْدَهَا إِلَيْهِ فَإِنَّمَا وَدَّهِ تَكْلُفُ

(١) من مرثيته التي يرثي بها محمد بن حميد الطوسي وأولها:

كَذَا فَلْيَجَلَّ الْخُطْبُ وَلْيَتَدَجِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ



والله لا يدعو إلى داره . إلا من استصاح من ذى العباد  
والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد  
والمرء كالظل ، ولا بد أن يزول ذاك الظل بعد امتداد  
لا تفسح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد  
أرغمت يا موت أنوف القنا ودست أعناق السيوف الحداد  
وقال شاعر :

فلا تجزعن من موته وهو نائي ولا ينكرن هذا من جرب الدهرا  
فكل طويل المجدي يقصر عمره كذاك سباع الطير أقصرها عمرا

### إنكارهم السماتة في الموت

قال عدى بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالدهر ر أنت المبرأ الموفور  
أم لبيك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور  
« وقد تقدمت هذه الأيات ... » وقال شاعر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد  
ولما مات الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما دخل عبد الله  
ابن عباس على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، مات الحسن بن علي ؟  
قال : نعم ، وقد بلغتني نبؤدك ، أما والله : ما سدّ جثمانه حفرتك ، ولا زاد

= وقول أبي تمام : إن ينتحل البيت . فينتحل : يأخذ النفوس نحلة أى عطية ، ولك  
أن تقرأها ينتحل ، والعطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والآجن : الماء المتغير الطعم  
واللون ومثله الآسن

انقضاء أجله في محرك ، قال : أحسبه ترك صنيعة صغاراً ولم يترك عليهم  
كثير معاش ؟ فقال : إن الذي وكلهم إليه غيرك ، ... وقال الفرزدق :  
قُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِئُوا سَيَلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا  
وحكى المبرد عن بعضهم : أنه شهد رجلاً على قبر وهو يكثر البكاء ،  
فقلت : أعلی قريب أو على صديق ؟ فقال : أخص منهما ، قد كان لي عدواً ،  
فخرج إلى الصيد ، فرأى ظبياً فتبعه ، فعثر بالسهم ، فخر هو والظبي ميتين ،  
فدفن ، فانهت إلى قبره شامتاً به ، فإذا عليه مكتوب :

وما نحن إلا مثلهم غير أننا أقمنا قليلاً بدمهم وترحلوا  
فها أنا ذا واقف أبكى على نفسي... ولمسات الفرزدق بكى عليه جريروثائه ،  
فقال له : أبعد تلك العداوة فقال : لم أر اثنين بلغا الغاية ومات أحدهما إلا ولحقه  
الآخر عن كذب ، فكان كذلك... وقال سيدنا رسول الله : لا تظهر الشامة لأخيك  
فيما فيه الله وبيبتك - أقول : يبدو أن الشامة - وهي أن تفرح بالبليّة تنزل بمن  
يُعاديك - من الغرائز الإنسانية اللئيمة ، ومن ثم لم يثمه سيدنا رسول الله عن  
كونها - وجودها - وإنما نهى عن إظهارها ، لأن ذلك هو الذي في استطاعة المرء ،  
مثلها مثل الحسد والظن والطيرة ، ولذلك ورد في الأثر أيضاً : إذا ظننتم فلا  
تحققوا ، وإذا حسدتم فلا تبغوا ، وإذا تطيرتم فأنصوا ، وعلى الله فتوكلوا ..  
يقول صلوات الله عليه : إذا حسدتم : أي تمنيت زوال نعمه الله على من  
أنعم عليه فلا تتعدوا وتفعلوا ما يقتضيه هذا الخلق الذميم ، وإذا ظننتم سوءاً  
بمن ليس محلاً لسوء الظن به فلا تتحققوا ذلك باتباع وإريده والعمل على  
مقتضاه ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ،  
والظن أكذب الحديث : ومن أساء الظن في غير موضعه دلّ على عدم

استقامته في نفسه كما قال المتنبي :

إذا ساءَ فَعَلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمٍ  
أما من كانَ مَظَنَّةً لِلظَّنِّ، بأن كان رجلاً شريفاً فالحزم سوء الظن  
والاحتراس والحذر، ثم قال صلوات الله عليه : وإذا تشاءمتم بشيء فامضوا  
طَيِّبَتِكُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ خَاطِرُكُمْ لِذَلِكَ .... وسيمر عليك كل هؤلاء في كتاب  
طبائع المذمومة ... وما يتصل بما نحن فيه من الشتمات بالميت ما يروى :  
انه لما أتى عبد الله بن الزبير بخبر قتل مصعب أخيه احتجب أياماً، فُخِّبَ  
بمجيء قومٍ للتعزية، فقال : أكرهُ وجوهاً تُعزى ألسنتها وتشمّت قلوبها.

## لا عار بالموت

قالت ليلي الأخيلية :

لَعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى أَمْرِي إِذَا لَمْ تُصِبْهُ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ  
« المعار : المعايب والمسائب يقال : عارَه : إذا عابه ، وتعار القوم : عير  
بعضهم بعضاً »

## الموت نهاية كل حي

قال أبو بكر العنبري : كنتُ قاعداً في الجامعِ فمَرَّ بِي مَعْتَوَةٌ فَأَقْبَلَ  
عَلَيَّ وَقَالَ :

فَهَبْكَ مَلَكَتْ هَذَا النَّاسُ طَرَا وَدَانَ لَكَ الْعِبَادُ فَكَانَ مَاذَا  
أَلَسْتَ تَصِيرُ فِي الْحَدِّ وَيَحْوِي تُرَاثِكَ عَنْكَ هَذَا ثُمَّ هَذَا  
وقال الشاعر :

هَبْكَ قَدْ نَلْتَ كُلَّ مَا تَحْمِلُ الْأَرْضُ ضُفْ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا التَّيْنَةُ

وقال القائل :

لِدُوا اللَّوْتَ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ <sup>(١)</sup>

### وصية الميت

قالوا : كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ وَلَا تَجْعَلِ الرِّجَالَ أَوْصِيَاءَكَ ، وَأَعْلَمْ صَدِيقَ

(١) جاء في الخزانة للإمام البغدادي ما خلاصته : هذا المصراع - لدوا للوت وابنوا للخراب - هو من أبيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب وهي :

عَجَبْتُ لَجَازِعِ بَاكِ مُصَابٍ      بِأَهْلٍ أَوْ حَبِيبِ ذِي اكْتِثَابِ

شَقِيقِ الْجَبِيبِ دَاعِيَ الْوَيْلِ جَهْلًا      كَأَنَّ الْمَوْتَ كَالشَّيْءِ الْعُجَابِ

وَسَوَّى اللَّهُ فِيهِ الْخَلْقَ حَتَّى      نَسِيَ اللَّهَ عَنْهُ لَمْ يُحَابِ

لَهُ مَلِكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ      لِدُوا لِلْوَتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ

، نبي الله : مفعول مقدم ليحاج بمعنى يخص ، قال : ورأيت في جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال - وأورد البيت الذي أوردناه ، ثم قال : ولسابق البربري في هذا المعنى :

فَلِلْوَتِ تَغْدُو الْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا      كَمَا لَخَرَابِ الدَّارِ تُبْنِي الْمَسَاكِينَ

هذا : وأما اللام في قولهم للوت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة ، مثلها مثل قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزحشمي : والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لاجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد . انتهى ... وسابق البربري : هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالى بني أمية ، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وله أشعار حسنة في الزهد وليس منسوباً إلى البربري وإنما البربري لقب له ، والسخال في بيته المذكور : جمع سخله وهي ولد الشاة من الضأن والمعز ، وقد أقام الظاهر مقام الضمير في المصراع الثاني إلا أنه باللفظ المرادف إذ الأصل : كما تبني المساكن لخرابها .

الذى يقول :

ولا يُغْرُرْكَ مِنْ أُوصَى إِلَيْهِ فَقَصْرُ وَصِيَّةِ الْمَرْءِ الضَّيَاعُ  
« قَصْرُهُ وَقَصَارَاهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا : أَى آخِرِ أَمْرِهِ وَغَايَةِ جَهْدِهِ هُوَ أَنْ يَفْعَلَ  
كَذَا » ... وقال مالك بن ضيغم : لما احْتَضَرَ أَبِى قُلْنَا لَهُ : أَلَا تُوصَى ؟ قَالَ :  
بَلَى ، أُوصِيكُمْ بِمَا أُوصَى بِهِ لِبَرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ : « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى  
لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » ، وَأُوصِيكُمْ بِصَلَةِ الرَّحْمِ وَحُسْنِ  
الْجَوَارِ وَفُتْلِ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَادْفِنُونِى مَعَ الْمَسَاكِينِ ...  
وقيل لَهَرَمِ بْنِ جَبَّانَ : أَوْصِ ، فَقَالَ : قَدْ صَدَقْتَنِي نَفْسِي فِي الْحَيَاةِ ، مَا لِي  
شَيْءٌ أُوصَى فِيهِ ، وَلَكِنْ أُوصِيكُمْ بِخَوَاتِيمِ سُورَةِ النِّحْلِ <sup>(١)</sup> ...

### إنكارهم وصية الميت بما ليس له

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى صلى الله عليه  
وسلم يعُودُنِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا ،  
قَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ <sup>(٢)</sup> ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أُوصَى بِمَا لِي كُلُّهُ ؟ قَالَ :  
لَا ، قُلْتُ : فَالْشَّطْرُ ؟ قَالَ : لَا ، قُلْتُ : التُّلْتُ ؟ قَالَ : فَالتُّلْتُ ، وَالتُّلْتُ  
كَثِيرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ فِي  
أَيْدِيهِمْ ، وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ ، حَتَّى اللَّقْمَةُ تَرْفَعُهَا إِلَى رِفَى  
أَمْرَانِكَ ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُبْضَرَ بِكَ آخَرُونَ ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا  
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .

(٢) هو سعد بن خولة وعفراء أمه ، ويلاحظ أن قول سعد : وهو يكره الخ  
التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمر عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنةٌ . . . رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم  
« وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لما كان سيدنا رسول الله بمكة في  
حجة الوداع ذهب إلى سعد بن أبي وقاص - وهو الصحابي الجليل الذي  
هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهد  
بدرًا والمشاهد كلها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الثورى الستة  
الذين رشحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر في فتح العراق ،  
ثم مات بقصره في العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كفَّ بصره  
رضي الله عنه - أقول : لما كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعوده لمرض  
اشتدَّ به حتى أشفَى على الموت ، وكان سعد يكره أن يموت بالأرض التي  
هاجر منها - مكة - كما مات سعد بن خولة <sup>(١)</sup> فلما سمع الرسول اسم سعد  
ابن خولة من ابن أبي وقاص ترَّحم عليه ، وكان لسعد بن أبي وقاص إذ ذاك  
ابنةٌ واحدة <sup>(٢)</sup> ثم قال سعد لسيدنا رسول الله - كما جاء في بعض الروايات -  
إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولِي ابنةٌ واحدةٌ ، أفأوصي  
بمالٍ كُلِّه ؟ قال الرسول : لا ، قل : أفأوصي بالنصف ؟ قال : لا ، قال :  
أفأوصي بالثلث ؟ قال : فالثُلُثُ توصي به ، والثلث كثير ، ثم قال الرسول :  
- مَبِينَا عن الحكمة في ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليل : إِنَّ تَرَكَ  
وَرَثَتِكَ أَغْنَاءَ خَيْرٌ مِنْ تَرَكَهُمْ فَقَرَاءَ يَمُدُّونَ أَكْفَهُمْ إِلَى النَّاسِ مُسْتَجِدِينَ . .

(١) من المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرًا وقد توفى بمكة في حجة الوداع  
وأمه عفراء كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرًا كما  
قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنًا واثنتا عشرة بنتًا

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجته أو ولده أو أقاربه أو خدّمه صدقة ولو كان قليلاً، حتى اللقمة يرفعها إلى فم امرأته، يريد صلوات الله عليه: أن المرء إن استقل أمر الوصية بالثلث أو مادونه فليستكثره بالإِنفاق، والأقربون أولى بالمعروف، فإن امتدت به الحياة فليستك هذا الطريق، ثم رجا له الرسول أن يبرأ وتطول حياته ويرتفع شأنه حتى يلتفع به أناس. ويستضرّ به آخرون، وقد تحقق هذا كله حتى عزّ به الإسلام. هذا الوصية بالثلث فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث «راجع كتب الفقه»... وعن أبي هريرة: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدّق وأنت صحيحٌ حريصٌ تأملُ الغني وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا... وفي الأثر أيضاً: مثلُ الذي يُعتق ويتصدق عند موته، مثل الذي يهدي إذا شَبِع... وقال بعض الصالحين عن بعض المترفين: يعضون الله في أموالهم مرتين، يبتخلون بها وهي في أيديهم - يعني في الحياة - ويسرفون فيها إذا خرّجت من أيديهم - يعني بعد الموت.

### من أوصى بِشَرٍّ وكان قاسياً

لما حضرت الحُطَيْمَةَ الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مُليكة: أوص؛ فقال: وَيْلٌ للشَّعْر من رَاوِيَةِ السُّوء؛ قالوا: أوص رحمك الله يا حُطَيْمَةُ قال: مَنْ الذي يقول:

إذا أَنْبَضَ<sup>(١)</sup> الرامون عنها تَرَنَّمَتْ تَرَنِّمٌ تَكَلَّى أو جعّتها الجنانزُ؟

(١) أنبض القوس وأنضها: جذب وترها لتصوت

قالوا : الشَّاهُخ ؛ قال : أبلغوا غطفان أنه أشعرُ العرب ؛ قالوا : وَيَحْك !  
أهذه وصية ! أَوْص بما ينفعك ! قال : أبلغوا أهلَ ضَابِي<sup>(١)</sup> أنه شاعرُ  
حيث يقول :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ  
قالوا : أَوْص ويحك بما ينفعك ! قال : أبلغوا أهلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أنه  
أشعرُ العرب حيث يقول :

فِيَالِكَ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَاهُ بِكَلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيذْبُلِ<sup>(٢)</sup>  
قالوا : اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ عَنْكَ هَذَا ؛ قال : أبلغوا الْأَنْصَارَ أَنَّ صَاحِبَهُمْ<sup>(٣)</sup>  
أشعرُ العرب حيث يقول :

يُنْقَشُونَ حَتَّى مَاتَهُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ  
قالوا : هذا لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، فَقُلْ غَيْرَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؛ فقال :  
الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلْبُهُ إِذَا آرَتْنِي فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ  
زَلْتُ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ يَرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ<sup>(٤)</sup>  
قالوا : هذا مِثْلُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؛ فقال :

قَدْ كُنْتُ أَحْيَانًا شَدِيدَ الْمُعْتَمَدِ وَكُنْتُ ذَا عَرَبٍ<sup>(٥)</sup> عَلَى الْخَصْمِ أَلَدِّ

- (١) هو ضَابِي بن الحارثي البرجمي الشاعر من بني تميم  
(٢) مَنْ معلقة ، ومغار الفتل : محكم ، وهو اسم مفعول من أغار الجبل  
لإغارة : شد قتله ، ويذبل : جبل  
(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت  
(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه عطفا على  
قوله « يعربه » ،  
(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده



﴿ قَوَّرَدَتْ نَفْسِي وَمَا كَادَتْ تَرِدُ ﴾<sup>(١)</sup>

قالوا : يا أبا مُلَيْكَة ، ألك حاجة ؟ قال : لا والله ، ولكن أجزع على المديح الجيّد يُمدّح به من ليس له أهلا . قالوا : فمن أشعر الناس ؟ فأومأ بيده إلى فيه وقال : هذا الجَحِيرُ إذا طمِعَ في خير (يعنى قمه) واستعبرَ بأكيا ؛ فقالوا له : قل لا إله إلا الله ؛ فقال :

قالت وفيها حَيْدَةٌ وَذُعْرُ عَوْذُ رَبِّي مِنْكُمْ وَحُجْرُ<sup>(٢)</sup>

فقالوا له : ما تقول في عبيدك وإمائك ؟ فقال : هم عبيدٌ قنّ ما عاقب الليلُ النهارَ ؛ قالوا : فأوصِ للفقراء بشيء ، قال : أوصيهم بالإلحاح في المسئلة فإنها تجارةٌ لا تبورُ ، وأسْتُ المسئول أضيّق<sup>(٣)</sup> . قالوا : فما تقول في مالك ؟ قال : للأثني من ولدي مثل حظ الذكر . قالو ليس هكذا قضى الله جلّ وعزّ لهنّ ، قال : لكُنّي هكذا قَضَيْتُ . قالوا : فما توصي لليتامى ؟ قال : كلوا أموالهم وانكحوا أمهاتهم ؛ قالوا : فهل شيء تعهّد فيه غيرُ هذا ؟ قال : نعم ، تحمّلوني على أتانٍ وتتركوني راكبتها حتى أموت ، فإن الكريم لا يموت على فراشه ، والأتانُ مَرَكَبٌ لم يمت عليه كريمٌ قط ؛ فحملوه على أتانٍ وجعلوا يذهبون به ويحيثون عليها حتى مات وهو يقول :

(١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشرف عليه وإن لم يدخله ولعله يريد من الورد : الإشراف على الموت

(٢) حيدة : من حاد عن الشيء إذا صد عنه أو تغير خوفًا منه ، وحجر : أى دفع ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له ، (بالضم) : أى دفعا

(٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استك أضيّق من أن تفعل كذا ، ويقال للجماعة أتم أضيّق أستاذها من أن تفعلوا كذا .

لأحدُ الأُمِّ من حُطية هجا بليية وهجا المَريّة  
\* من كُومِه ماتَ على قُريّة \*

« المريه : تصغير مَرّة - امرأة - يريد : زوجته ، والفريه يريد الفراء  
أى الحمار »

### نهيهم عن الإفراط فى البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابية الحَضَرَ فسمعت بُكاءً من دار قتالت : ما هذا ! أراهم من  
رَبِّهم يَسْتَغِيثُونَ ، ومن استرجاعه يَتَضَجَّرُونَ ، ومن جزيل ثوابه يَتَبَرَّون ...  
وقال أبو سعيد البلخي . مَنْ أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ فَأَكْثَرَ الْغَمَّ جَعَلَ اللَّهُ عَقُوبَتَهُ  
غَمًّا مِثْلَهُ ، قال الله تعالى : فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا ... الآية ..  
وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه  
وسلم : ليس مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ...  
« ودعا بدعوى الجاهلية : أى من نحو قولهم : وأبناه ، وأُمّاه ، وأولاده ،  
وامصيتاه ، ونحو ذلك من ضروب النياحة والثدبة ... ، أما البكاء والجزع  
دون إفراط فُرِخَصَّ فيه ، حدث أنس بن مالك قال : دَخَلْنَا عَلَى أَبِي سَيِّفٍ  
الْقَيْنِ <sup>(١)</sup> - وَكَانَ ظَنُرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ <sup>(٢)</sup> ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمَ  
يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَعَمَلَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ تَذَرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضع إبراهيم بن سيدنا  
رسول الله . والقين : الحداد

(٢) الظئر : المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ! فقال : يا ابن عوف ، إنها رخصة ، ثم أتبعها بأخرى — أى أتبع الدمعة الأولى بأخرى — وقال صلوات الله عليه : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى الله ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ... قوله صلوات الله عليه : ولا نقول إلا ما يرضى الله وفي رواية : ولا نقول ما يسيخط الرب : أى من النياحة والصراخ وما إلى ذلك مما يوجب سخط الله عز وجل ، وقيل لأعرابي : اصبر فالصبر أجر ، فقال : أعلی الله أتجلد ! والله : للجزع أحب إليه ، لأن الجزع استكانة والصبر قساسة ... وقيل لفيلسوف : أخرج الحزن من قلبك فقال : لم يدخله يا ذنى فأخرجه يا ذنى ... وأقرط امرأة في الجزع على آنيها ، فعوتبت في ذلك ، فقالت : إذا وقع حكم الضروريات لم يقع عليها حكم المكتسبات ، فأما تجزعى فليس في الطاقة صرفه ، ولا في القدرة منعه ، ولي عذرك للضرورة ، فإن الله تعالى يقول : فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ...

### في البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضى الله عنه : كنت إذا أصابتنى مصيبة وأنا شاب لا أبكى ، وكان يؤذيني ذلك ، حتى سمعت أعرابيا يندب :  
لعلَّ انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي شجى البلابل  
فسأله لمن الشعر ؟ فقال : لذي الرمة ، فكنت إذا أصبت بكيت ،  
فاسترحت ....

### ضعف بذية الإنسان

سئل جالينوس عن الانسان فقال : سراج ضعيف ، وكيف يدوم ضوءه

بين أربع رياح ١ » يعنى بالسراج : رُوحه ، وبالرياح الأربع : طبائعه<sup>(١)</sup> ،  
وقال الشاعر لمبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئه يحورُ رَمَاداً بعد إذ هو ساطعُ  
كل شيءٍ تغير من حال إلى حال فقد حارَ يحور حورا ، وقال أفلاطون :  
إذا كانت الطينة فاسدةً والبينة ضعيفةً ، والطبائع متنافيةً ، والعمرُ يسيراً ،  
والميتة صادقةً ، فالثقة باطلة ...

استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي  
موضعُ شبرٍ إلا وفيه طائنةٌ أو ضربةٌ أو رميةٌ ثم ها أنا ذا أموتُ على فراشي  
حتف أني ، فلا نامت أعينُ الجناء . وقال الشنفرى :

(١) قال وهب بن منبه : قرأت في التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم  
ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثته في ولده ، تمنى في أجسادهم وينمون  
عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه  
وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل  
التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح  
ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع أخرى ملاءم للجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ،  
ولا تقوم واحدة منهن إلا بالأخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب  
الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض ، فجعل مسكن اليبوسة  
في المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، ومسكن  
الحرارة في المرة الصفراء ، فأما جسد اعتدل فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل  
واحدة فيه وفقاً لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بنيته . فإن زادت واحدة  
منهن غلبت وقهرت من ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت  
وإن كانت ناقصة عنهن . ملن بها وعالونها ودخان عليها السقم من نواحيهن : لعلها  
عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهم .

وَلَا تَقْبِرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ <sup>(١)</sup>  
وقال السموأل أو غيره :

وما مات منا سيّد حتف أنفه ولا طلّ منا - حيث كان - قتيل  
تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل  
« طلّ : أهدر دمه ، وقيل : أن لا يُثأّر به وتقبل ، ديته وقال أبو تمام :  
لَوْلَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا لَمَاتَ - إِذْ لَمْ يَمُتْ - مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ  
وقال آخر :

إِنَّ مَوْتَ الْفِرَاشِ ذُلٌّ وَعَارٌ وَهُوَ تَحْتَ السَّيْفِ فَضْلٌ شَرِيفٌ  
وقال :  
وَإِنِّي أَتَعَبُ مَيِّتٍ مِنْ يَمُوتُ بِدَاءِ  
وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى ، في « باب الشجاعة »

### تم الجزء الأول

من الذخائر والعبقریات

(٢) أم عامر وأم عمرو : كنية الضبع ، قال الراجز :

يَا أُمَّ عَمْرٍو أَبْشِرِي بِالْبُشْرَى مَوْتُ ذَرِيعٍ وَجَرَادٍ عَظْلَى  
وهم يزعمون أن الضبع من أحق الدواب : لأنهم إذا أرادوا صيدها يحىء الرجل  
إلى وجارها فيسد فيه بعد ما تدخله لئلا ترى الضوء فتحمل الضبع عليه فيقول لها :  
أبشري يا أم عامر بجراد عظمي وكر رجال قتلى . فتذل له حتى يلقمها ثم يجرها  
ويخرجها ، جراد عظمي : ركب بعضها بعضا كثرة ؛ وأصل العظام : الملازمة في  
السفاد من الكلاب والسياب والجراد ، وقولهم وكر رجال قتلى ، فإنهم يزعمون أن  
الضبع إذا وجدت قتيلًا قد انتفخ غرموله ألقت على قفاه ثم ركبته قال عباس بن مرداس :  
ولومات منهم من جرحنا لا أصبحت ضباع بأعلى الرقتين عرائسا

## فهرس

### الجزء الأول من الذخائر والعقريات

#### المقدمة

### الكتاب الأول

#### في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا

#### الباب الأول في البر والتقوى

#### البر وألوانه

معنى البر - عبقریاتهم في البر مطلقاً - من صفحة ٢ - ١٤

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقریاتهم في الآباء والأبناء

والأقارب - من بابات شتى

- بر الوالدين ١٤ - ١٨ - من أخبا البرة ١٨ - العقوق وأحوال  
العققة ١٨ - من أقوالهم في الأولاد المتخلفين ٢٥ - حق الولد على الوالد ٢٥ -  
احتجاج بعض العققة لعقوقهم ٢٦ - ذم الولد وقلة جدواه ٢٩ - الإشفاق  
على الأولاد ٣٠ - صلة الرحم ٣٦ - معاملة الخلفاء الراشدين لذوى قرباهم  
في التولية ٣٧ - حث الأقارب على التعاون ٣٨ - العطف على القريب  
والحمية ٤٢ - الشكوى من الأقارب ٤٣ - مظاهرة الاجنبى على القريب ٤٦ -  
علاج العداء الذى بين الأقارب ٤٧ - كلامهم في الإخوة ٤٧ و ٤٨ - قطيعة  
الإخوة ٤٩ - الناس تجاه البنات ٤٩ - ٥٢ - الخال والخثولة ٥٢ -  
مدعو القرابة البعيدة ٥٤ - تفاخرهم بالحسب وكرم المحتد ٥٥ - من يشبه أباه  
في علاه ابتناه ٥٦ - لا اعتداد بمن شرف أصله إذا لم يشرف بنفسه ٥٧ - اعتذار  
المتخلفين الأنذال عن تخلفهم عن آبائهم الاشراف ٥٨ - ذم من قصر عن  
آبائه ٥٨ - من لا يعتد بأبيه ٥٩ - الابن يجارى أباه ٥٩ - الاسلام بعد  
الشرف والحسب بالتقى ٦٠ - الدعوة - أى ادعاء الولد الدعى غير أبيه ٦٠ -  
الولد ينسل من الأقارب فيخرج ضاويًا ضعيفاً ٦٢ - الرضاة ٦٣

## الإحسان

وعبقریاتهم فی الجود واصطناع المعروف وقری الاضياف

وذم البخل والسؤال

تحفی الاسلام بالإحسان ٦٤ - الناس مجبولون علی البخل ٦٥ - مدح الجود  
وذم البخل ٦٨ - طرفة لجندی مع معن بن زائدة ٧٦ - حثهم علی الجود حتی  
فی حالة العسر ٧٨ - واجبات ذوی الجاه ٨١ - عبقرية أحمد بن أبی دواد فی  
اصطناع المعروف ٨٥ - رسالة للجاحظ ینضح فیها عن الجود ٩٥ - كلمة علوية  
لسیدنا رسول الله فی الحث علی الإحسان ١٠٦ - هیات أن آییت مبطاناً: لسیدنا  
علی ١٠٩ - كان الخلفاء الراشدون مثلاً علیاً فی الرغبة عن شهوات الحياة  
الدنيا ١١٠ - عظمة الفاروق فی زهده وتقواه ١١٢ - عبقریاتهم فی الجود من  
بابات شتی ١١٣ - قری الاضياف ١١٨ - وصية بنخیل لابنه ١٢٤ - بنخیل  
یبیع القرى ١٢٨ - عبقریاتهم فی قری الاضياف ١٢٩ - محادثة الضیف  
والحدیث علی الطعام ١٣٢

السؤال وعبقریاتهم فیہ من جمیع نواحيه

ذم السؤال ١٣٥ - عبقریاتهم فی آداب السؤال واستدجاح الحوائج ١٣٩ - المستول  
تجاه السائل ١٤٥ - طلب الكثير والرضا بالقليل ١٤٨ - من یسأل حاجة  
یرعها صغيرة ١٤٨ - الحث علی الصبر والناة فی طلب الحاجات ١٤٨ -  
العطية لا تجدی فی غیر وقتها ١٤٩ - التأسف علی الحرمان ١٥٠ - تعريضهم بمن  
خیبهم ١٥٠ - الهدایا والرشی مدرجة للنجاح ١٥٠ - قطع العادة ١٥١ -  
شکری العافین من تفضیل بعضهم علی بعض ١٥٢ - بلاغة المکدین ١٥٢ -

حسن الخلق

حسن الخلق ١٥٤ - نبیهم عن سوء الخلق ١٥٧ - صعوبة تغییر الطباع ١٥٨ -  
مداراة الناس ١٥٩

## التقوى

- التقوى ١٦١ - معنى التقوى ١٦٢ - الحكمة ١٦٥ - عبقریاتهم  
 في التقوى ١٧٠ - كلمة في التوكل ١٧١ - التقوى مع الجهل ١٧٧ -  
 التماوت والإفراط في الخشوع ١٧٧ - قلة اليقين في الناس ١٧٨ - إصلاح  
 الضمير ١٨٠ - احتمال المكارة في العاجل رجاء المسار في الآجل ١٨١ -  
 مراعاة الدين والدنيا معاً ١٨٢ - الجمع بين الرجاء والخوف ١٨٣ - العبادة  
 لاطلباً للثواب ولا خوفاً من العقاب ١٨٤ - الرياء ١٨٦ - التوبة ١٨٨ -  
 الاستغفار ١٩٢ - عبقریات شتى في الخوف والتقوى ١٩٣

## الباب الثاني

### في الشكر والحمد والثناء

- معنى الشكر ١٩٨ - حثهم على الشكر ٢٠١ - العجز عن الشكر ٢٠٤ -  
 من لا تخفى إياديه ٢٠٦ - الشكر بقدر الاستحقاق ٢٠٦ - من لم يردعه خوفه  
 عن الشكر ٢٠٧ - شكر من هم بإحسان ولم يفعل ٢٠٨ - ثقل الشكر  
 والحمد ٢٠٨ - تفضيلهم الثناء على العطاء ٢٠٨ - تسهيل القول على الشاكرين  
 بتوافر ما يشكر عليه ٢١٠ - حب المنعم أن يرى أثر إنعامه ٢١١ - لا يمدحون  
 إلا إذا أعطوا ٢١٣ - حثهم على الشكر ولو لم يكن على دينهم ٢١٥ -  
 استحياؤهم من المديح ٢١٥ - من يمدح نفسه ٢١٦ - نهيمهم عن المدح قبل  
 الاختبار ٢١٧ - عبقریات شتى في الشكر ٢١٧

## الباب الثالث

### في الصبر وعبقریاتهم فيه وفي الدنيا وفي المرض وفي هاذم اللذات

- ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ٢٢١ - عبقریاتهم في الصبر ٢٢٢ - عود  
 إلى أسباب الحزن ٢٢٩ - حثهم على الاستعداد للمصائب كي نخف وطأتها ٢٣٠ -  
 الغم يورث السقم والحرم ٢٣١ - الحزن يبلى بتقادم العهد ٢٣٢ - التأسي بمن



مصابه كصاحب المصائب وعكس ذلك ٢٣٤ - عروة بن الزبير مثل أعلى للصبر ٢٣٥  
 مطرح المعلوم ٢٣٨ - عبقرياتهم في الدنيا وأنها دار محن ٢٤٥ - أسماء  
 الدنيا ٢٤٦ - قلة لبث الإنسان في الدنيا ٢٤٨ - قلة متاع الدنيا ٢٤٨ - الماضي  
 والحاضر والمستقبل ٢٤٩ - تحذيرهم من تضييع الأيام ٢٤٩ - الأيام تهدم  
 الحياة ٢٥٠ - البقاء في الدنيا سبب الفناء ٢٥١ - قرح الدنيا مشوب بالترح ٢٥٣  
 الدنيا هوم وغوم ٢٥٣ - النقصان بعد التمام ٢٥٥ - الدنيا لا يدوم فيها فرح  
 ولا ترح ٢٥٦ - الدنيا غزارة ٢٥٧ - حب الدنيا على الرغم من عيوبها ٢٥٨ -  
 الدنيا تضر بحبها ٢٥٨ - بنو الدنيا أغراض لضروب المحن ٢٥٩ - الأيام تمضي  
 في تراذلها ٢٦٥ - حدم ماضي الزمان وذتهم حاضره ٢٦٠ - إنكار ذم  
 الدهر ٢٦٣ - المسرة من حيث نخشى المضرة ٢٦٤ - الفرج بعد الشدة ٢٦٦  
 - من زال كرب ففسى صنع الله ٢٦٦ - لا تعرف النعمة إلا عند  
 فقدها ٢٦٧ - فضل العافية وسلامة الدين ٢٦٧ - عبقریات شتى في  
 الدنيا ٢٦٨ - عبقریاتهم في الموت ٢٧٣ - أسماء الموت ووصفه ٢٧٣ - تعظيم أمر  
 الموت ٢٧٦ - حثهم على تصور الموت ٢٧٧ - استدلال الانسان على موته  
 بمن مات قبله ٢٧٨ - الاعتبار بمن مات من الكبار ٢٨٠ - من مات فقد تهاى  
 في البعد ٢٨٤ - غفلة الناس عن الموت ٢٨٥ - لا ينجو من الموت أحد ٢٨٥ -  
 الموت لا يتجزأ منه بشيء ٢٨٧ - موت الفجأة والصحيح يموت ٢٩١ - كل  
 إنسان معرض لموته أو موت أحبته ٢٩١ - جهل الانسان بوقت موته ٢٩٢  
 الموت يسوق بين الأفاضل والأراذل ٢٩٢ - انقضاء ناس بعد ناس ورجوعهم  
 إلى الموت ٢٩٤ - من يخاف الموت ولا يستعد له ٢٩٦ - من أمر ذويه بالبكاء  
 عليه ٢٩٧ - من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه ٢٩٨ - من امتنع من  
 التوبة عند موته ٢٩٩ - من يحبون الموت ٣٠٠ - تمنى الموت ٣٠١ - الحياة  
 لا تمل ٣٠٢ - تسلى الناس عن مات ٣٠٣ - سهم المنايا بالذخائر مولع ٣٠٤  
 إنكارهم النجاة في الموت ٣٠٥ - لا عار بالموت ٣٠٧ - الموت نهاية كل  
 حي ٣٠٧ - وصية الميت ٣٠٩ - إنكارهم وصية الميت بما ليس له ٣٠٩ -  
 من أوصى بشر وكان قاسياً حين احتضاره ٣١٢ - نهيم عن الافراط في البكاء  
 وإظهار الجزع على الأموات ٣١٤ - ضعف بنية الانسان ٣١٥ - استكافهم  
 من أن يموت المرء حتف أنفه ٣١٥

## تصحیحات واستدراكات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء

المطبعية التي نلبي إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فأها	فأها
٢٣	٣	إلا قول خالد لأبي ذؤيب « أنظر الأغاني فقد جاء فيها	
		« ج ٦ ص ٢٧٥ » أن البيت لأبي ذؤيب وهناك بقية	
		الآيات وهي قصيدة جميلة	
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فرعت	فرعت
٤٩٣	٤٣	وقوله ولم تك منهم الخ	وقوله لست منهم يروى
		« إذا كنت في قوم عدى ولم تك منهم »	
٥	٤٣	فأما قوم عدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	في الغبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن برد
١٢	٧٠	وتهلح	وتفرق
٢	٧١	يئس	يئس
١٢	٧٤	مع غير	مع غير
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أيسرت غير مُقتر

سطر	صفحة	خطاً	صواب
	٧٨	» سقط في هذه الصفحة شرح لقول الشاعر سطر ١٦ :	
		على ماخيات ، وهذا هو الشرح : على ماخيلت : أى	
		شبهت ولونت ، يريد : على أى حال ،	
٦	٨٤	والجود	والجود
١٥	١١٩	تهدده	تهدده
		» أى تصوت كما يهدد البعير ويهدر ،	
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صقيل
٥	١٩٥	بخويرة	بخويرة
		» ويوضع بعد كلمة تصغير	
		خاصة في الشرح هذه الزيادة :	
		قال الزمخشري : الخويصة	
		تصغير خاصة بسكون الياء	
		لأن ياء التصغير لا تكون إلا	
		ساكنة وجوز التقاء الساكنين	
		فيها أن الأول حرف لين	
		والثاني مدغم ،	
١٥	١٩٦	وكل شيء	وكل شيء
١٩	٢٠٢	ما أوليتها	ما أوليتها
٢٠	٢٠٠	قول البحترى	قول إبراهيم بن العباس الصولي
١٩	٢٠٤	منكشفاً	منكشفاً

— ٣٢٤ —

سطر	صفحة	خطاً	صواب
٢	٢٢١	وفي هادم اللذات	وفي هادم اللذات وفي المرض
٢٠	٢٢٢	ونضوا	ونضوا ونضوا
١٣	٢٢٩	مُسْتَهْدَف	مُسْتَهْدَف مُسْتَهْدَف
١٨	٢٥٥	والضيف مُرْتَحِل	والضيف مُرْتَحِل
١٩	٢٥٥	ثم ترده	ثم ترده
٦	٢٧٠	أقول لعله	أقول لعله قوله زراع... ألبت لعله
٢	٢٨٣	لا يَلْبِثُ القُرْناء	لا يَلْبِثُ القُرْناء
١٣	٢٨٨	ويروى تخونه	ويروى : تخونه
١٥	٣٠١	خباءك	حياءك







